

# قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

## الشرق الأقصى الصين

ترجمة  
محمد بدران

الجزء الرابع من المجلد الأول



تونس



بيروت

# فهرس

## الشرق الأقصى

### ١ - الصين

الموضوع	الصفحة
تاريخ مسلسل للحضارة الصينية	٥
الباب الثالث والعشرون : عصر الفلاسفة	٩
الفصل الأول : نشأة الفلسفة	٩
١ - قدر الصينيين	٩
٢ - الدواة الوسطى الزاهرة	١١
وصف البلاد الجغرافي - الجنس الصيني - ما قبل التاريخ	
٣ - القرون الغابرة المجهولة	١٤
قصة الخلق عند الصينيين - بداية الثقافة - الخمر وعصى الأكل - الأباطرة الأفاضل - ملك كافر	
٤ - الحضارة الصينية الأولى	١٩
عصر الإقطاع في الصين - وزير قدير - النضال بين الماديات والقوانين - الثقافة والقوضى - أغانى الحب في كتاب الأغاني	
٥ - الفلاسفة قبل كنفوشيوس	٢٦
كتاب التفيرات - البيانج والين - عصر الاستنارة الصينية - تنج شي - سقراط الصين	
٦ - المعلم القديم	٣٠
لو ذره - الدو - رجال الفكر في الحكومة سحف القوانين - مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار القانون المسيحي - صورة للرجل الحكيم - التقاء لو دزه وكنفوشيوس	
الفصل الثاني : كنفوشيوس	٤٥

الموضوع	الصفحة
١ - الحكيم يبحث عن دولة ... .. . تلاميذه مولده وشبابه - زواجه وطلاق زوجته - طلائمه وطرائفه - مظهره وأخلاقه - السيدة والنمر - تعريف الحكومة الصالحة - كنفوشيوس في منصبه - سنو التجوال - سلوى الشينوخة	٤٩
٢ - الكتب التسعة .. . . . . .	٥٢
٣ - لا أدريه كنفوشيوس .. . . . . . هتامة في المنطق - الفلاسفة الصبيان - دستور للحكمة	٥٦
٤ - طريقة الرجل الأعلى .. . . . . . صورة أخرى من صور الحكيم - عناصر الأخلاق - القاعدة الذهبية	٥٩
٥ - سياسة كنفوشيوس .. . . . . . سيادة الشعب - الحكم بالقدوة - عدم تركيز الثروة - الموسيقى والأخلاق - الاشتراكية والثورة	٦٤
٦ - أثر كنفوشيوس في الأمة الصينية .. . . . . . العلماء الكنفوشيون - انتصارهم على القانونيين - عيوب الفلسفة الكنفوشية - جدة مبادئ كنفوشيوس	٧٠
الفصل الثالث: اشتراكيون وفوضيون .. . . . . .	٧٠
١ - مودى الغيرى .. . . . . . منطلق قديم - مسيحي - وداعيه سلام	٧٣
٢ - يانج چو ، أنانى .. . . . . . جبرى أبيقورى - الدفاع عن الشر	٧٧
٣ - منشيس ، مستشار الأمراء .. . . . . . أم نموذجية - فيلسوف بين الملوك - هل الناس أختيار بالسليقة - الضريبة الفردية - منشيس والتبوعيون - ياعث الكسب - حق الناس في أن يثوروا	٨٤
٤ - شون دزه ؛ واقعى .. . . . . . النفس البشرية أمارة بالسوء - ضرورة القوانين	٨٦
٤ - چونج دزه ؛ مثالى .. . . . . . الرجوع إلى الطبيعة - المجتمع اللاحكومى - طريقة الطبيعة - حدود الذهن - تطور الإنسان - مشكل الأزرار - أثر الفلسفة الصينية في أوروبا	

الباب الرابع والعشرون : عصر الشعراء

الفصل الأول : بسمرك الصين ... .. ٩٧

عهد الدول المتنازعة - انتحار تشو بينج - شي هونج دي -  
يوحد الصين - للصور الكبير - إحراق الكنب -  
إخفاء سي هونج دي

الفصل الثاني : تحارب في الاشتراكية ... .. ١٠٣

الموضى والفقير - أسرة هان - إصلاحات وو دي -  
ضريبة الدخل - مشروعات وازح مانج الاقتصادية -  
القضاء عليها - غزوات التتار

الفصل الثالث : مجد تانج ... .. ١٠٩

الأسرة المالكة الجديدة - خطة ناي دزونج في تقليل  
الجرائم - عصر رخاء - « الإمبراطور النابه » -  
رواية يانج - حوى - في - ثورة آن لو - شان

الفصل الرابع : الملاك المنفى ... .. ١١٥

قصة لي بو - شانه وبسالته وحبه - على القارب الإمبراطورى -  
لإنجيل الكرم - الحرب - تجوال لي بو - في السجن - الشعر الخالد

الفصل الخامس : من خصائص الشعر الصينى ... .. ١٢٦

التعليم الطليق - التصوير - كل قصيدة صورة  
وكل صورة قصيدة - العاطفية - كمال السكل

الفصل السادس : دو فو ... .. ١٢٩

داوتشين - بو - جوى - قصائد لشفاء الملاريا - دونو  
ولى بو - رؤيا الحرب - أيام الرخاء - الإملاق - الموت

الفصل السابع : النثر ... .. ١٣٥

وفرة الآدات الصينية - الروايات الغرامية - الأنايخ -  
زوماتشين - المقالات - هان - يو على عظام بوذا

الفصل الثامن : المسرح ... .. ١٤٢

منزله الوضعية في الصين - منشؤه - المسرحية -  
النظارة - المشئون - الموسيقى

الباب الخامس والعشرون : عصر الفئانين ... .. ١٤٨

الفصل الأول : النهضة في عهد أسرة سونج ... .. ١٤٨

١ - اشتراكية وانج آن شي ... .. ١٤٨

أسرة سونج - رئيس وزراء متطرف - طريقة في  
هلاج التمثل - تنظيم الصناعة - قوانين الأجور

الموضوع	الصفحة
والأثمان - تأمين التجارة - مشروعات الدولة للتأمين من التمثل والفقر والشيخوخة - المناصب العامة بالاتحان - هزيمة وانج آن شى	
٢ - إحياء العلوم ... .. ازدياد عدد العلماء - الورق والخبر في الصين - خطوات في سبيل اختراع الطباعة - أقدم كتاب معروف - العملة الورقية - الحروف المتنقلة - مجموعات الرسائل ، ومعاجم اللغة والموسوعات	١٥١
٣ - بحث الفلسفة ... .. جوشي - وانج يانج منج - ما وراء الخبير والشر	١٥٩
الفصل الثاني : البرنز واللك واليشب ... .. منزلة الفن في الصين - المنسوحات - الأثاث - الحلبي المراوح - صنع الملك - قطع حجر اليشب - روائع فنية في البرنز - النحت الصيني	١٦٦
الفصل الثالث : المعابد (اليجودات) والتصوير ... .. العمارة الصينية - برج تانكج الخزفي - مجودا بيچج اليشى - هيكل كنفوشيوس - هيكل السماء والمجى - قصور كوبلاى خان - بيت صدى - داخل البيت - لونه وشكله	١٧٩
الفصل الرابع : التصوير ... .. ١ - أساتذة فن التصوير الصيني ... .. جوركاى جيه أعظم مصور وأعظم فكه وأعظم أبه - صورة هان يو الصغيرة - المدرستان الإتباعية والابتدائية وانج واى - وو داو دزه - هو دزونج الإمبراطور الفنان - أساتذة عصر سونج	١٨٨
٢ - خصائص فن التصوير الصيني .. .. نبتة فن المنظور - الواقعية - الخط أسنى من اللون - الشكل إيقاع - التصوير بالإيحاء - العرف والقيود - أمانة الفن الصيني وإخلاقه	٢٠٢
الفصل الخامس : الحزف الصيني ... .. فن الحزف - صنع الحزف - تاريخه القديم - اللون الأخضر الحائل - الطلاء بالمينا - براعة هاوشى جيو - تقاسيم الطلاء - عصر كانج شى - عصر تشين لونج	٢٠٧

الموضوع	الصفحة
الباب السادس والشرون : الشعب والدولة	
الفصل الأول : نبذة تاريخية ... .. .	٢١٨
١ - ماركو پولو يزور كوبلاي خان ... .. .	٢١٨
رحالة لا يصدقون - يندق في الصين - جمال	
هانجتشان ورخاوها - قصور بيچنج - فتح	
المغول - چنكيز خان - كوبلاي خان -	
أخلافه وسواسته - نساؤه - ماركو الملايين	
٢ - أسرتا منج وچنج ... .. .	٢٢٧
سقوط المغول - أسرة منج - غزو المنشو - أسرة	
جنج - ملك مستنير - شين اونج يأبى قبول الإنكار الغريبة	
الفصل الثاني : الصينيون ولعهم ... .. .	٢٣٢
تعداد السكان - مظهرهم الخارجى - ملابسهم -	
خصائص اللغة الصينية - خصائص الكتابة الصينية	
الفصل الثالث : الحياة العملية .. .. .	٢٤٠
١ - في الحقول .. .. .	٢٤٠
فقر الزراع - الوسائل الاقتصادية - المحصولات -	
الشاي - الطعام - صبر أهل القرية	
٢ - في المتاجر .. .. .	٢٤٤
الحرف اليدوية - الحرير - المصانع - الطوائف -	
الجمالون - الطرق والقنوات - التجار - الائتمان	
والمقود - تجارب في العملة المتداولة - التضخم الناشئ من الطباعة	
٣ - المحترعات والعلوم .. .. .	٢٥٠
البارود - الألعاب النارية والحروب - نذرة المحترعات	
الصناعية - الجغرافية - الرياضيات - الطبيعة -	
فتح شوى - التلك - الطب - تدير الصحة	
الفصل الرابع . دين بلا كنيسة .. .. .	٢٥٦
الحرافات والتشكك - عبادة الطبيعة - عبادة السماء -	
عبادة الأسلاف - الكونفوشية - الدوية - لكسير	
الخواود - البوذية - التسمج الدينى والتمصوف -	
الإسلام - المسيحية وأسباب إخفاقها في الصين	
الفصل الخامس : حكم الأخلاق .. .. .	٢٦٥
ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصينى - الأسرة -	
الأطفال - العفة - الدعارة - العلاقات الجنسية قبل	
الزواج - الزواج والحب - الاقتصاد على زوجة واحدة	

وتعدد الزوجات - التسرى - الطلاق - إمبراطورة  
صينية - الحكم الأبوي للذكور - خضوع النساء  
للرجال - الخلق الصيبي

الفصل السادس : حكومة بثني عليها فلتير ... .. ٢٧٧

الفرد المغمور - الحكم الذاتي - القرية والإقليم - تراخي  
القائون - صرامة العقاب - الإمبراطور - الرقيب -  
المجالس الإدارية - الإعداد للمناصب العامة - الترشيح بالتعايم  
نظام الامتحانات - عيوبه - وفضائله

الباب السادس والعشرون : الثورة والتجديد ... .. ٢٨٨

الفصل الأول : الخطر الأبيض ... .. ٢٨٨

النزاع بين آسية وأوروبا - البرتغاليون - الأسبان -  
الهولنديون - الإنجليز - تجارة الأفيون - حروب الأفيون  
- فتنة ننج تاي - منج - حرب اليابان - محاولة تمزيق  
الصين - « الباب المفتوح » - الإمبراطورة الوليدة -  
إصلاحات كوانج شو - عزله - الملاكون - الغرامة الحربية

الفصل الثاني : حضارة تموت ... .. ٢٩٧

طلقة الغرامة الحربية - تشر بهم بالحضارة الغربية -  
أثرهم في تفكك الوحدة الصينية - عمل المبشرين -  
صون يات صن المسيحي - مغامراته في شبابه -  
التقاؤه بهونج جائج - تديره للثورة - نجاحهما -  
يوآن شي كاي - موت صون يات صن - الفوضى  
والنهب - الشيوعية - الشمال يهدأ - جيانج كاي  
شك - اليابان في منشوريا

الفصل الثالث : بداية عهد جديد ... .. ٣٠٦

التنير في القرية - وفي المدينة - المصانع - التجارة -  
اتحادات العمال - الأجور - الحكومة الجديدة - القومية  
واتباع الأساليب الغربية - إزال كنفوشوس عن عرشه  
مناهضة الدين - المبادئ الخلقية الجديدة - التحول في نظام  
الزواج - تحديد النسل - التعليم المشترك بين الذكور  
والإناث - « التيار الجديد » في الأدب والفلسفة - لغة الأدب  
الجديدة - هو شي - عناصر التدمير - عناصر التجديد .

## فهرس الخرائط والأشكال

الصفحة	الصورة
١	خريطة الشرق الأقصى
١٦٧	١ - علبة للحل من اللك الأزرق
١٦٩	٢ - ستار كانبج - شى المطل باللك
١٧٤	٣ - تمثال من البرنز لـجوان ين
١٨١	٤ - القصر الصنيق في بيننج
١٨٢	٥ - هيكل السماء في بيننج
١٩٠	٦ - صورة ملونة لثلاثة عشر إمبراطورا
١٩٨	٧ - صناعة الحرير
٢٠٠	٨ - منظر طبيعي
٢١٥	٩ - مزهرية عليها نقش





الشرق الأقصى

# الكتاب الثالث

## الشرق الأقصى

### الصين

يعرف الإمبراطور كيف يحكم إذا كان الشعراء أحراراً في قرض الشعر ،  
والناس أحراراً في تمثيل المسرحيات ، والمؤرخون أحراراً في قول الحق ،  
والموزراء أحراراً في إسداء النصيح ، والفقراء أحراراً في التذمر من  
الضرائب ، والطلبة أحراراً في تعلم العلم جهرة ، والأعمال أحراراً في مدح  
مهارتهم وفي السعي إلى العمل ، والشعب حرراً في أن يتحدث عن كل شيء ،  
والشيوخ أحراراً في تخطئة كل شيء .

من خطبة ألقاها دوق چو بين يدي الملك لي - وانج

حوالي عام ٨٤٥ ق . م (١)

## تاريخ مسلسل للحضارة الصينية(\*)

قصةا چونج - دو	قبل الميلاد	قبل الميلاد
كنفوشيوس نائب	٤٩٨	٢٢٠٥ - ٢٨٥٢ حكام أسطوريون
المشرف على الأشغال العامة في دوقية لو		٢٧٣٧ - ٢٧٣٧ فوشي
كنفوشيوس وزير الجرائم	٤٩٧	٢٦٩٧ - ٢٦٩٧ شن نونج
استقالة كنفوشيوس	٤٩٦	٢٥٩٧ - ٢٦٩٧ هوانج دي
عهد تجوال كنفوشيوس	٤٨٣ - ٤٩٦	٢٣٥٦ - ٢٢٥٥ ياو
الفيلسوف مودي	٤٥٠	٢٢٥٥ - ٢٢٥٥ شون
هدد الولايات المتنازعة	٤٠٣ - ٢٢١	٢٢٠٥ - ١٧٦٦ أسرة شياه
الفيلسوف يتنج چو	٣٩٦	٢٢٠٥ - ٢١٩٧ يو
الفيلسوف منشييس	٣٧٢ - ٢٨٩	١٧٦٦ - ١٨١٨ چيه جوا
الفيلسوف چونج - دزه	٣٧٠ (وُلد)	١١٢٣ - ١٧٦٦ أسرة تانج (وين)
الشاعر تشو بينج	٣٥٠ (توفى)	١٧٦٦ - ١٧٥٣ تانج
الفيلسوف تون - دزه	٣٠٥ (وُلد)	١١٩٤ - ١١٩٤ ووي - الإمبراطور الكافر
هان في (من كتاب المقالات)	٢٣٣ (توفى)	١١٥٤ - ١١٢٣ چوسين ، مثال الحبث
استيلاء شي هونج دي على الصين وتوحيد أجزائها	٢٢٢ - ٢٣٠	١١٢٢ - ٢٥٥ وو - وانج
أسرة لنشين	٢٥٥ - ٢٠٦	١١٢٣ ون وانج ( مؤلف كتاب التغيرات
شي هونج - دي	٢٢١ - ٢١١	١١١٥ - ١٠٧٨ تشنج وانج
« الإمبراطور الأول »		١١١٥ - ١٠٧٩ چوجونج ( مؤلف چو - لي ، أو شرائع چو)
٢٠٦ ق . م . - ب . م أسرة هان		٧٧٠ - ٢٥٥ عصر الإقطاع
١٧٩ ق . م . - ١٥٧ ق . م . ون - دي		٦٨٣ - ٦٤٠ جوانج چونج رئيس وزراء تشي
١٤٥ ق . م . (توفى) المؤرخ زوماتشين		٦٠٤ - ٥١٧ لَو - دَزَه ؟ -
١٤٠ - ٨٧ ق . م . ون - دي (الإمبراطور المصلح)		٥٥١ - ٤٧٨ كنفوشيوس
		٥٠١ كونفوشيوس كبير

(\*) كل التواريخ التي قبل ٥٥١ ق . م تقريبية ، وكل التي قبل ١٨٠٠ ب . م غير موثوق بصحتها .

بعد الميلاد	
٩٠٧	أرل دائرة معارف
	صينية عظيمة
١٠٦٩ - ١٠٧٦	حكم وانج آن - شي
	رئيس الوزراء الاشتراكي
١١٠٤ - ١١٠٦	لي لويج - مين ، الرسام
١٠٤١	بي شيج يصنع حروفا
	متنقلة
١١٠٠	جيووشى الرسام
١١٠١ - ١١٢٦	هواى دزونج الإمبراطور
	الفنان
١١٢٦	التتاريهون بيان لانج ؛
	( كايفينج ) عاصمة
	هواى دزونج ؛ نقل
	العاصمة إلى لينان
	( هانج تشاو )
١١٢٧ - ١١٧٩	أسرة زونج الجنوية
١١٣٠ - ١٢٠٠	چوشى الفيلسوف
١١٦١	أول ما عرف من
	استخدام البارود
	في الحروب
١١٦٢ - ١٢٢٧	چنكيز خان
١٢١٢	چنكيز خان يغزو الصين
١٢٦٠ - ١٣٦٨	أسرة يوان ( مغولية )
١٢٦٩ - ١٢٩٥	كوبلاى خان
١٢٦٩	ماركو پولو ، يغادر
	البنديقة في رحلته
	إلى الصين
١٢٩٥	ماركو پولو ، يعود إلى
	السنديقية
١٣٦٨ - ١٦٤٤	أسرة منج
١٣٦٨ - ١٣٩٩	تاى دزو
١٤٠٣ - ١٤٢٥	تشننج درو ( يونج لو )
١٥١٧	البرتغاليون في كاننون
١٥٧١	استيلاء الأسيان على
	جزائر الفلبين

بعد الميلاد	
٢٥ -	وانج مانج - الإمبراطور
	الاشتراكي
٦٧	دغول البوذية في الصين
حوالى ١٠٠	أول صانع معروف للورق
	في الصين
٢٠٠ - ٤٠٠	غزو التتار الصين
٢٢١ - ٢٦٤	عهد الممالك الثلاث
٢٢١ - ٦١٨	الأسر الصخرى
٣٦٥ - ٤٢٧	الشاعر داو تشين
٣٦٤	النقاش كوكاى تشى
٤٩٠ - ٦٤٠	عصر النحت البوذى العظيم
٦١٨ - ٩٠٥	أسرة تانج
٦١٨ - ٦٢٧	جودزو
٦٢٧ - ٦٥٠	تاى درونج
٦٥١ - ٧١٦	الرسام لي سو - شن
٦٩٩ - ٧٥٩	الرسام وانج واى
ولدحوالى ٧٠٠	الرسام وو داو - دزه
٧٠٥ - ٧٦٢	الشاعر لي يو
٧١٢ - ٧٧٠	الشاعر تو فو
٧١٣ - ٧٥٦	شوان دزونج (منج هوانج)
٧٥٥	فتنة أن لو - شان
٧٦٨ - ٨٢٤	هانج يو (كاتب المقالات)
٧٧٠	أقدم معارف من المطبوعات
	على القوالب ( الكلشيمات )
٧٢٢ - ٨٤٦	الشاعر بوچيو - ثى
٨٦٨	أقدم كتاب مطبوع باق
	إلى الآن
٩٠٧ - ٩٦٠	خمسة « أسر صغيرة »
٩٣٢ - ٩٥٣	طبع الكتب الصينية
	التقديمية على القوالب
٩٥٠	ظهور أوراق النقصد
	لأول مرة
٩٦٠ - ١١٢٧	أسرة سونج الشمالية
٩٦٠ - ٩٧٦	تاى دزو

بعد الميلاد  
المتحدة تستولى على  
جرائر القلبيين  
١٨٩٨ مراسم كوانج شو  
الإصلاحية  
١٩٠٠ ثورة الملاكين  
(الكسر)  
١٩٠٥ إلغاء نظام الامتحان  
لطالبى المناصب الحكومية  
١٩١١ الثورة الطنية  
١٩١٢ (يناير - مارس)  
صون پات - صن  
الرئيس المؤقت للجمهورية  
الصينية  
١٩١٢ - ١٩١٦ الرئيس يوان شى - كاي  
١٩١٤ اليابان تستولى على  
كياو تشاو  
١٩١٥ «المطالب الواحدة  
والعشرون»  
١٩٢٠ الهاي هوا (اللغة  
الدارجة) التى تستعمل  
فى المدارس الصينية ،  
ذروة «المد الحديد»  
١٩٢٦ شيانج كاي تشك  
وبردين ، يخضعان  
شمالى الصين  
١٩٢٢ الحركة المقاومة للشيوعية  
١٩٣١ اليابانيون يحتلون  
منشوريا

بعد الميلاد  
١٥٧٣ - ١٦٢٠ شن ذونج (وان لى)  
١٦٣٧ التجار الإنجليز فى  
كانتون  
١٦٤٤ - ١٩١٢ أسرة تشنغ (المانشو)  
١٧٢٢ - ١٦٦٢ كانج شى  
١٧٣٦ - ١٧٩٦ تشين لرنج  
١٧٩٥ تحريم تجارة الأفيون  
للمرة الأولى  
١٨٠٠ تحريم تجارة الأفيون  
للمرة الثانية  
١٨٢٣ - ١٩٠١ لى هنج - تشانج  
السياسى  
١٨٣٤ - ١٩٠٨ تزوشى (الإمبراطورة  
الأرملة)  
١٨٣٩ - ١٨٤٢ «حرب الأفيون»  
الأولى  
١٨٥٠ - ١٨٦٤ فتنة تاي - پنج  
١٨٥٦ - ١٨٦٠ «حرب الأفيون»  
الثانية  
١٨٥٨ - ١٨٦٠ الروسيا تستولى على  
أراضى صينية شمال  
نهر عامور  
١٨٦٠ فرنسا تستولى على الهند  
الصينية  
١٨٦٦ - ١٩٢٥ صون پات - صن  
١٨٧٥ - ١٩٠٨ كوانج شو  
١٨٩٤ الحرب الصينية اليابانية  
١٨٩٨ ألمانيا تستولى على  
كياو تشاو، والولايات

# الباب الثالث والعشرون

## عصر الفلاسفة

### الفصل الأول

#### نشأة الفلسفة

#### ١ - قدر الصينيين

لقد كانت دراسة بلاد الصين عملاً من الأعمال المحيطة التي تمت في عصر الاستنارة(\*) وقد قال فيهم ديدرو: « أولئك قوم يفوقون كل من عداهم من الآسيويين في قدم عهدهم ، وفي فنونهم ، وعقائبتهم ، وحكمتهم وحسن سياستهم ، وفي تذوقهم للفلسفة ، بل إنهم في رأى بعض المؤلفين ليضارعون في هذه الأمور كلها أرقى الشعوب الأوروبية وأعظمها استنارة »<sup>(١)</sup> . وقال فلتير Voltaire : « لقد دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف عام دون أن يطرأ عليها تغير يذكر في القوانين ، أو العادات ، أو لغة ، أو في أزياء الأهلين ... وإن نظام هذه الإمبراطورية لمو في الحق خير ما شهدته العالم من نظم »<sup>(٢)</sup> . وهذا الإجلال الذي ينظر به علماء ذلك الوقت إلى بلاد الصين قد حققته دراستنا لتلك البلاد عن كتب ، والذين خبروا تلك البلاد وعرفوها حق المعرفة قد بلغ إعجابهم بها غاية . انظر إلى ما قاله للكونت كيسرلنج Count Keyserling في خاتمة كتاب له يعد من أغزر الكتب علماً وأعظمها نفماً وأبرعها تصويراً :

(\*) يطلق الأوروبيون هذا اللفظ (Enlightenment) على العصر الذي سادته النزعة الفلسفية الفرنسية في القرن الثامن عشر أيام فلتير ومعاصريه . ( المترجم )

لقد أخرجت الصين القديمة أكمل صورة من صور الإنسانية . وكانت فيها صورة مألوفة عادية . . . وأسأت أعلى ثقافة عامة عرفت في العالم كله . . . وإن عظمة الصين لتتمسكنى وتؤثر في كل يوم أكثر من الذى قبله . . . وإن عظماء تلك البلاد لأرقى ثقافة من عظماء بلادنا . . . وإن أولئك السادة (\*) لهم طراز سام من البشر . . . وسموهم هذا هو الذى يأخذ بلبى . . . إن تحية الصينى المثقف لتبلغ حد الكمال ! . . . وليس ثمة من يجادل في تفوق الصين في كل شأن من شئون الحياة . . . ولعل الرجل الصينى أعمق رجال العالم على بكرة أبيهم» (٦)

والصينيون لا يهتمون كثيراً بإنكار هذه الأقوال ، وقد ظلوا حتى هذا القرن ( ما عدا نقرأ قليلاً في الوقت الحاضر ) مجمعين على أن أهل أوروبا وأمريكا برابرة همج (٧) . وكان من عادة الصينيين قبل سنة ١٨٦٠ أن يترجموا لفظ « أجنبي » في وثائقهم الرسمية باللفظ المقابل لهمجى أو بربرى ، وكان لا بد للبرابرة أن يشترطوا على الصينيين في معاهدة رسمية إصلاح هذه الترجمة (\*\*\*) . والصينيون كعظم شعوب الأرض « يرون أنهم أعظم الأمم مدنية وأرقهم طباعاً » (٧) . ولعلمهم محقون في زعمهم هذا رغم ما في بلادهم من فساد وفوضى من الناحية السياسية ، ورغم تأخرهم في العلوم ، وكدهم في المصانع ، ومدنهم الكريهة الرائحة ، وحقولهم الملائى بالأقذار ، وفيضان أنهارهم ، وما ينتاب بلادهم من القحط ، ورغم جهودهم وقسوتهم وققرهم وخرافاتهم ، وقلة عنايتهم بتربية أبنائهم ، وحرورهم

---

(\*) يفصد كبار الحكام الصينيين الذين أبعدوا عن وظائفهم في تشنج - داو .

(\*\*) بعث العالم الصينى الذى عاون الدكتور جيلز Dr. Giles في ترجمه بعض مختارات من كتاب « جواهر الأدب الصينى Gems of Chinese Literature » قصيدة وداع مشهورة فيها هذان البيتان الجميلان .

لقد أثار الأدب من عهد بعيد عقول أمة الأمم ؛

واليوم امتد نفودها ليهدى موظفاً بربريا

المدمرة ، ومذابجهم وهزأهم المذلة . ذلك أن من وراء هذا المظهر المظلم الذى يبدو الآن لعين الغريب عن بلادهم مدينةً من أقدم المدن القائمة فى العالم وأغناها : فن ورائه تقاليد قديمة فى الشعر ، يرجع عهدها إلى عام ١٧٠٠ ق.م ، وسجل حافل بالفلسفة الواقعية المثالية العميقة غير المعجزة الدرك ، ومن ورائه براعة فى صناعة الخرف والنقش لا مثيل لها من نوعها ، وإتقان مع يسر لجميع الفنون الصغرى لا يضارعهم فيه إلا اليابانيون ، وأخلاق قويمة قوية لم نرها نظيراً عند شعوب العالم فى أى وقت من الأوقات ، ونظام اجتماعى ضم عدداً من الخلائق أكثر مما ضمه أى نظام آخر عرف فى التاريخ كله ودام أحقاباً لم يدمها غيره من النظم ، ظل قائماً حتى قضت عليه الثورة ويكاد يكون هو المثل الأعلى للنظم الحكومية التى يدعو إليها الفلاسفة ؛ ومجتمع كان راقياً متمديناً حين كانت بلاد اليونان مسكن البرابرة ؛ شهد قيام بابل وأشور ؛ وبلاد الفرس واليهود ، وأثينة ورومة والبندقية وأسبانيا ، ثم شهد سقوطها كلها ، وقد يبقى بعد أن تعود بلاد البلقان التى نسميها أوربا إلى ما كانت عليه من جهالة وهمجية . ترى أى سر عجيب أبقى هذا النظام الحكومى تلك القرون الطوال ، وحرك هذه اليد الفنية الصناع ، وأوحى إلى نفوس أولئك القوم ذينك العمق والاتزان ؟

## ٢ — الدولة الوسطى الزاهرة

وصف البلاد الجغرافى — الجنس الصينى — ما قبل التاريخ

إذا عددنا روسيا بلاداً أسيوية — وقد كانت كذلك إلى أيام بطرس الأكبر وقد تعود أسيوية مرة أخرى — لم تكن أوربا إلا أنفاً مسنناً فى جسم آسية ، وامتداداً يشتغل بالصناعة من خلفه قارة زراعية كبيرة ، ومخالب أو نتوءات ممتدة من قارة جبارة مهولة . وتشرف الصين على تلك القارة المترامية الأطراف ، وهى لا تغل عن أوربا فى اتساع رقعتها وتمداد عامرها .



وقد كان يكتنفها في معظم مراحل تاريخها أكبر المحيطات وأعلى الجبال،  
وصحراء من أوسع صحارى العالم .

لذلك استتمعت بلاد الصين بعزلة كانت هي السبب في حفظها النسبي من  
السلامة والدوام، والركود وعدم التغيير، وهو حظ كبير إذا قيس إلى حظ غيرها  
من الأمم . ومن أجل هذا فإن الصينيين لم يسموا بلادهم — الصين، بل سموها  
تيان — هوا — « تحت السماء » أو زهاى — « بين البحار الأربعة » —  
أو جونج — جوو « الدولة الوسطى » أو جونج — هوا — جوو « الدولة  
الوسطى الزاهرة » أو الاسم الذى سماها به مرسوم الثوزة جونج — هوا —  
مين — جوو — « مملكة الشعب الوسطى الزاهرة »<sup>(٨)</sup> . والحق أن الأزهار  
البيانة كثيرة فيها، كما أن فيها كل المناظر الطبيعية المختلفة التى يمكن أن تهبها  
إياها الشمس الساطعة، والسحب السابحة، وشعاب الجبال الوعرة، والأنهار  
العظيمة، والأغوار العميقة، والشلالات الدايقة بين التلال العابسة . ويجرى في  
قسمها الجنوبي الخصب نهر يانج — دزه<sup>(\*)</sup> الذى يبلغ طوله ثلاثة آلاف ميل،  
وفي الشمال ينحدر الهوانج هو، أو النهر الأصفر من سلاسل الجبال الغربية مخترقاً  
سهولاً من اللويس، ويحمل معه الغرين ليصبه الآن في خليج بتشيلي، وكان من  
قبل يصبه في البحر الأصفر، ولعله سيعود في الغد فيصبه في هذا البحر مرة  
أخرى . على ضفاف هذين النهرين وعلى ضفتي نهر الراى وغيره من المجارى  
الواسعة، بدأت الحضارة الصينية تنتزع الأرض من الوحوش والآجام، وتصد  
عنها الهمج المحيطين بها، وتنظف الأرض من الحسك والعُلق، وتطهرها  
من الحشرات المهلكة والرواسب الأكلة القارضة كأملح البوناسا وغيرها؛  
وتجفف اللقاح، وتقاوم الجفاف والفيضان، وما يطرأ على مجارى الأنهار

---

(\*) هو الذى يسمى عادة ينج — نسي، ويبلغ اتساعه عند شنهى ثلاثة أميال كامله .

( المترجم )

من تمحوّل يعود على البلاد وسكانها بالخراب والهلاك ، وتجري الماء في صبر وحذر من أولئك الأعداء الأوداء في آلاف القنوات ، ونقيم يوماً بعد يوم خلال القرون الطوال أكواخاً وبيوتاً ومعابد ومدارس وقرى ومدناً ودولاً . ألا ما أطول الأجال التي يكبد الناس خلالها ليشيدوا صرح الحضارة التي يدمسونها في سهولة وسرعة عجيبتين !

وليس في الناس من يعرف من أين جاء الصينيون ، أو إلى أي جنس ينسبون ، أو متى بدأت حضارتهم في الزمن القديم . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن بقايا « إنسان بيكين » (\*) توحى بأن القردة البشرية جد قديمة في بلاد الصين . وقد استنتج أندروز Andrews من بحوثه في تلك البلاد أن منغوليا كلن يعمرها من عشرين ألف سنة قبل الميلاد أجيال من الناس تشبه أدواتهم الأدوات « الأزيلية » التي كانت أوربا تستخدمها في العصر الحجري الأوسط ، وأن خلفاء هذه الأجيال انتشروا في سيبيريا والصين حينما جفت منغوليا الجنوبية وأجذبت واستحالت إلى صحراء جوبي الحالية : وتدل ، كشوف أندرسن Anderson وغيره في هونان ومنشوريا الجنوبية على أن ثقافة تنسب إلى العصر الحجري الحديث وجدت في تلك البلاد متأخرة بألفي عام من مثيلتها في عصر ما قبل التاريخ في مصر وسومر . ويشبه بعض ما وجد من الأدوات في الرواسب الباقية من العصر الحجري الحديث ، في شكله وتكوينه ، المدى الحديدية التي يستخدمها سكان الصين الشمالية في هذه الأيام لحصاد الذرة الصينية (\*\*\*) ، وهذه الحقيقة على ضالة شأنها ترجح القول بأن الثقافة الصينية قد دامت سبعة آلاف عام متواصلة غير منقطعة ، وهو عهد ما أطوله ، وقل أن يوجد له في غير الصين نظير<sup>(١٥)</sup> .

(\*) النطق الصحيح لهذا الإسم هو بيچنج وقد نستعمله أحياناً . ( المترجم )

(\*\*) المعروفة بالسرعو

على أن طول هذه العهود يجب ألا يفشى أبصارنا فتبالغ في تجانس هذه الثقافة أو تجانس الشعب الصيني نفسه : فقد يلوح أن بعض فنونهم وصناعاتهم الأولى جاءتهم من بلاد النهرين والتركستان . من ذلك أن خزف هونان المنتمى إلى العصر الحجري الحديث لا يكاد يفترق في شيء عن خزف أنو والسوس<sup>(١١)</sup> .  
والجنس « المغولي » الحاضر من يج معقد اختلطت فيه السلالة البدائية مراراً وتكراراً بمئات السلالات الغازية أو المهاجرة من منغوليا وجنوبي روسيا ( السكوديين ؟ ) ووسط آسية<sup>(١٢)</sup> .

فالصين من هذه الناحية كالمند يجب أن نشبهها بأوروبا بأكملها لا بأمة واحدة من أممها ؛ فليست هي موطناً موحداً لأمة واحدة ، بل هي خليط من أجناس مختلفة الأصول متباينة اللغات غير متجانسة في الأخلاق والفنون ؛ وكثيراً ما يعادى بعضها بعضاً في العادات والمبادئ الخلقية والنظم الحكومية .

### ٣ - القرون العابرة المجهولة

قصة الخلق عند الصينيين - بداية الثقافة - الحمر وعصه . الأكل - الأناطرة الأفاضل - ملك كافر

تسمى الصين « جنة المؤرخين » ؛ ذلك أنها ظلت مئات وآلافاً من السنين ذات مؤرخين رسميين يسجلون كل ما يقع فيها ، وكثيراً مما لا يقع : على أننا لا نتق بأقوالهم عن العهود السابقة لعام ٧٧٦ ق . م ، ولكننا إذا ما استمعنا إلى هذه الأقوال رأيناهم يحدثوننا أحاديث مفصلة عن تاريخ الصين منذ عام ٣٠٠٠ ق . م ، ورأينا أكثرهم تقي وصلحاً يصفون خلق العالم كما يفعل المطلعون على الغيب في هذه الأيام . ومن أقوالهم في هذا أن « بان كو » أول الخلائق استطاع أن يشكل الأرض حوالى عام ٢٢٢٩ ق . م بعد أن ظل يكدح في عمله هذا ثمانية عشر ألف عام . وتجمعت أنفاسه التي كان يخرجها في أثناء عمله فكانت رياحاً

وسحبا ، وأضحى صوته رعداً ، وصارت عروقه أنهاراً ، واستحال لجه أرضاً ،  
وشعره نبتاً وشجراً ، وعظمه معادن ، وعرقه مطراً ؛ أما الحشرات التي كانته  
تعلق بجسمه فأصبحت آدميين<sup>(١٣)</sup> . وليس لدينا من الأدلة القاطعة ما ينقض به  
هذا العلم الكوني العجيب .

وتقول الأساطير الصينية إن الملوك الأولين حكم كل منهم ثمانية عشر ألف  
عام ، وإنهم جاهدوا أشق جهاد ليجعلوا من قمل « بلن كو » خلائق متحضرين .  
وتقول لنا هذه الأساطير إن الناس « كانوا قبل هؤلاء الملوك السماويين كالوحوش  
الضارية يلبسون الجلود ويقتاتون باللحوم النيئة ، ويعرفون أمهاتهم ، ولكنهم  
لا يعرفون آباءهم » — ولا يرى استرنديبرج Strindberg أن هذا الوصف الأخير  
مقصود على الأقدمين أو على الصينيين . ثم جاء من بعد هؤلاء الإمبراطور فوشى  
في عام ٢٨٥٢ ق . م بالتحديد ، فعلم الناس بمعاونة زوجه المستنيرة الزواج ،  
والموسيقى والكتابة والتصوير ، وصيد السمك بالشباك ، وتأنيس الحيوان ،  
وإطعام دود القز للحصول منه على الحرير . وأوصى وهو على فراش الموت أن  
يخلفه سن نونج ، فأدخل هذا الإمبراطور في البلاد الزراعة ، وابتدع الحراث  
الخشي ، وأقام الأسواق وأوجد التجارة ، وأنشأ علم الطب بما عرفه من خواص  
النبات العلاجية ، هذا ما تقوله الأساطير التي تولى الأشخاص أكثر مما تولى  
الأفكار ، وتعزو إلى عدد قليل من الأفراد نتائج كدح الأجيال الطوال . ثم حكم  
إمبراطور محارب قوى يدعى هوانج — دى لم يطل عهده أكثر من مائة عام ،  
فجاء إلى الصين بالمنطيس والمجلات ، ووظف المؤرخين الرسميين ، وشاد أول  
أبنية من الحجر في الصين ، وأقام مرصداً لدراسة النجوم ، وأصلح التقويم ، وأعاد  
توزيع الأرض على الأهليين . وحكم يوز قرننا آخر ، وبلغ من صلاح حكمه أن  
كنفوشيوس ، حين كتب عنه بعد زمانه بثمانمائة وألف عام في عهد كان يبدو له  
بلا ريب عهداً « حديثاً » فاسداً ، أخذ يندب ما طرأ على الصين من ضعف

وإحلال . ويحدثنا الحكيم القديم — الذي لم يستطع رغم حكمته التورع عن « الكذبة الصالحة » يضيفها إلى القصة ليجعل لها مفزى خلقيا — يحدثنا هذا الحكيم القديم أن الناس أصبحوا أفاضل أتقياء بمجرد النظر إلى يَوْ ، وكان أول ما قدمه يَوْ من معونة للمصلحين أن وضع في خارج باب قصره طبلًا يضربونه إذا أرادوا أن يدعوهم لسماع شكواهم ، ولو حاك يكتبون عليه ما يشيرون به على الحكومة ، ويقول كتاب التاريخ الذائع الصيت :

« أما يَوْ الصالح فيقولون عنه إنه حكم جونج — جُو ومائة عام لأنه عاش مائة عام وعشرة وستة ؛ وكان رحيا خيرا كالأسماء ، حكما بصيرا كالآلهة ، وكان ضياؤه يبدو من بعيد كالسحابة اللامعة ، فإذا اقتربت منه كان كأنه الشمس المساطعة . وكان غنيا في غير زهو ، عظيما في غير ترف ، وكان يلبس قانسوة صفراء ، ومثزرا قائم اللون ، ويركب عربية حمراء تجرها جياذ بيض . وكانت طلف أسقف بيته غير مشدبة ، وألواح غير مسحجة ، ودعائم الخشبية غير ذات أطراف مزينة .

وكان أغلب ما يقتات به الحساء أيا كان ما يصنع منه ، لا يهتم باختيار الحبوب التي يصنع منها خبزها ، وكان يشرب حساء العدس من صفحة مصنوعة من الطين ، ويتناولها بملقعة من الخشب . ولم يكن يتجلى بالجواهر ، ولم تكن ثيابه مطرزة ، بل كانت بسيطة لا يختلف بعضها عن بعض . ولم يكن يعنى بغير المألوف من الأشياء أو الغريب من الأحداث ، ولم يكن يقيم وزنا للأشياء النادرة الغريبة ، يستمتع لأغاني الغزل ، عربته الرسمية خالية من أسباب الزينة ... يلبس في الصيف رداء بسيطاً من الفظن ، ويلب جسمه في الشتاء بجلود الظباء . ومع هذا كله فقد كان أغنى من حكم جونج — جُو ، طوال عهدها كله ، وأرجحهم عقلا ، وأطولهم عمرا ، وأحهم إلى قلوب الشعب<sup>(١٤)</sup> .

وكان شون آخِر هؤلاء « الملوك الخمسة » مثالا في البر البنوي ، كما كان هو البطل الذي جاهد لحماية البلاد من فيضانات نهر هوانج — هو ، والذي أصلح التقويم ، وضبط الموازين والمقاييس ، وكسب محبة الأجيال التي جاءت بعده من تلاميذ المدارس بتقصير طول السوط الذي كانوا يربون به . وتقول الروايات الصينية إن شون في آخر أيامه رفع معه على العرش أقدر مساعديه ، وهو المهندس العظيم يو ، الذي تغلب على فيضان تسعة أشهر بشق تسعة جبال واحتفار تسع بحيرات ، ويقول الصينيون « لولا يو ، لكنا كلنا سمكا »<sup>(١٥)</sup> . وتقص الأساطير المقدسة أن خمر الأرز عصر في أيامه و قدّم للإمبراطور ، ولكن يوصبه على الأرض وقال متنبئا : « سيأتي اليوم الذي يخسر فيه أحد الناس بسبب هذا الشيء ملكا » ، ثم نفى من كشف هذا الشراب من البلاد وحرّم على الناس شربه . فلما فعل هذا جعل الناس خمر الأرز شرابهم القومي ، فكان ذلك درساً علموه من جاء بعدهم من الخلائق .

وغير يو المبدأ الذي كان متبعاً من قبله في وراثته الملك وهو أن يعين الإمبراطور قبل وفاته من يخلفه على العرش ، فجعل الملك وراثياً في أسرته ، وأنشأ بذلك أسرة الشيتية ( أي المتحضرة ) ، فكان ذلك سبباً في أن يتعاقب على حكم الصين العباقرّة والبلهاء وذوو المواهب الوسطى . وقضى على هذه الأسرة إمبراطور ذو أطوار شاذة ، يدعى جية أراد أن يسلي نفسه هو وزوجته فأمر ثلاثة آلاف من الصينيين أن يموتو ميتة هنيئة بالقفز في بحيرة من الليذ .

وليس لدينا ما يحقق لنا صدق ما ينقله إلينا المؤرخون الصينيون الأقدمون من أخبار هذه الأسرة . وكل ما نستطيع أن نقوله أن علماء الفلك في هذه الأيام قد حققوا تاريخ الكسوف الشمسي الذي ورد ذكره في السجلات القديمة فقالوا إنه قد حدث في عام ٢١٦٥ ق . م ، ولكن الثقة الذين يعتمدون بأرائهم لا يؤمنون بحساب أولئك الفلكيين<sup>(١٦)</sup> . وقد وجدت على بعض العظام التي كشفت في

هونان أسماء حكام تعزوم الروايات الصينية إلى الأسرة الثانية أو أسرة شانج ؛ ويحاول المؤرخون أن يعزوا بعض الأواني البرنزية الموغلة في القدم إلى أيام تلك الأسرة . أما فيما عدا هذا فمرجعنا الوحيد هو القصص الذي يحوى من الطرافة واللذة أكثر مما يحوى من الحقيقة . وتقول الروايات القديمة إن وو — ي أحد أباطرة أسرة شانج كان كافراً يتحدى الآلهة ويسب روح السماء ، ويلعب الشطرنج مع ذلك الروح ، ويأسر أحد أفراد حاشيته أن يحرك القطع بدل الروح ، فإذا أخطأ سخر منه . ثم أهدى إليه كيساً من الجلد وملاه دماً ، وأخذ يسلى نفسه بأن يصبوب إليه سهامه . ويؤكد لنا المؤرخون — وفيهم من الفضيلة أكثر مما في التاريخ نفسه — إن وو — ي أصابته صاعقة فأهلكته .

وكان جوسين آخر ملوك هذه الأسرة ومخترع عصي الطعام حينئذ آتما إلى حد لا يكاد يصدق العقل ، فقضى بإثمه على أسرته . ويحكى عنه أنه قال : « لقد سمعت أن لقلب الإنسان سبع فتحات ، وأحب أن أثبت من صدق هذا القول في بي كان » — وزيره . وكانت تاكي زوجة چو مضرب المثل في الفجور والفسوة ، فكانت تعقد في بلاطها حفلات الرقص الخليلع ، وكان الرجال والنساء يسرحون ويمرحون عارين في حدائقها . فلما غضب الناس من هذه القعال عمدت إلى كم أفواهم باختراع ضروب جديدة من التعذيب ، فكانت ترغم المذمرين على أن يمسكوا بأيديهم معادن محمية في النار أو يمشوا على قضبان مطلية بالشحم ممتدة فوق حفرة مملوءة بالفحم المشتعل ، فإذا سقط الضحايا في الحفرة طربت الملكة حين تراهم تشوى أجسادهم في النار<sup>(١٧)</sup> .

وقضت على عهد جوسين مؤامرة دبرها الثوار في داخل البلاد ، وغارة من ولاية چو الغربية ، ورفع المنغرون على العرش أسرة چو ، ودام حكمها أطول من حكم أية أسرة مالكة أخرى في بلاد الصين . وكافأ الزعماء المفتصرون من أعانهم من القواد والكبراء بأن جعلهم حكاماً يكادون يكونون مستقابين في

الولايات الكثيرة التي قسمت إليها الدولة الجديدة . وعلى هذا النحو بدأ عهد الإقطاع الذى كان فيما بعد شديد الخطر على حكومة البلاد ، والذى كان رغم هذا باعثاً على النشاط الأدبى والفلسفى فى بلاد الصين . وتزاورج القادمون الجدد والسكان الأولون وامتزجوا جميعاً ، وكان امتزاجهم هذا تمهيداً بيولوجياً لأولى حضارات الشرق الأقصى فى الأزمنة التاريخية .

#### ٤ - الحضارة الصينية الأولى

عصر الإقطاع فى الصين - ورير فدير - النصال بين العادات والقوانين - الثقافة والفوضى - أغانى الحب فى «كتاب الأغاني»

لم تكن الولايات الإقطاعية ، التى وهبت الصين بعدئذ ما استتمعت به من نظام سياسى قرابة ألف عام ، من عمل الفاتحين ، بل نشأت من المجتمعات الزراعية التى قامت فى الأيام البدائية بامتصاص أقوياء الزراعة ضعافهم ، أو باندماج الجماعات تحت رياسة زعيم واحد حتى يستطيعوا أن يدفعوا عن حقولهم من يغيرون عليها من الهمج المحيطين بهم . وبلغ عدد هذه الإمارات فى وقت من الأوقات سبع عشرة ولاية تتكوّن كل منها فى العادة من بلدة مسورة تحيط بها أرض زراعية ، ومن ضواح مسورة أصغر منها يتألف من مجموعها محيط دفاعى واحد<sup>(١٨)</sup> . ثم أخذت هذه الولايات يندمج بعضها فى بعض على مهل حتى نقص عددها إلى خمس وخمسين ولاية تشمل الإقليم الذى يعرف الآن بإقليم هونان وماجاوره من أقاليم شانسى ، وشنسى ، وشانتونج . وكان أهم هذه الولايات الخمس والخمسين ولاية تشى التى وضعت أساس الحكومة الصينية ، وولاية تشين التى أخضعت سائر الولايات لحكمها . وأنشأت منها إمبراطورية موحدة ، وخلصت على بلاد الصين اسمها المعروفة به فى جميع بلاد العالم إلا فيها هى نفسها .

وكان السيامى العبقرى الذى وضع لولاية تشى نظامها هو جوان چونج



مستشار الدوق هوان . وقد بدأ جوان حياته السياسية بمساعدة أخى هوان عليه فى نزاعهما من أجل السيطرة على تشى ، وكاد يقتل هوان فى إحدى الوقائع الحربية . ولكن هوان انتصر فى آخر الأمر وأسر جوان وعينه رئيس وزراء دولته . وزاد جوان من قوة سيده باستبدال الأسلحة والأدوات الحديدية بنظائرها المصنوعة من البرنز ، واحتكار الحكومة للحديد والملح ، أوبالسيطرة عليهما ، ثم فرض الضرائب على النقود والسمك والملح « لكي يساعد الفقراء ويكافئ الحكماء وذوى المواهب »<sup>(١٩)</sup> . وأصبحت تشى فى أيام وزارته الطويلة الأجل دولة حسنة النظام ذات عملة مستقرة ، ونظام إدارى محكم ، وثقافة زاهرة . وقد قال عنه كنفوشيوس — وهو الذى لم يكن يمتدح السياسة إلا بأوجز عبارة — « إن الناس لا يزالون حتى اليوم يستمتعون بالنعم التى أسبغها عليهم ، ولولا جوان چونج لظلنا حتى اليوم ذوى شعر أشعث ، وانظلت ملابسنا تزرر جهة الشمال<sup>(\*)</sup>(٢٠) وفى بلاط نبلاء الإقطاع نشأت طريقة التحية التى امتاز بها الصينيون المهدبون ، كما نشأت فيها شيئاً فشيئاً تقاليد من الأخلاق والاحتفالات ومراسم التكريم بلغت من الدقة حداً يكفيها لأن تحمل محل الدين عند الطبقات العليا فى المجتمع . ثم وضعت أسس الشرائع وبدأ نزاع شديد بين حكم العادات التى نمت عند عامة الشعب وبين حكم القانون الذى وضعته الدولة . وأصدرت دوقيةا چنج وتشين ( فى عامى ٥٣٥ ، ٥١٢ ق . م ) كتباً فى القانون ملأت قلوب الفلاحين رعباً ، وتنبئوا بما سيحل بهما من عقاب سماوى شديد على هذه الجريمة الشنيعة . وحدث بالفعل أن دمرت الفار عاصمة چنج بعد ذلك بقليل . وكان فى هذه الشرائع محاباة للطبقات العليا ، فقد أعفتها من كثير من الواجبات المفروضة على غيرها من الطبقات على شريطة أن يؤدب أفرادها أنفسهم . من ذلك أن القاتل منهم كان

---

( \* ) هذه هى الطريقة التى يريد بها كنفوشيوس أن يقول إنه لولا جوان لظل الصينيون همجاً ، فقد كان من عادات الهمج فى تلك الأيام أن يزرروا ملابسهم جهة الشمال<sup>(٢١)</sup> .

يسمح له بأن ينتحر ، وكان الكثيرون منهم ينتحرون بالفعل على النحو الذى أصبح فيما بعد عادة مألوفة بين طبقة السموراي فى اليابان . واحتج عامة الشعب على هذه التفرقة ، وقلوا إن فى مقدورهم هم أيضاً أن يؤدبوا أنفسهم ، وتمنوا أن يقوم بينهم وطنى مخلص شبيه بهرموديروس أو أرسنجيتون<sup>(\*)</sup> يحررهم من ظلم القوانين . ثم تراضت الفئتان آخر الأمر واتفقتا على حل سليم فضيقت دائرة القانون الوضعى حتى لم تعد تشمل إلا المسائل الكبرى أو المسائل القومية ، وظلت أحكام العرف والعادة هى الفيصل فيما دونها من الأمور . وإذ كانت الكثرة الغالبة من شئون البشر من المسائل الصغرى فقد ظل حكم العادة هو السائد بين كافة الطبقات . واستمر تنظيم الولايات يجرى فى مجراه ، وجمعت قواعد هذا النظام فى الجو — لى ، أو « دستور جو » وهو مجموعة من الشرائع تعزوها الروايات إلى جو جونج عم دوق جو الثانى وكبير وزرائه ، وهو بالطبع قول لا يقبله عقل لأن هذه الشرائع لا يمكن أن تكون من وضع رجل واحد .

والواقع أن الإنسان يلدخ فيها روح كنفوشيوس ومنشيس ، ولهذا فأكبر الظن أنها وضعت فى آخر أيام أسرة جو لا فى أيامها الأولى . وقد ظلت مدى ألفى عام تمثل فكرة الصينيين عن النظام الحكومى : وقوامه إمبراطور يحكم نيابة عن الخالق ، وأنه « ابن السماء » يستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ؛ وأعيان ، بعضهم بحكم مولدهم وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، يصرفون أعمال الدولة ؛ وشعب يرى أن واجبه فلاح الأرض ، يعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ولكنه لا رأى له فى تصريف الشئون العامة ؛ ومجلس من ستة وزراء كل واحد منهم على ناحية من الدواحي الآتية وهى : حياة الإمبراطور وأعماله ، ورفاهية الشعب وزواج أفراده المبكر ، والمراسيم والتنبؤات الدينية ، والاستعداد للحرب والسير فيها ، وتوزيع العدالة بين السكان وتنظيم

(\*) Harmodius و Aristogiton وطنيان أثينيان عاشا حوالى ٥٢٥ ق . م . (المترجم)

الأشغال العامة ». ويكاد هذا القانون يكون قانوناً مثالياً ، وأكبر الظن أنه نبت في عقل فيلسوف أفلاطوني مجهول لم يتحمل أعباء الحكم ، لا من تجارب زعماء دنستهم السلطة الفعلية ويتعاملون مع خلائق حقيقيين .

ولما كان الشر المستطير قد يجد له مكاناً حتى في أكمل الدساتير ، فقد كان تاريخ الصين السياسى هو التاريخ المؤلف الذى يتناوبه الفساد الطويل وفترات الإصلاح القصيرة . ذلك أن الثروة حين زادت أدت إلى الإسراف والترف فأفسدا الطبقة العليا ، كما غصّ بلاط الأباطرة وغصت فيما بعد لويانج عاصمة الدولة بالموسيقين والقتلة السفاحين والسرارى والفلاسفة . وقاما كانت تمضى عشر سنين دون أن يهاجم فيها الدولة الجديدة البرابرة الجياع الذين لم ينقطعوا يوماً ما عن الضغط على حدودها<sup>(٢٣)</sup> ، حتى أضحت الحرب أو لا ضرورة لا بد منها للدفاع ، ثم صارت بعد قليل حرب هجوم واعتداء ، وتدرجت من ألعاب يتسلى بها الأعيان إلى مسابقات فى التقتيل بين عامة الشعب ، يطاح فيها بعشرات الآلاف من الرؤوس ، فلم يمض إلا قرنان من الزمان أو أكثر مهمما بقليل حتى قتل من الملوك ستة وثلاثون<sup>(٢٤)</sup> ، وعمت البلاد العوضى ، وبئس الحكماء من إصالح الأمور . وظلت الحياة تنعثر فى طريقها متخطية هذه العقبات القديمة . فكان الفلاح يزرع ويحصد لنفسه فى أحيان قليلة وللنبلاء الإقطاعيين فى أكثر الأحيان ، لأنه هو وأرضه كانا ملكاً لهؤلاء النبلاء ، ولم يبدأ الفلاحون فى امتلاك الأرض إلا فى أواخر أيام هذه الأسرة . وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الإقطاعيين يعترفون بعض الاعتراف بسيادة واحد منهم — تجند العمال للأشغال العامة ، وتروى الحقول من قنوات كثيرة منبثة فى أنحاء البلاد ؛ وكان الموظفون العموميون يعملون الأهلين ررع الحقول وغرس الأشجار ، ويشرفون على صناعة الحرير بكافة أجزائها . وكان صيد السمك واستخراج الملح من باطن الأرض احتكاراً للحكومة فى كثير من الولايات<sup>(٢٥)</sup> . وكانت للتجارة الداخلية

رأبجة فى المدن فنشأت من رواجها طبقة وسطى صغيرة العدد تستمتع بنعم لا تكاد تفترق عن نعم الحياة الحديثة ، وكان أفرادها ينتعلون أحذية من الجلد ، ويرتدون ملابس من الحرير ، أو من نسيج آخر يعزلونه بأيديهم ، وينتقلون فى عربات مختلفة الأنواع ، أو فى قوارب تسير فى الأنهار ، ويسكنون بيوتاً حسنة البناء ، ويستخدمون الكراسى والنضد ، ويتناولون طعامهم فى صحاف وأوانى من الخرف المنقوش<sup>(٣٦)</sup> . وأكبر الظن أن مستوى حياتهم كان أرقى من مستوى حياة معاصريهم فى بلاد اليونان أيام صولون Solon أو فى روما أيام نوما Numa .

وسرت فى الحياة الذهنية فى الصين بين ظروف التفكك ومظاهر الفوضى السائدة فى البلاد حيوية تنفض ما يضعه المؤرخون من نظريات وقواعد عامة يريدون أن يأخذ بها الناس ؛ فقد وضعت فى هذا العهد المضطرب قواعد اللغة للصينية والأدب والفلسفة والفن . ونشأ من ائتلاف الحياة التى أصبحت آمنة بفضل التنظيم الاقتصادى والادخار مع الثقافة التى لم تكن قد وجدت بعد أو قيدت بالقيود والأحكام التى تفرضها عليها التقاليد والحكومة الإمبراطورية القوية السلطان ، نشأ من ائتلافهما ذلك الإطار الاجتماعى الذى احتوى أكثر العهود إبداعاً وإنشاء فى تاريخ الصين الذهبى . فكان فى كل قصر من قصور الأباطرة والأمراء وفى آلاف من المدن والقرى شعراء ينشدون القصائد ، وصناع يديرون عجلة الفخار أو يصبون الآنية الفخمة الجميلة ، وكتبة ينفقون على مهل حروف الكتابة الصينية وبسوفسطائيون يعلمون الطلبة المجددين أساليب الجدل والمحاكمة الذهنية ، وفلاسفة يتحسرون ويأسون لنقص البشر وتدهور الدول .

وسندرس فى الفصول التالية حال الفن واللغة فى أكل تطوراتهما وأخص خصائصهما ، ولكن الشعر والفلسفة من نتاج هذا العصر الذى نتحدث عنه بنوع خاص ، وهما يميلانه أكثر عصور الفكر الصينى ازدهاراً . وقد ضاع معظم ما كتب من الشعر قبل كنفوشيوس ، وأكثر ما بقى منه هو ما اختاره هذا

الفيلسوف من نماذج كلها جد وصرامة ، جمعت في الشئ — جنج ، أى « كتاب الأغاني » وقيل في فترة تزيد على ألف عام تمتد من أيام الشعر القديم الذى قيل في أيام أسرة شاج إلى الشعر ذى الصيغة الحديثة الذى قيل في زمن معاصر لفيثاغورس . وتبلغ عدة هذه القصائد الباقية خمس قصائد وثلاثمائة قصيدة ، وكلها موجزة إيجازاً يجعلها مستعصية على الترجمة ، ذات تصوير إيحائى ، تتحدث عن الدين ومتاعب الحرب وهموم الحب .

وإلى القارئ أمثلة من نواح الجنود الذين انتزعوا من بيوتهم في غير الأوقات المناسبة ؛ ليلقى بهم في محال المنايا لغير سبب تدركه عقولهم :

أما أعظم حرية الإوز البرى وهو يطير في الفضاء

ثم يتمتع بالراحة فوق أغصان شجر اليو اللتف الكثيف !

أما نحن الدائم الكدح في خدمة الملك ،

فإننا لا نجد من الوقت ما نزرع فيه الذرة والأرز

ترى على أى شئ يعتمد أبؤنا ؟

حدثنى أيتها السماء النائبة الزرقاء !

متى ينتهى هذا كله ؟ ..

وهل فى الأشجار أوراق لم تصبح بعد أرجوانية ؟

وهل بقى فى البلاد رجل لم يتزع من بين ذراعى زوجته ؟

رحمة بنا نحن الجنود : —

ألسنا نحن أيضاً آدميين؟<sup>(٢٧)</sup>

وفى القصائد كثير من أغاني الحب المختلفة الفغم التى تضرب على أوتار القلوب ، وإن كان ذلك العصر يبدو لنا لقرط جهلنا عصر الهمجية الصينية وبداية تاريخها . ونحن نستمع فى إحدى هذه القصائد إلى صوت الشباب المتمرد إلى أبد الدهر

يهمس في آذاننا من خلال القرون البائدة ، التي كانت تبدو عهداً نموذجية  
لكنفوشيوس ، وكأما هي تقول أن لا شيء مماثل التمرد والعصيان في قدم العهد :

أتوسل إليك يا حبيبي

أن تغادر قريتي الصغيرة

وآلا تهشم أغصان صفصافي ؛

وليس ذلك لأن تهشيمها يحزني

بل لأنني أخشى أن يثير تهشيمها غضب أبي .

والحب يناديني بعواطفه المقهورة : —

« إن أوامر الأب يجب أن تطاع »

أتوسل إليك يا حبيبي

ألا تنسلق جدار بيتي

أو تحطم أغصان توتي

وليس ذلك لأنني أخشى سقوطها

بل لأنني أخشى أن يثير سقوطها غضب أخي .

والحب يناديني بعواطفه المقهورة : —

« إن كلام الأخ يجب أن يطاع »

أتوسل إليك يا حبيبي ،

ألا تنسلل إلى الحديقة

ولا تحطم أشجار الصندل ؛

وليس هذا لأنني أعني بهذه أو تلك

بل لأنني أرهب حديث المدينة ،

وإذا ما سار المحبون على هوام

فإذا يقول عنهم جيرانهم؟<sup>(٢٨)</sup>  
وثمة قصيدة أخرى هي أقرب هذه القصائد إلى الكمال ، أو أحسنها ترجمة ،  
وهي تدل على أن العواطف البشرية قديمة مougلة في القدم :

جلال الصباح يعلو فوق هامتي  
وتحيط بي الأزهار الشاحبة بيضاء وأرجوانية وزرقاء وحمراء ، أنا قلقة البال  
وتحرك شيء بين الحشائش الذابلة  
فظننت أن ما سمعته هو وقع أقدامه ،  
وإذا جنذب يصر ،

وتسلقت التل ساعة أن بزغ الهلال  
فأبصرته مقبلا من الطريق الجنوبي  
فاستراح واطرح عنه حملة<sup>(٢٩)</sup>

### ٥ - الفلاسفة قبل كنفوسبوس

« كتاب التغيرات » - « اليانج والين » - عصر الاستنارة الصينية  
ننج شي سقراط الصين

يمتاز هذا العصر بفلسفته . وليس يعيب الجس البشري أن تشوفه كان في  
كل عصر من العصور يسبق حكمته ، وأن مثله العليا كانت تخطو بأسرع من  
خطى مسلكه . وها هو ذا يو - دزه في عام ١٢٥٠ ق . م ينطق بتلك العبارة  
القصيرة التي تعد من جوامع الكلم ، والتي طالما رددتها الناس من قبله ،  
ولكنها لم تبل جدتها بعد ؛ إذ لا يزال الناس في حاجة إلى من يذكرهم بأن كل  
مجد مآله كرب وشقاء :

« من يطرح المجد ولا يعبأ به ينتج من الأحران »<sup>(٣٠)</sup>

ألا ما أسعد الإنسان الذي لا تاريخ له ! وقد ظلت بلاد الصين من ذلك العهد القديم إلى يومنا هذا تخرج فلاسفة .

فكما أن الهند أرقى بلاد العالم في الأديان ، وعلم ما وراء الطبيعة ، فكذلك الصين أرقاها في الفلسفة الإنسانية غير الدينية ، إذ لا يكاد يوجد في الأدب الصيني كله كتاب ذو شأن في علم ما وراء الطبيعة غير تلك الوثيقة العجيبة التي يبدأ بها تاريخ التفكير الصيني المدون ، وهي الوثيقة المعروفة باسم إي — چنج ، أو « كتاب التعميرات » . وتقول الرواية المأثورة إن هذا الكتاب قد كتبه ون وانج ، أحد مؤسسي أسرة چو في سجنه ، وإن أبسط مبادئه مستمدة من فوشى الذي عاش قبله بزمان طويل . وهم يقولون لنا إن هذا الإمبراطور الأسطوري اخترع « الجوات » الثماني أو الثناليث الرمزية التي ترى علوم ما وراء الطبيعة عند الصينيين أنها تنطبق على قوانين الطبيعة وعناصرها . وهم يقولون إن كل واحد من هذه الثناليث يتألف من ثلاثة خطوط بعضها متصل ويمثل عنصر الذكورة أو البانج وبعضها منقطع ويمثل عنصر الأنوثة أو الين

وكذلك يمثل البانج في هذه الثنائية الرمزية العنصر الإيجابي الفعّال ، المنتج ، السماوى عنصر الضوء والحرارة والحياة ؛ على حين أن الين يمثل العنصر السلبي المنفعل ، الأرضى ، عنصر الظلمة والبرودة والموت . وقد حلّد ون بانج ذكره ، وأتعب عقول آلاف الملايين من الصينيين بمضاعفة عدد الشرط في الخطوط المتصلة والمتقطعة ، فرفع بذلك عدد تباديلها وتوافيقها إلى أربعة وستين كل منها يقابل قانوناً من قوانين الطبيعة ، ويحتوى على جميع العلوم والتاريخ . والحكمة جميعاً تكمن في هذه الأربع والستين شَيِينجَة — أو الآراء الممثلة تمثيلاً رمزياً في الثناليثات السالفة الذكر . والحقائق كلها يمكن ردها إلى تعارض واتحاد العاملين الأساسيين في السكون وهما عنصر الذكورة والأنوثة أى البانج والين . وكان



الصينيون يتخذون كتاب التغيرات كتاباً يدرسون فيه طرق التنبؤ بالغيب ، وبعدها أعظم تراثهم الأدبي ، ويقولون إن كل من فهم ما فيه من توافيق يدرك جميع القوانين الطبيعية . وقد نشر كنفوشيوس هذا الكتاب بنفسه ، وجمّله بما علق عليه من الحواشي ، وكان يفضلُه عن كل ما عدها من كتب الصينيين ، ويتمنى أن يخلو نفسه خمسين عاماً يقضيها في دراسته<sup>(٣١)</sup> .

ولا يتفق هذا السفر المعجيب مع روح الفلسفة الصينية ، وهي الروح الإيجابية العملية ، وإن كان يلائم غموض النفس الصينية . ونحن نجد في الصين فلاسفة في أبعد الأزمان التي وصل إلينا تاريخها ، ولكن كل ما حفظه التاريخ لهم قبل أيام لو — دَرَه ، لا يعدو أن يكون قطعة مبتورة من هنا وهناك ، أو مجرد اسم من الأسماء ، وقد شهد القرنان السادس والخامس في بلاد الصين ، كما شهدا في الهند وفارس وبلاد اليهود واليونان ، عاصفة قوية من العبقرية الفلسفية والأدبية ، بدأت كما بدأت في بلاد اليونان بعصر من « الاستنارة » العقلية . ولقد سبق هذه الاستنارة عهد من الحروب والفوضى فتح أمام المواهب غير ذات الأنساب العريقة مسلك للرقى ، وحفز أهل المدن إلى أن يطلبوا لأنفسهم معامين يتفقون أذهانهم بالفنون العقلية . وسرعان ما كشف معلمو الشعب ما في علوم الدين من إبهام وغموض ، وما في الأداة الحكومية من نقص ، وعرفوا أن المقاييس الأخلاقية مقاييس نسبية ، وشرعوا يبحثون عن المثل العليا والسكّال المطلق . وقد أعدم الكثيرون من هؤلاء الباحثين على يد ولاة الأمور الذين وجدوا أن قتلهم أسهل من محاجبتهم . وتقول إحدى الروايات الصينية إن كنفوشيوس نفسه ، وهو وزير الجريمة في مقاطعة لو ، حكم بالإعدام على موظف صيني متمرد بحجة أنه « كان في وسعه أن يجمع حوله طائفة كبيرة من الرجال ؛ وأن آراءه كانت تجد بسهولة من يستجيب لها من العامة ، وأن تجعل العناد صفة خليقة بالإبار والإجلال ؛ وأن سغسطه كان فيها من المعارضة والمعاندة

ما يمكنها من الوقوف في وجه الأحكام الحقة المعترف بها من الناس»<sup>(٣٢)</sup> .  
ويصدق زوما — تشين هـذه القصة ، ولكن بعض المؤرخين الصينيين  
يرفضونها<sup>(٣٣)</sup> ؛ ونحن نرجو ألا تكون صحيحة .

وأشهر هؤلاء المتمردين العقليين هو تنج شى الذى أعدمه دوق چنج في  
شباب كنفوشىوس ، ويقول كتاب ليه — دزه : إن تنج هذا كان « يعلم  
النظريات القائلة إن الحق والباطل أمران نسيان ، ويؤيد هذه الآراء بحجج  
لا آخر لها »<sup>(٣٤)</sup> . واتهمه أعداؤه بأنه لم يكن يستدرك أن يثبت اليوم رأياً  
ويثبت عكسه في غد ، إذا ما نال على عمله هذا ما يرتضيه من الأجر ؛ وكان  
يعرض خدماته على من لم قضايا في المحاكم ، ولا يرى ما يعوقه عن تقديمها لمن  
يطلبها من الناس .. ويروى عنه أحد أعدائه من المؤرخين الصينيين هذه  
القصة الطريفة :

غرق رجل موسر من الولاية التي كان يقيم فيها تنج في نهر واي ، وأخرج  
رجل جثته من الماء ، وطلب إلى أسرة القتل مبالغاً كبيراً من المال نظير إخراجها  
من النهر . وذهبت أسرة القتل إلى تنج تستشيريه في الأمر ، فأجابها السوفسطائى  
بقوله : « تريثوا فلن تؤدي المال المطلوب أسرة غير أسرتمكم » ، وعملت أسرة  
القتيل بهذه النصيحة . وقلق الرجل الذى كانت الجثة في حوزته فجاء هو أيضاً  
إلى تنج شى يستنصحه . فنصحه السوفسطائى بما نصح به أهل القتل إذ قال له :  
« تريث ؛ فإنهم لن يحصلوا على الجثة إلا منك »<sup>(٣٥)</sup>

ووضع تنج شى قانوناً للعقوبات تبين أنه أرق مما تطبقه حكومة چنج . ولما  
ضاق رئيس الوزراء ذرعاً بالنشرات التي كان تنج يحمل فيها على سياسته حرم  
إصاقها في الأماكن العامة ، فما كان من تنج إلا أن عمد إلى توزيعها على  
الناس بنفسه ، فلما حرم الوزير توزيع النشرات أخذ تنج يهربها إلى القراء  
مخبوءة بين أشياء أخرى ، فلما أعيت الحكومة الحيل أمرت بقطع رأسه<sup>(٣٦)</sup> .

## ٦ — المعلم القديم

لو - دزه - « للدّو » - رجال الفكر في الحكومة - سخب  
القوازي - مدينة فاضلة على غرار مدينة روسو وقانون أخلاق على غرار  
القانون المسيحي - صورة الرجل الحكيم - التقاء لو - دزه وكنفوشيوس

كان لو - دزه ، أعظم فلاسفة الصين قبل كنفوشيوس ، أكثر حكمة من  
تتبع شي ؛ فقد كان يعرف حكمة الصمت ، وما من شك في أنه عمر طويلاً وإن  
لم تكن واثقين من أنه عاش حقاً ويحدثنا المؤرخ الصيني زوماتشين أن لو - دزه  
عافت نفسه سفالة السياسيين ، ومل عمله في أمانة مكتبة چو الملكية ، فاعتزم أن  
يفادر الصين ليبحث له عن ملجأ بعيد من منزل في الريف . « فلما أن وصل إلى  
حدود البلاد قال له الحارس ين شي : إملك إذن تنشدة العزلة ، وأنا أرجوك أن  
تكتب لي كتاباً . فكتب له لو - دزه كتاباً من جزأين في الدّو والدّو الذي يشتمل  
على خمسة آلاف كلمة . ولما أن أتمه اختفى ولم يعلم أحد أين مات » (٣٧) .  
لكن الروايات والأفصيص ، التي لا تخفى عليها خافية ، تقول إنه عاش  
سبعة وثمانين عاماً . ولم يبق لنا منه إلا اسمه وكتابه وقد لا يكون هذا أوداك له .  
فأما لو - دزه ، فوصف معناه « المعلم القديم » وأما اسمه الحقيقي فهو ، كما  
تقول الرواية ، لي - أي البرقوقة .

والكتاب الذي يرمز إليه مشكوك فيه شكاً أثار كثيراً من الجدل العلمي  
حول أصله (\*) ولكن الباحثين جميعاً متفقون على أن الدو - ده - چنج -  
أي « كتاب الطريقة والفضيلة » - هو أهم النصوص الخاصة بالفلسفة الدّوية التي

---

( \* ) ويرى الأستاذ جيلز Giles أنه كتاب مزور ألف بعد عام ٢٠٠ ب . م . وقد  
اختلسه مؤلفه من هان في (٣٨) الناقد وكتب المقالات . أما الدكتور ليج Dr Legge فيرى أن  
تكرار الإشارة إلى لو ( وتسميته لتوثان ) في أقوال چوانج - دزه وأقوال زوماتشين يدل  
على أن الصينيين ظلوا على الدوام يمتدنون صحة نسمة الدو - دي - چج إلى مؤلفه .

يقول العلماء الصينيون إنها وجدت قبل لو — دزه بزمن طويل ، والتي كان لها من بعده أنصار من الطراز الأول ، والتي صارت فيما بعد دينًا تعتنقه أقلية كبيرة من الصينيين من أيامه إلى وقتنا هذا ، وجملة القول أن مؤلف الدو — ده — چنج مسألة ذات أهمية ثانوية ، وأما الآراء التي احتواها الكتاب فمن أبداع ما كتب في تاريخ الفكر الإنساني .

ومعنى لفظ الدو هو الطريقة : وهي أحيانًا طريقة الطبيعة ، وأحيانًا الطريقة الدوئية للحياة الحكيمة . أما المعنى الحرفي لهذا اللفظ فهو الطريق . وهو في الأصل طريقة للتفكير أو للامتناع عن التفكير ، وذلك لأن الدويين يرون أن التفكير أمر عارض سطحي لا خير فيه إلا للجدل والحاجة ، يضر الحياة أكثر مما ينفعها . أما « الطريقة » فيمكن الوصول إليها بنبذ العقل وجميع مشاغله ، وبالالتجاء إلى حياة العزلة والتقصيف والتأمل الهادئ في الطبيعة : وليس العلم في رأي صاحب الكتاب فضيلة ، بل إن السفلة قد زاد عددهم من يوم أن انتشر العلم . وليس العلم هو الحكمة ، ذلك أنه لا شيء أبعد عن الرجل الحكيم من « صاحب العقل » . وشر أنواع الحكومات التي يمكن تصورهما حكومة الفلاسفة ؛ ذلك أنهم يقحمون النظريات في كل نظام طبيعي ؛ وأكبر دليل على مجزهم عن العمل هو قدرتهم على إلقاء الخطب والإكثار من الآراء ، وفي ذلك يقول الكتاب :

إن المهرة لا يجادلون ؛ وأصحاب الجدل عطل من المهارة ... وإذا ما نبذنا المعارف نجونا من المتاعب .. والحكيم يبقى الناس على الدوام بلا علم ولا شهوة ، وإذا وجد من لهم علم منهم من الإقدام على العمل ... وإن الأقدمين الذين أظهروا براعتهم في العمل بما في الدول لم يفعلوا ما فعلوه ليبدروا عقول الناس ، بل ليجمعوهم سذجًا جهلاء ... والصعوبة التي يواجهها الحكام إنما تنشأ من كثرة ما عند الناس من العلم ، ومن يحاول حكم دولة من الدول بعلمه وحكمته ينكل

بها ويفسد شئونها ، أما الذى لا يفعل هذا فهو نعمة لها وبركة<sup>(٤٠)</sup> وإنما كان صاحب الفكر خطراً على الدولة لأنه لا يفكر إلا فى الأنظمة والقوانين ؛ فهو يرغب فى إقامة مجتمع على قواعد هندسية ، ولا يدرك أن أنظمتها إنما تقضى على ما يتمتع به المجتمع من حرية حيوية ، وما فى أجزائه من نشاط وقوة . أما الرجل البسيط الذى يعرف من تجاربه ما فى العمل الذى يتصوره ويقوم به بكامل حريته من لذة ، وما ينتجه من ثمرة ، فهو أقل من العالم خطراً على الأمة إذا تولى تدبير أمورهما ، لأنه لا يحتاج إلى من بدله على أن القانون شديد الخطر عليها ، وأنه قد يضرها أكثر مما ينفعها<sup>(٤١)</sup> . فهذا الرجل لا يضع للناس من الأنظمة إلا أقل قدر مستطاع ، وإذا تولى قيادة الأمة ابتعد بها عن جميع ألقاب الخداع والتعقيد ، وقادها نحو البساطة العادية التى تسير فيها الحياة سيراً حكيماً على النهج الطبيعى الحكيم الرتيب الخالى من التفكير ، وحتى الكتابة نفسها يهمل أمرها فى هذا النمط من الحكم لأنها أداة غير طبيعية تهدف إلى الشر . فإذا تحررت غرائز الناس الاقتصادية التلقائية التى تحركها شهوة الطعام والحب من القيود التى تفرضها الحكومات ، دفعت عجلة الحياة فى مسيرها الطبيعى الصحيح . وفى هذه الحال تقل المحترعات التى لاتنفيد إلا فى زيادة ثراء الأغنياء وقوة الأقوياء ؛ وتمضى الكتب والقوانين والصناعات ولا تبقى إلا التجارة القروية .

«إن كثرة النواهي والمحرمات فى المملكة تزيد من فقر الأهلين . وكلما زاد الأدوات التى تضاعف من كسبهم زاد نظام الدولة والعشيرة اضطراباً ، وكلما زاد ما يجيده الناس من أعمال الختل والحدق زاد عدد ما يلجئون إليه من حيل غريبة وكلما كثرت الشرائع والقوانين كثرت عدد اللصوص وقطاع الطرق ؛ ولهذا قال أحد الحكماء : لن أفل شيئاً ، فيتبدل الناس من تلقاء أنفسهم ، وسأولع بأن أبقى ساكناً فينصلح الناس من تلقاء أنفسهم ، ولن أشغل بالى بأمر الناس غيرى الناس من تلقاء أنفسهم ؛ ولن أظهر شيئاً من المطامع فيصل الناس من

تلقاء أنفسهم إلى ما كانوا عليه من سذاجة بدائية ...

وسأُنظّم الدولة الصغيرة القليلة السكان بحيث إذا وجد فيها أفراداً للواحد منهم من الكفريات ما لعشرة رجال أو مائة رجل فلن يكون لهؤلاء الأفراد عمل؛ وسأجعل الناس فيها، وإن نظروا إلى الموت على أنه شيء يحزن يؤسف له، لا يخرجون منها (لينجوا بأنفسهم منه)؛ ومع أن لهم سفناً وعربات فإنهم لا يرون ما يدعو إلى ركوبها؛ ومع أن لهم ثياباً منقحة وأسلحه حادة، فإنهم لا يجدون ما يدعو إلى لبس الأولى أو استخدام الثانية، وسأجعل الناس يعودون إلى استخدام الحبال المعقودة<sup>(\*)</sup>.

وسيرون أن طعامهم (الخشن) وملابسهم (البسيطة) جميلة، ومسأكمهم (الحقيرة) أمكنة للراحة، وأساليبهم العادية المألوفة مصادر للذة والمتعة، وإذا كانت هناك دولة مجاورة قريبة منا تراها بأعيننا وتصل إلى آذاننا منها تنقطة الدجاج ونباح الكلاب، فإنني لن أجعل للناس وإن طال عمرهم صلة بها إلى يوم مماتهم<sup>(٤٢)</sup>.  
شُرئ ما هي هذه الطبيعة التي يرغب لو— دزه، في أن يتخذها مرشداً له وهادياً؟ إن هذا المعلم القديم يفرق بين الطبيعة والحضارة تفريقاً محمداً واضح المعالم، كما فعل روسو من بعده في عباراته الطنانة الرنانة التي يطلق عليها الناس اسم «التفكير الحديث»؛ فالطبيعة في نظره هي النشاط التلقائي، وانسياب الحوادث العادية المألوفة، وهي النظام العظيم الذي تتبعه الفصول وتتبعه السماء؛ وهي الدؤ أو الطريقة الممثلة للجسمة في كل مجرى وكل صخرة وكل نجم؛ وهي قانون الأشياء العادل الذي لا يحفل بالأشخاص، واسكنه مع ذلك قانون معقول يحب أن يخضع له قانون السلوك إذا أراد الناس أن يعيشوا في حكمة وسلام. وقانون الأشياء هذا هو الدؤ أو طريقة الكون كما أن قانون السلوك هو الدؤ أو طريقة الحياة. ويرى

(\*) طريقة في نقل الأفكار سابقة على الكتابة. ولفظ أجعل هنا بعيد عن التعمد عن

لَوْ — دزه ، أن الدَّوِين في واقع الأمر دو واحد ، وأن الحياة في تناغمها الأساسى السليم ليست إلا جزءاً من تناغم الكون . وفي هذا الدَّو الكونى تتوحد جميع قوانين الطبيعة وتكون مادة الحقائق كلها التى يقول بها اسبنوزا ؛ وفيه تجدد كل الصور الطبيعية على اختلاف أنواعها مكانها الصحيح ، وتجتمع كل المظاهر التى تبدو للعين مختلفة متناقضة ، وهو الحقيقة المطلقة التى تتجمع فيها كل الخصائص والمعضلات لتتكون منها وحدة هيكل Hegel الشاملة <sup>(٤٣)</sup>»

ويقول لَوْ إن الطبيعة قد جعلت حياة الناس فى الأيام الخالية بسيطة آمنة ، فكان العالم كله هينئاً سعيداً . ثم حصل الناس «المعرفة» فمقدوا الحياة بالمتغيرات وخسروا كل طهارتهم الذهنية والخالقية ، وانتقلوا من الحقول إلى المدن ، وشرعوا يؤلفون الكتب ، فنشأ من ذلك كل ما أصاب الناس من شقاء ، وجرت من أجل ذلك دموع الفلاسفة . فالما قبل إذن من يتعد عن هذا التعقيد الحضرى وهذا التيه الموهن تيه القوانين والحضارة ، ويختفى بين أحضان الطبيعة ، بعيداً عن المدن والكتب ، والموظفين المترشدين . والمصلحين المغترين . وسرّ الحكمة كلها وسر القناعة الهادئة ، وهى وحدها التى يجد فيها الإنسان السعادة الأبدية ، هو الطاعة العمياء لقوانين الطبيعة ، ونبذ جميع أساليب الخداع وأفانين العقل ، وقبول جميع أوامر الطبيعة الصادرة من الفرائز ، والشعور فى ثقة واطمئنان ، والجرمى على سنن الطبيعة الصامتة وتقليدها فى تواضع .

ولعلنا لا نجد فى الأدب كله فقرة أكثر انطباقاً على العقل والحكمة من الفقرة الآتية :

إن كل ما فى الطبيعة من أشياء تعمل وهى صامتة ، وهى توجد و ليس فى حوزتها شيء ، تؤدى واجبها دون أن تكون لها مطالب ، وكل الأشياء على السواء تعمل عملها ثم تراها تسكن وتتمد ، وإذا ما ترعرعت وازدهرت عاد كل منها

إلى أصله ، وعودة الأشياء إلى أصولها معناها راحتها وأداؤها ما قدر لها أن تؤديه .  
وعودتها هذه قانون أزل ، ومعرفة هذا القانون هي الحكمة<sup>(٤٤)</sup> .

والخمود الذى هو نوع من التعطل الفلسفى وامتناع عن التدخل فى سير الأشياء  
الطبيعى هو ما يمتاز به الحكيم فى جميع مناحى الحياة ، فإذا كانت الدولة مضطربة  
مختلفة النظام نخير ما يفعلها ألا يحاول الإنسان إصلاح أمورها ، بل أن يجعل حياته  
نفسها أداء منظماً لواجبه ، وإذا ما لاقى الإنسان مقاومة فأحكم السبل ألا يكافح  
أو يقاتل أو يحارب بل أن يتروى فى سكون ، وأن يكسب ما يريد أن يكسبه ،  
إذا كان لا بد من الكسب ، بالخضوع والصبر ؛ ذلك أن المرء يقال من النصر  
بالسكون أكثر مما ينال بالعمل ، وفى هذا يحدثنا لو — ذره حديثاً لا يكاد  
يختلف فى لهجته عن حديث المسيح !

« إذا لم تقاتل الناس فإن أحداً على ظهر الأرض لن يستطيع أن يقاتلك ...  
قابل الإساءة الإحسان . أنا خَيْرُ للأخيار ، وخَيْرُ أيضاً لغير الأخيار ؛ وبذلك  
يصير (الناس جميعاً) أخياراً ؛ وأنا محلص للمخلصين ، ومخلص أيضاً لغير  
المخلصين ؛ وبذلك يصير (الناس جميعاً) مخلصين . . . . وأين الأشياء فى العالم  
تصدم أصلها وتتغلب عايتها . . . وليس فى العالم شيء ألين أو أضعف من الماء ،  
ولكن لا شيء أقوى من الماء فى مغالبة الأشياء الصلبة القوية<sup>(٤٥)</sup> (\*) .

وتبلغ هذه الآراء غايتها فى الصورة التى يتخيلها « لو » للرجل الحكيم .  
وقبل أن نرسم للقارىء هذه الصورة نقول إن من أخص خصائص الفكرين  
الصينيين أنهم لا يتحدثون عن القديسين ، بل يتحدثون عن الحكماء ، وأنهم

---

(\*) ويضيف إلى ذلك فى شهادة طائشة . « إن الأثني تغلب الذكر على النوام  
بسكونها »<sup>(٤٦)</sup> .



لا يتحدثون عن الصلاح بقدر ما يتحدثون عن الحكمة . فليس الرجل المثالي في نظر الصينيين هو التقى العابد ، بل هو صاحب العقل الناضج الهادئ ، الذي يعيش عيشة البساطة والسكون وإن كان خليقاً بأن يشغل مكاناً سامياً في العالم . ذلك أن للسكون هو بداية الحكمة ، والحكيم لا يتكلم حتى على الدوّ والحكمة ، لأن الحكمة لا تنقل إلا بالقدوة والتجربة لا بالألفاظ ؛ والذي يعرف ( الطريقة ) لا يتحدث عنها ؛ والذي يتحدث عنها لا يعرفها ؛ والذي ( يعرفها ) يقفل فاه ويسد أبواب خياشيمه <sup>(٤٧)</sup> ، والحكيم شيمته التواضع ، لأن الإنسان متى بلغ الخمسين من عمره <sup>(\*)</sup> فقد آن له أن يدرك أن المعرفة شيء نسبي ، وأن الحكمة شيء ضعيف سهل العطب ؛ وإذا عرف الحكيم أكثر مما يعرف غيره من الناس حاول أن يخفي ما يعرفه « فهو يحاول أن يقلل من سنه ولألائه ويوائم بين سنه وقيام ( غيره ) <sup>(٤٩)</sup> ؛ وهو يتفق مع السذج أكثر مما يتفق مع العلماء ، ولا يألم من غريزة المعارضة التي هي غريزة طبيعية في الأحداث المبتدئين . وهو لا يعبأ بالثروة أو السلطان ، بل يُخضع شهواته إلى الحد الأدنى الذي يكاد يتفق مع العقيدة البوذية :

« ليس لشيء عندي قيمة ، وأشتهى أن يخضع قلبي خضوعاً تاماً ، وأن يفرغ حتى لا يبقى فيه شيء قط . . . يجب أن يبلغ الفراغ أقصى درجاته ، وأن يحاط السكون بقوة لا تمل . . . ومن كانت هذه صفاته لا يمكن أن يعامل بجفاء أو في غير كلفة . وهو أكبر من أن يتأثر بالسكاسب أو الأذى وبالنبيل أو الاحطاط وهو أنبل إنسان تحت قبة السماء » <sup>(٥٠)</sup> .

---

(٥) يعتقد الصينيون أن الحكيم تنضج قواه حوالى الخمسين من عمره ، وأفة يعيش في هدوء منطوياً على حكمته مائة عام كاملة (٤٨) .

ولسنا نرى حاجة لبيان ما في هذه الآراء من اتفاق مع آراء جان چاك روسو وحسبنا أن نقول إن الرجلين قد صُنَّا في قالب واحد مهما يكن بُعد ما بينهما من الزمن ، وإن فلسفتهما من نوع الفلسفة التي تظهر وتختفي ثم تعود إلى الظهور في فترات دورية ؛ ذلك بأن الناس في كل جيل يملّون ما في حياة المدن من كفاح وقسوة وتعقيد وتسايق ، فيكتبون عن مباهج الحياة الريفية الريفية كتابة تستند إلى الخيال أكثر مما تستند إلى العلم بحقائق الأمور . وما من شك في أن المرء لا بد له من خبرة سابقة طويلة بحياة المدن إذا شاء أن يكتب شعراً عن حياة الريف « والطبيعة » لفظ طيّح سهل على لسان كل باحث في الأخلاق أو الدين ؛ وهو لا يوائم علم دارون ولا أخلاقية نتشة أكثر مما يوائم فلسفة « لو — دزه » والمسيح المتعلقة الحلوة .

ذلك أن الإنسان إذا ما سار على سنن الطبيعة أدى به هذا إلى قتل أعدائه وأكل لحومهم لا إلى ممارسة الفلسفة ، وقلّ أن يكون وضيقاً ذليلاً ، وأقلّ من هذا أن يكون هادئاً ساكناً . بل إن فلح الأرض — وهو العمل الشاق للمؤم — لا يوائم قط ذلك الجنس من الناس الذي اعتاد الصيد والقتل ؛ ولهذا كانت الزراعة من الأعمال « غير الطبيعية » مثاها في هذا كمثل الصناعة سواء بسواء . على أن في هذه الفلسفة رغم هذا كله شيئاً من السلوى وراحة البال . وأكبر ظننا أننا نحن أيضاً حين تبدأ إيران عواطفنا في الحمود نرى فيها غير قليل من الحكمة ؛ ونرى فيها السلم المريح الذي ينبعث من الجبال غير المزدهجة ومن الحقول الرحبة . إن الحياة تتأرجح بين فتير وروسو ، وبين كنفوشيوس ولو — دزه ، وبين سقراط والمسيح .

وإذا ما استقرت كل فكرة زمنياً ما في عقولنا ، ودافعنا عنها دفاعاً ليس فيه شيء من البسالة أو من الحكمة ، ملنا نحن أيضاً تلك المعركة وتركنا إلى الشباب ما كان قد تجمّع لدينا من مثل عليا تناقص عديدها . فإذا ما حدث هذا لجأنا إلى

القباب مع جان چاك ومع لو— دزه وأمثالها ؛ وصادقنا الحيوان ؛ وتحدثنا ونحن أكبر رضاً واطمئناناً من، مكيفلى إلى عقول الزراع السذج ، وتركنا العالم ينضح بالشرور ، ولم نفكر قط فى إصلاحه . ولعلنا وقتئذ نحرق وراءنا كل كتاب فيه إلا كتاباً واحداً ، ولعلنا نجد خلاصة الحكمة كلها فى الدو — دى — چنج .

وفى وسعنا أن نتصور ما كان لهذه الفلسفة فى نفس كنفوشىوس من أثر مؤلم محقق . فقد جاء هذا الفيلسوف فى سن الرابعة والثلاثين ، وهى السن التى لا يكتمل فيها نضوج الذهن ، إلى لويانج حاضرة چو اىستشير المعلم الكبير فى بعض أمور دقيقة ذات صلة بالتاريخ<sup>(\*)</sup> ويقال إن لو — دزه أجابه بإجابة فظة ضامضة قصيرة :

« إن الذين تسأل عنهم قد استحالوا هم وعظامهم تراباً ، ولم يبق إلا الألفاظهم ، وإذا ما حانت ساعة الرجل العظيم قام من فورهِ وتولى القيادة ، أما قبل أن تحين هذه الساعة فإن العقبات تقام فى سبيل كل ما يحاوله . ولقد سمعت أن التاجر الموفق يحرص على إخفاء ثروته ، ويعمل عمل من لا يملك شيئاً من حطام الدنيا — وأن الرجل العظيم بسيط فى أخلاقه ومظهره رغم ما يقوم به من جلائل الأعمال ، فتخلص من كبرياتك ومطامعك الكثيرة ، وتصنعك وآمالك المفرطة البعيدة . إن هذه كلها لا ترفع قط من أخلاقك . وهذا ما أشير به عليك »<sup>(٦١)</sup> .

ويقول المؤرخ الصينى الذى يروى هذه القصة إن كنفوشىوس أحسَّ من فورهِ بسداد هذه النصيحة ، ولم يرف فى هذه الألفاظ ما يسىء إليه ، بل إنه رأى فيها عكس هذا ، وقال لتلاميذه بعد أن عاد من عند الفيلسوف المحتضر :

« إنى أعرف كيف يطير الطير ، ويسبح السمك ، ويجرى الحيوان ؛

---

(\*) ويروى زومان تشين أعظم المؤرخين الصينيين هذه القصة ، ولكنها قد تكون حديث خرافة ، ولنا ليدھشنا حقاً أن نجد لو — دزه فى أكثر مدن الصين حركة فى السابعة والثمانين من عمره .

ولسكن الذى يجرى على الأرض يمكن اقتناصه ، والذى يسبح فى الماء يمكن  
صيده ، والذى يطير فى الجو يمكن إصابته بالسهم . غير أن هناك تيناً مهولاً —  
ولست أستطيع أن أقول كيف يركب الريح ويحترق بها السحاب ويعلو فى أجواز  
الفضاء . لقد قابلت اليوم لو — دزه ، ولست أستطيع أن أجد له مثيلاً غير  
التنين<sup>(٦٢)</sup> . ثم خرج المعلم الجديد ليؤدى رسالته ، وليكون أعظم فلاسفة  
التاريخ أئماً .

## الفصل الثاني

كنفوشيووس

### ١ — الحكيم يبحث عن دولته

مولده وشبابه — زواجه وطلاق زوجته — تلاميذه وطرأته — مظهره وأخلاقه — السيدة والنمر — تعريف الحكومة الصالحة — كنفوشيووس في منصبه — سنو التحوال — سلوى الشيوخة

ولد كونج — فو — دزه أو كونج المعلم كما كان تلاميذ كونج — تشيوو يسمنونه في عام ٥٥١ ق . م في مدينة تشو — فو إحدى البلاد التي كانت تكوّن وقتئذ مملكة لو، والتي تكون الآن ولاية شان تونج .

وتصف الأفاصيص الصينية، وهي التي لا تضارعها أفاصيص أخرى في خصب خيالها، كيف أعلنت الأشباح إلى أمه الشابة مولده غير الشرعي<sup>(٦٣)</sup>، وكيف كانت الهولات التي تجرسها والأرواح الأناث تعطر لها الهواء وهي تله في أحد الكهوف . وتقول تلك الأفاصيص إنه كان له ظهر تفين، وشفقتا نور، وفم في سعة البحر<sup>(٦٤)</sup>، وإنه ولد من أسرة هي أقدم الأسر الباقية على قيد الحياة إلى الآن لأنه (كما يؤكد علماء الأنساب الصينيون) من نسل الإمبراطور العظيم هوانج — دي، وإن له أحفاداً كثيرين، وإن نسله لم ينقطع إلى وقتنا هذا ولقد بلغ عدد من تناسل منهم منذ مائة عام أحد عشر ألفاً من الذكور، ولا تزال البلدة التي ولد فيها حتى هذا اليوم لا يعمرها إلى نسله — أو بعبارة أدق إلا نسل ابنه الوحيد؛ ومن نسله وزير المالية في الحكومة الصينية القائمة للآن في نانكينج<sup>(٦٥)(\*)</sup>.

(\*) وتنتطق أيضاً « نانجينج . ويقصد بقوله إلى وقتنا هذا وقت أن كتب هذا الكتاب

وكان والد كونج في السبعين من عمره حين ولد له ولده<sup>(٦٦)</sup> ، ومات حين بلغ ابنه سن الثالثة . وكان كنفوشوس يعمل بعد الفراغ من المدرسة يساعد على إعالة والدته ، ولعله قد تمود في طفولته تلك الرزانة التي هي من خصائص كبار السن ، والتي لازمتها في كل خطوة خطاها طوال حياته . ولكنه مع هذا وجد متسعاً من الوقت يحذق فيه الرماية والموسيقى ؛ وبلغ من شدة ولعه بالموسيقى أنه كان يستمع صمّة إلى لحن مطرب ، فتأثر به تأثراً جملة على أن يمتنع عن أكل اللحوم ، وظل بعدئذ ثلاثة أشهر لا يذوق فيها اللحم أبداً<sup>(٦٧)</sup> . ولم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع نقشة في أن ثمة شيئاً من التناقض بين الفلسفة والزواج ، ذلك أنه تزوج في التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه طلق زوجته وهو في الثالثة والعشرين ، ويلوح أنه لم يتزوج بعدها أبداً .

ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره بدأ يشتغل بالتعليم ، واتخذ داره مدرسة له ، وكان يتقاضى من تلاميذه ما يستطيعون أداءه من الرسوم مهما كانت قليلة وكانت المواد التي يشملها برنامجه ثلاثاً : التاريخ والشعر وآداب اللياقة . ومن أقواله : « إن أخلاق الرجل تكونها القصائد وتنميتها المراسم » ( أى آداب الحفلات والجمالات ) « وتعطرها الموسيقى »<sup>(٦٨)</sup> .

وكان تعليمه كتعليم سقراط شفهيّاً لا يلجأ فيه إلى الكتابة ، ولهذا فإن أكثر ما نعرفه من أخباره قد وصل إلينا عن طريق أتباعه ومريديه ، وذلك مصدر لا يوثق به . وقد ترك إلى الفلاسفة مثلاً قل أن يعبثوا به—وهو ألا يهاجموا قط غيرهم من المفكرين ، وألا يضيعوا وقتهم في دحض حججهم . ولم يكن يعلم طريقة من طرائق المنطق الدقيق ، ولكنه كان يشحن عقول تلاميذه بأن يعرض بأخطائهم في رفق ويطلب إليهم شدة اليقظة العقلية . ومن أقواله في هذا المعنى : « إذا لم يكن من عادة الشخص أن يقول : ماذا أرى في هذا ؟ فإني لا أستطيع أن أفعل له شيئاً »<sup>(٦٩)</sup> . « وإني لا أفتح باب الحق لمن لا يحرص

على معرفته ، ولا أعين من لا يعنى بالإفصاح عما يكنه في صدره . وإذا ما عرضت ركناً من موضوع ما على إنسان ، ولم يستطع مما عرضته عليه أن يعرف الثلاثة الأركان الباقية فإنى لا أعيد عليه درسى»<sup>(٧٠)</sup> ، ولم يكن يشك في أن صنفين اثنين من الناس هما وحدهما اللدان يستطيعان أن يفيدا من تعاليمه وهما أحكم الحكماء وأغبي الأغبياء ، وأن لا أحد يستطيع أن يدرس الفلسفة الإنسانية بأمانة وإخلاص دون أن نصلح دراستها من خلقه وعقله . « وليس من السهل أن نجد إنساناً واصل الدرس ثلاث سنين دون أن يصبح إنساناً صالحاً »<sup>(٧١)</sup> . ولم يكن له في بادئ الأمر إلا عدد قليل من التلاميذ ، ولكن سرعان ما تواترت الإشاعات بأن ورام شفقتي النور والغم الواسع كالبحر قلباً رقيقاً وعقلاً يفيض بالعلم والحكمة ، فالتف الناس حوله حتى استطاع في آخر أيام حياته أن يفخر بأنه قد تخرج على يديه ثلاثة آلاف شاب غادروا منزله ليشغلوا امرا كز خطيرة في العالم .

وكان بعض الطلبة — وقد بلغ عددهم في وقت من الأوقات سبعمين طالباً — يعيشون معه كما يعيش الطلبة المبتدئون مع مدرسهم ( الجورو ) ؛ ونشأت بين المدرس وتلاميذه صلوات ود وثيقة دفعت هؤلاء التلاميذ في بعض الأحيان إلى الاحتجاج على أستاذهم حين رأوه يعرض نفسه للخطر أو اسمه للمهانة . وكان رغم شدته عليهم يحب بعضهم أكثر مما يحب ابنه ، ولما مات هوى بكى عليه حتى قرحت دموعه مآقيه . وسأله دوق جاى يوماً من الأيام أى تلاميذه أحبهم إلى العلم فأجابه : « لقد كان أحبهم إلى العلم ين هوى ، لقد كان يجب أن يتعلم ... ولم أسمع بعد عن إنسان يجب أن يتعلم ( كما كان يحب هوى ) ... لم يقدم لى هوى معونة ، ولم أقل قط شيئاً لم يبتهج له ... وكان إذا غضب كظم غيظه ؛ وإذا أخطأ مرة لم يعد إلى خطئه . ومما يؤسف له أنه كان قصير الأجل فمات وليس له في هذا الوقت ( نظير ) »<sup>(٧٢)</sup> . وكان الطلبة الكسالى يتعاشون

لقاءه فإذا لقيهم قسا عليهم ، وذلك لأنه لم يكن يتورع عن أن يعلم الكسول بضربة من عكازته ويطرده من حضرته دون أن تأخذه به رأفة . ومن أقواله : « ما أشقى الرجل الذى يملأ بطنه بالطعام طوال اليوم ، دون أن يجهد عقله فى شىء . . . لا يتواضع فى شبابه التواضع الخليق بالأحداث ، ولا يفعل فى رجولته شيئاً خليقاً بأن يأخذه عنه غيره ، ثم يعيش إلى أرذل العمر — إن هذا الإنسان وباء »<sup>(٧٣)</sup> .

وما من شك فى أنه كان يبدو غريب المنظر وهو واقف فى حجرته أو فى الطريق العام ، يعلم مرديبه التاريخ والشعر والآداب العامة والفلسفة ، ولا يقل استعداداه وهو فى الطريق عن استعداده وهو فى حجرته . وتمثله الصور التى رسمها له المصورون الصينيون فى آخر سنى حياته رجلاً ذا رأس أصلع لا تيكاد تنمو عليه شعرة ، قد تجعد وتعقد لكثرة ما مر به من التجارب ، ووجه ينم عن الجد والرهبة ولا يشعر قط بما يصدر عن الرجل فى بعض الأحيان من فكاهة ، وما ينطوى عليه قلبه من رقة ، وإحساس بالجمال مرهف يذكر المرء بأنه أمام إنسان من الأدميين رغم ما يتصف به من كمال لا يكاد يطاق ، وقد وصفه فى أيام كهولته الأولى مدرس له كان ممن يعلمونه الموسيقى فقال :

« لقد تبينت فى چونج — نى كثيراً من دلائل الحكمة ، فهو أجبه واسع العين ، لا يكاد يمترق فى هذين الوصفين عن هوانج — دى . وهو طويل الذراعين ذو ظهر شبیه بظهر السلحفاة ، ويبلغ طول قامته تسع أقدام ( صينية ) وست بوصات . . . وإذا تكلم أثنى على الملوك الأقدمين ، وهو يسلك سبيل التواضع والمجاملة ؛ وما من موضوع إلا سمع به ، قوى الذاكرة لا ينسى ما يسمع ؛ ذو علم بالأشياء لا يكاد ينفد . أسئنا نجد فيه حكماً ناشئاً ؟ »<sup>(٧٤)</sup> .

وتعزو إليه الأقاصيص « تسعاً وأربعين صفة عجيبة من صفات الجسم يمتاز بها عن غيره من الناس » . ولما فرقت بعض الحوادث بينه وبين مرديبه فى أثناء



تجواله ، عرفوا مكانه على الفور من قصة قصها عليهم أحد المسافرين ، قال إنه التقى برجل يشع الخلقه « ذى منظر كثيب شبيه بمنظر الكلب الضال » . ولما أعيد هذا القول على مسامع كنفوشيوس ضحك منه كثيراً ولم يزد على أن قال : « عظيم اعظيم ا »<sup>(٧٥)</sup> .

وكان كنفوشيوس معلماً من الطراز القديم يعتقد أن التناؤى عن تلاميذه وعدم الاختلاط بهم ضروريان لنجاح التعليم . وكان شديد المراعاة للمراسم ، وكانت قواعد الآداب والمجاملة طعامه وشرابه ، وكان يبذل ما فى وسعه للحد من قوة الغرائز الشهوات وكبح جماحها بعقيدته المتزمتة الصارمة . ويلوح أنه كان يركى نفسه فى بعض الأحيان . ويروى عنه أنه قال عن نفسه يوماً من الأيام قالة فيها بعض التواضع : « قد يوجد فى كفر من عشر أسر رجل فى مثل نبلى وإخلاصى ، ولكنه ان يكون مولعاً بالعلم مثلى »<sup>(٧٦)</sup> . وقال مرة أخرى : « قد أكون فى الأدب مساوياً لغيرى من الناس ، ولكن ( خُلق ) الرجل الأعلى الذى لا يختلف قوله عن فعله هو ما لم أصل إليه بعد »<sup>(٧٧)</sup> « لو وجد من الأسماء من يولىنى عملاً لقممت فى اثنى عشر شهراً بأعمال جلييلة ، ولبلغت (الحكومة) درجة السكال فى ثلاث سنين »<sup>(٧٨)</sup> . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إنه كان متواضعاً فى عظمتة . ويؤكد لنا تلاميذه أن « المعلم كان مهراً من أربعة عيوب ؛ كان لا يجادل وفى عقله حكم سابق مفرر ، ولا يتحكم فى الناس ويفرض عليهم عقائده ، ولم يكن عنيداً أو أنانيا »<sup>(٧٩)</sup> . وكان يصف نفسه بأنه « ناقل غير منشىء »<sup>(٨٠)</sup> . وكان يدعى أن كل ما يفعله هو أن ينقل إلى الناس ما تعلمه من الإمبراطورين العظيمين يُو وشون . وكان شديد الرغبة فى حسن السمعة والمناصب الرفيعة ، ولكنه لم يكن يقبل أن يتراضى على شىء مشين ليحصل عليهما أو يستبقيهما . وكمن مرة رفض منصباً رفيعاً عرضه عليه رجال بدا له أن حكومتهم ظالمة . وكان مما نصح به تلاميذه أن من واجب الإنسان أن يقول :

« است أبالي مطلقاً إذا لم أشغل منصباً كبيراً ، وإنما الذى أعنى به أن أجعل نفسى خليقاً بذلك المنصب الكبير . وليس يهمنى قط أن الناس لا يعرفوننى ؛ ولكننى أعمل على أن أكون خليقاً بأن يعرفنى الناس »<sup>(٨١)</sup> .

وكان من بين تلاميذه أبناء هانج هى ، أحد وزراء دوق لو ، وقد وصل كنفوشيوس عن طريقهم إلى بلاط ملوك چو فى لو — يانج ، ولكنه ظل بعيداً بعض البعد عن موظفى البلاط ، وآثر على الاقتراب منهم زيارة الحكيم لو — دزه وهو على فراش الموت كما سبق القول . فلما عاد إلى لو وجدها مضطربة ممرقة الأوصال بما قام فيها من نزاع وشقاق ، فانتقل منها إلى ولاية تشى المجاورة لها ومعه طائفة من تلاميذه مخترقين فى طريقهم إليها مسالك جبلية وعرة مهجورة . ولشد ما كانت دهشتهم حين أبصروا فى هذه القفار عجوزاً يبكى بجوار أحد القبور . فأرسل إليها كنفوشيوس تسه — لو ، يسألها عن سبب بكائها وحرنها ، فأجابته قائلة : « إن والد زوجى قد فتك به ممر فى هذا المكان ، ثم ثنى النمر بزوجى ، وها هو ذا ولدى قد لاقى المصير نفسه » . ولما سألتها كنفوشيوس عن سبب إصرارها على الإقامة فى هذا المكان الخطر ، أجابته قائلة : « ليس فى هذا المكان حكومة ظالمة » . فالتفت كنفوشيوس إلى طلابه وقال لهم : « أى بنائى اذكروا قولها هذا ؛ إن الحكومة الظالمة أشد وحشية من النمر »<sup>(٨٢)</sup> .

وسئل كنفوشيوس بين يدي دوق تشى ، وسرّ الدوق من جوابه حين سأله عن ماهية الحكومة الصالحة : « توجد الحكومة الصالحة حيث يكون الأمير أميراً ، والوزير وزيراً ، والأب أباً والابن ابناً » ، وعرض عليه الدوق نظير تأييده إياه خراج مدينة لن — شيو ، ولكن كنفوشيوس رفض الهبة وأجاب به بأنه لم يفعل شيئاً يستحق عليه هذا الجزاء . وأراد الدوق أن يحتفظ به فى بلاطه وأن يجعله مستشاراً له ، ولكن جان ينج كبير وزرائه أقنعه بالعدول عن رأيه وقال له : « إن هؤلاء العلماء رجال غير عمليين لا يستطيعون تقديمهم ؛ وهم متغطرسون مفرورون

بآرائهم ، لا يقنعون بما يعطى لهم من مراكمز متواضعة ... وللسيد كونج هذا من الخصائص ما يبلغ الألف عدداً .. ولو أردنا أن نلم بكل ما يعرفه عن مراسم الصعود والنزول لتطلب منا ذلك أجيالا طوالا «<sup>(٨٤)</sup> . ولم يشر هذا اللقاء ثمره ما ، وعاد كنفوشيوس على أثره إلى لو وظل يعلم تلاميذه فيها خمسة عشر عاما أخرى قبل أن يستدعى ليمتولى منصباً عاماً في الدولة .

وواتته الفرصة حين عين في أواخر القرن السادس قبل الميلاد كبير القضاة في مدينة چونج — دو . وتقول الرواية الصينية إن المدينة في أيامه قد اجتاحتها موجة جارفة من الشرف والأمانة ، فكان إذا سقط شيء في الطريق بقي حيث هو أو أعيد إلى صاحبه<sup>(٨٥)</sup> . ولما رقاہ الدوق دنج دوق لو إلى منصب نائب وزير الأشغال العامة شرع في مسح أرض الدولة وأدخل إصلاحات جمة في الشؤون الزراعية ، ويقال إنه لما رقى بعدئذ وزيراً للجرأتم كان مجرد وجوده في هذا المنصب كافياً لقطع دابر الجريمة . وفي ذلك تقول السجلات الصينية : « لقد استتحت الخيانة واستحى الفساد أن يطلاَّ برأسيهما واختفيا ، وأصبح الوفاء والإخلاص شيمة الرجال ، كما أصبح العقاف ودماثة الخلق شيمة النساء . وجاء الأجانب زرافات من الولايات الأخرى ، وأصبح كنفوشيوس معبود الشعب »<sup>(٨٦)</sup>

إن في هذا الإطراء من المبالغة ما يجعله موضع الشك ؛ وسواء كان خليقاً به أو لم يكن فإنه كان أرقى من أن يعمر طويلاً . وما من شك في أن المجرمين قد يأتمرون بالمعلم الكبير ويدبرون المكائد للإيقاع به . ويقول المؤرخ الصيني : إن الولايات القريبة من « لو » دب فيها ديب الحسد وخشيت على نفسها من قوة « لو » الناهضة . ودبر وزير ماكر من وزراء تشي مكيدة ليفوق بها بين دوق « لو » وكنفوشيوس ، فأشار على دوق تشي بأن يبعث إلى تنج بسرب من حسان « الفتيات المفضيات » وبمائة وعشرين جواداً تفوق الفتيات جمالا ..

وأسرت البنات والحليل قلب الدوق ففعل عن نصيحة كنفوشيوس ( وكان قد علمه أن المبدأ الأول من مبادئ الحكم الصالح هو القدوة الصالحة ) ، فأعرض عن وزرائه وأهل شئون الدولة إهمالاً معيباً . وقال تزه — لو لكنفوشيوس : « أيها المعلم لقد آن لك أن ترحل » . واستقال كنفوشيوس من منصبه وهو كاره ، وغادر لو ، وبدأ عهد تجوال وتشرد دام ثلاثة عشر عاماً . وقال فيما بعد « إنه لم يرقط إنساناً يحب الفضيلة بقدر ما يحب الجمال »<sup>(٨٧)</sup> . والحق أن من أغلاط الطبيعة التي لا نتغفر لها أن الفضيلة والجمال كثيراً ما يأتيان منفصلين لا مجتمعين . وأصبح المعلم وعدد قليل من مريديه المخلصين مفضوباً عليهم في وطنهم ، فأخذوا يتنقلون من إقليم إلى إقليم ، يلقون في بعضها بجمالة وترحاباً ، ويتعرضون في بعضها الآخر لضروب من الحرمان والأذى . وهاجمهم الرعاع مرتين ، وكادوا في يوم من الأيام يموتون جوعاً ، وبرتج بهم ألم الجوع حتى شرع تزه — لو نفسه يتذمر ويقول إن حاله لا تليق « بالإنسان الراقى » . وعرض دوق وي على كنفوشيوس أن يوليه رياسة حكومته ، ولكن كنفوشيوس رفض هذا العرض ، لأنه لم تمجبه مبادئ الدوق<sup>(٨٨)</sup> .

وبينما كانت هذه الفئة الصغيرة في يوم من الأيام تجوس خلال تشي إذ التقت بشيخين عافت نفسها مفاسد ذلك العهد ، فاعتزلا الشئون العامة كما اعتزلها لو — دزه ، وآثرا عليها الحياة الزراعية البميسة عن جلبلة الحياة العامة . وعرف أحد الشيخين كنفوشيوس ، ولام تزه — لو ، على سيره في ركابه ، وقال له : « إن الاضطراب يجتاح البلاد اجتياح السيل الجارف ، ومنذا الذي يستطيع أن يبدل لكم هذه الحال ؟ أليس خيراً لكم أن تتبعوا أولئك الذين يعزلون العالم كله ، بدل أن تتبعوا ذلك الذي يخرج من ولاية إلى ولاية ؟ »<sup>(٨٩)</sup> وفكر كنفوشيوس في هذا اليوم طويلاً ولكنه لم يفقد رجاءه في أن تتيح له ولاية من الولايات فرصة يتزعم فيها حركة الإصلاح والسلم .

ولما بلغ كنفوشيوس التاسعة والستين من عمره جلس دوق جيه آخر الأمر على عرش لو وأرسل ثلاثة من موظفيه إلى الفيلسوف يحملون إليه ما يليق من الهدايا بمقامه العظيم، ويدعونه أن يعود إلى موطنه، وقضى كنفوشيوس الأعوام الخمسة الباقية من حياته يعيش معيشة بسيطة معزلاً مكرماً، وكثيراً ما كان يتردد عليه زعماء لو يستنصحوونه، ولكنه أحسن كل الإحسان بأن قضى معظم وقته في عزلة أدبية منصرفاً إلى أنسب الأعمال وأحبها إليه وهو نشر روائع الكتب الصينية وكتابة تاريخ الصينيين. ولما سأل دوق شي تز - لو عن أستاذه ولم يجبه هذا عن سؤاله، وبلغ ذلك الخبر مسامع كنفوشيوس، قال له: «لم تجبه بأنه ليس إلا رجلاً ينسبه حرصه على طلب العلم والطعام والشراب، وتنسيه لذته (طلبه) أحزانه، وبأنه لا يدرك أن الشيخوخة مقبلة عليه»<sup>(٩٠)</sup> وكان يسلى نفسه في وحدته بالشعر والفلسفة، ويسره أن غرائزه تتفق وقتئذ مع عقله، ومن أقواله في ذلك الوقت: «لقد كنت في الخامسة عشرة من عمري مكباً على العلم، وفي الثلاثين وقفت نابتاً لا أنزعزع، وفي سن الأربعين زالت عني شكوكي، وفي الخمسين من عمري عرفت أوامر السماء، وفي الستين كانت أذني عضواً طيعاً لتلك الحقيقة، وفي السبعين كان في وسعي أن أطيع ما يهواه قلبي دون أن يؤدي بي ذلك إلى تنكب طريق الصواب والعدل»<sup>(٩١)</sup>.

ومات كنفوشيوس في الثانية والسبعين من عمره، وسمعه بعضهم يوماً من الأيام يغني في الصباح الباكر تلك الأغنية الحزينة:

سيدك الجبل الشاهق دكا،

وتتعطم الكتلة القوية،

ويذبل الرجل الحكيم كما يذبل النبات.

ولما أقبل عليه تلميذه تز - كونج قال له: «لن يقوم في البلاد ملك

ذكى أريب ؛ وليس في الإمبراطورية رجل يستطيع أن يتخذنى معلماً له . لقد  
تصرم أجلى وحان يومى » (٩٢).

ثم أوى إلى فراشه ومات بعد سبعة أيام من ذلك اليوم . وواراه تلاميذه  
التراب باحتفال مهيب جدير بما تنطوى عليه قلوبهم . من حب له وإجلال ،  
وأحاطوا قبره بأكواخ لهم أقاموا فيها ثلاث سنين ليكونه كما يبكى الأبناء آباءهم .  
وبعد أن مضت هذه المدة غادروا جميعاً أكواخهم إلا تزّه - كونهج ، وكان  
حبه إياه يفوق حبهم جميعاً ، فبقى بجوار قبر أسغاده ثلاث سنين أخرى واجماً  
حزيناً تشعبه الهموم (٩٣) .

## ٢ - الكتب السبعة

وترك كنفوشيوس وراءه خمسة مجلدات يلوح أنه كتبها أو أعدها للنشر  
بيده هو نفسه ، ولذلك أصبحت تعرف في الصين باسم « المجلدات الخمسة »  
أو « كتب القانون الخمسة » . وكان أول ما كتبه منها هو اللى - جى أو سجل  
المراسم ، لاعتقاده أن هذه القواعد القديمة من آداب اللياقة من الأسس الدقيقة  
التي لا بد منها لتكوين الأخلاق ونضجها ، واستقرار النظام الاجتماعى والسلام .  
ثم كتب بعدئذ ذيولا وتعليقات على كتاب إلوى - جىج أو كتاب  
التغيرات ، وكان يرى أن هذا الكتاب خير ما أهدته الصين إلى ذلك الميدان  
الغامض ميدان علم ما وراء الطبيعة الذى كان جد حريص على ألا يلج بابه فى  
فلسفته . ثم اختار ورتب السى - جىج أو كتاب الأناشير ليشرح فيه كنه  
الحياة البشرية ومبادئ الأخلاق الفاضلة . وكتب بعد ذلك السيو - سبو  
أو هوليات الربيع والخريف ، وقد سجل فيه تسجيلاً موجزاً خالياً من  
التنميق أهم ما وقع من الأحداث فى « لو » موطنه الأصيل . وكان خامس أعماله

الأدبية وأعظمها نفعاً أنه أراد أن يوحى إلى تلاميذه أشرف المواظف وأنبل الصفات فجمع في الشو-منج أى كتاب التاريخ أهم وأرقى ما وجدته فى حكم الملوك الأولين من الحوادث أو الأفاصيص التى تسموها الأخلاق وتشرف الطباع ، وذلك حين كانت الصين إمبراطورية موحدة إلى حد ما ، وحين كان زعمائها ، كما يظن كنفوشيوس ، أبطالا يعملون فى غير أغانية لتمدين الشعب ورفع مستواه .

ولم يكن وهو يعمل فى هذه الكتب يرى أن وظيفته هى وظيفة المؤرخ بل كان فيها معلماً ومهذباً للشباب ، ومن أجل هذا اختار عن قصد من أحداث الماضى ما رآه ملهماً لتلاميذه لا مؤسفاً لهم .

فإذا ما عمدنا إلى هذه المجلدات لنستقى منها تاريخاً علمياً نزيهاً لبلاد الصين فإننا بهذا العمل نظلم كنفوشيوس أشد الظلم . فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطباً وقصصاً من عنده ، صب فيها أكثر ما يستطيع من الحىض على الأخلاق الكريمة والإعجاب بالحكمة . وإذا كان قد جعل ماضى بلاده مثلاً أعلى بين ماضى الشعوب ، فإنه لم يفعل أكثر مما نفعه نحن<sup>(\*)</sup> بماضينا الذى لا يعدل ماضى الصين فى قدمه . وإذا كان رؤساء جمهوريتنا الأولون قد أخذوا حكاماً وقديسين ، ولما يمتض عليهم أكثر من قرن أو قرنين من الزمان ، فإنهم سيكونون بلا شك فى نظر المؤرخ الذى يُحدّث عنهم بعد ألف عام من هذه الأيام مثلاً أعلى للفضيلة والكمال شأنهم فى هذا شأن يؤ وشون .

وبضيف الصينيون إلى هذه النجمات الخمسة أربع سترات أو « كتب » ( كتب الفلاسفة ) يتكوّن منها كلها « التسعة الكتب القديمة » . وأول هذه الكتب وأهمها جميعاً كتاب لوردهير أو الإهدايت والمجاورات المعروف عند

قراء اللغة الإنجليزية باسم « مجموعة الشذرات » أى شذرات كنفوشيوس ، كما سماه « لج Legge » فى إحدى نزواته . وليست تلك الكتب مما خطه قلم المعلم الكبير ولكنها تسجل فى إيجاز ووضوح منقطعى النظر آراءه وأقواله كما يذكرها أتباعه . وقد جمعت كلها بعد بضع عشرات من السنين من وفاته ، ولعل الذين جمعوها هم سريدو سردييه<sup>(٩٤)</sup> ، وهى أقل ما يرتاب فيه من آرائه الفلسفية . وأكثر ما فى الكتب الصينية القديمة طرافة وأعظمها تهذيباً ما جاء فى الفقرتين الرابعة والخامسة<sup>(\*)</sup> من الشو الثانى ، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم *الراسرور* أو *التعليم الأكبر* ويعزو موشى الفيلسوف والناشر الكنفوشى هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه كما يعزو باقى الرسالة إلى دزنج — تسان أحد أتباعه الصغار السن . أما كايا — كويه العالم الصينى الذى عاش فى القرن الأول بعد الميلاد فيعزوها إلى كونج جى حفيد كنفوشيوس ؛ على حين أن علماء اليوم المتشككين يجمعون على أن مؤلفهما غير معروف<sup>(٩٥)</sup> . والعلماء كلهم متفقون على أن حفيده هذا هو مؤلف كتاب *جونج يونج* أو *عقيدة الوسط* وهو الكتاب الفلسفى الثالث من كتب الصين . وآخر هذه *السورات* هو كتاب *منسيس* الذى سنتحدث عنه توأ . وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة وإن لم يكن خاتمة العهد القديم للفكر الصينى . وسرى فيما بعد أنه خرج على فلسفة كنفوشيوس ، التى تعدّ آفة فى الجود والحفاظة على القديم ، متمردون عليها وكفرة بها ذوو مشارب وآراء متعددة متباينة .

---

(\*) وهما اللتان نقلناهما فيما بعد فى صفحتى ٥٤ ، ٥٥ من هذا الكتاب . ( المترجم )



### ٣ - لا أدريّة كنفوشيوس

هتامة في المنطق - الفلاسفة والصبيان - دستور الحجة

فلنحاول أن نكون منصفين في حكمنا على هذه العقيدة . ولنقر بأنها ستكون نظرتنا إلى الحياة حين يجاوز الواحد منا الخمسين من عمره ، ومبلغ علمنا أنها قد تكون أكثر انطباقاً على مقتضيات العقل والحكمة من شعر شبانا . وإذا كنا نحن ضالين وشباناً فإنها هي الفلاسفة التي يجب أن نقرن بها فلسفتنا نحن ، لكي ينشأ مما لدينا من أنصاف الحقائق شيء يمكن فهمه وإدراكه .

ولا يظن القارىء أنه سيجد في لا أدريّة كنفوشيوس نظاماً فلسفياً — أى بناء منسّقاً من علوم المنطق ، وما وراء الطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة ، تسرى فيه كله فكرة واحدة شاملة (فتحيله أشبه بقصور نبوخذ نصر (بختنصر) التي نقش اسمه على كل حجر من حجارتها) .

لقد كان كنفوشيوس يعلم أتباعه فن الاستدلال ، ولكنه لم يكن يعلمهم إياه بطريق القواعد أو القياس المنطقي ، بل بتسليط عقله القوي تسليطاً دائماً على آراء تلاميذه ؛ ولهذا فإنهم كانوا إذا غادروا مدرسته لا يعرفون شيئاً عن المنطق ، ولكن كان في وسعهم أن يفكروا تفكيراً واضحاً دقيقاً .

وكان أول الدروس ، التي يلقونها عليهم المعلم ، الوضوح والأمانة في التفكير والتمبير ، وفي ذلك يقول : « كل ما يقصد من الكلام أن يكون مفهوماً »<sup>(٩٦)</sup> — وهو درس لا تذكره الفلسفة في جميع الأحوال . « فإذا عرفت شيئاً فتمسك بأنك تعرفه ؛ وإذا لم تعرفه فأقرّ بأنك لا تعرفه — وذلك في حد ذاته معرفة »<sup>(٩٧)</sup> . وكان يرى أن غموض الأفكار ، وعدم الدقة في التعبير ، وعدم الإخلاص فيه ، من الكوارث الوطنية القومية . فإذا كان الأمير الذي ليس أميراً بحق والذي لا يستمتع بسلطان الإمارة لا يسميه الناس أميراً ، وإذا كان

الأب الذى لا يتصف بصفات الأبوة لا يسميه الناس أبا ، وإذا كان الابن الماق لا يسميه الناس ابناً ، إذا كان هذا كله فإن الناس قد يجدون فى « تزه — لو » ما يحفزهم إلى إصلاح تلك العيوب التى طالما غطتها الألفاظ . ولهذا فإنه لما قال لكنفوشيوس : « إن أمير وية فى انتظارك لى تشترك معه فى حكم البلاد ، فما هو فى رأيك أول شىء ينبغى عمله ؟ أجابه كنفوشيوس جواباً دهش له الأمير والتلميذ : « إن الذى لا بد منه أن تصحح الأسماء »<sup>(٩٨)</sup> .

ولما كانت النزعة المسيطرة على كنفوشيوس هى تطبيق مبادئ الفلسفة على السلوك وعلى الحكم فقد كان يتجنب البحث فيما وراء الطبيعة ، ويحاول أن يصرف عقول أتباعه عن كل الأمور الغامضة أو الأمور السماوية . صحيح أن ذكر « السماء » والصلاة<sup>(٩٩)</sup> كان يرد على لسانه أحياناً ، وأنه كان ينصح أتباعه بالأى يغفلوا عن الطقوس والمراسم التقليدية فى عبادة الأسلاف والقرابين القومية<sup>(١٠٠)</sup> ، ولكنه كان إذا وجه إليه سؤال فى أمور الدين أجاب إجابة سلبية جعلت شرّاح آرائه المحدثين يجمعون على أن يضموه إلى طائفة اللاأدرين<sup>(١٠١)</sup> . فلما أن سأله تزه — كونج ، مثلاً : « هل لدى الأموات علم بشىء أو هل هم بغير علم ؟ » أبى أن يجيب جواباً صريحاً<sup>(١٠٢)</sup> . ولما سأله كى — لو ، عن « خدمة الأرواح » (أرواح الموتى) أجابه « إذا كنت عاجزاً عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم أرواحهم ؟ » . وسأله كى — لو : « هل أجرؤ على أن أسألك عن الموت ؟ » فأجابه : « إذا كنت لا تعرف الحياة ، فكيف يتسنى لك أن تعرف شيئاً عن الموت »<sup>(١٠٣)</sup> . ولما سأله فارشى عن « ماهية الحكمة » قال له : « إذا حرصت على أداء واجبك نحو الناس ، وبعديت كل اللبعد عن الكائنات الروحية مع احترامك إياها أمكن أن تسمى هذه حكمة »<sup>(١٠٤)</sup> .

ويقول لنا تلاميذه إن « الموضوعات التى لم يكن المعلم يخوض فيها هى الأشياء

الغريبة غير المألوفة، وأعمال القوة، والاضطراب، والكائنات الروحية»<sup>(١٠٥)</sup> وكان هذا التواضع الفلسفي يلقى بالهم، وما من شك في أنهم كانوا يتمنون أن يحل لهم معلمهم مشاكل السموات ويطلعهم على أسرارها. ويقص علينا صاحب كتاب — ياتزه وهو مقتبط قصة غلمان الشوارع الذين أخذوا يسخرون من كنفوشيوس حين أقر لهم بعجزه عن هذا السؤال السهل وهو: « هل الشمس أقرب إلى الأرض في الصباح حين تبدو أكبر ما تكون، أو في منتصف النهار حين تشتد حرارتها؟ »<sup>(١٠٦)</sup>. وكل ما كان كنفوشيوس يرضى أن يقره من البحوث فيما وراء الطبيعة هو البحث عما بين الظواهر المختلفة جميعها من وحدة، وبذل الجهد لمعرفة ما يوجد من تناغم وانسجام بين قواعد السلوك لحسن واطراد النظم الطبيعية:

وقال مرة لأحد المقربين إليه: « أظنك ياتزه تعتقد أنى من أولئك الذين يحفظون أشياء كثيرة ويستبقونها في ذاكرتهم؟ » فأجابته تزه — كونه بقوله: « نعم أظن ذلك ولكنى قد أكون مخطئاً في ظنى ا » فرد عليه الفيلسوف قائلاً « لا، إنى أبحث عن الوحدة، الوحدة الشاملة »<sup>(١٠٧)</sup> وذلك بلاريب هو جوهر الفلسفة.

وكانت الأخلاق مطلبه وهمه الأول، وكان يرى أن الفوضى التي تسود عصره فوضى خلقية، لعلها نشأت من ضعف الإيمان القديم وانتشار الشك السوفسطائى في ماهية الصواب والخطأ. ولم يكن علاجها في رأيه هو العودة إلى العقائد القديمة وإنما علاجها هو البحث الجدى عن معرفة أتم من المعرفة السابقة، وتجديد أخلاقى قائم على تنظيم حياة الأسرة على أساس صالح قويم. والفرقتان الآتيتان المنقولتان عن كتاب التعليم الأكبر تعبران أصدق تعبيراً وأعماقاً عن النهج الفلسفى الكنفوشى.

« إن القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل فى أنحاء الإمبراطورية

قد بدءوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم ، ولما أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدءوا بتنظيم أسرهم ، ولما أرادوا تنظيم أسرهم بدءوا بتهديب نفوسهم ؛ ولما أرادوا أن يهدبوا نفوسهم بدءوا بتطهير قلوبهم ، ولما أرادوا أن يطهروا قلوبهم عملوا أولا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم ؛ ولما أرادوا أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم بدءوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حد مستطاع ، وهذا التوسع في المعارف لا يكون إلا بالبحث عن حقائق الأشياء .

فلما أن بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح علمهم كاملا ، ولما كمل علمهم خلصت أفكارهم ، فلما خلصت أفكارهم تطهرت قلوبهم ، ولما تطهرت قلوبهم تهدبت نفوسهم ، ولما تهدبت نفوسهم انتظمت شئون أسرهم ، ولما انتظمت شئون أسرهم صلح حكم ولاياتهم ؛ ولما صلح حكم ولاياتهم أُنحِت الإمبراطورية كلها هادئة سعيدة<sup>(١٠٨)</sup> .

تلك هي مادة الفلسفة الكنفوشية ، وهذا هو طابعها ، وفي وسع الإنسان أن ينسى كل ما عدا هذه الألفاظ من أقوال المعلم وأتباعه ، وأن يحتفظ بهذه المعاني التي هي « جوهر الفلسفة وقوامها » وأكمل مرشد للحياة الإنسانية . ويقول كنفوشوس : « إن العالم في حرب لأن الدول التي يتألف منها فاسدة الحكم ؛ والسبب في فساد حكمها أن الشرائع الوضعية مهما كثرت لا تستطيع أن تحل محل النظام الاجتماعي الطبيعي الذي تهيئته الأسرة . والأسرة مختلة عاجزة عن تهيئة هذا النظام الاجتماعي الطبيعي ، لأن الناس ينسون أنهم لا يستطيعون تنظيم أسرهم من غير أن يقوموا نفوسهم ؛ وهم يعجزون عن أن يقوموا نفوسهم لأنهم لم يطهروا قلوبهم أي أنهم لم يطهروا نفوسهم من الشهوات الفاسدة الدنيئة ؛ وقلوبهم غير طاهرة لأنهم غير مخلصين في تفكيرهم ، لا يقدرون الحقائق قدرها ويخفون طبائهم بدل أن يكشفوا عنها ؛ وهم لا يخلصون في تفكيرهم لأن أهواءهم تشوه الحقائق وتحدد لهم النتائج بدل أن يعملوا على توسيع دائرة معارفهم إلى أقصى حد مستطاع

يبحث طبائع الأشياء بحثاً منزهاً عن الأهواء : فليسع الناس إلى المعارف المنزهة عن الهوى يخلصوا في تفكيرهم ؛ وليخلصوا في تفكيرهم تتطهر قلوبهم من الشهوات الفاسدة ؛ ولتطهر قلوبهم على هذه الصورة تصلح نفوسهم ؛ ولتصلح نفوسهم تصلح من نفسها أحوال أسرهم ؛ وليس الذي تصلح به هذه الأسر هو المواعظ التي تحث على الفضيلة أو العقاب الشديد الرادع ، بل الذي يصلحها هو ، ما للقُدوة الحسنة من قوة صامتة ؛ ولتنظم شئون الأسرة عن طريق المعرفة والإخلاص والقُدوة الصالحة ، يتهيأ للبلاد من تلقاء نفسه نظام اجتماعي يتيسر معه قيام حكم صالح .  
ولتحافظ الدولة على الهدوء في أرضها والعدالة في جميع أرجائها ، يسد السلام العالم بأجمعه ويسعد جميع من فيه — تلك نصيحة تدعو إلى الكمال المطلق وتنسى أن الإنسان حيوان مفترس ؛ ولكنها كالمسيحية تحدد لنا هدفاً نسعى لندركه ، وسلاماً نرقاه لنصل به إلى هذا الهدف . وما من شك في أن في هذه النصوص قواعد فلسفية ذهبية .

#### ٤ — طريقة الرجل الأعلى

سورة أخرى من صور الحكيم — عناصر الأخلاق — القاعدة الذهبية

وإذن فالحكمة تبدأ في البيت ، وأساس المجتمع هو الفرد المنظم في الأسرة المنتظمة ، وكان كنفوشيوس يتفق مع جوته في أن الرُّقِّي الذاقِ أساس الرُّقِّي الاجتماعي ؛ ولما سأله تزه — لو « ما الذي يكون الرجل الأعلى ؟ » أجابه بقوله « أن يتقف نفسه بعناية ممزوجة بالاحترام »<sup>(١٠٩)</sup> ، ونحن نراه في مواضع متفرقة من محاوراته يرسم صورة الرجل المثالي كما يراه هو جزءاً جزءاً — والرجل المثالي في اعتقاده هو الذي تجتمع فيه الفلسفة والقداسة فيتكون منهما الحكيم . والإنسان الكامل الأسمى في رأي كنفوشيوس يتكون من فضائل ثلاث كان كل من سقراط ونبثشة والمسيح يرى الكمال كل الكمال في كل واحدة منها بمفردها ؛

وتلك هي الذكاء والشجاعة وحب الخير . وفي ذلك يقول : « الرجل الأعلى يخشى ألا يصل إلى الحقيقة ، وهو لا يخشى أن يصيبه الفقر ... وهو واسع الفكر غير متشبع إلى فته ... وهو يحرص على ألا يكون فيما يقوله شيء غير صحيح »<sup>(١١٠)</sup>

ولكنه ليس رجلاً ذكياً وحسب ، وليس طالب علم ومحباً للمعرفة وكفى ، بل هو ذو خلق وذو ذكاء ؛ « فإذا غلبت فيه الصفات الجسمية على ثقافته وتهذيبه كان جلفاً ، وإذا غلبت فيه الثقافة والتهذيب على الصفات الجسمية تمثلت فيه أخلاق الكتبة ؛ أما إذا تساوت فيه صفات الجسم والثقافة والتهذيب ، وامتزجت هذه بتلك ، كان لنا منه الرجل الكامل الفضيحة »<sup>(١١١)</sup> . فالذكاء هو الذهن الذي يضع قدميه على الأرض .

وقوام الأخلاق الصالحة هو الإخلاص ، « وليس الإخلاص الكامل وخذ هو الذي يميز الرجل الأعلى »<sup>(١١٢)</sup> « إنه يعمل قبل أن يتكلم ، ثم يتكلم بعدئذ وفق ما عمل »<sup>(١١٣)</sup> « ولدينا في فن الرماية ما يشبه طريقة الرجل الأعلى . ذلك أن الرامي إذا لم يصب مركز الهدف رجع إلى نفسه ليجت فيها عن سبب عجزه »<sup>(١١٤)</sup> .

« إن الذي يبعث عنه الرجل الأعلى هو ما في نفسه ؛ أما الرجل المنحط فيبحث عما في غيره ... والرجل الأعلى يحزنه نقص كفايته ، ولا يحزنه ... ألا يعرفه الناس » ، ولكنه مع ذلك « يكره أن يفكر في ألا يذكر اسمه بعد موته »<sup>(١١٥)</sup> ؛ وهو متواضع في حديثه ولكنه متفوق في أعماله ... قل أن يتكلم ، فإذا تكلم لم يشك قط في أنه سيصيب هدفه ... والشيء الوحيد الذي لا يداني فيه الرجل الأعلى هو عمله الذي لا يستطيع غيره من الناس أن يراه »<sup>(١١٦)</sup> . وهو معتدل في قوله وفعله « والرجل الأعلى يلتزم الطريق الوسط »<sup>(١١٧)</sup> في كل شيء ؛ ذلك أن « الأشياء التي يتأثر بها الإنسان كثيرة لا حصر لها ؛ وإذا لم يكن

ما يحب وما يكره خاضعين للسنن والقواعد تبدلت طبيعته إلى طبيعة الأشياء التي تعرض له»<sup>(١١٨)\*\*</sup> «والرجل الأعلى يتحرك بحيث تكون حركته في جميع الأجيال طريقاً عاماً؛ ويكون سلوكه بحيث تتخذها جميع الأجيال قانوناً عاماً، ويتكلم بحيث تكون ألفاظه في جميع الأجيال مقاييس عامة لقيم الألفاظ»<sup>(١٢٠)\*\*</sup> وهو يستمسك أشد الاستمسك بالقاعدة الذهبية التي نص عليها هنا صراحة قبل هلال بأربعة قرون وقبل المسيح بخمسة: «فقد سأل جونج — جونج المعلم عن الفضيلة الكاملة فكان جوابه... الفضيلة الكاملة ألا تفعل بغيرك ما لا تحب أن يفعل بك»<sup>(١٢٢)</sup>. وهذا المبدأ يتكرر مراراً وهو دائماً يتكرر في صيغة الغنى، وقد ذكر مرة في كلمة واحدة. ذلك أن تزده — جونج سأله مرة: أليس ثمة كلمة واحدة يستطيع الإنسان أن يتخذها قاعدة يسير عليها طوال حياته؟ فأجابه المعلم: أليست هذه الكلمة هي المبادلة؟<sup>(١٢٣)</sup>، ولكنه لم يكن يرغب فيما يرغب فيه لو دزّه وهو أن يقابل الشر بالخير، فلما أن سأله أحد تلاميذه: «ما قولك في المبدأ القائل بأن الإساءة يجب أن تجزى بالإحسان؟» أجاب بحدة لم يألها تلاميذه منه: «وبأى شيء إذن تجزى الإحسان؟ لتكن العدالة جزاء الإساءة، وليكن الإحسان جزاء الإحسان»<sup>(١٢٤)</sup>.

وكان يرى أن القاعدة الأساسية التي تقوم عليها أخلاق الرجل الأعلى هي العطف الفياض على الناس جميعاً. والرجل الأعلى لا يفضيه أن يسمو غيره من الناس، فإذا رأى أفاضل الناس فكر في أن يكون مثلهم؛ وإذا رأى سفلة الناس عاد إلى نفسه يتقوى حقيقة أمره»<sup>(١٢٤)</sup>. ذلك أنه كلما توجد أخطاء لا نشترك

---

(\*) قارن هذا بما يقوله اسبنوزا: «إن عوامل خارجة عنا تدفعنا إلى طرق كثيرة مختلفة، فنترج ونضطرب اضطراب الأمواج تدفعها الرياح المختلفة المهاب، ولا نعرف مصيرنا أو عاقبة أمرنا»<sup>(١١٩)</sup>.

(\*\*) قارن هذا بقانون الأخلاق «التقاطع الإلزامي» الذي يقول به بكانت وهو «لتكن إرادتك بحيث يمكن أن تكون القاعدة التي تسير عليها في أعمالك قلنوناً عاماً شاملاً»<sup>(١٢١)</sup>.

فيها مع جيراننا . وهو لا يبالي أن يفترى عليه الناس أو يسلموه بالسنة خداد (١٢٤) ،  
مجامل بشوش . لجميع الناس ، ولكنه لا يكيل المدح جزافاً (١٢٥) ؛ لا يحقر من هم  
أقل منه ، ولا يسعى لكسب رضا من هم أعلى منه (١٢٦) ، وهو جاد في سلوكه  
وتصرفاته ، لأن الناس لا يوقرون من لا يلتزم الوفاق في تصرفاته معهم ؛ متريث  
في أقواله ، حازم في سلوكه ، يصدر في أعماله عن قلبه ؛ غير متعجل بلسانه  
ولا مولع بالإجابات البارعة السكاته ؛ وهو جاد لأن لديه عملاً يحرص على  
أدائه — وهذا هو سر مهابته غير المسكته (١٢٧) ؛ وهو بشوش لطيف حتى مع  
أقرب الناس إليه وألصقهم به ، ولكنه يصون نفسه عن التبذل مع الناس  
جميعاً حتى مع ابنه (١٢٨) . ويجمع كنفوشيوس صفات رجله الأعلى الكثير الشبه  
« رجل أرسطو ذى العقل الكبير » في هذه العبارة .

« يضع الرجل الأعلى نصب عينيه تسعة أمور لا ينفك يقلبها في فكره .  
فأما من حيث عيناه فهو يحرص على أن يرى بوضوح ... ؛ وأما من حيث  
وجهه فهو يحرص على أن يكون بشوشاً ظريفاً ؛ وأما من حيث سلوكه فهو  
يحرص على أن يكون وقوراً ؛ وفي حديثه يحرص على أن يكون مخلصاً ؛ وفي  
تصريف شئون عمله يحرص على أن يبذل فيه عنايته ، وأن يبعث الاحترام  
فيمن معه ؛ وفي الأمور التي يشك فيها يحرص على أن يسأل غيره من الناس ؛  
وإذا غضب فكر فيما قد يجرحه عليه غضبه من الصعاب ؛ وإذا لاح له  
المكاسب فكر في العدالة والاستقامة (١٢٩) .

### ٥ — سياسة كنفوشيوس

سيادة الشعب - الحكم بالقدرة - عدم تركيز الثروة -  
الموسيقى والألق - الاشتراكية والثورة

ويعتقد كنفوشيوس أن هؤلاء وحدهم هم الذين يستطيعون أن يعيدوا بناء



الأسرة وأن ينقذوا الدولة . فالمجتمع يقوم على إطاعة الأبناء آباءهم ؛ والزوجة زوجها ؛ فإذا ذهبت هذه الطاعة حلت محلها القوضى<sup>(١٣٠)</sup> .

وليس ثمة ما هو أسمى من قانون الطاعة هذا إلا شيء واحد وهو القانون الأخلاقي .

« في وسع ( الابن ) وهو في خدمة أبويه أن يجادلها بلطف ؛ فإذا رأى أنها لا يميلان إلى اتباع ( نصيحته ) زاد احترامه لها ، من غير أن يتخلى عن ( قصده ) ؛ فإذا أمر الوالد ابنه أمراً خطأ وجب عليه أن يقاومه ، وعلى الوزير أن يقاوم أمر سيده الأعلى في مثل هذه الحال »<sup>(١٣١)</sup> . وفي هذا القول يضع كنفوشيوس مبدأ من مبادئ منشيس التي تقر حق الناس المقدس في الثورة . على أن كنفوشيوس لم يكن بالرجل الثورى النزعة ؛ ولعله ما كان يظن أن من ترفهم الثورة لم يخلقوا من طينة غير طينة من تطيح بهم . ولكنه رغم هذه الميول كان جريئاً فيما كتبه في كتاب الأوغانى : « قبل أن تفقد ملوك أسرة ( شانج ) ( قلوب ) الشعب كانوا أحباء الله . فليكن فيما حل بيت شانج نذير لكم ؛ إن الأمر العظيم لا يسهل دائماً الاحتفاظ به »<sup>(١٣٢)</sup> . والشعب هو المصدر الفعلى الحقيقى للسلطة السياسية ، ذلك أن كل حكومة لا تحتفظ بثقة الشعب تسقط لا محالة عاجلاً كان ذلك أو آجلاً .

« وسأل تزه — كونج ، عن الحكم فقال له المعلم : « لا بد للحكومة ) من أن تحقق أموراً ثلاثة ، أن يكون لدى الناس كفايتهم من الطعام ، وكفايتهم من العتاد الحربى ، ومن الثقة بحكامهم » . فقال تزه — كونج : « فإذا لم يكن بد من الاستغناء عن أحد هذه الشروط ، فأى هذه الثلاثة يجب أن تتخلى عنه أولاً ؟ » فأجاب المعلم : « العتاد الحربى » . وسأله تزه — كونج مرة أخرى ، وإذا كان لا بد من الاستغناء عن أحد الشرطين الباقين فأيهما يجب أن تتخلى عنه ؟ » .

فأحباب المعلم : « فلتنخلّ عن الطعام ؛ ذلك أن الموت كان منذ الأزل قضاء محتوماً على البشر ، أما إذا لم يكن للناس ثقة ( بحكامهم ) فلا بقاء ( للدولة ) » .

ويرى كنفوشيوس أن المبدأ الأول الذى يقوم عليه الحكم هو نفس المبدأ الأول الذى تقوم عليه الأخلاق — ألا وهو الإخلاص . ولهذا كانت أداة الحكم الأولى هى القدوة الصالحة ؛ ومعنى هذا أن الحاكم يجب أن يكون المثل الأعلى فى السلوك الحسن ، حتى يحدو الناس حذوه ، فيعم السلوك الطيب جميع أفراد شعبه .

وسأل كى كانج كنفوشيوس عن الحكومة قائلاً : « ما قولك فى قتل من لا مبدأ لهم ولا ضمير نخير أصحاب المبادئ والضائز ؟ » فأجابه كنفوشيوس : « وما حاجتك يا سيدي إلى القتل فى قيامك بأعباء الحكم ؟ لتكن نيتك الصريحة اليقينة فعل الخير يكن الناس أحياناً . إن العلاقة القائمة بين الأعلى والأدنى لشبيهة بالعلاقة بين الريح والكلأ ، فالكلأ يميل إذا هبت عليه الريح ... وما أشبه الذى ينهب فى حكمة نهج الفضيلة بالنجم القطبي الذى لا يتحول عن مكانه والذى تطوف النجوم كلها حوله ... »

وسأل كى كانج كيف يحمل الناس على أن يجلّوا ( حاكمهم ) ، وأن يخلصوا له ، وأن يلتزموا جانب الفضيلة ؟ فأجابه المعلم : « فليراسمهم فى وقار — يحترمونه ، وليكن عطفاً عليهم رحيماً بهم يخلصوا له . وليقدّم الصالحين ويعلمّ العاجزين — يحرصوا على أن يكونوا فضلاء » .<sup>(١٣٤)</sup>

وإذا كانت القدوة الحسنة أولى وسائل الحكم ، فإن حسن الاختيار للمناصب وسيلته الثانية : « استعمل الصالحين المستقيمين ، وانبد الموحّين ، وبهذه الطريقة يستقيم الموحّ »<sup>(١٣٥)</sup> .

وتقول عقيدة الوسط : « إن تصريف شئون الحكم إنما يقوم على

(استعمال من يصلح له من الناس) وما من سبيل إلى الحصول على هؤلاء الناس إلا أن تكون أخلاق (الحاكم) نفسه سالحة» (١٣٦).

وأى شيء لا تستطيع الوزارة المؤلفة من الرجال الأعلين أن تعمله في جيل واحد لتطهير الدولة والارتفاع بالشعب إلى مستوى عال من الحضارة؟ (١٣٧) — إن أول ما يحرصون عليه ألا تكون لهم قدر المستطاع علاقات خارجية، وأن يعملوا على أن يكتفوا بغلاتهم عن غلات غيرهم، حتى لا تشن أمتهم الحرب على غيرها من الأمم للحصول على هذه الغلات، ثم يقللوا من ترف بطانة الملوك ويعملوا على توزيع الثروة في أوسع نطاق لأن «تركيز الثروة هو السبيل إلى تشتيت الشعب، وتوزيعها هو السبيل إلى جمع شتاته» (١٣٨)، ثم يخففوا العقاب وينشروا التعليم العام لأن «التعليم إذا انتشر انعدمت الفروق بين الطبقات» (١٣٩) ويشير كنفوشيوس بالأ تدرس الموضوعات العليا لدوى المواهب الوسطى، أما الموسيقى فيجب أن تعلم للناس أجمعين.

ومن أقواله في هذا: «إذا أتقن الإنسان الموسيقى، وقوم عقله وقلبه بمقتضاها وعلى هديها تطهر قلبه وصار قلباً طبيعياً، سليماً، رقيقاً، عاصراً بالإخلاص والوفاء، يغمره السرور والبهجة... وخير الوسائل لإصلاح الأخلاق والعادات... أن توجه العناية إلى الموسيقى التي تعزف في البلاد» (\*)... والأخلاق الطيبة والموسيقى يجب ألا يهملها الإنسان... فالخير شديد الصلة بالموسيقى والاستقامة تلازم الأخلاق الطيبة على الدوام.

وعلى الحكومة أن تعنى أيضاً بفرس الأخلاق الطيبة، ذلك أن الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمة معها (\*\*). وآداب اللياقة هي التي تكون على الأقل

---

(\*) قال دانييل أوكنتل : «دعوني أكتب أغاني الأمة، ولست أبالي بعد ذلك من يس شرائعها» .

(\*\*) قارن هذا بقول المرحوم شوق :

ولنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا (الترجم)

المظهر الخارجي لأخلاق الأمة وإن لم يدرك الناس هذا<sup>(١٤١)</sup> ، وهي تضيئ على الحكيم لطيف الرجل المهذب ؛ وما من شك في أن المرء ابن عاداته . أما من الوجهة السياسية « فأداب اللياقة حواجز تقوم بين الناس وبين الانفاس في لفساد » ، و « من ظن أن الحواجز القديمة لا نفع فيها فهذمها حلت به الكوارث الناشئة من طغيان المياه الجارفة »<sup>(١٤٢)</sup> .

ويكاد الإنسان يسمع هذا القول الصارم الذى نطق به المعلم الغاضب يتردد هذه الأيام في جنبات « بهو الآداب القديمة » التى نقشت ألفاظها على حجارته ، والتى دنستها أوضار الثورة وحققرتها .

ومع هذا فقد كان لكنفوشيوس أيضاً أحلامه ومثله العليا فى الحكومات والدول . فقد كان يعطف فى بعض الأحيان على الذين إذا اقتنعوا بأن الأسرة الحاكمة فقدت « الأمر الأعلى » أى « أمر السماء » قوضوا أركان نظام من نظم الحكم لكى يقيموا على أنقاضه نظاماً خيراً منه . وقد اعتنق فى آخر الأمر المبادئ الاشتراكية وأطلق فيها لخياله العنان !

« إذا ساد المبدأ الأعظم ( مبدأ التماثل الأعظم ) أصبح العالم كله جمهورية واحدة ؛ واختار الناس لحكمهم ذوى المواهب والفضائل والكفايات<sup>(\*)</sup> ؛ وأخذوا يتحدثون عن الحكومة المخلصة ، ويعملون على نشر لواء السلم الشاملة . وسينتد لا يرى الناس أن آباءهم هم من ولدوهم دون غيرهم ، أو أن أبناءهم هم من ولدوا لهم ، بل تراهم يهيشون سبل العيش للمسنين حتى يستوفوا آجالهم ، ويهيشون العمل للكهول ، ووسائل النماء للصغار ، ويكفلون الحياة للأرامل من الرجال والنساء ، واليتامى وعديمى الأبناء ، ومن أقعدهم المرض عن العمل . هنالك يكون لكل إنسان حقه ، وهنالك تصان شخصية المرأة فلا يعتدى عليها .

(\*) ما أشبه هذا بما يدعو إليه بعض الكتاب فى هذا الجليل - أمثال ه . ج . واز - من لإنشاء حكومة عالمية ( المترجم )

وينتج الناس الثروة ، لأنهم يكرهون أن تبدد وتضيع في الأرض ، ولكنهم يكرهون أن يستمتعوا بها دون غيرهم من الناس ، وهم يعملون لأنهم يكرهون البطالة ، ولكنهم لا يهدفون في عملهم إلى منفعتهم الشخصية .

وبهذه الطريقة يقضى على الأناية والمآرب الذاتية ، فلا تجد سبيلا إلى الظهور ، ولا يرى أثر للصوص والنشالين والخنونة المارقين ، فتبقى الأبواب الخارجية مفتحة غير مغلقة . هذا هو الوضع الذى أسميه التماثل الأعظم<sup>(١٤٣)</sup> (\*) .

### ٣ — أثر كنفوشيوس فى الأزمنة الصينية

العلماء الكنفوشيون - انتصارهم على القانونيين - عيوب  
الفلسفة الكنفوشية - جدة مبادئ كنفوشيوس

كان نجاح كنفوشيوس بعد موته ولكنه كان نجاحاً كاملاً . لقد كان يضرب فى فلسفته على نفعة سياسية عملية حببها إلى قلوب الصينيين بعد أن زال يموته كل احتمال لإصراره على تحقيقها .

وإذا كان رجال الأدب فى كل زمان لا يرتضون أن يكونوا أدباء فحسب ، فإن أدباء القرون التى أعقبت موت كنفوشيوس استمسكوا أشد استمساك بمبادئه ، واتخذوها سبيلا إلى السلطان وتسلم المناصب العامة ، وأوجدوا طبقة من العلماء الكنفوشيين أصبحت أقوى طائفة فى الإمبراطورية بأجمعها وانتشرت المدارس فى أنحاء البلاد لتعلم الناس فلسفة كنفوشيوس التى تلقاها الأساتذة عن تلاميذ المعلم الأكبر ، ونمناها منسجس وهذبها آلاف مؤلفة من العلماء على مدى الأيام . وأضحت هذه المدارس المراكز الثقافية والعقلية فى الصين ، فأبقت شعلة الحضارة متقدة خلال القرون الطوال التى تدهورت فيها البلاد من

---

( \* ) ترى هل فيما وضه الفلاسفة المحدثون مثل عليا للحكومات أرقى من هذا المثل

( المترجم )

الوجهة السياسية، كما احتفظ رهبان العصور الوسطى بجذوة الثقافة القديمة وبقليل من النظام الاجتماعي في العصور المظلمة التي تلت سقوط رومة .

وكانت في البلاد طائفة أخرى هي طائفة « القانونيين » استطاعت أن تنافس وقتاً ما آراء كنفوشيوس في عالم السياسة ، وأن تسيّر الدولة حسب مبادئها هي في بعض الأحيان .

ومن أقوالهم في الرد على كنفوشيوس أن نظام الحكم على المثل الذي يضربه الحاكمون ، وعلى الصلاح الذي تنطوي عليه قلوب المحكومين ، يعرض الدولة لأشد الأخطار ، إذ ليس في التاريخ أمثلة كثيرة تشهد بنجاح الحكومات التي تسترشد في أعمالها بهذه المبادئ المثالية . وهم يقولون إن الحكم يجب أن يستند إلى القوانين لا إلى الأحكام ، وإن الناس يجب أن يرغبوا على إطاعة القوانين حتى تصبح إطاعتها طبيعة ثانية للمجتمع فيطيعوها راضين مختارين . ولم يبلغ الناس من الذكاء مبلغاً يمكنهم من أن يحسنوا حكم أنفسهم ، ولهذا فإنهم لا يصيبون الرخاء إلا تحت حكم جماعة من الأشراف ؛ وحتى التجار أنفسهم ، وإن أثروا ، لا يدل ثراؤهم على أنهم متفوقون في ذكائهم ، فهم يسعون وراء مصالحهم الخاصة ، وكثيراً ما يتعارض سعيهم هذا مع مصالح الدولة .

ويقول بعض القانونيين إنه قد يكون من الخير للدولة أن تجعل رموس الأموال ملكاً عاماً للمجتمع ، وأن نحتكر هي التجارة ، وأن تمنع التلاعب بالأثمان وتركيز الثروة في أيدي عدد قليل من الأفراد<sup>(١٤٤)</sup> .

هذه آراء ظهرت ثم اختفت ثم عادت إلى الظهور مرة بعد مرة في تاريخ الحكومة الصينية .

ولكن فلسفة كنفوشيوس كتب لها النصر آخر الأمر . وسنرى فيما بعد كيف سعى شي هوانج — دى ، صاحب الحول والطول ، يعاونه رئيس وزراء من

طائفة القانونيين ، للتضاء على نفوذ كنفوشيوس ، فأمر أن يحرق كل ما كان موجوداً وقتئذ من الكتابات الكنفوشية . ولكن تبين مرة أخرى أن قوة البيان أعظم من قوة السنان .

ولم يكن لعداء « الإمبراطور الأول » من نتيجة إلا أن يجعل الكتب التي أراد أن يعدمها كتباً مقدسة قيمة ، وأن يستشهد الناس في سبيل المحافظة عليها . حتى إذا انقضى عهد شي هوانج — دى ، وعهد أسرته القصير الأجل ، وجلس على العرش إمبراطور أحكم منه ، أخرج الآداب الكنفوشية من مخابها وعين العلماء الكنفوشيين في مناصب الدولة ، ونبث حكم أسرة هان ، وقوى دعائمها ، بأن أدخل آراء كنفوشيوس وأساليبه الحكيمة في برامج تعاليم الشبان الصينيين وفي الحكومة . وقربت القرابين تكريماً لكنفوشيوس ، وأمر الإمبراطور أن تنقش نصوص الكتب القديمة على الحجارة ، وأصبحت الكنفوشية دين الدولة الرسمي . وناهض الكنفوشية في بعض الأحيان نفوذ الدوية ، كما طغى عليها أحياناً أخرى سلطان البوذية ، حتى إذا كان عهد أسرة تانج أعادتها إلى مكاتها السابقة وأعات من شأنها .

ولما جلس على العرش تاي دزونج الأعظم أمر أن يشاد هيكل لكنفوشيوس في كل مدينة وقرية في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وأن يقرب له فيها القوايين العلماء والموظفون . وفي عهد أسرة دزونج نشأت مدرسة قوية للكنفوشية الجديدة أصافت شروحاتاً وتعليقات لا حصر لها على الكتب الكنفوشية القديمة ، وعملت على نشر فلسفة أستاذها الأكبر وما أضافته إليها من شروح مختلفة في بلاد الشرق الأقصى ، وبعثت في اليابان نهضة فلسفية قوية . وظلت مبادئ كنفوشيوس من مبدأ قيام أسرة هان إلى سقوط أسرة منشو — أى ما يقرب من ألفي عام — تسيطر على العقاية الصينية وتصوغها في قالبها .

والفلسفة الكنفوشية أهم ما يواجه المؤرخ لبلاد الصين ؛ ذلك أن كتابات معلمها الأكبر ظلت جيلاً بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية ، يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب ، وتغلقت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها الحكيم القديم في قلوب الصينيين ، وسرت في دمائهم ، وأكسبت أفراد الأمة الصينية كرامة وعمقاً في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو في غير بلادهم ، واستطاعت الصين بفضل هذه الفلاسفة أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة متألقة ، وأن تبعث في نفوس أبنائها إعجاباً شديداً بالعلم والحكمة ، وأن تنشر في بلادها ثقافة مستقرة هادئة أ كسبت الحضارة الصينية قوة أمكنتها من أن تنهض من كبوتها وتسترد قواها بعد الغزوات المتكررة التي اجتاحت بلادها ، وأن تشكل هي الغزاة على صورتها وتطبعهم بطابعها . ولسنا نجد في غير المسيحية والبوذية<sup>(\*)</sup> ما نجد في الكنفوشية من جهود جبارة لتحويل ما جبلت عليه الطبيعة البشرية من غلظة ووحشية إلى تأدب ورقة .

ولسنا نجد في هذه الأنام — كما لم نجد الأندمون في الأيام الخالية — دواء يوصف للذين يقاسون الأعرين من جراء الاضطراب الناشئ من التربية التي تعنى بالعقل وتهمل كل ما عداها ، ومن انحطاط مستوى القانون الأخلاقي وتدهوره ، ومن ضعف الأخلاق الفردية والقومية ، لسنا نجد دواء لهذا كله خيراً من تلقين الشباب مبادئ الفلسفة الكنفوشية<sup>(\*\*)</sup> .

لكن تلك الفلسفة لا تستطيع وحدها أن تكون غذاء كاملاً للروح . لقد كانت فلسفة تصلح لأمة تكافح للخروج من غمرات الفوضى والضعف إلى النظام والقوة . ولكنها غل ثقیل یقید البلد الذی ترغمه المنافسات الدولية علی أن ینمو ویطور .

---

(\*) لقد كان حقاً على المؤلف أن يضم إليهما الإسلام ، وقد كان له من الأثر في طباع العرب أعظم مما كان للكنفوشية والمسيحية والبوذية من أثر في الأمم التي انتشرت بينها .  
( المترجم )

(\*\*\*) أو مبادئ الإسلام . ( المترجم )



ذلك أن قواعد الأدب واللياقة التي شكلت أخلاق الصينيين ونظامهم الاجتماعي أضحت قوة جارفة تسير كل حركة حيوية في طريق مرسوم لا تتحول عنه ، وكانت الفلسفة الكنفوشية تصطبغ بصبغة جامدة متمتمة ، وتقف في سبيل الدوافع الطبيعية القوية المحركة للجنس البشري ، وسمت فضائلها حتى بلغت حد العقم ؛ ولم يكن فيها قط مجال للهو والمجازفة كما لم يكن فيها إلا القليل من الصداقة والحب ، وقد أعانت على تحقير النساء وإذلالهن<sup>(١٤٥)</sup> ، كما أعان ما فيها من كمال بارد على تجميد الأمة الصينية وجعلها أمة متحفظة لا يضارع عداها للرقى إلا جنبها للسلام .

وليس من حقنا أن نعزو هذا كله إلى كنفوشوس ، وأن نوجه إليه اللوم من أجله ، إذ ليس في مقدور إنسان أيا كان شأنه أن يسيطر على تفكير عشرين قرناً من الزمان ، بل كل ما يحق لنا أن نطلبه إلى المفكر أن يضيء لنا بطريقة ما ، وبفضل تفكيره طوال حياته ، سبيل الفهم الصحيح . وقل أن نجد في العالم من انطلق بهذا الواجب كما اضطلع به كنفوشوس . وإذا ما قرأنا تعاليمه ، وتبيننا ما يجب أن نمحوه من فلسفته بسبب تقدم المعارف في العالم وتبدل أحواله ، وعرفنا قيمة ما يسديه إلينا من هداية في عالمنا الحاضر نفسه ، إذا ما فعلنا هذا نسينا من فورنا ما يشوب فلسفته من تهاة تارة ومن كمال لا تطيقه الطبيعة البشرية تارة أخرى ، واشتركنا مع كونج چى حفيده الصالح التقي ، في هذا التسبيح الأعلى الذي كان بداية تأليه كنفوشوس .

لقد نقل جوج — في عقائد يوشون كأنهما كانا من آباءه ، ونشر نظم وِن وُو واتخذها مثلين يحتملهما وينسج على منوالهما . وكان في صفاته الروحية قديساً أو ملاكاً يتناغم مع السماء . ولكنه لم ينس قط أنه مخلوق من طين وماء . وهو يشبه السماء والأرض في أنه كان عماداً لكل شيء وعائلاً لكل شيء ، يجب نور كل شيء ، وتغطي ظلاله كل شيء . وهو أشبه بالفصول الأربعة في تتابعها وانتظام سيرها ، وأشبه بالشمس والقمر في تتابع ضائهما ...

فهو في شموله واتساع آفاقه كالسما ، وفي عمق تفكيره ونشاطه كالموه السحيقة والعين الجائشة الفوارة ، إذا رآه الناس وقروه وعظموه ، وإذا تكلم صدقوه ، وإذا فعل أعجبوا بفعله وأحبوه .

ولهذا ذاع صيته في « الملكة الوسطى » وانتشر بين القبائل الممجية ، فحيثما وصلت السفائن والمركبات ، وحيثما نفذت قوة الإنسان ، وفي كل مكان امتد على سطح الأرض وأظلمت السماء وأضاءته الشمس وأناره القمر ، وفي كل بقعة مسها الصقيع وطلها الندى — يجله ويحبه كل من سرى فيه دم الحياة وترددت في صدره أنفاسها ، حبا صادقا لا يتكلف فيه ولا رياء ؛ ولهذا قيل عنه إنه : « هو والسماء صنوان »<sup>(١٤٦)</sup> .

## الفصل الثالث

### اشتراكيون وفوضويون

لقد كانت المائتا عام التي أعقبت عصر كنفوشيوس أعوام جدل شديد وردة عنيفة ، ذلك أنه لما كشف العلماء عن لذة الفلسفة وبهجتها قام رجال من أمثال هو ادزه ؛ وچونج سون لويانج يتلاعبون بالمنطق ويخترعون القضايا المنطقية المتناقضة التي لا تقبل في تباينها ودقتها عن قضايا زينون<sup>(١٤٧)</sup> . واحتشد الفلاسفة من جميع أنحاء البلاد في مدينة لويانج ، كما كانوا يحنشون في نفس هذا القرن في مدينتي بنارس وأثينة ، وكانوا يستمتعون في عاصمة الصين بحرية القول والتفكير التي جعلت أثينة وقتئذ العاصمة الفكرية لبلاد البحر المتوسط . وغصت عاصمة البلاد بالفلاسفة المسمين تزونج — هنج — كيا أي « فلاسفة الجدل » ، الذين جاءوا من كافة أنحاء البلاد ليعلموا الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم فن إقناع أي إنسان بأي شيء أرادوا إقناعه به<sup>(١٤٨)</sup> . فجاء إلى لويانج منشيس الذي خلف كنفوشيوس في منصبه ، كما جاء إليها چونج — دزه أعظم أتباع لو — دزه ، وشون — دزه القائل بأن الإنسان شرير بطبعه ، ومودي نبي الحب العالمي .

### ١ — مودي العبري

منطيق قديم — مسيحي — وداعية سلام

قال منشيس عدو مودي «لقد كان يحب الناس جميعاً ، وكان يود لو يستطيع أن يبلى جسمه كله من قمة رأسه إلى أخمص قدمه إذا كان في هذا خير لبني الإنسان<sup>(١٤٩)</sup> ؛ وقد نشأ مودي في بلدة لو التي نشأ فيها كنفوشيوس ، وذاعت شهرته بعد وفاة الحكيم الأكبر بزمن قليل . وكان يعيب على كنفوشيوس أن تفكيره

خيا لى غير عملى ، وأراد أن يستبدل هذا التفكير دعوة الناس جميعاً لأن يجب بعضهم بعضاً . وكان من أوائل المناطقة الصينيين ومن شر المجادلين المحاجين فى الصين ؛ وقد عرّف القضية المنطقية تعريفاً غاية فى البساطة فقال :

هذه هى التى أسميها قواعد الاستدلال الثلاث :

أين يجد الإنسان الأساس ؟ ابحث عنه فى دراسة تجارب أحكم الرجال الأقدمين .

كيف يلم الإنسان به إلساما عاما ؟ اخص عما فى تجارب الناس العقلية من حقائق واقعية .

كيف تطبقها ؟ ضعها فى قانون وسياسة حكومية ، وانظر هل تؤدى إلى خير الدولة ورفاهية الشعب أو لا تؤدى إليهما<sup>(١٥٠)</sup> .

وعلى هذا الأساس جد مودى فى البرهنة على أن الأشباح والأرواح حقائق واقعية ، لأن كثيرين من الناس قد شاهدوها ، وكان من أشد المعارضين لآراء كنفوشيوس المجردة غير الجسمة عن الله ، وكان من القائلين بشخصية الله . وكان يظن كما يظن بسكال أن الدين رهان مريح فى كلتا الحالين : فإذا كان آباؤنا الذين تقرب لهم القرايين يستمعون إلينا فقد عقدنا بهذه القرايين صفقة رابحة ، وإذا كانوا أمواتا لا حياة لهم ولا يشعرون بما تقرب إليهم فإن القرايين تتيح لنا فرصة الاجتماع بأهلينا وجيرتنا ، لنستمتع جميعاً بما تقدمه للموتى من طعام وشراب<sup>(١٥١)</sup> .

وبهذه الطريقة عينها يثبت مودى أن الحب الشامل هو الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية ؛ فإذا ما عم الحب العالم أوجد فيه بلا ريب الدولة الفاضلة والسعادة الشاملة التى بها « يجب الناس كلهم بعضهم بعضاً ، ولا يفترس أقوياءهم ضعفاءهم ، ولا تنهب كثرتهم قلتهم ، ولا يزدري أغنياءهم فقراءهم ، ولا يسفه عطاؤهم صغارهم ، ولا يخذع الماكرون منهم السذج »<sup>(١٥٢)</sup> . والأناية فى رأيه مصدر كل شر

سواء كان هذا الشر رغبة الطفل في التملك أو رغبة الإمبراطوريات في الفتح والاستعمار . ويعجب مودى كيف يُدين الناس أجمعون من يسرق خنزيراً ويماقبونه أشد العقاب ، أما الذى يغزو مملكة ويفتصبها من أهلها ، فإنه يمد في أعين أمته بطلا من الأبطال ومشلا أعلى للأجيال المقبلة<sup>(١٥٣)</sup> . ثم ينتقل مودى من هذه المبادئ السلمية إلى توجيه أشد النقد إلى قيام الدولة حتى لتكاد عقيدته السياسية تقترب كل القرب من الفوضى ، وحتى أزججت هذه العقيدة ولاية الأمور في عصره<sup>(١٥٤)</sup> . ويؤكد لنا كتاب سيرته أن مهندس الدولة في مملكة چو همّ بغزو دولة سونج ليحرب في هذا الغزو سلماً جديداً من سلام الحصار اخترعه في ذلك الوقت ؛ فما كان من مودى إلا أن أخذ يعظه ويشرح له عقيدة الحب والسلم العالميين حتى أقنعه بالعدول عن رأيه ، وحتى قال له المهندس : « لقد كنت قبل أن ألقاك معتزماً بفتح بلاد سونج ، ولكنى بعد أن أقيمتك لأحب أن تكون لى ولو سلوت إلى من غير مقارمة ومن غير أن يكون ثمة سبب حق عادل يحمانى على فتحها » . فأجابه مودى بقوله : « إذا كان الأمر كذلك فكأنى قد أعطيتك الآن دوله سونج . فاستمسك بهذه الخطة العادلة أعطك ملك العالم كله »<sup>(١٥٥)</sup> .

وكان العلماء من أتباع كنفوشوس والساسة أتباع لوينج يسخرون من هذه الأفكار السلمية ؛ ولكن مودى رغم هذه السخرية كان له أتباع ، وظلت آراؤه مدى قرنين كاملين عقيدة تدين بها شيعة تدعو إلى السلام ، وقام اثنتان من مريديه وهما سونج بنج ، وجونج سون لونغ بحملة قوية لنزع السلاح ، وجاهدا في سبيل هذه الدعوة حق الجهاد<sup>(١٥٧)</sup> . وعارض هان — أعظم النقاد في عصره هذه الحركة ، وكان ينظر إليها نظرة في وسعنا أن نسميها نظرة نيتشية ، وكانت حجته في معارضته أن الحرب ستظل هى الحكم بين الأمم حتى تنبت للناس بالفعل أجنحة الحب العام .

ولما أصدر شى هوانج — دى أمره الشهير « بإحراق الكتب » أقيمت

في النار جميع الآداب المودية كما ألقيت فيها جميع الكتب الكنفوشية ؛  
وقضى هذا الحريق على الدين الجديد وإن لم يقض على عقيدة المعلم الأكبر  
وكتابه .

## ٢ — يانج — جو ، أناني

جيري أبيقوري — الدفاع عن الشر

وكانت عقيدة أخرى ، تختلف عن العقيدة السابقة كل الاختلاف ، قد  
أخذت تنتشر وتشتد الدعوة إليها بين الصينيين ، فقد قام رجل يدعى يانج —  
جولا نعرف عنه شيئاً إلا ما قاله عنه شانتوه<sup>(١٥٩)</sup> ، وجهر بهذه الدعوة المتناقضة ،  
وهي أن الحياة ملأى بالآلام وأن اللذة هدفها الأعلى ، وكان ينكر وجود الله ،  
كما ينكر البعث ، ويقول إن الخلاق ليست إلا دمي لا حول لها ولا طول ،  
تحركها القوى الطبيعية العمياء التي أوجدتها ، والتي وهبتها أسلافها دون أن  
يكون لها في ذلك خيار ، ورسمت لها أخلاقها ، فلا تستطيع أن تتحول عنها  
أو أن تبدلها غيرها<sup>(١٦٠)</sup> .

فأما الحكيم العاقل فيرضى بما قسم له دون أن يشكو أو يتذمر ، ولكنه  
لا يفتخر بشيء من سخافات كنفوشوس ومودي ، وما يقولانه عن الفضيلة  
الفطرية والحب العالي ، والسمعة الطيبة . ومن أقواله أن المبادئ الخلقية شرك  
ينصبه الساكرون للسذج البسطاء ، وأن الحب العالي وهم يتوهمه الأطفال الذين  
لا يعرفون كنه البغضاء العالمية التي هي سنة الحياة ، وأن حسن الأحداث العوية  
لا يستطيع الحقى الذين ضحوا من أجلها أن يستمتعوا بعد وفاتهم بها ، وأن الأخيار  
يحاسون في الحياة ما يقاسيه الأشرار ، بل إنه ليبدو أن الأشرار أكثر استمتاعاً  
بالحياة من الأخيار<sup>(١٦١)</sup> ، وأن أحكم الحكماء الأقدمين ليسوا هم رجال الأخلاق  
والحاكمين كما يقول كنفوشوس بل هم عبدة الشهوات ، الذين كان من حظهم

إن استبقوا المشتريين والفلاسفة ، فاستمتعوا بكل لذة دفعتهم إليها غرائزهم . نعم  
إن الأشرار قد يختلفون وراءهم سمعة غير طيبة ، ولكن ذلك الأمر لا يفاق عظامهم .  
ثم يدعوننا يأنج — چو إلى أن نفكر في مصير الأخيار والأشرار ، فيقول (\*) :  
إن الناس كلهم مجمعون على أن شون ، ويو ، وجو — جونغ ، وكنفوشيوس  
كانوا خير الناس وأحقهم بالإعجاب ، وأن جياه ، وجو ، شرهم جميعا .

ولكن شون قد اضطر إلى حرث الأرض في جنوب نهر هو ، وإلى وضع  
آنية الفخار بجوار بحيرة لاي ، ولم يكن في وسعه أن يستريح من عناء العمل  
لحظة قصيرة ، بل إنه لم يكن يستطيع أن يجد شيئاً من الطعام الشهي والملابس  
المدفنة ، ولم يكن في قلب أبويه شيء من الحب له ، كما لم يكن يجد من إخوته  
وأخواته شيئاً من العطف عليه . . . فلما نزل له « ياو » آخر الأمر عن الملك ،  
كان قد تقدمت به السن ، وانحطت قواه العقلية ؛ وظهر أن ابنه شانج جو  
إنسان ناقص العقل عديم الكفاية ؛ فلم يجد بدءاً من أن ينزل عن الملك إلى يو .  
ومات بعدئذ ميتة محزنة . ولم يكن بين البشر كلهم إنسان قضى حياته كلها  
بائساً منفصلاً ، كما قضى هو حياته . . .

« وكان يو قد صرف كل جهوده في فلاح الأرض ، وولد له طفل ولكنه لم  
يستطع أن يربيه ؛ فكان يمر على باب داره ولا يدخلها ، وانحنى جسمه وانضم  
وغلظ جلديده وقدميه وتحجر . فلما أن نزل له شون آخر الأمر عن العرش  
عاش في بيت وطىء حقير ، وإن كان يابس ميدعة وقلنسوة ظريفتين . ثم مات  
ميتة محزنة ، ولم يكن بين الأدميين كلهم من عاش مميصة نكدة حزينة  
كما عاش يو (\*) . . .

« وكان كنفوشيوس يفهم أساليب الملوك والحكام الأقدمين ، ويستجيب

---

(\*) في وسع القارئ أن يعرف شيئاً عن شون ، ويو بالاطلاع على ص ١٧ من هذا  
الكتاب وعن جياه وو ( سن ) بالاطلاع على صفحتي ١٧ ، ١٨ .

إلى دعوات أسراء عصره . ثم قطعت الشجرة التي يستظل بها في سونج ، وأزيلت آثار أقدامه من وية ، وجل به الضنك في شانج وچو ، وحوصر في شان ، وتشى ؛ ... وأذله يانج هو وأهانته ، ومات ميتة محزنة ، ولم يكن بين بنى الإنسان كلهم من عاش عيشة مضطربة صاحبة كما عاش كنفوشيوس .

« ولم يستمتع هؤلاء الحكماء الأربعة بالسرور يوماً واحداً من أيام حياتهم ، وذاعت شهرتهم بعد موتهم ذيوماً سوف يدوم عشرات الآلاف من الأجيال ، ولكن هذه الشهرة هي الشيء الذي لا يختاره قط من يعنى بالحقائق ويهتم بها . هل يحتفلون بذكراهم ؟ هذا ما لا يعرفونه . وهل يكافئونهم على أعمالهم ؟ — وهذا أيضاً لا يعرفونه وليست شهرتهم خيراً لهم مما هي لجذع شجرة أو مدرة . أما (جيا) فقد ورث ثروة طائلة تجمعت مبدى قرون طويلة ؛ ونال شرف الجلوس على العرش الملكي ؛ وأوتى من الحكمة ما يكفيه لأن يتحدى كل من هم دونه مقاماً ؛ ومن القوة ما يكفي لأن يزعرع به أركان العالم كله . وكان يستمتع بكل ما تستطيع العين والأذن أن تستمتعا به من ضروب اللذات ؛ ولم يحجم قط عن فعل كل ما سولت له نفسه أن يفعله . ومات ميتة هنيئة ؛ ولم يكن بين الأدميين كلهم من عاش عيشة مترفة فاسدة كما عاش هو وورث چو (شِن) ثروة طائلة تجمعت فى مدى قرون طويلة ، ونال شرف الجلوس على العرش الملكي ؛ وكان له من القوة ما يستطيع به أن يفعل كل ما يريد ؛ ... وأباح لنفسه فى قصوره فعل كل ما يشتهي ، وأطلق لشهواته العنان خلال الليالى الطوال ؛ ولم يكدر صفو سعادته قط بالتفكير فى آداب اللياقة أو العدالة ، حتى قضى نحبه كأبهج ما يقضى الناس نحبه . ولم يكن فى الأدميين كلهم من كانت حياته داعرة فاجرة كما كانت حياة چو .

« وقد استمتع هذان الرجلان السافلان فى حياتهما بما شاءا من اللذات وأطلقا لشهوتهما العنان ، واشتهرا بعد وفاتهما بأنهما كانا من أشد الناس حقاً



وأستبداداً ، ولكنهما استمتعا باللذة وهي حقيقة لا تستطيع أن تهبها حسن الأحذوثة . فإذا لامهم الناس فإنهم لا يعرفون ، وإذا أنفوا عليهم ظلوا بهذا الثناء جاهلين ، وسمعتهم (السيئة) لا تههم أكثر مما تههم جذع شجرة أو مدرّة<sup>(١٦٢)</sup> .

ألا ما أعظم الفرق بين هذه الفلسفة وبين فلسفة كنفوشيوس ! وهنا أيضاً نظن أن الزمان وهو رجعي كالرجعيين من الأدميين قد أبقى لنا آراء أجل المفكرين الصينيين وأعظمهم ، ثم عدا على الباقيين كلهم تقريباً فطواهم في غمرة الأرواح المنسية . ولعل الزمان محق في فعله هذا ، ذلك أن الإنسانية نفسها ما كانت لتعمر طويلاً لو كان فيها كثيرون ممن يفكرون كما يفكر يان چو . وكل ما نستطيع أن نرد به عليه هو أن المجتمع لا يمكن أن يقوم إذا لم يتعاون الفرد مع زملائه. أخذاً وعطاءً ؛ وإذا لم يتحملهم ويصبر على أذاهم ، ويتقيد بما في المجتمع من قيود أخلاقية ، وأن الفرد الكامل العقل لا يمكن أن يوجد في غير مجتمع ؛ وأن حياتنا نفسها إنما تعتمد على ما فيها من قيود . ومن المؤرخين من يرى في انتشار هذه الفلسفة الأنانية ، بعض الأسباب التي أدت إلى ما أصاب المجتمع الصيني من انحلال في القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد<sup>(١٦٣)</sup> . فلا عجب والحالة هذه أن يرفع منشيس ، جنسن (Dr. Johnson) زمانه عقيرته بالاحتجاج الشديد وبالنشهير بأيقورية ينج چو وبمثالية مودى فيقول :

« إن أقوال ينج چو ومودى تملأ العالم ؛ وإذا سمعت الناس يتحدثون وجدتهم قد اعتنقوا آراء هذا أو آراء ذلك . فأما المبدأ الذي يدعو إليه ينج فهو هذا : « كل إنسان وشأنه » — وهو مبدأ لا يعترف بمطالب الملك . أما مبدأ مو فهو هذا : « أحب الناس جميعاً بقدر واحد » — وهو مبدأ لا يعترف بما يحق للأب من حب خاص . ومن لا يعترف بحق الملك ولا بحق الأب فهو في منزلة الحيوان الأعمى . فإذا لم يوضع لمبادئها حد ، وإذا لم تُسَدَّ مبادئ

كنفوشيوس، فإنهما سيخدعان الناس بجدثهما المقلوب، ويسدان في وجوههم طريق الخير والصلاح .

« ولقد أزعجتني تلك الأشياء وأرмضت قلبي ، فوقفت أدافع عن عقائد الحكاء والأقدمين ، وأعارض ينج ومو ، وأطارد أقوالها المنحطة ، حتى يتواري هؤلاء المتحدثون الفاسدون فلا يجروا على الظهور . وإن يغير الحكاء من أقوالهم هذه إذا ما عادوا إلى الظهور » (١٦٤) .

### ٣ - منشيس ، مستأر الأسماء

أم نمودجية - فيلسوف بين الملوك - هل الناس أخيار  
بالسليقة - الضريبة المرديّة - منشيس والشيوخيون -  
باعث الكسب - حق الناس في أن يثوروا

لقد شاءت الأقدار أن يكون منشيس أئب الفلاسفة الصينيين ذكراً بعدد كنفوشيوس ؛ وما أحفل تاريخ الصين بالفلاسفة .

وكان منشيس من سلالة أسرة مانج العريقة ، وكان اسمه في بادئ الأمر مانج كو ، ثم صدر مرسوم إمبراطوري بتغييره إلى مانج - دزه أى مانج المعلم أو الفيلسوف . وقد بدل علماء أوربا الذين مرنوا على الأسماء اللاتينية هذا الاسم إلى منشيس كما بدلوا كونج - فو - دزه إلى كنفوشيوس .

ويكاد علمنا بأم منشيس يبلغ من الدقة علمنا به هو نفسه ، ذلك بأن المؤرخين الصينيين قد خلدوا ذكرها وجعلوها نموذجاً للأحداث بما قصوه عنها من القصص الكثيرة الممتعة . فهم يقولون إنها بدلت مسكنها ثلاث مرات من أجله ؛ بدلته أول مرة لأنهما كانا يسكنان بجوار مقبرة فبدأ الصبي يسلك مسلك دافنى الأموات ؛ وبدلته في المرة الثانية لأنهما كانا يسكنان بجوار مذبح ، ولذلك بدأ الغلام يجيد محاكاة أصوات الحيوانات المذبوحة ؛ ثم بدلته في المرة الثالثة

لأنهما كانا يسكنان بجوار سوق فشرع الصبي يسلك مسلك التجار؛ ثم وجدت آخر الأمر داراً بقرب مدرسة فرضيت بها .

وكانت إذا أهمل الغلام دروسه تقطع خيط الموم ، فإذا سألها عن سبب هذا الإنلاف أجابت بأنها إنما تفعل ما يفعله هو نفسه بإهماله وعدم مئابرتة على الدرس والتحصيل . وبذلك أصبح الصبي طالباً مجداً ؛ ثم تزوج وقاوم في نفسه الليل إلى تطليق زوجته ، وافتتح مدرسة لتعليم الفلسفة جمع فيها حوله طائفة من الطلاب ذاع صيتهم في الآفاق ؛ وبمئ إلىه الأمراء من كافة الأنحاء يدعونه ليناقشوه في نظرياته عن الحكم . ولم يشأ في أول الأمر أن يترك أمه المسنة ، ولكنها أقمته بالذهب بخطبة حبيبها إلى جميع رجال الصين ، وامل واحداً منهم . هو الذي وضع هذه الخطبة :

« ليس من حق المرأة أن تفصل في أمر بنفسها ، وذلك لأنها تخضع لقاعدة الطاعات الثلاث : فإذا كانت شابة وجب عليها أن تطيع أوبها ، وإذا تزوجت كان عليها أن تطيع زوجها ، وإذا ترملت وجب عليها أن تطيع ولدها . وأنت رجل كامل الرجولة ، وأنا الآن عجوز ، فافعل ما توحيه إليك عقيدتك بأنه حق . واجب عليك أن تفعله ، وسأفعل أنا ما يوجبه على القانون الذي أأتمر بأمره . فإذن تشغل نفسك بي ؟ » (١٦٥) .

وأجاب منشيس ما طلب إليه لأن الالهفة على التعليم جزء من الالهفة على الحكم ، ترتبط كلتاها أشد الارتباط بالأخرى . وكان منشيس كمثلير يفضل الملكية المطلقة على الديمقراطية ، وحقته في هذا أن الديمقراطية تتطلب تعاميم جميع الشعب كله إذا أريد نجاح الحكم ، أما النظام الملكي المطلق فكل ما يطلب فيه أن يتقف الفيلسوف رجلاً واحداً — هو الملك — ويعلمه الحكمة لكي ينشئ الدولة الكاملة .

ومن أقواله في هذا المعنى : « أصلح ما في عقل الأمير من خطأ ، فإنك إن قومت الأمير استقرت شئون الدولة »<sup>(١٦٦)</sup> . وسافر أولاً إلى تشي وحاول أن يقوم أميرها شوان ، ورضى أن يكون له فيها منصب فخري ، ولكنه رفض مرتب هذا المنصب . وسرعان ما وجد أن الأمير لا يعنى بالفاسفة ، ففادر تلك الإمارة إلى إمارة تانج الصغيرة ، ووجد في حاكها تلميذاً مخلصاً وإن يكن تلميذاً عاجزاً ضعيفاً . فعاد مرة أخرى إلى تشي ، وأثبت أنه قد زاد حكمة وفهماً لحقائق الأمور بأن قبل منصباً ذا مرتب كبير عرضه عليه الأمير شوان . ولما توفيت أمه في هذه السنين الرغدة دفنها باحتفال عظيم ووجه اللوم من أجله إلى تلاميذه ، ولكنه برر لهم هذا العمل بقوله إن كل ما يرمى إليه هو أن يظهر إخلاصه ووفاءه له الدته .

وبعد بضع سنين من ذلك الوقت تورط شوان في حرب للفتح والملك ، وساءه ما أشار به عليه منشيس من دعوة إلى السلام ، رأى أنها جاءت في غير أوانها فأقاله من منصبه وسمع منشيس أن أميرسونج يريد أن يحكم حكم الفلاسفة فسافر إلى عاصمته ولكنه وجد أن ما سمعه كان مبالغاً فيه كثيراً ، وأن الأمراء الذين تردد عليهم كانت لهم أعذار كثيرة يبررون بها عدم استقامتهم واتباعهم النصيح . فقد قال واحد منهم : « إن لدى ناحية من نواحي الضعف ، وهي أنى أحب البطولة والبسالة » . وقال آخر : « إن لدى ناحية من نواحي الضعف وهي أنى أحب الثروة »<sup>(١٦٧)</sup> .

واضطر منشيس آخر الأمر إلى أن يمتزل الحياة العامة ، وقضى أيام شيخوخته وضمغه في تعليم الطلاب وتأليف كتاب وصف فيه أحداثه مع ملوك زمانه . وليس في وسعنا أن نقول إلى أى حد يمكن مقارنة هذه الأحاديث بأحاديث وولتر سثدج لاندر Walter Savage Lander<sup>(\*)</sup> ؛ ولسنا واثقين من أن هذا

( \* ) أديب إنجليزي عاش بين سنتي ( ١٧٧٥ - ١٨٦٤ ) . ( المترجم )

الكتاب من تأليف منشيس نفسه ، أو من تأليف تلاميذه ، أو أنه هو وتلاميذه قد اشتركوا في وضعه ، أو أنه مدسوس عليه وعليهم<sup>(١٦٨)</sup> . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن كتاب منسب من أعظم الكتب الفلسفية الصينية القديمة وأجلها قدرًا .

وعقيدته عقيدة دنيوية خالصة لا تقلّ في هذا عن عقيدة كنفوشيوس ، ولا يكاد يوجد فيها شيء عن المنطق أو فلسفة المعرفة أو ما وراء الطبيعة . لقد ترك الكنفوشيون هذا إلى اتباع لو—دزه ، ووجهوا همهم إلى البحوث الأخلاقية والسياسية . وكان الذي يهم منشيس هو أن يرسم طريقة للحياة الصالحة وتولى خيار الناس مقاليد الحكم . وكان مبدؤه الأساسي أن الناس أخيار بطبيعتهم<sup>(١٦٩)</sup> ، وأن ليس منشأ المشاكل الاجتماعية طبيعة الناس بل منشؤها فساد الحكومات ؛ ومن ثم يجب أن يصبح الفلاسفة ملوكا ، أو أن يصبح ملوك هذا العالم فلاسفة . انظر إلى ما يقوله في هذا المعنى :

والآن ، إذا أردتم جلالتم أن ننشئوا حكومة أعمالها صالحة ، فإن هذا سيبعث في جميع موظفي مملكتم الرغبة في أن يكونوا في بلاط جلالتم ، وفي جميع الزراع الرغبة في أن يفلحوا أرض جلالتم ، وفي جميع التجار الرغبة في أن يخزنوا بضائعهم في أسواق جلالتم ، وفي جميع الرحالة الأغراب الرغبة في أن يسافروا في طرق جلالتم ، وفي جميع من يشعرون في أنحاء مملكتم بأن ظلماً قد وقع عليهم من حكاهم الرغبة في أن يأتوا ويشكوا إلى جلالتم . وإذا ما اعتمروا أن يفعلوا هذا فنذا الذي يستطيع أن يقف في سبيلهم ؟ » .

فقال الملك : « إنني غبي وليس في وسعي أن أرق إلى هذا الحد »<sup>(١٧٠)</sup> .

والحاكم الصالح في رأيه لا يشن الحرب على البلاد الخارجية بل يشنها على العدو المشترك — وهو الفقر ، لأن الفقر والجهل هما منشأ الجرائم واضطراب النظام ، وعقاب الناس على ما يرتكبونه من الجرائم لأنهم لا تتاح لهم فرص

لعمل شرك دنىء ينصب للإيقاع بالناس<sup>(١٧١)</sup> . وواجب الحكومة أن توفر أسباب الرفاهية لرعاياها ، ولهذا ينبغي لها أن تضع الخطط الاقتصادية الكفيلة بتحقيق هذه الغاية<sup>(١٧٢)</sup> . فعلينا أن نفرض أكثر الضرائب على الأرض نفسها لا على ما تغله أو ما يقام عليها من المنشآت<sup>(١٧٣)</sup> ، وعليها أن تلغى كل العوائد الجبركية وأن تجعل التعليم عاماً وإجبارياً ، لأن هذا أصلح أساس لنشر الحضارة وتقدمها ؛ « والقوانين الطيبة لا تعادل كسب الناس بالتعليم الطيب »<sup>(١٧٤)</sup> . « وليس الذى يفرق بين الإنسان والحيوان الأعمى بالشيء الكثير ، ولكن معظم الناس يطرحونه وراء ظهورهم ، ولا يحتفظ به إلا عطاء الرجال »<sup>(١٧٥)</sup> . وفى وسعنا أن ندرك قدم المشاكل السياسية التى تواجه عصرنا المستدير ، رموقفنا منها ، وما نضعه لها من الحلول ، إذا عرفنا أن منشيس قد نبذه الأمراء المتطرفون ، وسخر منه الاشتراكيون والشيوعيون فى عصره لمحافظة واستمساكه بالقديم . ولما قال شوشنج جزار الجنوب الممجى ينادى بإنشاء دكتاتورية الصماليك ، ويطالب بأن يكون الصناع على رأس الدولة ، « وأن يكون الفعلة هم الحكام » لما قام يدعو إلى هذا ، واعتنق دعوته كثيرون من « المتعلمين » ، كما اعتنق المتعلمون هذه الدعوة نفسها فى أيامنا الحاضرة ، وانضوا تحت لوائه ، رفض منشيس هذه الفكرة بازدراء ، وقال « إن الحكومة يجب أن يتولاها المتعلمون<sup>(١٧٦)</sup> » . ولكنه ندد أيضاً بالمكرة القائلة إن الكسب يجب أن يكون هو الباعث على العمل فى المجتمع الإنسانى ، وعاب على سونج كإنج قوله إن الملوك يجب اكتسابهم لقضية السلام بإقناعهم — فى لغة هذه الأيام — بأن الحرب عمل غير مرجح . وفى هذا يقول :

« إن غرضك شريف ، ولكن منطقتك غير سليم . ذلك بأنك إذا اتخذت الكسب أساساً لحجتك واستطعت أن تقنع بها ملوك تشين وتشى ، وأعجب هؤلاء الملوك بفكرة الكسب فأمروا بوقف حركات جيوشهم ، فإن كل المتصلين

بهؤلاء الجيوش سيفرحون بوقف القتال)، وسيجدون أعظم السرور في (السيء وراء الكسب). فزرى الوزراء يخدمون الملك جرياً وراء الكسب الذي حجب إليهم، والأبناء يخدمون آباءهم، والإخوة الصغار يخدمون الكبار من إخوتهم، لهذا السبب عينه، ونتيجة هذا أن الملك والوزراء، والأب والابن، والأخ الأكبر والأصغر يفسون كلهم بواعث الخير والصلاح، ويوجهون أعمالهم كلها نحو الكسب الحبيب إليهم العزيز عليهم. ولم يوجد قط (مجتمع) كهذا إلا كان مآله الخراب» (١٧٧).

وكان يعترف بحق الشعوب في الثورة وينادي بهذا المبدأ في حضرة الملوك. وكان يندد بالحرب ويرأها جريمة، ولشد ما صدم عقائد الأبطال في أيامه حين كتب يقول: «من الناس من يقول إنى بارع في تنظيم الجند، وإنى ماهر في إدارة المعارك. وأولئك هم كبار الجرمين» (١٧٨).

وقال في موضع آخر: «ليس ثمة حرب عادلة» (١٧٩). وكان يندد بترف حاشية الملوك، ويوجه أشد اللوم للملك الذي يطعم كلابه وخنازيره ويترك الناس يموتون جوعاً (١٨٠). ولما قال أحد الملوك إنه لا يستطيع منع المجاعة أجابه منشيس بأنه ينبغي له أن يمتزل الملك (١٨١). وكان يقول لتلاميذه: «إن الناس أهم عنصر (من عناصر الأمة)؛ ... وإن الملك أقل هذه العناصر شأنًا» (١٨٢). وإن من حق الناس أن يخلعوا حكاهم، بل إن من حقهم أن يقتلهم في بعض الأحيان.

ة وسأل الملك شوان عن الوزراء العظام ... فأجابه منشيس: «إذا كان الملك يرتكب أغلاطاً شنيعة وجب عليهم أن يعارضوه، فإذا لم يستمع إليهم بعد أن يفعلوا هذا مرة بعد مرة، وجب عليهم أن يخلعوه ...».

ثم واصل منشيس حديثه قائلاً: «إذا فرض أن القاضي الأكبر الذي يحكم في الجرائم قد عجز عن السيطرة على الموظفين (الخاضعين له) فماذا تفعل به؟».

فأجابه الملك بقوله : « أفصله من منصبه » . ثم قال له منشيس : « وإذا لم يكن في داخل حدود (مملكتك) الأربعة حكومة صالحة فماذا تفعل ؟ » فتلفت الملك يمنة ويسرة وأخذ يتحدث عن أمور أخرى...

وسأله الملك شوان : « وهل من أجل ذلك أمر تانج بنفي جياه وضرب الملك « وُ » حاكم چو (سن) ؟ فأجاب منشيس : « هكذا تقول السجلات » وسأله الملك : « وهل يحق للوزير أن يقتل مليكه ؟ » فأجابه منشيس : « إن الذي يخرج على ما أودع فيه من (طبيعة خيرة) يسمى لصاً ؛ والذي يخرج على قواعد الاستقامة يسمى وغداً ؛ وليس كل من اللص والوغد في عرفنا إلا شخصاً لا قيمة له ؛ ولقد سمعت بتقطيع أوصال الشونججو، ولكني لم أسمع بقتل ملك » (١٨٣).

تلك عقيدة ما أجرأها ، ولقد كانت عاملاً كبيراً في تقرير المبدأ الذي يقره ملوك الصين وأهلها ، وهو أن الحاكم الذي يستثير عداوة الشعب يفقد « حقه الإلهي » في الحكم ، ومن حق الشعب أن يخلعه . فلا عجب والحالة هذه إذا غضب هونج وو ، مؤسس أسرة منج . حين قرأ هذا الحديث الذي دار بين منشيس والملك شوان ، وأمر أن يمحي اسم منشيس من مكانه في هيكل كنفوشيوس ، وكانت لوحة تذكارية قد وضعت له في هذا المعبد بأمر ملكي في عام ١٠٨٤ ، ولكن اللوحة أعيدت إلى مكانها ولما يمض عام واحد على إزالتها ، وظل منشيس من ذلك الوقت إلى ثورة عام ١٩١١ يعد بطلاً من أبطال الصين وثاني اثنين ذاع صيتهما في جميع عهود تاريخها ، وكان لها أعظم الأثر في فلسفتها الصحيحة . وإليه وإلى چوشى (\*) يرجع الفضل في احتفاظ كنفوشيوس بزعامته الفكرية في الصين أكثر من ألفي عام .

( \* ) انظر بحث الفلسفة في الفصل الأول من الباب الخامس عشر .



٤ — شون — دزه ، واقعي

النفس البشرية أمانة بالسوء - ضرورة القوانين

كان في فلسفة منشيس كثير من نقط الضعف ، وكان يسر معاصريه أن يشهروا بهذه النقط بأعظم ما يستطيعون من قوة . أحق أن الناس أخيار بطبيعتهم وأنهم لا ينعقدون إلى الشر إلا إذا فسدت النظم التي يعيشون في كنفها ؟ أم الصحيح أن الطبيعة البشرية هي السبب في شرور المجتمع ؟ لقد كان هذان الرأيان المتعارضان مثاراً لجدل عنيف ظل قائماً آلاف السنين بين المصلحين والمحافظين . فهل تستطيع التربية أن تنقص الجرائم ، وتزيد العصائل ، وتأخذ بيد الناس إلى المثل العليا ، وتمكنهم من إقامة الدولة الفاضلة المثالية ؟ وهل يصلح الفلاسفة لحكم الدول أو أن فلسفتهم لا تؤدي إلا إلى زيادة ما يحاولون علاجه من فوضى واضطراب ؟

وكان أشد الناس نقداً لمنشيس وأصعبهم مراساً أحد الموظفين المومنين ، ويلوح أنه توفي في عام ٢٣٥ ق . م وهو في سن السبعين . ذلك هو شون — دزه الذي سبقت الإشارة إليه في هذا الباب وكما كان منشيس يعتقد أن الناس جميعهم أخيار بطبيعتهم ، كان شون — دزه يرى أنهم جميعاً أشرار بفطرتهم ، وحتى شون ويو كانا متوحشين حين ولدا<sup>(١٨٤)</sup> . وقد وصلت إلينا قطعة من كتابات شون — دزه يبدو فيها أشبه الناس بالفيلسوف الإنجليزي هبز Hobbes إذ يقول :

« النفس البشرية أمانة بالسوء ، وما تعمله من خير متكلف مصطنع<sup>(\*)</sup> .  
فهي قد تغرس فيها من ساعة مولدها حب الكسب ؛ إذ كانت أهال الإنسان

---

(\*) أي أن ما في الإنسان من خير غير أصيل فيه بل أكسبته إياه تربيته والنظر التي يعيش في كنفها .

إنما تقوم على هذا الحب فإن هذا يؤدي إلى انتشار المنازعات والسرقات . وليس إنكار الذات والاستسلام للغير من ( طبيعة ) الإنسان ، بل إن من طبيعته التحاسد والتباغض ، ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع طباعهم فإنهم لا يصدر عنهم إلا العنف والأذى ، ولا نرى فيهم إخلاصاً أو وفاً .

ومن طبيعة الإنسان أيضاً إشباع الأذن والعين ، وهذا يؤدي إلى حب الأصوات العذبة وللمناظر الجميلة . ولما كانت أعمال الناس لا بد أن تتفق مع هذه وتلك ، كان لا بد أن توجد الدعارة وسوء النظام ، وأن تقدم الاستقامة والاحتشام ومظاهرها المختلفة المنسقة . ومن هذا يتضح أن السير وفق الطبيعة البشرية وإطاعة أحاسيسها ، يؤديان حتماً إلى الخصام والصوصية ، وإلى مخالفة الواجبات التي تتفق مع الوضع الذي وجد فيه كل إنسان ، وإلى الخلط بين كل المراتب والمميزات حتى تم الممجيية . ولهذا كان لا بد من قيام سلطان المعلمين وسلطان الشرائع ، والاهتداء بقواعد الاستقامة والاحتشام التي ينشأ عنها إنكار الذات ، والخضوع للغير ، ومراعاة قواعد السلوك المنظمة ، مما يؤدي إلى قيام الدولة ، ذات الحكومة الصالحة .. وقد أدرك الملوك الأقدمون الحكماء ما طبعت عليه النفس البشرية من شر ، فوضعوا قواعد الاستقامة والآداب ، وسنوا النظم والقوانين ليقوموا بطباع الناس ومشاعرهم ويصلحوهم .. حتى يسلكوا جميعاً سبيل الحكم الصالح الذي يتفق مع العقل» (١٨٥) .

ووصل شون — جزه في بحوثه إلى ما وصل إليه ترجيف وهو أن الطبيعة ليست مبعداً يضم الصالحين ، بل هي مصنع يجتمع فيه الصالح والطالح ؛ وهي تقدم المادة الغفل ، التي يعمل فيها الذكاء فيصوغها ويشكلها . وكان يظن أن أولئك الناس الأشرار بطبعهم ، إذا دربوا على الخير ، قد يصلحون ، بل إن في وسعهم إذا أريد لهم ذلك أن يكونوا قديسين (١٨٦)

ولما كان شون — دزه شاعراً وحكياً معاً فقد نظم فلسفة فرانسس بيكن  
في هذا الشعر الركيك :

إنكم تعبدون الطبيعة وتفكرون فيها ،  
فلم لا تمخرونها وتنظمونها ؟  
إنكم تطيعون الطبيعة وتسبحون بحمدها ،  
فلم لا تسيطرون على أساليبها وتستخدمونها ؟  
إنكم تنظرون إلى الفصول نظرة الإجلال وتنتظرونها ،  
فلم لا تستجيبون إليها ببذل النشاط في أوانه ؟  
إنكم تعتمدون على الأشياء الخارجة عنكم وتعجبون بها ،  
فلم لا تكشفون عن كفاياتكم ؟  
وتوجهونها الوجهة الصالحة ؟ (١٨٧) .

### ٥ — جورج — دزه ، صالى

الرجوع إلى الطبيعة — المجتمع اللاحكوى — طريقة الطبيعة —  
حدود الذهن — تطور الإنسان — مُشكَّل الأرزار — أثر  
الفلسفة الصينية في أوربا

على أن « الرجوع إلى الطبيعة » لم يكن من السهل أن يقاوم بهذه الطريقة ؛  
بل قام في ذلك العصر من يدعو إليه كما قام من يدعو إليه في كل العصور . ومن  
المصادقات التي يمكننا أن نسميها مصادقات طبيعية أن كان الداعي إلى هذا الرجوع  
أبلغ كتاب عصره وأفصحهم لساناً . لقد كان جورج — دزه مولعاً بالطبيعة يرى  
أنها سيدهته التي تتحنى به على الدوام مهما كان بغيه أو كانت سنه ، ومن أجل  
هذا فاضت فلسفته بأحاسيس روسو الشعرية . مضافاً إليها مُلحٌ فليمير الهجائية .  
ومنذا الذي يستطيع أن يتصور أن منشيس ينسى نفسه بحيث يصف أحد الناس

بأن له : « جذرة<sup>(\*)</sup> كإبريق من الفخار »<sup>(١٨٨)</sup> ، وقصارى القول أن جونغ أديب وفيلسوف معاً .

ولد هذا الفيلسوف في ولاية سونج ، وتقلد وقتاً ما منصباً صغيراً في مدينة خيآن . وزار قصور الملوك التي زارها من شيس ، ولكن كلا الرجلين لا يذكر فيما بقي لنا من كتاباته اسم الآخر . ولعل كليهما كان يجب صاحبه كما يجب للمعاصرون بعضهم بعضاً . ويروى عنه أنه رفض منصباً كبيراً مرتين ، ولما عرض عليه دوق — وبه رئاسة الوزارة رد على رسول الملك رداً مقتضباً يدل على ما يترأى للكاتب من أخلام فقال : « اذهب من هنا لساعتك ولا تدنسى بوجودك ، خير لى أـ أسلى نفسى وأمتعها في حفرة قدرة من أن أخضع للقواعد في بلاط ملك من الملوك »<sup>(١٨٩)</sup> .

وبينا كان يصطاد السمك في يوم من الايام إذ أقبل عليه رجلان من كبار الموظفين يحملان إليه رسالة من ملك خو يقول فيها : أريد أن أحملك عبـ جميع ملكى » ، فأجابه جونغ ، كما يقول هو نفسه ، دون أن يرفع نظره عن صيده .

« لقد سمعت أن في خو صدفة سلحفاة كأنها روح من الأرواح ، وقد ماتت سلحفاتها منذ ثلاثة آلاف عام ، وأن الملك يحتفظ بهذه الصدفة في معبد أسلافة ، وأنه يضعها في سلة مغطاة بالقماش . فهل كان خيراً للسلحفاة أن تموت وتترك صدقتها تعظم على هذا النحو ؟ أو هل كان خيراً لها أن تظل حية تجر ذيلها من خلفها في الوحل ؟ » فأجاب الموظفان الكبيران : « لقد كان خيراً لها أن تعيش وتجر ذيلها من خلفها في الوحل » ؛ فقال لها جونغ : « اذهبا في سبيلكما ، وسأظل أجز ذيلي ورأى في الوحل »<sup>(١٩٠)</sup> .

(\*) الجذرة تضمنم الغدة الدرقية وهذا اللفظ من الألفاظ التي أفرها مجمع اللغة العربية .  
( المترجم )

وكان احترامه للحكومات يعدل احترام سلفه الروحي بو — دزه ، فكان يسره أن يشير إلى عدد ما يتصف به الملوك والحكام من صفات اللصوص<sup>(١٩١)</sup> . ويقول إنه إذا أدى الإهمال بأحد الفلاسفة الحقيقيين ، إلى أن يزي نفسه يتولى شئون إحدى الدول ، فإن الخطة المثلى التي يجب عليه أن يسلكها هي ألا يفعل شيئاً ، وأن يترك الناس أحراراً يضعون ما يشاءون من نظم حكمهم الذاتي . « لقد سمعت عن ترك العالم وشأنه ، والكف عن التدخل في أمره ، ولم أسمع عن حكم العالم<sup>(١٩٢)</sup> » ولم يكن ثمة حكومات في العصر الذهبي الذي سبق عهد أقدم الملوك . ولم يكن يوشون ، خليقته بما حبتها الصين وحبابها كنفوشوس من تشریف وتعظيم ، بل كانا خليقته بأن يتهما بالقضاء على ما كانت الإنسانية تستمتع به من سعادة بدائية قبل إقامة نظم الحكم في العالم : « لقد كان الناس في عهد الفضيلة الكاملة يعيشون مجتمعين كما يعيش الطير والحيوان ، ولا يفتنون عنهما في شيء ، تتألف منهم ومن جميع المخلوقات أسرة واحدة . وأنى لهم أن يعرفوا فيما بينهم ما يميز العظاء فيهم من غير العظاء ؟ »<sup>(١٩٣)</sup> .

ويرى جونج أن من واجب الرجل العاقل أن يولى الادبار حين يشاهد أولى معالم الحكومة ، وأن يعيش أبعد ما يستطيع عن الفلاسفة والملوك ، ينشد السلام والسكون في الغابات ( وذلك موضوع جد آلاف من المصورين الصينيين في رسمه ) وأن يترك كيانه كله يتبع الدو المقدس — قانون حياة الطبيعة ومجراها الذي لا تدركه العقول — من غير أن يعوقه عن ذلك تفكير أو تدبير ، لا يتكلم إلا قليلاً لأن الكلام يضل بقدر ما يهدى ، ولأن الدو — طريقة الطبيعة وجوهرها — لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ أو صياغته في أفسكار ، بل كل ما في الأمر أنه يمكن للشعور به في الدم . وهو يرفض أن يستعين بالآلات ويؤثر عليها الطرق القديمة المجهدة التي كان يجري عليها بسطاء الرجال ، وذلك لأن الآلات تؤدي إلى التعميد والفتنة وعدم المساواة بين الناس ؛ وليس في مقدور أى إنسان

أن يعيش بين الآلات ويستمتع بالسلام<sup>(١٩٤)</sup>. وهو يأبى أن يكون له ملك خاص ولا يجد للذهب نفعاً له في حياته؛ ويفعل ما فعله تَيْمُنُ\* الأثيني فيترك الذهب محبوباً في جوف التلال والآلئ في أعماق البحار. والذي يمتاز به من غيره أنه يفهم أن الأشياء جميعها تخص خزانة واحدة، وأن الموت والحياة يجب أن ينظر إليهما نظرة واحدة<sup>(١٩٥)\*\*</sup>، — على أنها نعمتان من أنعام الطبيعة المتناسقة، أو موجتان في بحر واحد.

وكان الأساس الذي يقوم عليه تفكير جونغ عین الأساس الذي يقوم عليه تفكير لو — دزه شبه الأسطوري. وكان تفكير لو — دزه هذا يبدو لجونغ أعمق كثيراً من تفكير كنفوشيوس، وكان في جوهره النظرة الصوفية لوحدة الكون غير الشخصية الشبيهة شهاً عجبياً بنظرة بوذا وأتباع أبايشاد، حتى ليكاد المرء يعتقد أن فلسفة ما وراء الطبيعة الهندية قد تسربت إلى الصين قبل أربعمائة عام من ظهور البوذية فيها حسبما يسجله المؤرخون. نعم إن جونغ فيلسوف لا أدري، جبري، من القائلين بالحمية ومن اللشائمين، وإسكن هذا لا يمنع أن يكون قديساً متشككاً، ورجلاً أسكرته الدرّية؛ وهو يعبر عن تشككه هذا تعبيراً يميزه من غيره من أمثاله في القصة الآتية:

قال شبه الظل يوماً ما للظل<sup>(†)</sup> « إنك تارة تتحرك وتارة تثبت في مكانك، تارة تجلس وتارة تقوم، فلم هذا التذبذب في القصد وعدم الاستقرار فيه؟ » فأحابه الظل، بقوله: « إن شيئاً أعتمد عليه هو الذي يجعلني أفعل ما أفعله،

---

(\*) شخصية معروفة من شخصيات شيكسبير في إحدى مسرحياته المسماة بهذا الاسم. اقرأ وصف هذه الشخصية في كتابنا « قصص من شيكسبير ». ( المترجم )

(\*\*) ما أشبه هذا بقول حكيم المعرة:

وشبيه صوت النمل إذا يجر من بصوت البشير في اكل ناد ( المترجم )

(†) شبه الظل في الحسوف جوارحها: النصف المضاء بين الظل وبين الضوء. ولعل جونغ

يقصد بالظل في قصته جنم الإنسان الذي يستنطق العقل المستنير بمض الاستنارة. ( المترجم )

ولكن هذا الشيء نفسه يعتمد على شيء آخر يضطره إلى أن يفعل هو الآخر ما يفعله ... وأنى لى أن أعرف لم أفعل هذا الشيء ولا أفعل ذلك؟ ... إن الجسم إذا بلى بلى العقل معه؛ ألا ينبغي لنا أن نقول إن هذه حال يرثي لها كثيراً؟ ... إن ما يحدث في الأشياء كلها من تغيير — وجود ثم عدم — يسير (بلا انقطاع)؛ ولكننا لانعرف منذ الذى يُسبّر هذه الحركة في طريقها على الدوام: وأنى لنا أن نعرف متى يبدأ الواحد منا؟ وأنى لنا أن نعرف متى ينتهى؟ إن كل ما فى وسعنا أن ننتظر هذه البداية والنهاية، لا أكثر من هذا ولا أقل» (١٩٦).

ويظن جونغ أن هذه المشاكل إنما تنشأ من قصور تفكيرنا أكثر مما تنشأ من طبيعة الأشياء نفسها. فلا يجب والحالة هذه أن تنتهى الجهود التى تبذلها عقولنا الحبيسة لفهم العالم الأكبر الذى تكون هى جزئيات صغيرة منه، لا يجب أن تنتهى هذه الجهود بالتناقضات والقوانين المتعارضة. ولقد كانت هذه المحاولة التى ترمى إلى تفسير الكل باصطلاحات الجزء إسرافاً فى التناول والاعتداد بالنفس، لانجيزها إلا لما فيها من تسلية وفكاهة؛ لأن الفكاهة، كالفلسفة، هى النظر إلى الكل بمصطلحات الجزء، وكلاهما لا يمكن وجوده بغير الآخر.

ويقول جونغ — دزه إن العقل لا يفيد فى فهم الأشياء الغائية أو أى شيء عميق كنمو الطفل مثلاً. « وليس الجدل إلا دليلاً على عدم وضوح الرؤيا »، وإذا أراد الإنسان أن يفهم الدوّ « فعليه أن يكبت علمه أشد الكبت » (١٩٧) إن من واجبتنا أن ننسى نظرياتنا ونشعر بالحقائق؛ وليس التعليم بنافع لنا فى هذا الفهم، وأهم شيء فى هذا أن نلتقى بأنفسنا فى غمرات الطبيعة.

وما هو الدوّ الذى يراه الصوفى المحظوظ النادر الوجود؟ إنه شيء لا يمكن التعبير عنه بالألفاظ؛ وكل ما نستطيع أن نصفه به فى عبارات ضعيفة ملأى

بالتناقضات هو قولنا إنه وحدة الأشياء كلها وانسيابها المهادي من نشأتها إلى كلها ، والقانون الذي يسيطر على هذا الانسياب .

« ولقد كان موجوداً ثابتاً مفعد الأزل قبل أن توجد السماء والأرض » (١٩٨)

وفي هذه الوحدة العالمية تتلاشى كل المتناقضات ، وتزول كل الفروق ، وتتلاقى كل الأشياء المتعارضة ؛ وليس فيه ولا في نظرتة إلى الأشياء طيب أو خبيث ، ولا أبيض أو أسود ، ولا جميل أو قبيح\* ، ولا عظيم أو حقير . وإذا عرف الإنسان أن العالم صغير كحبة الخردل ، وأن طرف الشعرة لا يقل في الارتفاع عن قمة الجبل ، أمكن أن يقال عنه إنه يعرف النسبة بين الأشياء » (٢٠٠) . وفي هذا الككل المبهم الغامض لا يدوم شكل من الأشكال ، وليس فيه صورة نفذة لا تنتقل إلى صورة أخرى في دورة التطور التي تسير على مهل :

« إن بذور ( الأشياء ) دقيقة ولا حصر لها . وهي تسكون على سطح الماء نسيجاً غشائياً . فإذا وصلت إلى حيث تلتقي الأرض والمياه اجتمعت وكوّنت ( الحزاز الذي يكون ) كساء الضفادع والحيوانات الصوفية . فإذا دبّت فيها الحياة على التلال والمرتفعات صارت هي الطلح ؛ فإذا غداها السماء أنحمت نبات عش الغراب . ومن جذور عش الغراب ينشأ الدود . ومن أوراقه ينشأ الفراش ثم يستحيل الفراش حشرة — وتعيش تحت موقد . ثم تتخذ الحشرة صورة اليرقة ، وبعد ألف عام تصبح اليرقة طائراً . . . ثم تتجدد الينجشي مع خيزرانة فينشأ من اتحادهما الخلدج — تنجج ؛ ومنه ينشأ النمر ، ومن النمر ينشأ الحصان ، ومن الحصان ينشأ الإنسان . فالإنسان جزء من آلة ( التطور ) العظيمة ، التي تخرج منها جميع الأشياء ، والتي تدخل فيها بعد موتها » (٢٠١) .

لا ننكر أن هذه الأقوال ليس فيها من الوضوح ما في نظرية دارون

---

( \* ) « كانت شي — شيه امرأة جميلة ، ولكن لما انمكست ملامحها في الماء فرت بها الأسمالك خائفة » (١٩٩) .



ولكنها أياً ما كان غموضها نظرية تطور .

« وفي هذه الدورة اللانهائية قد يستحيل الإنسان إلى صور أخرى غير صورته ؛ ذلك أن صورته الحالية ليست إلا مرحلة عابرة من مراحل الانتقال ، وقد لا تكون في سجل الخلود حقيقة إلا في ظاهر أمرها— أو جزءاً من الفوارق الخداعة التي تُغشى بها مايا جميع الكائنات<sup>(٢٠١)</sup> .

« رأيت أنا جونج — دزه مرة في منامى أنى فراشة ترفرف بجناحيها في هذا المكان وذاك، أنى فراشة حقاً من جميع الوجوه . ولم أكن أدرك شيئاً أكثر من تتبعى خيالاتى التى تشعرنى بأنى فراشة . أما ذاتيتى الإنسانية فلم أكن أدركها قط . ثم استيقظت على حين غفلة وهأنذا منطرح على الأرض رجلاً كما كنت ، ولست أعرف الآن هل كنت فى ذلك الوقت رجلاً يحلم بأنه فراشة ، أو أننى الآن فراشة تحلم بأنها رجل<sup>(٢٠٢)</sup> . »

وليس الموت فى رأيه إلا تغييراً فى الصورة ، وقد يكون تغييراً من حال إلى حال أحسن منها ؛ أو أنه كما قال إِبسن Ibsen فيما بعد الصائغ الذى يصهرنا مرة أخرى فى أنون التغيير والتطور :

« مرض تزه — لاي حتى أصبح طريح الفراش يلفظ آخر أنفاسه ، ووقف من حوله . زوجته وأبناؤه يبيكون ، وذهب لى يسأل عنه فلما أقبل عليهم قال لهم : « اسكتوا وتنحوا عن الطريق ! ولا تقلبوه . فى حركة تبدله » ... ثم اتكأ على الباب وتحدث إلى (الرجل المحتضر) . فقال له تزه — لاي : « إن صلبة الإنسان بالين واليانج أقوى من صلته بأبويه . فإذا كانا يتمجلان موتى وأعصى أنا أمرهما ، فإنى أعد حينئذ عاقاً شرساً . هنالك « كبتة (الطبيعة) العقلية » التى تجعلنى أحمل هذا الجسم ، وأكفح فى هذه الحياة ، وتهد قواى فى سن الشيخوخة ، ثم أستريح بالموت . وإذن فذلك الذى يعنى بموادى هو الذى يعنى بوقائى . فها هو ذا صاهر يصب المعادن . فإذا كان المعدن الذى يتأرجح

أثناء صبه يفاديه: « يجب أن أكون مويبه (سيفاً قديماً مشهوراً) فإن الصاهر العظيم يمد هذا المعدن معدناً خبيثاً بلا ريب . وذلك أيضاً شأن الإنسان ، فإذا ما أصر على أن يكون إنساناً ولا شيء غير إنسان ، لأنه في يوم من الأيام قد تشكل في صورة الإنسان ، إذا فعل هذا فإن من بيده تصوير الأشياء وتشكيلها سيعده بلا ريب مخلوقاً خبيثاً . وإذن فلننظر إلى السماء والأرض نظرتنا إلى مصهر عظيم ، ولننظر إلى مبدل الأشياء نظرتنا إلى صاهر عظيم ؛ فهل لانكون في مكاننا الحق أينما ذهبنا ؟ إن السكون هو نومنا والهدوء هو يقظتنا » (٢٠٣) .

ولما تصرم أجل جونج نفسه أعد أتباعه له جنازة فخمة ، ولكنه نهام عن ذلك وقال لهم : « أليس موكب الجنائز معداً إذا كانت السماء والأرض تابوتي وغطائي ، والشمس والقمر والنجوم شعائري ، والخلائق كلها تشيعني إلى قبري ؟ » ولما عارض أتباعه في هذا ، وقالوا إنه إن لم يدفن أكلت طيور الهواء الجارحة لحمه ، رد عليهم جونج بقوله : « سأكون فوق الأرض طعاماً للجدأ ، وسأكون تحتها طعاماً لصراصير العطين والنمل ؛ فلم تحرمون بعضها طعامها لتقدموه للبعض الآخر ؟ » (٢٠٤)

وإذا كنا قد أطيننا في الكلام على فلاسفة الصين الأقدمين فإن بعض السبب في هذا يرجع إلى أن مشكلات الحياة الإنسانية المعقدة العسيرة الحل ومصائرها تستغرق تفكير العقل الباحث ، وأن بعضه الآخر يرجع إلى أن علم فلاسفة الصين الأقدمين هو أئمن تراث خلقته تلك البلاد للعالم . ومن الدلائل القوية على قدر هذه الفلسفة أن ليبنتز Leibntiz صاحب العقل العالى الواسع ؛ قام من زمن بعيد ( في عام ١٦٩٧ ) ، بعد أن درس الفلسفة الصينية ، ينادى بضرورة تطعيم فلسفة الشرق والغرب بكليهما بالأخرى ، وعبر عن رأيه هذا بألفاظ ستظل محتفظة بقيمتها في كل عصر ولكل جيل :

« إن الأحوال السائدة بيننا وما استشرى في الأرض من فساد طويل

المهد تكاد كلها تحملنى على الاعتقاد بأن الواجب أن يرسل إلينا مبشرون صينيون ليعلمونا أساليب الأديان القومية وأهدافها... ذلك بأنى أعتقد أنه لو عين رجل حكيم قاضياً... ليحكم أى الشعوب أفضل أخلاقاً من سواها، لما تردد فى الحكم للصين بالأسبقية فى هذا المضمار»<sup>(٢٠٥)</sup>. وقد طلب لينتز إلى بطرس الأكبر أن ينشىء طريقاً برياً للصين، ودعا إلى إنشاء جمعيات فى مسكو وبرلين «لارتياح الصين وتبادل المدينتين الصينية والأوربية»<sup>(٢٠٦)</sup>. وفى عام ١٧٢١ بذل كرستيان ولف Christian Wolff<sup>(\*)</sup> مجهوداً آخر فى هذه السبيل، وذلك بما ألقاه من محاضرات فى جامعة هال Halle «عن فلسفة الصينيين العلمية»، واتهمه ولاية الأمور بالإلحاد وفصلوه من منصبه؛ فلما أن جلس فردرك الأكبر على عرش بروسيا دعاه إليها ورد إليه اعتباره<sup>(٢٠٧)</sup>.

رجاء عصر الاستنارة فى فرنسا فعنى بالفلسفة الصينية، كما عنى بتنسيق الحدائق الفرنسية على نمط الحدائق الصينية، وتزيين المنازل بالنقوش والأدوات الصينية. ويلوح أن الفلاسفة الاقتصاديين الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) قد تأثروا بآراء لو — دزه، وجونج — دزه فى نظرية «التخلى» Laissez faire وترك الأمور تجرى فى مجراها، وهى النظرية الاقتصادية التى يقولون بها ويدعون إليها<sup>(٢٠٨)</sup>. واقدم روسو يتحدث فى بعض الأحيان كما يتحدث المعلم القديم<sup>(\*\*)</sup> وأنا لفتبين صلة وثيقة بينه وبين لو — دزه وجونج، ولو أن كنفوشوس

---

(\*) فيلسوف وعالم رياضى ألمانى (١٦٧٩ - ١٧٥٤).

(\*\*) مثال ذلك «أن الترف والقصور والإسترقاق كانت على الدوام سوط المذاب الذى يصب على الجهود الطموحة التى بذلناها لنخرج من الجهل السعيد الذى وضعنا فيه الحكمة الأزلية». ويرى الأستاذ إلبرت تومس Ethert Thomas (عضو مجلس الشيوخ الأمريكى الآن) الذى نقل هذه العبارة من كتاب «أحاديث عن تقديم العلوم والفنون» (Discourses on the Progress of Sciences and Arts) أن لفظ «الحكمة الأزلية» خير ترجمة «للحكمة الأزلية» التى وردت على لسان لو — دزه<sup>(٢٠٩)</sup>.

ومفثيس قد وهبا ملكة الفكاها لكانت الصلة وثيقة بينهما وبين فلتير . وفي هذا يقول فلتير نفسه : « لقد قرأت كتب كنفوشيوس بعناية ، واقتبست فقرات منها ، ولم أجد بها إلا أنقى المبادئ الخلقية التي لا تشوبها أقل شائبة من الشعوذة »<sup>(٢١٠)</sup> . وقد كتب جيته في عام ١٧٧٠ يقول إنه اعتزم أن يقرأ كتب الصين الفلسفية القديمة ، ولما دوت مدافع نصف العالم في ليزج Leipzig بعد ثلاثة وأربعين عاماً من ذلك الوقت لم يلتفت إليها الحكيم الشيخ لأنه كان منهمكاً في دراسة الآداب الصينية<sup>(٢١١)</sup> .

ولم هذه المقدمة القصيرة غير العميقة تحفز القارئ إلى متابعة دراسة الفلاسفة الصينيين أنفسهم كما درسهم جيته وفتير وتولستوى .

# المجلد الرابع والعشرون

## عصر الشعراء

### الفصل الأول

#### بسمرك الصين

عهد الدول المتنازعة - انتحار تشو بينج - شي هونج - دي يوحد الصين -  
السور الكبير - « إحقاق الكتب » - إخفاقات شي هونج - دي

أكبر الظن أن كنفوشيو س مات بائساً ، لأن الفلاسفة يحبون توحيد البلاد ، ولأن الأمة التي حاول أن يوحدّها تحت حكم أسرة قوية ظلت سادرة في الفوضى والفساد والانقسام . ولما أن ظهر هذا الموحد العظيم في آخر الأمر واستطاع بعبقريته الحربية والإدارية أن يؤلف من دويلات الصين دولة واحدة أمر بأن يحرق كل ما كان باقياً من كتب كنفوشيو س .

وفي وسعنا أن نحكم على الجو الذي كان يسود « عهد الدول المتنازعة » من قصة تشو بينج ، وهو رجل بدأ نجمه يلمع في سماء الشعر ، حتى سما إلى مركز عظيم في وظائف الدولة ، ثم ألقي نفسه وقد طرد من منصبه على حين غفلة ، فاعتزل الحياة العامة ولجأ إلى الريف ، وأخذ يفكر في الحياة والموت إلى جانب غدير هادى ، وسأل متنبئاً من المتنبئين :

« هل ينبغي لى أن أواصل السير في طريق الحق والوفاء ، أو أسير في ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل في الحقول بالنّاس والجرف أو أسعى للرقى في حاشية عظيم من العظماء ؟ هل أعرض نفسي للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والعظماء ؟ وهل أظل قائماً راضياً بنشر الفضيلة

أو أمارس فن مصانعة النساء كي أنال النجاح؟ هل أكون نقي السريرة، طاهر اليد صالحاً مستقيماً، أو أكون معسول الكلام، مذنباً، متزلفاً، نهائياً للفرص؟»<sup>(١)</sup>.

وتخلص الرجل من هذه المشكلة العويصة بالانتحار غرقاً (حوال ٣٥٠ قبل الميلاد). ولا يزال الصينيون حتى يومنا هذا يحيون ذكراه في كل عام، ويحتفلون بهذه الذكرى في يوم عيد القارب الكبير وهو اليوم الذي ظلوا يبحثون فيه عن جثته في كل مجرى من المجارى المائية.

وكان الرجل الذي وحد الصين من أصل وضع هو أدنا الأصول التي استطاع المؤرخون الصينيون أن يخترعوها. فهم يقولون لنا إن شي هونج — دى كان ابناً غير شرعي للملكة تشين (إحدى الولايات الغربية) من الوزير القبيل «لو»، وهو الوزير الذي اعتاد أن يعلق فوق باب داره ألف قطعة من الذهب جائزة لمن يستطيع أن يصلح كلمة واحدة من كتاباته<sup>(٢)</sup> (ولم يرث ابنه عنه هذا الذوق الأدبي الممتاز).

ويقول زوماتشين إن شي اضطرب والده إلى الانتحار واضطهد والدته، وجلس على كرسي الإمارة وهو في الثانية عشرة من عمره. ولما أن بلغ الخامسة والعشرين بدأ يفتح البلاد ويضم الدويلات التي كانت الصين منقسمة إليها من زمن بعيد؛ فاستولى على دولة هان في عام ٢٣٠ ق. م، وعلى چو في عام ٢٢٨ وعلى وبه في عام ٢٢٥، وعلى تشو في عام ٢٢٣، وعلى ين في عام ٢٢٢؛ واستولى أخيراً على دولة تشي المهمة في عام ٢٢١؛ وبهذا خضعت الصين لحكم رجل واحد لأول مرة منذ قرون طوال، أو لعل ذلك كان لأول مرة في التاريخ كله. ولقب الفاتح نفسه باسم شي هونج — دى، ثم وجه همه إلى وضع دستور ثابت دُئِمَ لإمبراطوريته الجديدة.

أما أوصاف هذا الرجل الذي يعمده المؤرخون الصينيون عدوهم الألد،

فكل ما خلقوه لنا منها هو قولهم إنه كان « رجلا كبير الأنف ، واسع العينين »  
ذا صدر كصدر الطائر الجارح ، وصوت شبيه بصوت ابن آوى ، لا يفعل الخير ،  
له قلب كقلب النمر أو الذئب »<sup>(٣)</sup> . وكان قوى الشكيمة عنيداً لا يحول عن  
رأيه ، ولا يعترف بالألوهية إلا لنفسه ، اجتمعت فيه عقائد نشئة وبسمرك ، وعقد  
العزم على أن يوحد بلاده بالدم والحديد . ولما وحد بلاد الصين وجلس على  
عرشها كان أول عمل قام به أن هجم بلاده من المصح البرابرة المجاورين لحدودها  
الشمالية ، وذلك بأن أتم الأسوار التي كانت مقامة من قبل عند حدودها ،  
وصلها كلها بعضها ببعض . وقد وجد في أعدائه المقيمين في داخل البلاد مورداً  
سهلاً يستمد منه حاجته من العمال لتشديد هذا البناء العظيم الذى يعد رمزاً لمجد  
الصين ودليلاً على عظيم صبرها . ويبلغ طول السور العظيم ألف وخمسمائة ميل ،  
وتتخلله في عدة أماكن منه أبواب ضخمة على النمط الأشورى ، وهو أضخم بناء  
أقامه الإنسان في جميع عصور التاريخ ، ويقول عنه فلتير : « إن أهرام مصر إذا  
نيست إليه لم تكن إلا كتلاً حجرية من عبث الصبيان لانفع فيها »<sup>(٤)</sup> . وقد  
احتاج تشييده إلى عشر سنين وإلى عدد لا يحصى من الخلق ؛ ويقول الصينيون  
إنه « أهلك جيلا من الناس ، وأتخذ كثيراً من الأجيال » . على أنه لم يصد المصح  
عن الصين كما يتبين لنا ذلك فيما بعد ، ولكنه عطل هجومهم عليها وقتل من  
حدثه . وحال بين الهون وبين إغارتهم على أرض الصين زمناً ما ، فاتجهوا  
غرباً إلى أوروبا ، ثم اجتاحتها بلاد إيطاليا ، وسقطت رومة في أيديهم لأن الصين  
أقامت سورها العظيم .

ثم ترك شي هوج — دى ، وهو مفتبط مسرور ، شؤون الحرب ووجه  
عنايته ، كما وجهها نابليون من بعده ، إلى شؤون الإدارة ، ووضع القواعد العامة  
التي قامت عليها الدولة الصينية في المستقبل . وعمل بمشورة لى — سيو ، المشتري  
الكبير ووزيره ، فاعتزم ألا يقيم المجتمع الصينى على العادات المألوفة وعلى

الاستقلال المحلى للولايات ، بل اعترزم أن يقيمه على قواعد القانون الصريح وعلى الحكومة المركزية القوية . ولذلك قضى على قوة أسراء الإقطاع ، واستبدل بهم طائفة من كبار الموظفين تمثيهم الوزارة القومية فى مناصبهم ، وأقام فى كل مركز من المراكز حامية عسكرية مستقلة عن الحاكم المدنى ، وسن للبلاد قوانين وأنظمة موحدة ، وبسط الاحتفالات الرسمية ، وسك عملة للدولة ، وجزأ معظم الضياع الإقطاعية ، ومهد السبيل لرخاء الصين بإنشاء الملكيات الزراعية ، ولوحدتها القوية بإنشاء الطرق الكبيرة الممتدة من هين — يانج عاصمة ملكه إلى جميع أطراف إمبراطوريته . وجعل العاصمة بما أقامه فيها من القصور الكثيرة ، وأقع أغنى أسر الدولة وأقواها سلطاناً البالغ عددها ١٢ر٠٠٠ أسرة بأن تعيش فى هذه العاصمة تحت إشرافه ورقابته . وكان يسير فى البلاد متخفياً ومن غير حرس ، يتفقد أحوالها ويتعرف ما فيها من خلل وفساد وسوء نظام ، ثم يصدر الأوامر الصريحة لإصلاح هذه العيوب ، وقد شجع العلم وقاوم الأدب<sup>(٥)</sup> .

ذلك أن رجال الأدب من شعراء ، ونقده ، وفلاسفة بوجه عام ، وطلاب الفلسفة الكنفوشية بنوع خاص ، كانوا أعدى أعدائه . فقد كانوا يتبرمون بسيطرته القوية الشاملة ، وكانوا يرون أن إنشاء حكومة مركزية عليها سيقضى لاجحالة على تباين أساليب التفكير والحياة وحريةهما .

وقد كان هذا التباين وتلك الحرية مصدر الانتعاش الأدبى طوال عهد الحروب والانقسامات أيام أسرة چو . فلما أقبل هؤلاء العلماء على شى هونج — دى يحتجون عليه لإغفاله الاحتفالات القديمة رد عليهم ردأ جافاً وأمرهم ألا يتدخلوا فيما لا يعينهم<sup>(٦)</sup> . وجاء وفد من كبار العلماء الرسميين يعرضون عليه أنهم قد أجمعوا رأيهم على أن يطلبوا إليه إعادة النظام الإقطاعى بتوزيع الضياع على أقاربه ؛ وأضافوا إلى ذلك قولهم : « لم يحدث قط فيما وصل إلى علمنا أن إنساناً لم يترسم خطوات أسلافه الأقدمين فى أمر من الأمور ودام عمله طويلاً »<sup>(٧)</sup> . فرد عليهم



لى سيورئيس الوزراء ، وكان وقتئذ يعمل على إصلاح الحروف الهجائية الصينية ويضعها فى الصورة التى تكاد تحتفظ بها إلى يومنا هذا ، رد عليهم بخطبة تاريخية لاترفع من شأن الآداب الصينية قال :

« إن الملوك الخمسة لم يفعل كل منهم ما فعله الآخر ، وإن الأسر المالكة الثلاث لم تحذ إحداها حذو الأخرى ؛ ... ذلك أن الأيام قد تبدلت . والآن قد قتم جلالكم لأول مرة بعمل جليل ، وأسستم مجدداً سيدوم مدى عشرة آلاف جيل . لكن الحكام الأغبياء عاجزون عن فهم هذا العمل ... لقد كانت الصين فى الأيام الخالية مضطربة منقسمة على نفسها ، ولم يكن فى مقدور أحد أن يوحدها ؛ ومن أجل هذا ساد النبلاء جميعاً وقويت شوكتهم ؛ وهؤلاء النبلاء جميعاً تدور أحداثهم كلها حول الأيام الخطية ليعيبوا هذه الأيام ... وهم يشجعون الناس على اختراع التهم الباطلة ، فإذا ترك لهم الجبل على الغارب ؛ فسيدنحط مقام الملك فى أعين الطبقات العليا ، وستنتشر الأحزاب والفرق بين الطبقات السفلى . » ولهذا اقترح أن تحرق التواريخ الرسمية جميعها عدا «مذكرات تشين ، وأن

يرغم الذين يحاولون إخفاء السئى — جنج ، والشو — جنج<sup>(\*)</sup> ومحاورات المدارس المائة على أن يأتوا بها إلى ولاية الأمور لإحراقها<sup>(٨)</sup> .

وأعجب الإمبراطور إعجاباً شديداً بهذه الفكرة ، وأصدر الأمر بتنفيذ هذا الطلب ، وجيء بكتب المؤرخين من كل مكان وألقيت فى النار حتى يرفع عبء الماضى عن كاهل الحاضر ؛ وحتى يبدأ تاريخ الصين من عهد شى هونج — دى . ويلوح أن الكتب العلمية ومؤلفات منشيس قد نجت من النيران ، وأن كثيراً من الكتب المحرمة قد احتفظ بها فى دار الكتب الإمبراطورية حيث يستطيع الرجوع إليها الطلاب الذين يجيز لهم الإمبراطور هذا الاطلاع<sup>(٩)</sup> . وإذ كانت

(\*\*) انظر ص ٤٩ من هذا الكتاب .

الكتب في تلك الأيام تكتب على شرائح من الخيزران يشد بعضها إلى بعض بمشابك متحركة ، وإذ كان المجلد الواحد لهذا السبب كبير الحجم ثقيل الوزن ، فإن العلماء الذين حاولوا إخفاء هذه الكتب قد لاقوا عناء كبيراً ، وكشف أمر بعضهم ، وتقول الروايات إن كثيرين منهم أرسلوا للعمل في بناء السور الكبير ، وإن أربعمائة وستين منهم أعدموا<sup>(١٠)</sup> . ولكن بعض الأدباء حفظوا مؤلفات كنفوشيوس كلها عن ظهر قلب ، ولقنوها لحفاظ مثلهم ، فلما أن توفي الإمبراطور عادت هذه الكتب من فورها إلى الظهور والانتشار ، وإذ كان كثير من الأغلاط قد تسرب في أكبر الظن إلى نصوصها . وكل ما كان لهذا التحريم من أثر خالد أن خلع على الآداب المحرمة هالة من القداسة ، وأن جعل شى هونج - دى مبعضاً إلى المؤرخين الصينيين ، وظل الناس أجيالاً طويلاً يعبرون عن عقيدتهم فيه بتدنيس قبره<sup>(١١)</sup> .

وكان من أثر القضاء على الأسر القوية وعلى حرية الكتابة والخطابة أن أمسى شى في شيوخته لا نصير له ولا معين . وحاول أعداؤه عدة مرار أن يقتله ، ولكنه كان يكشف أمرهم في الوقت المناسب ويقتل بيده من يحاولون قتله . وكان يجلس على عرشه والسيف مسلول فوق ركبتيه ، ولا يسمح لأحد أن يعرف في أية حجرة من حجرات قصوره الكثيرة ينام ليله<sup>(١٢)</sup> . وقد حاول كما حاول الإسكندر من بعده أن يقوى أسرته بما يذيعه في الناس من أنه إله ، ولكنه أخفق في غرضه هذا كما أخفق الإسكندر لأنه لم يستطع أن يقنع الناس بما بينه وبين الآلهة من شبه . وأصدر أمراً بأن يطلق عليه خلفاؤه « الإمبراطور الأول » وأن يضعوا هم لأسمائهم أرقاماً متسلسلة من بعده تنتهي بالإمبراطور المتم لعشرة آلاف من نسله ، ولكن أسرته قضى عليها بموت ولده . وإذا جاز لنا أن نصدق أقوال المؤرخين الذين كانوا يبغضونه فإنه صار في شيخوخته يؤمن بالخرافات ، وينفق الأموال الطائلة في البحث عن إكسير الخلود . ولما

مات جيء بجسمه سرا إلى عاصمة ملكه ، وقد نقلته إليها قافلة تحمل السمك  
الذين حتى تختفي بذلك رائحته الكريهة ، ويقال إن بضعة آلاف من الفتيات  
قد دفن معه ليؤنسده في قبره ، وإن خلفه أراد أن يظهر اغتباطه بموته فنثر الأموال  
على قبره ، وأنفق الكثير منها في تزيينه ، فنقشت على سقفه أبراج النجوم ،  
وصورت على أرضه خريطة للإمبراطورية بالزئبق فوق أرضية من البرنز ،  
وأقيمت في القبة آلات تقتل من نفسها كل من يعتدى على حرمة القبر ،  
وأشعلت فيه شموع ضخمة لكي تضيء أعمال الإمبراطور الميت وأعمال ملكاته  
إلى أمد غير محدود . أما العمال الذي حملوا التابوت إلى القبر فقد دفنوا فيه أحياء  
مع حلهم خشية أن يكشفوا للناس عن الطريق السرى المؤدى إلى المدفن<sup>(١٤)</sup>

## الفصل الثاني

### تجارب في الاشتراكية

الفوضى والفقر - أسرة هان - إصلاحات وودي - ضريبة الدخل -  
مشروعات وانج مانج الاقتصادية - القساء عليها - غزو التتار

وأعقب موته عهد من الفوضى والاضطراب كما تعقب الفوضى والاضطراب موت الطغاة جميعهم تقريباً في أحقاب التاريخ كلها . ذلك أن ليس في وسع إنسان أياً كان أن يجمع السلطة كلها في يده ويحسن التصرف فيها . وثار الشعب على ابنه وقتله بعد أن قتل هو لى سيو بقليل ، وقضى على أسرة تشين ، ولما يمض على وفاة مؤسسها أكثر من خمس سنين . وأقام الأمراء المتنافسون ممالك متنافسة متعادلة وساد الاضطراب من جديد . ودامت هذه الحال حتى اغتصب العرش زعيم عسكري مفاصر مرتزق يدعى جو - دزو ، وأسس أسرة هان التي ظلت تحكم البلاد أربعمئة عام كاملة ، تخلتها فترات أنزلت فيها عن العرش ، وتبدلت فيها العاصمة مرة واحدة (\*) . وأعاد ون - دى (١٧٩ - ٥٧ ق . م) إلى الشعب حرية القول والكتابة ، وألغى المرسوم الذي حرم به شي هونج - دى انتقاد الحكومة ، وجرى على سياسة السلم ، وابتدع العادة الصينية المأثورة عادة هزيمة قائد جيش العدو بتقديم الهدايا إليه (١٥) .

وكان وو - دى أعظم الأباطرة من أسرة هان ؛ وقد حكم البلاد زهاء نصف قرن (١٤٠ - ٨٧ ق . م) وصد البرابرة المغيرين ، وبسط حكم الصين على

(٥) كانت عاصمة أسرة « هان الغربية » مدينة لويانج ، وهي مدينة هونان في الحالية وقد دام حكمها من ٢٠٦ ق . م إلى ٢٤٤ ب . م . أما أسرة « هان الشرقية » فقد حكمت من ٢٤٤ إلى ٢٢١ ب . م ، وكانت عاصمتها مدينة تشانجيان وهي مدينة سيان في الحالية . ولا يزال الصينيون إلى اليوم يسمون أنفسهم « أبناء هان » .

كوريا ومنشوريا وأنام ، والهند الصينية والتركستان ، وشملت الصين — لأول مرة في التاريخ جميع الأقاليم الشاسعة التي تعودنا أن نفرنها باسمها . وأخذ وو — دى يقوم بتجارب في الاشتراكية ، فجعل موارد الثروة الطبيعية ملكا للأمة ، وذلك ليمتع الأفراد « أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ، ليجنوا من ورائها الأموال البطائلة ، ويخضعوا لهم الطبقات الدنيا »<sup>(١٦)</sup> . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد وعصر الخور وبيعها . وأراد وو — دى — كما يقول معاصره زوماتشين — أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين « الذين يشترون البضائع نسيئته ، ويعقدون القروض ، والذين يشترون ليكدسوا ما يشترونه في المدن ، والذين يخزنون كل أنواع السلع » ، فأنشأ نظاما قوميا للنقل والتبادل تشرف عليه الدولة ، وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفحائى . فكان عمال الدولة هم الذين يتولون شئون نقل البضائع وتوصيلها إلى أصحابها في جميع أنحاء البلاد . وكانت الدولة نفسها تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهاليين ، وتبيعها إذا أخذت أثمانها في الارتفاع فوق ما يجب ؛ كما كانت تشتريها إذا انخفضت الأسعار ، وبهذه الطريقة كان « أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة يجمعون من أن يجمعوا الأرباح الطائلة ... وكانت الأسعار تنظم وتتوازن في جميع أنحاء الإمبراطورية »<sup>(١٧)</sup> . وكان دخل الأفراد كله يسجل في سجلات حكومية وتؤدى عنه ضريبة مقدارها خمسة في المائة . وكان الأمير يسك النقود المصنوعة من الفضة مخلوطة بالتصدير لتكثر في أبدي الناس فيسهل عليهم شراء البضائع واستهلاكها . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا للملايين الناس الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم ، فأنشئت الجسور على أنهار الصين وحفرت قنوات لاحتصرها لربط الأنهار بعضها ببعض وإرواء الحقول<sup>(١٨)</sup> (\*)

(\*) ( ) ويقول جرات في هذا : « لقد كان هذا انقلابا كاملا . ولو كان للإمبراطور أعوان من طرازه لاستطاع أن ينتفع بهذا ويخلق من الصين دولة ذات مجتمع من طراز جديد ... ولكن الإمبراطور لم يكن يرى إلا المرورات الماسة العاحلة ، ويحيل إليها أنه لم يكن =

وازدهر النظام الجديد وأفلح إلى حين، وراجت التجارة، وكثرت البضائع وتنوعت، وارتبطت الصين مع الأمم المجاورة لها ومع أمم الشرق الأدنى البعيدة عنها<sup>(٢٠)</sup>. وكثر سكان عاصمتها لو — يانج وزادت ثروتها وامتلات خزائن الدولة بالأموال، وانتشر طلاب العلم في كل مكان، وكثر الشعراء، وبدأ الخزف الصيني يتخذ منظرًا جميلًا جذابًا. وجمع في المكتبة الإمبراطورية ٣١٣٣ مجلدًا في الأدب الصيني القديم، و ٢٧٠٥ في الفلسفة، و ١٣٨٨ في الشعر، و ٢٥٦٨ في الرياضيات، و ٨٦٨ في الطب، و ٧٩٠ في فنون الحرب<sup>(٢١)</sup>. ولم يكن أحد يعين في مناصب الدولة إلا إذا اجتاز امتحانًا تضعه لهذا الغرض، وكانت هذه الامتحانات عامة يتقدم إليها كل من شاء. والحق أن الصين لم يمر بها عهد من الرخاء كالذي مر في تلك الأيام.

ولكن طائفة من الكوارث الطبيعية مضافًا إليها خبث بنى الإنسان قضت على هذه التجربة الجريئة. فقد تعاقبت على البلاد سنون من الفيضان والجذب ارتفعت على أثرها أسعار السلع ارتفاعًا لم تقو الحكومة على وقفه. وتضايق الناس من غلو أثمان الطعام والكساء فصاحوا يطالبون بالعودة إلى الأيام الحلوة الماضية، التي أضحيت في اعتقادهم خير الأيام وأكثرها رخاء، وأشاروا بأن يفلى مخترع النظام الجديد في الماء وهو حى، ونادى رجال الأعمال بأن سيطرة الدولة قضت على الابتكار الفردى السليم وعلى التنافس الحر، وأبوا أن يؤدوا ما يلزم لهذه التجارب من الضرائب الباهظة التي كانت الحكومة تفرضها عليهم<sup>(١٢)</sup>. ودخلت النساء بلاط الإمبراطور وبسطن نفوذهن السرى على كبار

---

= يمكن إلا في استخدام الوسائل المختلفة المرتجلة يوما بعد يوم - ثم يتركها إذا ما حصل منها على ما يبتغيه، وودت له قديمة يالية. وكان يضحى برجاله الجدد إذا ما تراءى له أنهم بلغوا من النجاح حدا يكسبهم من السلطان ما يخشى منه على نفسه. ومن أجل هذا فإن قلق الطاغية وقصر نظر المسترعين أضعافا على الصين فرصة ثمينة قلما تمود لتجعل من بلادها دولة موحدة. نندجة منظمة (١٩)

للموظفين ، وأصبح عنصرأ هاماً في موجة من الفساد انتشرت في طول البلاد وعرضها بعد وفاة الإمبراطور<sup>(٢٣)</sup>. وأخذ المزيّفون يقلدون العملة الجديدة ونجحوا في تقليدها إلى حد اضطر الحكومة إلى سحبها من أيدي الناس ، وعادت الخطة القديمة خطة استغلال الضمفاء ، يسيطر عليها ويسيرها نظام جديد ، ومضى قرن من الزمان نسيت فيه إصلاحات وودي أو أنحت مسببة له وعاراً .

وجلس على عرش الصين مصلح آخر في بداية التايخ للسيجي بعد أربعة وثمانين عاماً من موت وودي ، وكان في بادئ الأمر وصياً على العرش ثم أصبح فيما بعد إمبراطوراً . وكان هذا الإمبراطور وانج مانج من أرقى طراز وصل إليه الرجل الصيني الكامل المهذب ؛ وكان على غناء يعيش عيشة معتدلة بل عيشة مقتصدّة ، ويوزع دخله على أقاربه وعلى الفقراء من أهل البلاد<sup>(\*)</sup>. وقد قضى جل وقته يكافح لإعادة النظام إلى أحول البلاد الاقتصادية والسياسية ، ولكنه مع ذلك وجد فسحة من الوقت لا لمناصرة الأدب والعلم فحسب بل للاشتغال بهما بنفسه حتى أصبح من أكل الناس ثقافة وتهذيباً ؛ ولما جلس على سرير الملك لم يحط نفسه بما يحيط به الملوك أنفسهم من الساسة ، بل جمع حوله رجالاً من الأدباء والفلاسفة ، وإلى هؤلاء الرجال بعزوا أعداؤه أسباب إخفاقه ، ولما بهم يعزوا أصدقاؤه أسباب نجاحه .

وروع وانج مانج في بداية حكمه انتشار الرق في ضياع الصين الكبيرة ، فلم يكن منه إلا أن ألغى الرق وألغى الضياع بتأميم الأرض الزراعية ، فقسّمها قطعاً متساوية ووزعها على الزراع ، ثم حرم بيع الأرض وشراءها ليمنع بذلك عودة الأملاك الواسعة إلى ما كانت عليه من قبل<sup>(٢٥)</sup>. واحتفظ باحتكار الدولة للملح والحديد ، وأضاف إلى ذلك امتلاكها للمناجم وإشرافها على تجارة الخمر .

(\*) إلا إذا صدقت الإشاعة التي انتشرت عقب وفاة الإمبراطور الغلام في السنة الخامسة بعد الميلاد ، وهي أن أسرة وانج مانج قد سمته (٢٤) .

وحاول كما حاول وو دى أن يحى الزراع والمستهلكين من جشع التجار بتعديدهم  
أثمان السلع . فكانت الدولة تشتري ما زاد على الحاجة من الحاصلات الزراعية  
وتبيعها إذا عزت وغلا ثمنها وكانت الحكومة تقدم القروض بفائدة منخفضة  
لكل مشروع إنتاجي<sup>(٣٦)</sup> .

لكن وانج لم يفكر في خططه إلا من الناحية الاقتصادية ونسى طبائع  
الآدميين . فكان يعمل الساعات الطوال بالليل والنهار ليلتكر الخطط التي تريد  
ثروة الأمة وأسباب سعادتها ، ولكنه أحزنه وأضره قلبه أن وجد الاضطراب  
الاجتماعى ينتشر في البلاد في أثناء حكمه . فقد ظلت الكوارث الطبيعية  
كالفيضان والجذب تعطل مشروعاته الاقتصادية ، واجتمعت كل الطوائف التي  
تقتض هذه المشروعات على مطامعها وأخذت تكيد له وتعمل لإسقاطه . فنار نفع  
الفتن في البلاد وصلت سيفها الشعب في الظاهر ، ولكن أكبر الظن أن القاميين  
بها كانوا يتلقون الأموال من مصادر عليا . وبينما كان وانج يكافح فيقلم أظفار  
هذه الفتن ، وقد ساءه كفر الشعب بفضله وججوده بفعمته ، إذ أخذت الشعوب  
الخاضعة لسلطان الصين تشق عصا الطاعة ، كما أخذ برابرة الشيونج — نو  
يحتاحون الولايات الشمالية ، فأضعف ذلك كله من هيبه الإمبراطور

وتزعمت أسرة ليو الغنية ثورة عامة اندلع لهيبها في البلاد ، واستولت على  
شانج — آن ، وقتلت وانج مانج ، وألفت جميع إصلاحاته ، وعاد كل شيء إلى  
ما كان عليه من قبل .

وجلس على العرش في أواخر أيام أسرة هان جماعة من الأباطرة الضعاف  
خلف بعضهم بعضا ، وانتهى بهم عهد هذه الأسرة ؛ وأعقب ذلك عهد من  
الفوضى حكمت في أثناءه أسر خاملة الذكر ، انقسمت البلاد في أيامها إلى  
دويلات متعددة . وتدفق التتار على البلاد ولم يصدم عنها السور الكبير ،  
واستولوا على مساحات واسعة من أجزائها الشمالية ، وكانت غارات هؤلاء التتار



سبباً في اضطراب حياة الصين والقضاء على حضارتها الغامية ، كما كانت غارات الهون الذين يمتون إلى التتار بأواصر القرابة العنصرية سبباً في اضطراب نظام الإمبراطورية الرومانية وإلقاء أوربا في غمار الفوضى التي عمت أرجاءها نحو مائة عام كاملة . وفي وسعنا أن ندرك ما يمتاز به الصينيون من صلابة عنصرية ، ومن قوة في الأخلاق والثقافة ، إذا عرفنا أن هذا الاضطراب كان أقصر أجلاً وأقل عمقاً من الاضطراب الذي قضى على الدولة الرومانية . فلما أن انقضى عهد من الحروب والفوضى والامتزاج العنصرى بين المغيرين والأهلين ، أفاقت الحضارة الصينية من سباتها ، وانبعثت انتعاشاً رائماً يهر الأنظار .

ولعل دم التتار الجديد قد بعث القوة في أمة كانت قد أدركتها الشيخوخة . وقبل الصينيون الغزاة الفاتحين بينهم وتزوجوا منهم ، وحضروهم ، وارتقواهم وإياهم إلى أسى ما بلغوه من المجد في تاريخهم الطويل .

## الفصل الثالث

### محمد تانج

الأسرة المالكة الجديدة - خطة تاي دزونج و تقليل الجرائم - عصر رخاء -  
« الإمبراطور النابه » رواية يانج - حوى - في - ثورة آن لو - شان

تعزى نهضة الصين الكبرى (\*) في العصر الذي سنتحدث عنه في هذا الفصل إلى أسباب ثلاثة : وهي امتزاج هذين الشعبين ، والقوة الروحية التي انبعثت من دخول البوذية فيها ، وعبقرية إمبراطور من أعظم أباطرتها وهو ناى دزويج الذى حكمها من عام ٦٢٧ إلى عام ٦٥٠ بعد الميلاد . جلس هذا الإمبراطور على عرش الصين وهو فى الحادية والعشرين من عمره بعد أن نزل عنه أبوه جو دوزو الثانى الذى أقام أسرة تانج قبل ذلك الوقت بتسع سنين . وقد بدأ حكمه بداية غير مبشرة بخير ، وذلك بقتل إخوته الذين كانوا يهددونه باغتصاب عرشه ، ثم أظهر كفايته العسكرية برد غارات القبائل الهمجية إلى مواطنها الأصلية ، وإخضاع الأقاليم المجاورة التى خرجت على حكم الصين بعد سقوط أسرة هان . ثم عافت نفسه الحرب فجاءه وعاد إلى شانجان عاصمة ملكه وخصص جهوده كلها للأعمال السلمية ، فقرأ مؤلفات كنفوشيوس مرة بعد مرة ، وأمر بنشرها فى شكل بديع رائع ، وقال فى هذا : « إنك إذا استعفت بمرآة من الشبهان فقد تستطيع أن تعدل وضع قلنسوتك على رأسك ؛ وإذا اتخذت الماضى مرآة لك فقد تستطيع أن تتنبأ بقيام الإمبراطوريات وسقوطها » . ورفض كل أسباب الترف وأخرج من قصره الثلاثة الآلاف من السيدات اللاتى جىء بهن لتسليته .

(\*) انظر كتاب السير و . فلندر بيترى *The Revolutions of Civilisation* « دورات الحضارة » طبعة لندن .

ولما أشار عليه وزراؤه بوضع القوانين الصارمة لقمع الجرائم قال لهم :  
« إنى إذا أنقصت نفقات المعيشة ، وخففت أعباء الضرائب ، ولم أستعن إلا  
بالأمناء من الموظفين حتى يحصل الناس على كفايتهم من الكساء ، كان أثر  
هذه الأعمال فى منع السرقات أعظم من أثر أقسى أنواع العقاب » (٢٧) .

وزار الإمبراطور يوماً سجون شانجان فرأى فيها مائتين وتسعين سجيناً  
حكم عليهم بالإعدام . فلم يكن منه إلا أن أرسلهم ليحرقوا الأرض واكتفى منهم  
بأن يعدوه بشرفهم أن يعودوا إلى سجنهم . وكان أن عادوا جميعاً ، وبلغ من  
سرور تاي دزونج أن أمر بالإفراج عنهم كلهم ، وسن من ذلك الوقت قانوناً  
يقضى ألا يصادق أى إمبراطور على حكم بالإعدام إلا بعد أن يصوم ثلاثة أيام .  
وتجمل عاصمة ملكه حتى أقبل عليها السياح من الهند ومن أوروبا ، وجاء إلى  
الصين عدد كبير من الرهبان البوذيين الهنود ، وكان البوذيون الصينيون أمثال  
يوان چوانج يسافرون بكامل حريتهم إلى بلاد الهند ليأخذوا دين الصين  
الجديد عن مصادره الأصلية . وجاء المبشرون إلى شانجان ليبشروا بالزردشتية  
والنسطورية المسيحية ، وكان الإمبراطور يرحب بهم كما كان يرحب بهم  
أكبر ، وييسط عليهم حمايته ، ويطلق لهم كامل حريتهم ؛ ويعنى معابدهم من  
الضرائب ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تمانى آلام الفاقة والجهالة  
والمنازعات الدينية . أما هو نفسه فقد بقى كنفوشيا بسيطاً بعيداً عن التحيز  
والتحكم فى عقول رعاياه ، وقد قال عنه مؤرخ نابيه إنه لما مات حزن الناس عليه  
حزناً لم يقف عند حد ، وبلغ من حزن المبعوثين الأجانب أنفسهم أن كانوا  
يشغفون أجسامهم بالجراح بالمدى والحزاب ، وينثرون دماءهم التى أراقوها  
بأنفسهم طائعين على نعش الإمبراطور المتوفى » (٢٨) .

لقد مهد هذا الإمبراطور السبيل إلى أعظم عصور الصين خلقاً وإبداعاً ،  
فقد نعمت فى عهده مئتمسين عاماً من السلام النسبى واستقرار الحكم ، فشرعت

تصدر ما زاد على حاجتها من الأرز والذرة والحرير والتوابل ، وتنفق مكاسبها في ضروب من الترف لم يسبق لها مثيل . ففصت بحيرتها بقوارب التنزه المنقوشة الزاهية الألوان ؛ واكتظت أنهارها وقنواتها بالسفن التجارية ، وكانت المراكب تخرج من موانئها تبحر عباب البحار إلى الثغور البعيدة على شواطئ المحيط الهندي والخليج الفارسي . ولم تعرف الصين قبل ذلك العهد مثل هذه الثروة الطائلة ؛ ولم تستمتع قط بما كانت تستمتع به وقتئذ من الطعام الوفير ، والمساكن المريحة ، والملابس الجميلة<sup>(٢٩)</sup> . وبينما كان الحرير يباع في أوروبا بما يعادل وزنه ذهباً<sup>(٣٠)</sup> ، كان هو الكساء المألوف لنصف سكان المدن الصينية الكبرى ، وكانت الملابس المتخذة من القراء في القرن الثامن في شانجان أكثر منها في نيويورك في القرن العشرين . وكان في إحدى القرى القريبة من العاصمة مصانع للحرير تستخدم مائة ألف عامل<sup>(٣١)</sup> . وصاح لي بو في إحدى الولايم : « ما أعظم هذا الكرم ، وما أكثر هذا الإسراف في المال ! أقذاح من البشم الأحمر ، وأطعمة شهية نادرة على موائد مرصعة بالجواهر الخضراء ؟ »<sup>(٣٢)</sup> وكانت التماثيل تنحت من الياقوت ، وأجسام الأثرياء من الموتى تدفن على فرش من اللؤلؤ<sup>(٣٣)</sup> .

وكانت أولع هذا الجنس العظيم بالجمال فجأة ، وأخذ يكرم بكل ما في وسعه من كان قادراً على خلق هذا الجمال . ومن أقوال أحد النقاد الصينيين في هذا : « ذلك عصر كان فيه كل رجل بحق شاعراً »<sup>(٣٤)</sup> . ورفع الأباطرة الشعراء والمصورين إلى أعلى المناصب . وبروى « سير جون مانفيل »<sup>(\*)</sup> Sir John Manville أن أحداً من الناس لم يكن يجروء على أن يخاطب الإمبراطور إلا « إن كان شاعراً مطرباً يفتى وينطق بالفكاهات »<sup>(٣٥)</sup> . وأمر أباطرة المانشو في القرن الثامن عشر الميلادي أن يوضع سجل يحوى ما قاله شعراء تانج ، فكانت

(\*) ذلك اسم مصطنع لطبيب فرنسي كتب في القرن الرابع عشر كتاباً في الأسفار نظمها خيالي ، ولا تخلو بعضها من فائدة ، ولكنها كلها فتاة رائحة .

النتيجة أن وصل هذا السجل إلى ثلاثين مجلداً تحتوى ٤٨,٩٠٠ قصيدة قالها ٢,٣٠٠ شاعر، كانت هي التي أبقى عليها الدهر من هذه القصائد ومن أسماء أولئك الشعراء . وزاد ما في دار الكتب الإمبراطورية حتى بلغ ٥٤,٠٠٠ مجلد؛ وفي هذا يقول مردك Murdock : « ولا جدال في أن الصين كانت في ذلك الوقت أرقى البلاد حضارة ، فقد كانت وقتئذ أعظم الإمبراطوريات قوة ، وأكثرها استنارة ، وأعظمها رقياً ، وأحسنها حكماً على ظهر الأرض »<sup>(٣٦)</sup> ، « وقد شهد ذلك العصر أرقى ما شهدته العالم من الثقافات »<sup>(\*)</sup> .

وكان زينة هذا العصر كله منج هو أنج — أي « الإمبراطور الغابه » — الذى حكم الصين نحو أربعين عاماً تخللتها فترات قصيرة كان فيها بعيداً عن العرش (٧١٣ — ٧٥٦ ب . م) . وكان هذا الإمبراطور رجلاً اجتمعت فيه كثير من المتناقضات البشرية ؛ فقد كان يقرض الشعر ويشن الحرب على البلاد الغائبة ، ومن أعماله أنه فرض الجزية على تركيا وپارس وسمرقند ، وأبقى حكم الإعدام ، وأصلح إدارة السجون والمحاكم ، ولم يرحم من لا يبادر بأداء الضرائب ، وكان يتحمل راصياً مسروراً عنت الشعراء والننانين والعلماء ؛ وأنشأ كلية لتعليم الموسيقى في حديقة له تسمى « حديقة شجرة الكثرى » ، وقد بدأ حكمه متعشفاً متمتماً ، أغلق مصانع الحرير وحرّم على نساء القصر التحلى بالجواهر أو الملابس المطرزة ، ثم اختتمه أبيقورياً يستمتع بكل فن وبكل وسيلة من وسائل الترف ، ونحى آخر الأمر بعرشه لينعم بيسمات يأنج جوى — فى . وكان حين التقى بها فى سن الستين ، أما هى فكانت فى السابعة والعشرين . وكانت قد قضت عشرين سنين محظية لانه الثامن عشر . وكانت بدينة ذات شعر

---

(\*) من أقوال آرثر ويل (٣٧) . راجع دائرة المعارف البريطانية للظمة الرابعة عشرة الفصل الثامن عشر ص ٣٦١ تحت عنوان ( أيام أسرة تانج ) « لقد كانت الصين بلا جدال أعظم دول العالم وأكثرها حضارة » .

مستعار، ولكن الإمبراطور أحبها لأنها كانت عنيده ، ذات أطوار شاذة متفطرسة وحقّة ، وتقبلت منه إجمابه بها بقبول حسن ، وعرفته بخمس أسر من أقاربها ، وسمحت له بأن يمين أبناء هذه الأسر في وظائف مجزية سهلة في بلاطه . وكان منج يسمى هذه السيدة « الطاهرة العظيمة » ، وقد أخذ عنها فن الاستمتاع بضروب الترف والملاذ ، وانصرف ابن السماء عن الدولة وشئونها وعهد بالسلطة الحكومية كلها إلى يانج جو — چونج أخى السيدة الطاهرة ، وهو رجل فاسد عاجز ؛ وبينما كانت نذر الخراب والدمار تحيط به من فوقه ومن أسفل منه ، كان هو يواصل ليله بنهاره منمككا في ضروب اللهو والفساد .

وكان في بلاط مانج رجل تشارى يسمى آن لو — شان : يعشق هو الآخر يانج جوى — فى ، وقد كسب هذا الرجل ثقة الإمبراطور فرفعه إلى منصب حاكم إحدى الولايات الشمالية ، وأمره على زهرة جيوش الإمبراطورية . ولم يلبث آن — لو — شان أن أعلن نفسه إمبراطوراً على البلاد وزحف بجيوشه على شانجان . وتداعت حصون المدينة وكانت قد طال إهمالها ، وفر منج من عاصمة ملكه .

وتمرد الجنود الذين كانوا يحرسونه في فراره ، وقتلوا يانج جو — چونج وجميع أفراد الأسر الخمس ، واختطفوا يانج جوى — فى من بين يدي الملك وقتلوا أمام عينيه . ونزل الإمبراطور عن عرشه بعد أن أذلته الشيخوخة والمزمنة ، وعانت حجاجل آن لوشان الهمجية في المدينة فسادا ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ولم تفرق بين كبير وصغير<sup>(٣٩)</sup> . ويقال إن ستة وثلاثين مليوناً من الأنفس قد قضى عليهم في هذه الفتنة الصماء<sup>(٣٩)</sup> . ولكن الفتنة أخفقت آخر الأمر في الوصول

---

(٣٩) وفي ذلك يقول آرثر ويل Arthur Waley : « لما هزم التار منج هوانج ونهجا شانجان بدت هذه الأحداث كأنما اجتاحت التترك فرساي في عهد لويس الرابع عشر » (٣٨) .

إلى أغراضها ، وقتل آن لو — شان بيد ابنه نفسه ، وقتل هذا الابن بيد أحد القواد ، ثم قتل هذا القائد ابن له . وظلت نار الفتنة مشتعلة حتى أكلت وقودها وخذت جذوتها في عام ٦٧٢ ، وعاد منج هوايج محطاً كسير للقلب إلى عاصمته المحرقة . ومات فيها بعد بضعة أشهر من ذلك الوقت . وفي هذه الفترة من المأسى والحادثات الروائية العجيبة ازدهر الشعر الصيني ازدهاراً لم يكن له نظير من قبل .

## الفصل الرابع

### الملاك المنسي

قصة لي پو - شيا به وبسالته وحه - على القارب الإمبراطوري - لإنجيل الكرم - الحرب - تجوال لي پو - السجن - « الشعر الحالد »

استقبل منج هو أنج ذات يوم من أيام مجده ، رسلا من كوريا يحملون إليه رسائل خطيرة مكتوبة بلهجة لم يستطع أحد من وزرائه أن يفهمها . فصاح الإمبراطور غاضباً : « ما هذا ؟ ألا يوجد بين هذا العدد الجم من الحكام والعلماء والقوادرجل واحد ينجبنا من هذه الورطة ؟ قسماً إن لم أجد بعد ثلاثة أيام من يستطيع أن يحل رموز هذه الرسالة لأقصيدكم جميعاً عن أعمالكم ! » .

وقضى الوزراء يوماً كاملاً يتشاورون ويتضجرون ، وهم يخشون أن تطيح منهم مناصبهم ورموسهم . تم تقدم الوزير هو چى - چانج إلى العرش وقال : « هل تأذن لأحد رعياك أن يعلن لجلائك أن في بيته شاعراً جليل الشأن يدعى لي متبحراً في أكثر من علم واحد ؟ مره أن يقرأ هذه الرسالة إذ ليس ثمة شيء يعجز عنه » . وأمر الإمبراطور أن يستدعى لي للثول بين يديه من فوره . ولكن لي أبي أن يحضر بحجة أنه غير جدير بالاضطلاع بالواجب الذي طلب إليه أن يضطلع به ، لأن الحكام قد رفضوا مقاله حينما تقدم لآخر امتحان عقد لطالبي الالتحاق بالوظائف العامة . واسترضاه الإمبراطور بأن منحه لقب دكتور من الدرجة الأولى ، وخلع عليه حلة هذا القب . فجاء لي ووجد الذين امتحنوه بين الوزراء ، وأرضهم على أن يخلعوا له نعليه ، ثم ترجم الوثيقة ، وقد جاء فيها أن كوريا تعتزم خوض غمار الحرب لاستعادة حريتها . ولما قرأ لي هذه الرسالة أملى عليها رداً مسرعاً ، يتم عن علم غزير ، وقعه الإمبراطور من فوره ، وكاد



يصدق ما أسره إليه « هو » وهو أن لى ملاك طرد من السماء لأنه ارتكب فيها ذنباً عظيماً<sup>(٥٠)</sup><sup>(٥١)</sup>. وأرسل الكوريون يعتذرون ، وأدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وأرسل الإمبراطور بعض هذه الجزية إلى لى فوهب بعضها إلى صاحب الحانة لأنه كان يحب الخمر .

وكانت أم لى قد رأت فى منامها ليلة مولد الشاعر الكوكب الأبيض الكبير الذى يسميه الصينيون ثاى — پوچنج ويسميه أهل الغرب فينوس<sup>(٥٢)</sup>. ولهذا سمي الطفل لى أى البرقوقة ولقب ثاى — پو أى النجم الأبيض . ولما بلغ العاشرة من عمره كان قد أتقن كتب كنفوشىوس ، كما كان فى مقدوره أن ينظم الشعر الخالد . وفى الثانية عشرة خرج إلى الجبال ليعيش فيها عيشة الفلاسفة ، وأقام فيها سنين طويلاً ، حسنت فى خلالها صحته ، وعظمت قوته ، وتدرّب على القتال بالسيف ، ثم أعلن إلى العالم مقدرته وكفايته فقال : إبنى وإن لم يبلغ طول قامتى سبع أقدام ( صينية ) فإن لى من القوة ما أستطيع به ملاقاته عشرة آلاف رجل<sup>(٥٣)</sup> . وعشرة آلاف لفظ يعبر به الصينيون عن الكثرة ) ثم أخذ يضرب فى الأرض يتلقى أقاصيص الحب من أفواه الكثيرين ، وقد غنى أغنية « لفتاة من وو » قال فيها :

نبيذ الكروم

وأقداح الذهب

وفتاة حسناء من وو —

فى سن الخامسة عشرة ، تقبل على ظهر مهر ،

ذات حاجبين قد خطا بقلم أزرق —

وحداثين من النسيج القرنفل المشجر —

---

(٥٠) وتلك قصة طريفة لعلها من وضع لى — پو .

(٥١) ويسميه العرب « الزهرة » .

لا تفصح عما فى نفسها —  
ولكنها تغنى أغاني ساحرة .  
وقد أخذت تطعم الطعام على المائدة ،  
المرصعة بأصداف السلاحف .  
ثم سكرت فى حجرى .  
أى طفلى الحبيبة ا ما أحلى العناق .  
خلق الستائر المطرزة بأزهار السوسن<sup>(٤٢)</sup> ا

ثم تزوج الشاعر ، ولكن مكاسبه كانت ضئيلة ، ففادرت زوجته بيته  
وأخذت معها أبناءه . ترى هل هذه الأسطر التى يث فيها شوقه موجهة إليها ،  
أو إلى حبيبة أخرى لم يطل عهد الوداد بينهما ؟ —

أيتها الحساء ، لقد كنت وأنت عندى أملاً البيت زهراً .  
أما الآن أيتها الحساء ، وقد رحلت — فلم يبق فيه إلا فراش خال .  
لقد طوى عن الفراش الغطاء المزركش ؛ ولست بقادر على النوم .  
وقد مضت على فراقك ثلاث سنين ؛ ولا يزال يعاودنى شذى العطر  
الذى خلقتة وراءك .

إن عطرك يملأ الجو من حولى وسيدوم أبد الدهر ؛  
ولكن أين أنت الآن يا حبيبتى ؟  
إنى أتحسر — والأوراق الصفراء تسقط عن الغصن ،  
أذرف الدمع — ويتلألاً رضاب الندى الأبيض على الكلاً  
الأخضر<sup>(٤٣)</sup> .

وأخذ يسلى نفسه باحتساء الخمر ، حتى أصبح أحد « الستة التمتعيلين فى أبكة  
الخيزران » ، الذين يأخذون الحياة سهلة فى غير محجة ، ويكسبون أقاتهم المزعزعة  
بأغانيمهم وقصائدهم . وسمع لى الناس يثنون الثناء الجم على نبيذ نيو چونج فسافر

من فوره إلى تلك المدينة ، وكانت تبعد عن بلده ثلاثمائة ميل<sup>(٤٤)</sup> .  
والتقى في تجواله بدوفو الذي صار فيما بعد منافسه على تاج الصين الشعري ،  
وتبادل هو وإياه القصائد الغنائية ، وصارا يضربان في البلاد معا كالأخوين ،  
وينامان تحت غطاء واحد ، حتى فرقت الشهرة بينهما . وأحبهما الناس جميعاً  
لأنهما كانا كالتديسين لا يؤذيان أحداً ويتحدثان إلى الملوك وإلى السوق بنفس  
الألفة والمودة اللتين يتحدثان بهما إلى الفقراء المساكين . ودخلا آخر الأمر  
مدينة شانجيان وأحب « هو » الوزير الطروب شعر لي حبا حمله على أن يبني  
ما عنده من الخلي الذهبية ليبتاع له الشراب ، ويصفه دوفو بقوله :

أما لي يو فقدم له ملء إبريق ،

يكتب لك مائة قصيدة

وهو ينفو في حانة .

في أحد شوارع مدينة شانجيان ؛

وحتى إذا ناداه مولاه ،

فإنه لا يظأ بقدمه القارب الإمبراطوري .

بل يقول : « معذرة يا صاحب الجلالة .

أنا إله الخمر » .

لقد كانت أيامه هذه أيام طرب ومرح ؛ يعزه الإمبراطور ، ويعمره بالهدايا  
جزاء ما كان يتغنى به من مديح يأنج جوى — في الطاهرة . وأقام منج مرة  
مأدبة ملكية يوم عيد الفاونيا<sup>(\*)</sup> في فسطاط الصبار ، وأرسل في طلب لي  
يو لينشد الشعر في مديح حبيبته . وجاء لي ، ولكنه كان ثملا لا يستطيع قرض  
الشعر . فألقى خدم القصر ماء بارداً على وجهه الوسيم ، وسرعان ما انطلق الشاعر

---

(\*) نبات يسمى أيضاً عود الصليب . ( المترجم )

بغنى ويصف ما بين الفاونيا وحببية يأجج من تنافس فقال :

في أتوابها جلال الغمام السابح ،  
وفي وجهها سنا الزهرة الفاضرة .  
أيها الطيف السماوى يا من لا يكون إلا فى العلاء  
فوق قلة جبل الجواهر  
أو فى قصر البلور المسحور حين يرتفع القمر فى السماء !  
على أنى أشهد هاهنا فى روضة الأرض —  
حيث يهب نسيم الربيع العليل على الأسوار ،  
وتتلاّأ نقاط الندى الكبيرة ...  
لقد هُزم حنين الحب الذى لا آخر له  
والذى حملته إلى القاب أجنحة الربيع<sup>(٤٥)</sup> .

ترى منذ الذى لا يسره أن يكون هو الذى تغنى فيه هذه الأغنية ؟ لكن  
الملكة أدخل فى روعها أن للشاعر قد عرض بها فى أغنيته تعريفاً خفياً ،  
فأخذت من هذه اللحظة تدس له عند الملك وتبعث الريبة فى قلبه . وما زالت به  
يفتله بين الذروة والغارب حتى أهدى لى — يو كيسا به نقود وصرفه . فأخذ  
الشاعر يهيم فى الطرقات مرة أخرى يسلى نفسه باحتساء الخمر ، « وانضم إلى الثمانية  
الخالدين أصحاب الكأس » ، الذين كان همراهم على لسان الناس فى شانجيان .  
وكان يرى رأى ليونج القائل إنه يحسن بالإنسان أن يسير وفى صحبته على الدوام  
خادمان يحمل أحدهما خمرأ ويحمل الآخر حجراً يستعين به على دفنه حيث  
يخرصرىماً « لأن شئون الناس » كما يقول ليو « ليست إلا طحالب فى نهر »<sup>(٤٦)</sup> .  
وكانما أراد شعراء الصين أن يكفروا عن ترمت الفلسفة الصينية ، فأطلقوا أنفسهم  
العنان . وفى ذلك يقول لى يو : « لقد أفرغنا مائة إبريق من الخمر لنفسل بها

أرواحنا ونظورها من الأحزان التي لازمتنا طوال حياتنا» (٤٧) . وهو يترنم  
بينت الحان ترنم عمر الخيام :

إن الجرى الدافق يصب ماءه في البحر ولا يعود قط .  
ألا ترى فوق هذا البرج الشامخ  
شبحاً أبيض الشعر يكاد يذوب قلبه حسرة أمام مرآته البراقة ؟  
لقد كانت هذه الغدائر في الصباح شبيهة بالحرير الأسود ،  
فلما أقبل المساء إذا هي كلها في بياض الثلج .  
هيا بنا ، ما دام ذلك في مقدورنا ، نتذوق الملاذ القديمة ،  
ولا نترك إبريق الخمر الذهبي  
يقف بمفرده في ضياء القمر ...  
إني لا أبغى سوى نشوة الخمر الطويلة ،  
ولا أحب أن أحرق قط من هذه النشوة ...  
هيا بنا أنا وأنتما نبتاع الخمر اليوم !  
لم تقولان إنك لا تملك ثمنها ؟  
فجوادى المرقط بالأزهار الجميلة ،  
ومعطفى المصنوع من الفراء والذي يساوى ألف قطعة من الذهب  
سأخرج عن هذين وأمر غلامى  
أن يبتاع بهما الخمر اللذيذة  
ولأنس معكما يا صاحبي  
أحزان عشرة آلاف من الأعمار (٤٨)

ترى ما هي هذه الأحزان ؟ أمي آلام من محب ازدري حبه ؟ لا نظن هذا  
لأن شعراء الصين لا يكتفون من الشكوى من آلام الحب ، وإن كان

يملاً قلوبهم كما يملأ قلوبنا . وإنما الذى أذاقنى مرارة المأسى البشرية هو الحرب والنفى ، وهو أن لو شأنا الاستيلاء على عاصمة البلاد ، وفراز الإمبراطور وموت يابج ، وعودة منتج هو أنج إلى قصوره المهجورة . وهو يقول فى حسرة : « ليس للحرب نهاية ! » ثم يأسو لنفسه اللاتى قدمن أزواجهن نحايا لإله الحرب فيقول :

هاهو ذا شهر ديسمبر ؛ وهاهى ذى فتاة يورتشاو الخزينة !  
لقد امتنع عليها الضياء ، وعز الالبسام ، وحاجباها أشعثان ،  
وهى تقف بلباب ، تنتظر عابرى السبيل ،  
وتذكر ذلك الذى اختطف سيقه وسار لحماية الحدود ،  
ذلك الذى قاسى أشد الآلام فى البرد القارس وراء السور العظيم ،  
ذلك الذى جندل فى ساحة الوغى ولن يعود أبداً ،

\* \* \*

فى مشيتها الذهبية الثمراء التى تحتفظ فيها بالذكريات ،  
قد بقى لها سهمان مراشان بريشتين بيضاوين ،  
بين نسج العنكبوت وما تجمع من القبار خلال السنين الطوال .  
تلك أحلام الحب الجوفاء التى لا تستطيع العين أن تنظر إليها لما تسببه  
للقلب من أحزان .

ثم تخرج السهمين وتحرقهما وتذرو رمادها فى الرياح .  
إن فى وسع الإنسان أن يقيم سداً يعترض به مجرى النهر الأصفر ،  
ولكن منذ الذى يخفف أحزان القلب إذا تساقط الثلج ،  
وهبت ريح الشمال ؟<sup>(٤٩)</sup>

وفى وسعنا الآن أن نتخيله ينتقل من بلد إلى بلد ومن ولاية إلى ولاية على

الصورة التي وصفه بها دزو تشويج — جي : « على ظهرك حقيبة نملأى بالكتب ، تطوف ألف ميل أو أكثر ، وفي بك خنجر وفي جيبيك طائفة من القصائد »<sup>(٥٠)</sup> . وقد حبته رفيقه القديمة للطبيعة في هذا التجوال الطويل بعزاه وسلوى وراحة تجل عن الوصف ؛ وفي وسعنا أن نرى من خلال أشعاره أرض بلاده ذات الأزهار ، ونشعر أن حضارة المذن قد أخذ عبثها الباهظ يثقل على الروح الصينية :

لم أعيش بين الجبال الخضراء ؟

إني أضحك من هذا السؤال ولا أجيب عنه ، إن روحى ساكنه صافية ؛  
إنها تسكن سماء أخرى وأرضاً ليست ملكاً لإنسان -  
إن أشجار الخوخ مزدهرة وللأاء ينساب من تحتها<sup>(٥١)</sup> .

ثم انظر إلى هذه الأبيات :

أبصرت ضياء القمر أمام مخدعى .

نخلته الصقيع على الأرض .

ورفعت رأسى ونظرت إلى القمر الساطع فوق الجبل ،

وطأطأت رأسى وفكرت في موطنى البعيد<sup>(٥٢)</sup> .

ولما تقدمت به السن وبيض شعره امتلأ قلبه حناناً للأماكن التي قضى

فيها أيام شبابه . وكمن مرة ، وهو يجيأ في العاصمة حياة اصطناعية ، حن قلبه

للحياة البسيطة الطبيعية التي كان يحياها في مسقط رأسه وبين أهله :

في أرض وو أوراق التوت خضراء ،

نام دود الحرير مزارات ثلاثاً .

وأرض لوه الشرقية حيث تقيم أسرتى ،

لا أعرف من يزرع فيها حقولنا .

وليس في وسعى أن أعود لأقوم فيها بأعمال الربيع .

ومع هذا فإنى لا أستطيع أن أعمل شيئاً ، بل أسير على ضفة النهر  
إن ريح الجنوب إذا هب أطارت روحى المشوقة إلى وطنى .  
وحملتها معها إلى حائقنا المعهودة .

وهناك أرى شجرة خووخ على الجانب الشرقى من البيت ،  
بأوراقها وأغصانها الكثيفة تموج فى الضباب الأزرق .  
منها هى الشجرة التى غرستها قبل أن أفارق الدار منذ سنوات ثلاث .  
لقد نمت شجرة الخوخ الآن وطالت حتى بلغت سقف الحانة ،  
فى أثناء تجوالى الطويل إلى غير أوبة .

أى بنيتى الجميلة يا بنج — يا نج ، إنى أراك واقفة .

بجوار شجرة الخوخ ، تنزعين منها غصنا مزهرا ،

تقطنين الأزهار ، ولسكنى لست ممك —

ودموع عينيك تفيض كأنها مجرى ماء !

وأنت يا ولدى الصغير يوسشين لقد نموت حتى بلغت كتفى أختك

وصرت تخرج معها تحت شجرة الخوخ ؛

ولكن منذ الذى يربت على ظهرك هناك ؟

إنى حين أفكر فى هذه الأمور تخوننى حواسى

ويقطع الألم الشديد فى كل يوم نياط قلبى .

وهأنذا أقطع قطعة من الحرير الأبيض واكتب عليها هذه الرسالة

وأبعث بها إليك مصحوبة بحبى تجتاز الطريق الطويل إلى أعلى النهر<sup>(٥٣)</sup>

وكانت السنون الأخيرة من عمره سنى بؤس وشقاء ، لأنه لم ينزل قط من

عليائه ليجمع المال ، ولم يجد فى أيام الفوضى والفتن ملكا يحنو عليه ويردعه

غائلة الجوع والحرمان . ولما عرض عليه لى — لفتح أمير يونج أن ينضم إلى حاشيته



قبل هذا راضياً مسروراً؛ ولكن لى — لىج خرج هلى خليفة منىج هوانىج ، فلما قلمت أظفار فتنته ألقى لى بو نفسه بىن جدران السجن محكوما عليه بالموت لأنه خان دولته .

ثم توسط له جوؤ دزىئى القائء الذى أحمء ثووة آن لوشان ، وطلب أن تفتدى حىاة لى بو بنزوله هو عن رتبته ولقبه . تخفف الإمبراطور عنه الحكم واستبءل به النفى مءى الحىاة . ثم صدر عفوعام بعء ذلك بقليل ، وعاء الشاعر ىتعثر إلى مسقط رأسه . ومرض وتوفى بعء ثلاث سنىن من ذلك الوقت ؛ وتقول الأفاصىص ، التى يعز عليها أن تموت نفس قل أن بو جء مثلها بىن النفوس مىتة . عاءية ، إنه غرق فى أءء الأنهار ، بىنا كان ىحاول وهو ثمل جزلان أن يعانق . صورة القمر .

وءىوان شعره الرقىق الجمىل المؤلّف من ثلاثىن مجءءاً لا ىترك مجالا للشك فى أنه حامل لواء شعراء الصىن بلا منازع . وقد وصفه ناقد صىنى بأنه « قمة تائى الشاخة المشرفة على مئاث الجبال والتلال ؛ والشمس التى إذا طلعت خبا ومىض ملاىىن من نىجوم السماء »<sup>(٥٤)</sup> .

لقد مات منىج هوانىج ، وماتت ىانج وعفا ذكرها ولكن لى بولا ىزال بىفى !  
لقد بنىت سفىنتى من خشب الأفاوىه وصنع سكانها من خشب .  
المولان .

وجلس العازفون عند طرفها وبىءم النائى من الغاب الملى بالجواهر .  
والمزمار الرصع بالذهب .

ألا ما أعظم سرورى إذا كان إلى جانبى دن الخمر اللذىذة وغىء .  
حسان بىننىن

ونحن نطقو فوق ظهر الماء نءفمنا الأمواج ذات اللمىن وذات الشمال !

إذن لكنت أسعد من جنى الهواء الذى ركب على ظهر غرنيقه الأصفر ،  
حرأ كعريس البحر الذى تعقب النوارس (\*) دون غرض يبتغيه ،  
إلى الآن أهنر الجبال الخمسة بضربات من وحى قلبى .  
هانذا قد فرغت من قصيدتى . فأنا أضحك وسرورى أوسع من البحر .  
أيها الشعر الخالد إن ألحان شوبنجر (\*\*\*) لشبيهة فى روعتها بالشمس والقمر ،  
أما قصور ملوك جو وأبراجهم فقد عفت آثارها من فوق التلال (٥٥)

---

( • ) المرلان ضرب من الخشب الثمين وهريس البحر مخلوق خرافى له جسم رجل وذيل سمك والنورس طائر مائى . ( المترجم )  
( •• ) أنظر ص ٩٦

## الفصل الخامس

### من خصائص الشعر الصيني

النظم الطليق - « التصوير » - كل قصيدة صورية  
وكل صيغة قصيدة . . - العاطفية - كمال الشكل

ليس في وسعنا أن نحكم على الشعر الصيني بدراسة شعر لى وحده ، فإذا أراد الإنسان إن يُحس به ( وهذا خير من الحكم عليه ) وجب عليه أن يسلم نفسه في غير استعجال للكثيرين من الشعراء الصينيين وأساليبهم الشعرية الفذة . ولا جدال في أن بعض الصفات الدقيقة التي يتصف بها هذا الشعر تخفيها عنا ترجمته : فنحن لا نرى في هذه الترجمة الرموز الصينية الجميلة ؛ التي يتكون كل منها من مقطع واحد ولكفه يعبر مع ذلك عن فكرة معقدة ولا نرى السطور تجري من أعلى إلى أسفل ومن اليمين إلى اليسار ، ولا ندرك الوزن والقافية اللذين يشبهان بقوة بالقواعد والسوابق القديمة ؛ ولا نستمتع إلى النغمة — وما فيها من خفض ورفع — التي يترنم بها الشعر الصيني . وجملة القول أن نصف ما في شعر الشرق الأقصى من جمال فني يضيع حين يقرؤه من يجب أن نسميه « أجنبيا » عنه . إن خير القصائد الصينية في لغتها الأصلية لصورة مصقولة ثمينة لا تقل في صقلها وعظيم فنها عن المزهية المنقوشة النادرة الجميلة ؛ ولكنه بالنسبة إلينا لا يكون إلا نتفاً من القريض الخلداع « الطليق » من الوزن أو الشعر « التصويري » قد أدركه بعض الإدراك ونقله نقلاً ضعيفاً عقل جاد ولكنه عقل غريب عنه لا يمت إليه بصلة .

إن أم ما نراه في هذا الشعر هو إيجازه ؛ فنميل إلى الظن بأن هذه القصائد تافهة ، وإذا ما قرأناها شعرنا بأننا قد لا نجد فيها ما في شعر ملتن وهو من

عظمة تارة وملاحة تارة أخرى . ولكن الصينيين يعتقدون أن الشعر كله يجب أن يكون قصيراً ؛ وأن القصيدة والطول لفظان متناقضان ، لأن الشعر في نظرهم نشوة وقتية بنت ساعتها تموت إذا طالت ومدت حتى صارت ملحمة ، وأن رسالة الشاعر أن يرى الصورة ويرسمها بضربة ويسجل الفلسفة في بضعة سطور وأن مثله الأعلى أن يجمع المعاني الكثيرة في أنغام قليلة . وإذا كانت الصور من جوهر الشعر ، وكانت الكتابة الصينية في جوهرها كتابة تصويرية ، كانت لغة الصين المكتوبة لغة شعرية بطبيعتها تنقاد للكتابة التصويرية ، وتنفر من المعنويات المجردة التي لا يمكن التحدث عنها كما يتحدث عن المرئيات . وإذا كانت المعنويات تكثر كلما ارتقت الحضارة ، فقد أضحيت اللغة الصينية في صورتها المكتوبة ، أشبه بشفرة سرية ذات إيحاء دقيق . وكذلك كان الشعر الصيني ، بالطريقة نفسها ، وقد يكون للسبب عينه ، يجمع بين الإيحاء والتركيز ، ويهدف بما يرسم من الصور إلى الكشف عن شيء خفي عميق . فهو لا يجادل ولا يناقش ، بل يوحى ويوعز ، ويترك أكثر مما يقول ؛ وليس في وسع أحد غير الشرق أن يستجيب لما يوعز به ويملاً الفراغ الذي يتركه . وفي هذا المعنى يقول الصينيون : « كان الأقدمون يرون أن أحسن الشعر ما كان معناه أبعد من لفظه ، وما اضطر قارئه أن يستخلص معناه لنفسه »<sup>(٥٦)</sup><sup>(٥٧)</sup> . فالشعر الصيني كالأخلاق الصينية والفن الصيني ذو جمال رائع لا حد له تخفيه بساطة هادئة مستكنة ، فهو لا يعتمد إلى الاستعارة والحجاز والتشبيه بل يعتمد على إظهار ما يريد أن يتحدث عنه ، ويشير من طرف خفي إلى ما يتضمنه ، ويتصل به ، وهو يتجنب المبالغات والانفعالات ويلجأ إلى العقل الناضج بما فيه من إيجاز في القول وما يتقيد به من قيود . ولما تراه في صور روائية هائلة ، ولكن في مقدوره أن يعبر عن المشاعر القوية بأسلوبه الهادئ الرصين :

(٥٦) انظر وصف مكحول للشعر في مقاله عن ملتن . ( المترجم )

الناس يقضون حياتهم متفرقين كاللججوم تتحرك وتكتمها لا تلتقي أبداً .  
أما هذه العين فما أسمدها ، إذ ترى مصباحاً واحداً يبعث الضوء لى ولك ا  
ألا ما أقصر أيام الشباب ا  
وإن لمامننا لتدل الآن على أن حياتنا قد آذنت بالزوال .  
بل إن نصف من نعرفهم قد امتثلوا الآن إلى عالم الأرواح .  
ألا ما أشد وقع هذا على نفسى .

وقد يعترينا الملل فى بمض الأحيان مما فى هذه القصائد من التكلف العاطفى ،  
وما تحويه من تحسر وتمن باطل بأن تقف عجلة الزمان دورتها حتى يبقى الرجال  
فتياتاً وتحفظ الدول بشبابها أبد الدهر . وتمن تدرك من هذا الشعر أن حضارة  
الصين كانت قد شاخت وانقضى عهد شبابها فى أيام منج هوانج ، وأن الشعراء فى  
هذا العهد — كالغنائين فى الشرق بوجه عام — قد أولعوا بتكرار الموضوعات  
التليدة ، وأنهم كانوا يستخرون قدرتهم القتية للاحتفاظ بالصيغ سليمة مبرأة من  
العيوب . ولكننا رغم هذا كله لا نجد لهذا الشعر مثيلاً فى غير بلاد الصين ،  
ولا نرى ما يضارعه فى جمال التعبير وما فيه من رقة فى العواطف رغم اعتدالها ،  
ومن بساطة واقتصاد فى التعبير عن أعمق الأفكار . ويقال لنا إن للشعر الذى  
كتب فى عهد أباطرة تانج أثراً عظيماً فى تعليم كل شاب صينى ، وإن الإنسان  
لا يجد صينياً مفكراً لا يحفظ الكثير من ذلك الشعر عن ظهر قلب . فإذا صح  
هذا كان فى تاريخ لى يو ودونو بمض ما نجيب به حين نسال لم بكاذ كل صينى  
متعلم يكون فناً وفيلسوفاً ؟

## الفصل الثامن

### دوفو

داوتشين - پو - چوى - قصائد لشفاء الملايا - دوفو  
وكى پو - رؤى الحرب - أيام الرخاء - الإبلاق - الموت

لى پو عند الصينيين شبيهه بكيتس عند الإنجليز ، ولكن للصين غزوه من المغنين ، لا يكاد يقلّ حجمهم لهم عن حجمهم لى پو ، فمنهم داوتشين الشاعر الرواقى البسيط الذى اعتزل منصباً حكومياً ، لأنه على حد قوله لم يعد فى وسعه « أن يخفى فقرات ظهره نظير خمسة أرتال من الأرز فى كل يوم » أى أن يتتبع مرتبه بكرامته . واعتزل داوتشين الحياة العامة كما اعتزما كثيرون من رجال الدولة اشمئزاً من حياة الوظيفة ذات النزعة التجارية ، وذهب ليعيش فى الغابات يمشد فيها « طول السنين وعمق الخمر » ، ويجد فى مجارى الصين وجبالها من السلوى والبهجة ما صورته رساموها على الحرير فيما بعد :

أقطف الأخوان تحت السياج للشرقى ،

ثم أسرح الطرف طويلاً فى تلال الصيف البعيدة

وأملأ صدرى من هواء الجبال الفقى عند مطلع الفجر ،

وأرى الطيور تعود مثنى مثنى .

إن فى هذه الأشياء لمعانى عميقة ،

لكننا إذا شئنا التعبير عنها خانتنا الألفاظ فجأة . . .

ألاما أسخف أن يمضى المرء حياته كأوراق الشجر الساقطة المطورة

فى تراب الطرقات !

ولقد قضيت ثلاث عشرة سنة من حياتى على هذا النحو . . .

وعشت زمناً طويلاً حبساً في قفص ؛  
وهأنذا قد عدت  
إذ لا بد للإنسان أن يموت  
ليحيا حياته الطبيعية<sup>(٥٧)</sup>

أما بو — جوى فقد سلك مسلكاً آخر ، إذ اختار المنصب الرسمي والحياة في العاصمة . وصار يرقى في المناصب العامة حتى أمسى حاكم مدينة هانج تشاو العظيمة ورئيس مجلس الحرب . ولكنه رغم متاعب الحياة العامة عاش حتى بلغ الثانية والسبعين من العمر ، وأنشأ أربعة آلاف قصيدة ، وعب ملاذ الطبيعة في فقرات نقي فيها من بلده<sup>(٥٨)</sup> . وعرف السر الذي يستطيع به أن يجمع بين الوحدة والاختلاط بالجاهير ، وبين الراحة والحياة النشطة . ولم يكن كثير الأصدقاء ، لأنه كما يقول عن نفسه كان رجلاً وسطاً غير ممتاز في « الخط ، والتصوير ، والشطرنج ، وبيسر ، وهي الوسائل التي تؤدي إلى اجتماع الرجال وإلى الضجة السارة »<sup>(٥٩)</sup> . وكان مولماً بالتحدث إلى عامة الناس ، ويروي عنه أنه كان يقرأ قصائده لعجوز قروية ، فإذا عجزت عن فهم شيء منها بسطه لها . ومن ثم أصبح أقرب الشعراء الصينيين إلى قلوب الجماهير ، وكان شعره ينقش في كل مكان على جدران المدارس والمعابد وقبرات السفن . ويروي أن فتاة من المغنيات قالت لربان سفينة كانت تطربه « ليس لك أن تظن أنني راقصة عادية ؛ وحسبك أن تعرف أن في مقدوري أن أسمعك قصيدة الأستاذ بو : الغلظة الأبدية »<sup>(٦٠)</sup> (\*)

وآخر من نذكره من أولئك الشعراء هو دوفو الشاعر المحبوب العميق الذي يقول فيه ارر ويلي Arthur Waley : « من عادة الذين يكتبون في الأدب

---

(٥٧) من أشهر الروايات الصينية الكبيرة التي يروي بها الكتاب الصينيون غرام منج هوانج بيانج جوى في موتها في أثناء الثورة وشقاء منج بعد عودته إلى العرش . وليست القصيدة خالدة إلى الحد الذي توصف به ، وهي أطول من أن تتبع لها هذه الصفحات .

الصيني من الإنجليز أن يقولوا إن لي تاي — بو أشعر شعراء الصين ؛ أما الصينيون أنفسهم فيقولون إن دوفو هو حامل لواء الشعراء الصينى »<sup>(٦١)</sup>

ونحن نسمع به لأول مرة في شانجيان حيث أقبل ليؤدى امتحاناً ليتقلد إذا نجح فيه منصباً حكومياً ، ولكنه لم ينجح . على أن ذلك لم يفت في عضده ، رغم أنه أخفق في مادة الشعر ؛ وأعلن للجمهور أن قصائده علاج ناجع لحمى الملاريا ، ويبدو أنه جرب هذا العلاج بنفسه<sup>(٦٢)</sup> . وقرأ بنج هوانج بعض أشعاره ووضع له هو نفسه امتحاناً آخر ، وأنجح فيه وعينه أمين أسرار القائد تسو<sup>٦٣</sup> . وشجع هذا العمل دوفو وأنساه وقتاً ما زوجته وأبناءه في قريتهم النائية ، فأقام في العاصمة وتبادل هو ولي بو الأغاني . وأخذ يتردد على الحانات ويؤدى ثمن خمره شعراً . وقد كتب عن لي بو يقول :

أحب مولاي كما يحب الأبخ الأصغر أخاه الأكبر ،

ففي الخريف وفي نشوة الخمر ننام تحت غطاء واحد ، وفي النهار نسير معاً يداً بيد .

فعل هذا في أيام كان منج ليانج يحب جوى<sup>٦٤</sup> في فأخذ دو يتغنى بهذا الحب كما يتغنى غيره من الشعراء ؛ فلما شبت نار الثورة وأغرقت الأحقاد والمطامع بلاد الصين في بحر من الدماء حول شعره إلى موضوعات حزينة ، وأخذ يصور الناحية الإنسانية من الحرب :

في الليلة الماضية صدر أمر حكومى

بتجنيد الفتيان الذين بلغوا الثامنة عشرة .

وأمروا أن يعاونوا على الدفاع عن العاصمة

أيتها الأم ! وأيتها الأبناء ! لا تبكوا هذا البكاء !

إن هذه الدموع التى تذرفونها تضر بكم .

وحين تقف الدموع عن الجريان تبرز العظام



ووقتئذلا ترحمكم الأرض ولا السماء .  
دهل تعرفون أن في شانتونج مائتي مقاطعة قد استجالت صحارى مجدبة ،  
وأن آلافا من القرى والمزارع قد غطاها الحسك والشوك ؟  
وأن الرجال يذبجون ذبح الكلاب ، والنساء يسقن كما يساق الدجاج ..  
ولو أننى كنت أعرف ما هو نجبا للأولاد من سوء المصير  
فضلت أن يكون أطفالي كلهم بنات ...  
ذلك أن الأولاد لا يولدون إلا ليدفونوا تحت العشب الطويل .  
ولا تزال عظام من قضت عليهم الحرب في الماضى البعيد مدفونة بجوار  
البحر الأزرق تراها وأنت مار .

فهي بيضاء رهيبية تراها العين فوق الرمال ، .  
هنالك تجتمع أشباح الصغار وأشباح الكبار لتصيح جمامات ،  
وإذا هطل المطر وأقبل الخريف وهبت المريح الباردة ،  
علت أصواتهم حتى علمتني كيف تقتل المرء الأحران ...

إن الطيور تتناغى في أحلامها وهي تحلق فوق للماء  
والبراعة تشع بضياءها في غسق الليل .  
فلم يقتل الإنسان أخاه الإنسان ليعيش ؟  
إنى أتحمس خلال الليل في غير طائل<sup>(٦٤)</sup>

وقضى الشاعر عامين خلال عهد الثورة يظوف بأبناء الصين تقاسمه إملاقه  
زوجته وأبنائه ، وقد بلغ من فقره أنه كان يستجدى الناس الخبز ، ومن ذلته أنه  
خررا كما يدعو بالخير للرجل الذى آوى أسرته وأطعمها حيناً من الزمان<sup>(٦٥)</sup> .  
ثم أنجاه من بؤسه القائد الرحيم بن وو فعينه أميناً لسره ، وغفر له أهواءه وأطواره

الشاذة ، وأسكنه كوخًا على ضفة « مجرى غاسل الأزهار » ، ولم يطلب إليه أكثر من أن يقرض الشعر<sup>(\*)</sup> . وعاش الرجل حينئذ سعيداً طروباً يتغنى بالأمطار والأزهار والقمر والجبال :

وماذا تجدى العبارة أو المقطوعة الشعرية الجميلة ؟

إن أمامى جبالا وغابات كثيفة سوداء فاحمة .

وإن نفسى لتحدثنى بأن أبيع تحنى وكتفى

وأعب من الطبيعة وهى صافية عند منبعها ...

فإذا قدمت على مكان بهذا الجمال

مشيت رويداً ، وتمنيت أن يفرق الجمال روى

أحب أن ألس ريش الطير .

وأنفخ فيه بقوة حتى أكشف عما تحته من الزغب .

وأحب أن أعد إبر النبات أيضاً ،

بل أحب أن أعد لقاحه الذهبى ،

ألا ما أحلى الجلوس على الكلا ،

ولست بحاجة إلى الخمر حين أجلس عليه ، لأن الأزهار تسكرنى ...

أحب الأشجار القديمة حبا يسرى فى عظامى ، وأحب أمواج البحر

التي فى زرقه اليشب<sup>(٦٥)</sup> .

وأحبه القائد الطيب القلب حبا أفسد على الشاعر راحته ، لأنه رفعه إلى

منصب عال فى الدولة ، إذ جعله رقيباً فى شانجان ، ثم مات القائد فجأة ، وثار

الحرب حول الشاعر ، فأمسى وحيداً لا سعدله إلا عبقريته ، وسرعان ما ألقى نفسه

---

(\*) ويصور رسم صيني نهر « الشاعر دوفو فى الكوخ المغمى » . وتوجد هذه الصورة فى متحف الفن بنيويورك .

فقيراً معدماً ، وأخذ أطفاله وقد أذهب عقلهم الجوع يسخرون منه لقلة حيلته ، وكان في آخر أيامه شيخاً مهدماً بئساً وحيداً ، « يؤذى العين منظره » ، وأطاحت الريح بسقف كوخه ، وسرق الأطفال قش فراشه ، وهو ينظر إليهم ولا يستطيع لضمفه أن يقاومهم<sup>(٦٧)</sup> ، وشر من هذا كله أنه فقد لذة الخمر ، ولم يعد في وسعه أن يحل مشاكل الحياة كما يحلها لي بو .

ثم لجأ آخر الأمر إلى الدين ووجد سلواه في البوذية ، وعاجلته الشيخوخة ولما يتجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، فخرج إلى جبل هون المقدس ليزور فيه معبدًا ذائع الصيت ، وهناك عثر عليه حاكم من الحكام قرأ شعره ، فأواه إلى منزله وأقام وليمة تكريمًا له ، صفت فيها صحاف الشواء وكؤوس الخمر . ولم يكن ووفوق رأى ذلك من عدة سنين فأكل أكل الجياع . ثم طلب إليه مضيفه أن ينشد الشعر ويفنى ، فحاول أن يجيبه إلى ما طلب ، ولكنه خارت قواه وسقط على الأرض ومات في اليوم الثاني<sup>(٦٨)</sup> .

## الفصل السابع

### النثر

وفرة الآداب الصينية - الروايات العرامية - التاريخ  
زوماتشين - المقالات - هان يو على عظام بوذا

ليس شعراء تأنج إلا فئة من شعراء الصين ، وليس الشعر إلا جزءاً من الأدب الصيني ، وإنه ليصعب علينا أن ندرك حقيقة تماكان في هذا العصر من وفرة في الأدب ومن سعة انتشاره بين كافة طبقات الشعب . وكان عدم وجود قانون للملكية الأدبية عاملاً من العوامل التي ساعدت على رخص أثمان المطبوعات ، ولذلك كان من الأمور العادية ، قبل دخول الأفكار الغربية في البلاد ، أن يجد الإنسان مجموعات جديدة مجلدة من عشرين كتاباً تباع الواحدة منها بريال أمريكي ، وأن يرى موسوعات مؤلفة من عشرين مجلداً تباع جديدة بأربعة ريالات ، وأن تباع جميع روائع الأدب الصيني القديم كلها بريالين<sup>(٦٩)</sup> . وأصعب مما سبق أن نقدر نحن قيمة هذا الأدب ، وذلك لأن الصينيين يضعون الشكل والأسلوب فوق المادة حين يحكمون على كتاب ما ، وليس في وسع أية ترجمة مهما بلغت أن تظهر جمال الشكل أو روعة الأسلوب .

ليس من حقنا أن نلوم الصينيين حين يقولون إن آدابهم أرقى من أية آداب أخرى عدا الآداب اليونانية ، ولعلمهم حين يستثنون آداب اليونان إنما يفعلون هذا من قبيل المجاملات المأثورة عن الشرقيين .

والصينيون لا يعدّون القصص فرعاً من فروع الأدب ، وهم في هذا يختلفون عن الغربيين حيث يرفع القصص من شأن المؤلفين ويزيد أسماءهم في سرعة وسهولة . ولذلك فإننا قلنا نجد له ذكراً في بلاد الصين قبل أن يدخلها المنول<sup>(٧٠)</sup>

بل إن أدباء الصين لا يزالون إلى هذا اليوم يعدون خير الروايات القصصية مجرد تسلية شعبية غير خليقة بأن تذكر في تاريخ الآداب الصينية . لكن سكان المدن الصينية السذج لا يزالون بهذه الفروق ، ويتكون أغاني بو — جوى ولى بو في غير تخرج ، ويفضلون عليها الروايات الغرامية التي لا حصر لها ، والتي يكتبها مؤلفون يخفون عن القراء أسماءهم ، وينشرونها باللهجات الشعبية التي تكتب بها المسرحيات . وهي تصور للصينيين في وضوح ما في ما ضيهم من أحداث روائية رائعة ؛ ذلك أن جميع الروايات الصينية الشهيرة ، إلا القليل الفادر منها ، روايات تاريخية ، وقل أن يوجد فيها ما هو واقعي البزعة ، وأقل منه ما يحاول فيه مؤلفوه ذلك القرب من التحليل النفساني أو الاجتماعي الذي يرقى « بإخوة كرمزوف » The Brothers Karmazov و « الجبل المسحور » The Magic Mountain و « الحرب والسلام » War and Peace و « البأسون » Les Miserables إلى مستوى الأدب الرفيع .

ومن أقدم الروايات الصينية رواية شوى هو جواه أو « قصة حواشى الماء » التي ألفها رهط من الكتاب في القرن الرابع (\*).

ومن أكبر هذه الروايات حجبا رواية « هونج لومين » أو حلم الغرفة الحمراء (حوالى ١٦٥٠ م) وهي رواية في أربعة وعشرين مجلداً ؛ ومن أحسنها كلها رواية لياو هوى ميبى أو قصص عجيبة (حوالى ١٦٦٠ م) وهي التي يجملها الصينيون لجمال أسلوبها وأناقة عبارتها . وأشهرها كلها رواية سانه جورسى يان إى أو « رواية الممالك الثلاث » وهي رواية منمقة الأسلوب في ألف صفحة ومائتين كتبها لوجوان — جونج (١٢٦٠ — ١٢٤١) في وصف الحرب

---

(\*) لقد ترجمت مسز بيرل بك Mrs. Pearl Buck هذه الرواية ترجمة جيدة وسمتها « كل الناس إخوة » All Men are Brothers و طبعت في نيويورك سنة ١٩٣٣ .

والدسائس التي أعقبت سقوط أسرة هان<sup>(\*)</sup>، وكلها شبيهة بالروايات الطويلة التصويرية التي كانت منتشرة في أوروبا في القرن الثامن عشر. وكثيراً ما تجمع هذه الروايات ( إذ جاز لنا في مثل هذه الموضوعات أن ننقل إلى القارئ ما يتحدث به الناس عنها ) بين تصوير الأخلاق الفسك اللطيف الذي تراه في رواية تم جوهر Tom Jones وبين القصص الشائق الذي تراه في جل بيلس Gil Bias . وهي أصلح ما تكون لأن يقرأها الشيوخ الطاعنون في السن ليقطعوا بها أوقات فراغهم .

والتاريخ أجل الأدب شأنًا في الصين ، وهو كذلك أحبها إلى الصينيين ، وليس ثمة أمة ظهر فيها من المؤرخين عدد يوازي من ظهر منهم في الصين ، وما من شك في أنه ليس بين الأمم جميعها أمة كتبت في التاريخ بقدر ما كتبت الأمة الصينية . ذلك أن أقدم قصور الملوك كان لها كتابها الرسميون ، يسجلون أعمال الملوك وأحداث الأيام ؛ ولقد دام منصب مؤرخ البلاط إلى أيامنا هذه ، وأوجد في الصين قدرًا من الأدب التاريخي لا نرى له مثيلاً في طوله ولا في ملله في جميع بلاد العالم . وحسبنا أن نضرب بعض الأمثلة ليدرك القارئ طول هذه التواريخ . فمنها أربعة وعشرون كتاباً في « تواريخ الأسر » وهو تاريخ رسمي نشر في عام ١٧٤٧ في ٢١٩ مجلدًا ضخماً<sup>(٧١)</sup> . وأخذت كتابة التواريخ تخطو خطى سريعة في الصين مبتدئة بالسو — منج أو « كتاب التاريخ » الذي هذبه كنفوشيوس أحسن تهذيب ، وبالدرزو — جوان وهو شرح لكتاب المعلم الكبير وإحياء له كتب بعد مائة عام من ذلك الوقت ، وهوليات كتب الغاب التي وجدت في قبر أحد ملوك ويه ، حتى أخرج في القرن الثاني قبل ميلاد

---

(\*) وترجمها ش . ه . بروت تيلر C. H. Brewitt-Taylor في جزأين وطبعت

في شنغهاي سنة ١٩٢٥ .

المسيح أعظم كتب التاريخ الصينية على الإطلاق ، وهو كتاب السجل التاريخي الذي جمعه زوما تشين وبذل في جمعه جهوداً جبارة .

ذلك أنه لما خلف زوما أباه في منصب متجم البلاط بدأ عمله بإصلاح التقويم ، ثم وجه جهوده للعمل الذي بدأه أبوه وهو رواية تاريخ الصين من عهد الأسرة الأولى الأسطورية إلى العصر الذي كان يعيش فيه . ولم يكن زوما مولعاً بجمال الأسلوب ، بل كل ما كان يهدف إليه أن يجعل سجله هذا كاملاً . وقد قسم كتابه هذا خمسة أقسام هي : (١) حوليات الأباطرة ، (٣) الجداول التاريخية (٣) ثمانية فصول في المراسم والموسيقى ، وموازين النغمات ، والتقويم ، والتنجيم ، والقرايين الإمبراطورية ؛ والمجاري المائية ، والاقتصاد السياسي (٤) حوليات أسراء الإقطاع ، (٥) تراجم عظماء الرجال . ويبلغ طول العهد الذي تؤرخ له هذه الكتب كلها نحو ثلاثة آلاف عام ، وقد سجلت في ٥٢٦,٠٠٠ متر صيني نقشت بقلم مدبب على ألواح من الغاب في صبر طويل<sup>(٧٢)</sup> . ولما فرغ زوما تشين من وضع كتابه هذا الذي قضى فيه حياته كلها أرسله إلى الإمبراطور وإلى العالم ولم يضاف إليه إلا هذه المقدمة للتواضع :

« لقد وهنت الآن قوة خادمك الجسمية ، وضعف بصره وأظلمت عيناه ، ولم يبق من أسنانه إلا العدد القليل ، وضعفت ذاكرته حتى أصبح ينسى حوادث الساعة حين تدبر عنه ، ذلك أن قواه كلها قد استنفدها إخراج هذا الكتاب . وهو لهذا يرجو أن تصفح جلالتم عن محاولته الجرئية التي تشفع لها نيته الخالصة ، وأن تتفضل في لحظات الفراغ بإلقاء نظرة قدسية على هذا الكتاب حتى تعرف من أسباب قيام الأسر السابقة وسقوطها سر نجاح هذه الساعة وإخفاها ، فإذا ما استخدمت هذه المعرفة لخير الإمبراطورية ، فإن خادمك يكون قد حقق غرضه بمطعمه في الحياة ، وإن ثوت عظامه في البنايع الصفراء »<sup>(٧٣)</sup> .

ولسنا نجد في صفحات كتاب زوما تشين شيئاً من تألق تين Tsine ، ولا  
ثرثرة ساحرة أو قصصاً طريفة مكتوبة بأسلوب هيرودوت ، ولا تعاقباً للامثلة  
والمعلول كما نجدهما في توكيديد Thucydides ، ولا نظرة واسعة الآفاق في لغة  
موسيقية كما نجد في جين Gibbon . ذلك أن التاريخ قلما يرتفع في الصين من  
صناعة إلى فن .

وقد ظل المؤرخون الصينيون من أيام زوما تشين إلى أيام سمية زوما جوانج  
الذي حاول بعد أحد عشر قرناً أن يكتب مرة أخرى تاريخاً عاماً للصين ، نقول  
ظل هؤلاء المؤرخون يكدهون ليدونوا في صدق وإخلاص حوادث أسرة  
حاكمة أو ملك من أسرة . وكثيراً ما أضعوا في هذا العمل كل ما كان لهم  
من مال ، بل إنهم أضعوا فيه أحياناً حياتهم نفسها ؛ وكانوا ينفقون جهودهم  
كلها في سبيل الحقيقة لا يبتغون عنها بديلاً ، ولم يدخروا شيئاً من هذه الجهود  
ينفقونه في جمال الأسلوب ، ولعلمهم كانوا في عملهم هذا على حق ، ولعل التاريخ  
ينبغي أن يكون علماً لا فناً ، ولربما كانت حوادث الماضي يعترها الغموض إذا  
وصلت إلينا في زينة جين أو في مواعظ كارليل .

ولم تخل بلادنا نحن (\*) أيضاً من مؤرخين ثقال ، وفي وسعنا أن ننافس أية  
أمة من الأمم في عدد المجلدات التي خصصت لتسجيل — وجمع — أتنه الأشياء .  
أما المقالة الصينية فهي أجمل من التاريخ الصيني وأعظم منه بهجة . ذلك أن  
الفن فيها غير محرم والنصاحة مطلقه العنان . وأوسع كُتاب المقالات شهرة هان يو  
العظيم الذي يقدر الصينيون كتبه أعظم تقدير ، ويجلوها إجلالاً بلغ من قدره  
أنهم يطلبون إلى من يقرؤها أن يفصل يديه بناء الورد قبل أن يمسه .

وكان هان يو وضع المواد ولكنه وصل إلى أرق المراتب في خدمة الدولة ،  
ولم يفض عليه الإمبراطور إلا لأنه احتج احتجاجاً شديداً صريحاً على تسامحه



مع البوذية وما حباها من امتيازات . ذلك أن هان كان يعتقد أن الدين الجديد إن هو إلا خرفة هندية ، وقد آلمه أشد الألم ، وهو الكنفوشي الصميم ، أن يرضى الإمبراطور عن هذا الحلم الموهن الذى أسكر أهل بلاده . ومن أجل هذا رفع مذكرة إلى الإمبراطور ( ٨٠٣ ق . م ) تقتبس منها هذه السطور لتقدم للقارىء مثلاً من الدرر الصينى ، وإن كانت الترجمة الأمينة قد هوشته :

لقد سمع خادمكم أن أوامر صدرت إلى جماعة الكهنة بأن يسيروا إلى فنج — شيانج ليتساموا عظاماً من عظام بوذا ؛ وأن جلالتم ستشرفون من برج عال على دخوله فى القصر الإمبراطورى ؛ وأن أوامر أخرى أرسلت إلى الهياكل المختلفة تقضى بأن يحتفل بهذا الأثر الاحتمال الذى يليق به . وقد يكون خادمكم أبله ضعيف العقل ، ولكنه يدرك أن جلالتم لا تفعلون هذا لتنالوا منه نفعاً ، بل تفعولونه مسaire منكم لرغبة الشعب فى أن يحتفل بهذا المجون الباطل فى عاصمة البلاد ، فى الوقت الذى بلغ فيه الرضاء غايته ، وامتلات جميع القلوب بهجة وانشراحاً . وإلا فكيف تجيز لكم سامى حكمتكم أن تؤمنوا كما يؤمن عامة الشعب بهذه العقائد السخيفة ؟ وعامة الشعب يا مولاي بطيئو الإدراك يسهل التغرير بهم ، فإذا رأوا جلالتم تركعون خاشعين أمام قدمى بوذا صاحوا من فورهم : هاهو ذا ابن السماء مصدر الحكمة قوى الإيمان ببوذا ؛ فهل يحق لنا نحن عامة شعبه أن نضن عليه بأجسامنا .

« ثم يعقب هذا سفع النواصى وحرقت الأصابع ؛ وتجمع الناس من كل صوب يمزقون ملابسهم ، وينثرون أموالهم ، ويقضون وقتهم كله من الصباح إلى المساء يحذون حذو جلالتم . ونتيجة هذا أن تملك الشعب كله ، صغاره وكباره ، هذه الحماسة نفسها فيهمل الناس ما يجب عليهم أن يفعولوه فى حياتهم . وتراهم يحجون إلى الهياكل زرافات ، يقطعون أيديهم ويشوهون أجسامهم ، ليقدموها قرباناً إلى الإله ، إلا إذا حرمتهم جلالتم هذا العمل . وبهذا يقضى على

عادتنا وتقاليدينا ، وبصبح مضمغة في أفواه الناس وهدفاً لسخرتهم على ظهر الأرض .

« ولهذا فإن خادمكم ، وقد تجلج بالعار من أفعال الرقباء (\*) ، يضرع إلى جلالكم أن تتركوا هذه العظام طعمه للنار والماء ، حتى يجتث هذا الشر من منابته فلا يعود أبداً ، وحتى يعرف الشعب أن حكمة جلالكم أعلى من حكمة عامة الناس . وإذا كان للرب بوذا من القوة ما يستطيع به أن يثار لنفسه من هذه الإهانة بالكوارث يصبها على رأس من كان سبباً فيها ، فليصب جام غضبه على شخص خادمكم ، وهو في هذه اللحظة يُشهد السماء على أنه لن يميد عن عقيدته (٧٤) » .

وبعد فإذا ما قام النزاع بين التحريف والفلسفة فأكبر الظن أن النصر سيكون حليف التحريف ، ذلك بأن العالم قد أوتي من العقل ما يجعله يفضل السعادة على الحكمة ، ومن أجل ذلك نفي هان إلى قرية في هوانج — توج حيث كان الناس لا يزالون همجا سذجا . ولم يشك من هذا النفي ، بل شرع يهدب الناس ويجهل من نفسه خير قدوة يقتدون بها عملا بتعاليم كنفوشوس . وقد بلغ من مجاحه في عمله هذا أن صورته لا تزال يكتب عليها في هذه الأيام تلك الأسطورة « لقد كان ينشر الطهر حيثما مر » (٧٥) . ثم استدعى آخر الأمر إلى عاصمة البلاد ، وأدى للدولة خدمات جليلة ، ومات معززاً مكرماً أعظم الإعزاز والتكريم . وقد نصبت له لوحة تذكارية في هيكل كنفوشوس — وهو المكان الذي يحتفظ به عادة لأنباع المعلم العظيم أو لكبار شراحه — ؛ وذلك لأنه دافع عن العقائد الكنفوشية دفاعاً لم يبال فيه بما يتعرض له من الأخطار ، وقاوم عقيدة كانت من قبل صالحة نبيله ولكنها أصبحت الآن منحطة فاسدة .

---

(\*) إذا أراد القارئ أن يعرف ما هي أعمال الرقباء فليرجع إلى الفصل السادس من الباب السادس والعشرين من هذا الكتاب . ويفهم من قول هان يو هذا أن أحداً منهم لم يخرج قط على رصاء الإمبراطور تي دزونج عن انتشار البوذية في الصين .

## الفصل الثامن

### المسرح

منزلة الوضيفة في الصين - منشؤه - المسرحية - النظارة - الممثلون - الموسى  
ليس من السهل أن نقسم المسرحيات الصينية أقساماً جامعة مانعة ، لأن  
الصينيين لا يقرّون أن التمثيل أدب أو فن ، وليس للتمثيل في الصين منزلة تناسب  
مع ما يتمتع به من انتشار واسع بين طبقات الشعب ، وشأنه في هذا شأن كثير  
من مقومات الحياة . من أجل ذلك لانكاد نسمع بأسماء كتاب المسرحيات ،  
والممثلون ينظر إليهم على أنهم من طبقة منحطة ولو أنفقوا حياتهم كلها في إعداد  
أنفسهم لهذا العمل والنبوغ فيه ، ولو بلغوا فيه أعظم ما يبلغه الإنسان من الشهرة  
وما من شك في أن شيئاً من هذا كان من نصيب الممثلين في جميع الحضارات  
وبخاصة في العصور الوسطى ، حين كان التمثيل يكافح للخروج من دائرة التمثيل  
الدينى الصامت المضحك الذى نشأ منه وتفرع عنه .

وكان هذا بعينه منشأ المسرح الصينى ، فلقد كانت الطقوس الدينية في عهد  
أسرة جو تشمل أنواعاً من الرقص المصحوب بالمخاصر . ويقال إن هذا الرقص  
قد حرم فيما بعد لأنه أصبح مدعاة للفساد الخلقى . ولعل هذا التحريم الذى فصل  
الرقص عن المراسم الدينية هو الذى نشأ منه التمثيل غير الدينى<sup>(٧٦)</sup> . وشجع منج  
هو أنج قيام هذا النوع المستقل من التمثيل كما شجع كثيراً من الفنون الأخرى ، وذلك  
بأن جمع حوله طائفة من الممثلين والممثلات أطلق عليهم اسم : « فتیان حديقة  
الكثرى » . غير أن المسرح لم يصبح نظاماً قومياً معترفاً به إلا في عهد كو بلاى  
خان . ذلك أنه لما اختير كو ننج دو فو — وهو من سلالة كنفوشىوس — في عام  
١٠٣١ ليكون مبعوثاً صينياً إلى البلاط المغولى استقبل فيه باحتفال عظيم شمل فيما

شمل تمثيل إحدى المسرحيات . بيد أن اللاجن في هذه المسرحية كان يمثل كنفوشيوس ومن أجل هذا خرج كونج دو — فو غاضباً ؛ لكنه لما عاد إلى الصين هو وغيره من الرحالة الذين طافوا بلاد المغول ، تحدثوا إلى أبناء وطنهم عن ضرب من التمثيل أرقى كثيراً من كل ما عرفته بلادهم منه . ولما أن فتح المغول الصين أدخلوا فيها القصة المقروءة والمسرحية ، ولا تزال أرقى المسرحيات الصينية في هذه الأيام هي المسرحيات التي كتبت في أثناء حكم المغول<sup>(٧٧)</sup> .

وتقدم فن التمثيل على مهل ، لأنه لم يلق معونة من رجال الدولة ولا من رجال الدين . وكان معظم العاملين فيه ممثلين جوالين ، يقيمون طوارفاً في حقل خال من الزرع ، ويمثلون ما يشاءون أمام النظارة القرويين الواقفين في العراء . وكان الحكام الصينيون يستخدمون الممثلين أحياناً لإقامة حفلات تمثيلية خاصة في أثناء المآدات ، كما كانت النقابات أحياناً تمثل بعض المسرحيات . وزاد عدد دور التمثيل في أثناء القرن التاسع عشر الميلادي ، ولكنها رغم هذه الزيادة لم يكن منها في مدينة نانكنج الكبيرة أكثر من دارين<sup>(٧٨)</sup> ؛ وكانت المسرحية الصينية مزيجاً من التاريخ والشعر والموسيقى ، وكانت حبكة إعادة تدور حول حادثة تاريخية روائية ، وكان يحدث في بعض الأحيان أن تمثل مشاهد من مسرحيات مختلفة في ليلة واحدة ؛ ولم يكن لزمان التمثيل حد محدود . فتارة يكون قصيراً وتارة يدوم عدة أيام ، لكنه في أكثر الأحيان كان يمتد بحوس ساعات أو سيع . وهو الزمن الذي تستغرقه أحسن المسرحيات الأمريكية في هذه الأيام . وكان يتخلل المسرحيات كثير من التفاخر والخطب الرنانة ، وكثير من العنف في الأقوال والأعمال ، ولكن واضع المسرحية كان يبذل غاية جهده ليجعل خاتمها انتصاراً للفضيلة على الرذيلة ؛ ومن أجل ذلك أصبحت المسرحية الصينية أداة للتعليم والإصلاح الأخلاقي ، تعلم الشعب شيئاً من تاريخه ، وتفرض

فى نفوس أفراده الفضائل الكنفوشية — وأهمها كلها بر الأبناء بالآباء  
وكانت تعمل لذلك باطراد ودأب أفسدا عليها غايتها .

وقلما كان المسرح يزين بالمناظر أو الأثاث ، ولم يكن له مخرج للممثلين ،  
فكان هؤلاء جميعا سواء منهم أصحاب الأدوار وغير أصحابها ، يجلسون على المسرح  
طوال وقت التمثيل ، ويقفون إذا ما جاء دورهم ؛ وكان يحدث فى بعض الأحيان  
أن يقدم الخدم الشاى لهم وهم جالسون ؛ وكان غيرهم من الخدم يطوفون بين  
النظارة يبيعونهم الدخان والشاى والمرطبات ، ويقدمون لهم القطنائل ليمسحوا بها  
وجوههم فى ليالى الصيف ؛ وكانوا يشربون ويأكلون ويتحدثون حتى تستلقت  
أنظارهم قطعة من التمثيل جميلة أو عالية الصوت ؛ وكثيراً ما كان الممثلون يضطرون  
إلى الصراخ بأعلى أصواتهم لكي يسمعهم النظارة ، وكانوا فى أغلب الأحيان  
يلبسون أفنعة على وجوههم حتى يسهل على النظارة فهم أدوارهم .

ولما حرم تشين لوانج على النساء أن يظهرن على المسرح كان الرجال يمثلون  
أدوار النساء ، وقد مثلوها تمثيلاً بلغ من إتقانه أن النساء حين سمح لهن فى أيامنا  
هذه بالظهور على المسرح من جديد كان لا يد لهن أن يعملن حاهدات على تقليد  
مقلدتهن حتى يضمن النجاح . وكان لا بد لممثلين أن يتقنوا الرقص والألعاب  
البهلوانية ، لأن أدوارهم كثيراً ما كانت تتطلب منهم المهارة فى تحريك أعضائهم ،  
ولأن كل حركة من حركات التمثيل كانت تؤدى طبقاً لقواعد من الرشاقة معينة  
منسجمة مع النغمات الموسيقية التى تعزف فى خلال التمثيل ؛ وكانت حركات  
اليدين تستخدم رمزاً للكثير من الأعمال ، كما كانت تصحب الكثير من  
الأقوال ، وكان لا بد أن تكون هذه الحركات دقيقة متيقة مع العرف والتقاليد  
القديمة ؛ وكان فن تحريك اليدين والجسم عند بعض كبار الممثلين أشباه  
ماى لانج — فأنج يؤلف نصف ما فى المسرحية من شعر .

وقصارى القول أن التمثيلية لم تكن كلها رواية مسرحية ، ولم تكن كلها

مسرحية غنائية ، ولم تكن في أكثر أدوارها مرقصة ، بل كانت مزيجاً من هذا كله تكاد تشبه في صفاتها مسرحيات العصور الوسطى في أوروبا ، ولكنها كاملة في نوعها كمال الموسيقى البلاستريفائية Palestrina أو الزجاج المصبوغ<sup>(٣٩)</sup> .  
وقلما كانت الموسيقى فنا قائماً بذاته عند الصينيين ، بل كانت تابعة للدين والمسرح ، وكانت الرواية التاريخية تعزرو منشأها كما كانت تعزو منشأ كثير غيرها من الفنون إلى الإمبراطور الأسطوري فوشي . وقد احتوى اللي - جى أو « كتاب المراسم » الذى يرجع عهده إلى ما قبل كنفوشيوس عدة رسائل فى الموسيقى وأسماء عدة رسائل فيها ، كما احتوى الذزو - جوان الذى كتب بعد عائة عام من أيام كنفوشيوس وصفاً بليغاً للموسيقى التى كانت تصحب غناء قصائد يه . وما أن حل عهد كويج فو - دزه حتى كان السلم الموسيقى الصينى قد ثبت وتقدم عهده ، وحتى كانت البدع التى أخذت تتسرب إليه تقضى مضاجع الهادئين المحافظين ، وحتى أخذ هذا الحكيم يضح بالشكوى من الأنعام الداعرة الشهوانية التى بدأت فى أيامه تحل محل أنعام الماضى المتقنة فى رأيه مع الفضائل وكرم الأخلاق<sup>(٤٠)</sup> .

ثم شرع النفوذ اليونانى البيكترى والنفوذ المغولى يتسربان إلى الموسيقى الصينية حتى تركا آثارهما فى السلم الموسيقى الصينى المعروف ببساطته .  
وقد عرف الصينيون تقسيم البعد الكلى فى الموسيقى إلى اتنى عشر نصفاً من أنصاف النغمات ؛ ولكمهم كانوا يؤثرون كتابة موسيقاهم فى سلم خماسى يطابق على وجه التقريب نغماتنا F.G.A.D.C وكانوا يطلقون على هذه النغمات الكاملة أسماء « الإمبراطور » و « رئيس الوزراء » و « الرعية » و « شئون الدولة » و « صورة الكون » . وكانوا يفهمون التوافق فى الألحان ، ولكمهم قلما كانوا يعنون به إلا إذا أرادوا ضبط آلاتهم الموسيقية . وكانت هذه الآلات تشمل من آلات النفخ الناي والبوق والمزمار والصفارة ، ومن الآلات الوترية

الكمان الأوسط والمزهر وغيرها ، ومن آلات الدق الدفوف والطبول والأجراس والصنوج . وكانت لهم ألواح موسيقية من اليشب والعقيق<sup>(٨١)</sup> . وكانت الفغات التي تنبعث من هذه الآلات عجيبة مزعجة لأذن المستمع الغربي ، كما تبدو ، في ظننا ، أحسن الأغاني الغربية عجيبة مزعجة للمستمع الصيني . ولكن هذه الفغات هي التي أثرت في نفس كنفوشيوس فامتنع عن أكل اللحم ، وأصبح رجلاً نباتياً ، وهي التي جعلت كثيراً من مستمعيها يفرون من منازعات الحياة واختلاف الأفكار والإرادات ، وهو الفرار الذي لا يكون إلا نتيجة الاستسلام إلى الموسيقى الشجية .

ومن أقوال هان يو في هذا : « لقد علم الحكماء الإنسان الموسيقى لكي يشعروا ما في نفسه من حزن وغم »<sup>(٨٢)</sup> وكانوا يؤمنون بقول تشه : « لولا الموسيقى لكانت الحياة عبثاً لا خير فيه » .

# الباب الخامس والعشرون

عصر الفنانيين

## الفضل الأول

النهضة في عهد أسرة سونج

١ - استراكية وانج آه - شى

أسرة سونج - رئيس وزراء متطرف - طريفته في  
علاج التمثل - تنظيم الصماعة - قوانين الأحرار  
والأثمان - تأمين التجارة - مشروعات الدولة للتأمين  
من التمثل والفقر والشيخوخة - المناصب العامة بالامتحان  
هريمة وانج آن - شى

لم تفق أسرة تانج من هزيمتها على يد آن لو - شان وثورته . فقد مجز  
الأباطرة الذين خلفوا منتج هو انج عن إعادة سلطان الإمبراطور إلى سابق عهده  
في أجزاء الإمبراطورية المختلفة ، ثم انقضى عهد تلك الأسرة بعد مائة عام من وهن  
الشيخوخة ، وجاءت بعدها خمس أسر لم يطل عهدها مجتمعة أكثر من ثلاث  
وخمسين سنة ، ولكنها بلا استثناء بلغت من الضعف ما بلغت من قصر الأجل .  
وكانت البلاد في حاجة إلى يد قوية قاسية لتعيد إليها النظام شأن الدول كلها في  
مثل هذه الأحوال . وهذا ما حدث فعلا ، فقد خرج جندي مقدم من غمار هذه  
الفضى وأسس أسرة سونج واستولى على العرش وتسمى باسم تاي - دزو ،  
وأعاد الحكومة إلى ما كانت عليه من البيروقراطية في أيام كنفوشيوس ، كما أعاد  
طريقة تقلد المناصب الحكومية بالامتحانات العامة ، وحاول أن يحل مشاكل  
استغلال الفقراء بوضع نظام للإشراف على حياة الأمة الاقتصادية لا يكاد يختلف



عن النظام الاشتراكي في شيء، ومستعينا في هذا الحل بمستشار إمبراطوري خاص يشرف على هذه الشؤون .

وبعد وانج آن — شي (١٠٢١ — ١٠٨٦) من الشخصيات الغدة التي تبعث الحياة والروح في تاريخ الصين الطويل؛ وقد خلد التاريخ ذكره رغم هذا الطول، وإن شخصيته تبدو لنا ناصعة فذة رغم ما بين بلادنا وبلاده من تفاء . ذلك أن من مساوىء هذا التناؤى أن يجعل انفصالنا الطويل عن مسرح الحوادث الأجنبية يطمس معالم الاختلاف في الأماكن وفي أحوال الناس، ويخفي ما بين الشخصيات الشديدة الاختلاف من فروق، ويخلع عليها كلها غشاوة من وحدة المظهر والصفات تجعلها كلها كامدة كلية . لكن وانج شذ عن هذه القاعدة، فقد كان حتى في رأى أعدائه — وإن كثرتهم في حد ذاتها لدليل على جلال شأنه — رجلا يختلف عن سائر الرجال، وهب حياته لإقامة نظام صالح لحكم البلاد، وعمل مخلصاً لفاهية شعبه، غير مبال بما يصيبه في سبيل هذا العمل من نصب أو أذى، لا يدخر في ذلك جهداً، ولا يترك لنفسه من الوقت ما يعنى فيه بشخصه أو بلبسه، ولا يقل عن كبار العلماء في أيامه علماً وبراعة في الأسلوب، يحارب في شجاعة جنونية الطائفة الجامدة المتحفظة الغنية صاحبة السلطان القوى في أيامه . وتشاء المصادفات أن يكون الشخص العظيم الوحيد الذى يشبهه في تاريخ بلاده هو سمييه وانج الذى عاش قبله بنحو ألف عام — أى أن مجرى التاريخ صاحب المضطرب قد سار ألف عام كاملة منذ الوقت الذى أجريت فيه أول تجربة بارزة لتحقيق المبادئ الاشتراكية .

وما كاد وانج آن — شي يتولى أكبر منصب في مقدور الإمبراطور أن يوليه إياه، حتى وضع ذلك المبدأ العام وهو أن الحكومة يجب أن تكون مسئولة عن رفاهية جميع سكان البلاد . ومن أقواله في هذا : « يجب أن تسيطر الدولة على جميع شؤون التجارة والصناعة والزراعة وتصرفها بنفسها، وأن يكون الهدف

الذى ترمى إليه من وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذمها الأغنياء ويطحنوها طحن الرحي»<sup>(١)</sup> . وقد بدأ عمله بإلغاء نظام للسخرة الذى ظلت الحكومة الصينية تفرضه على الصينيين من أقدم العهود ، فكانت تأخذ الناس بمقتضاه من الحقول حين تكون أعمال الزرع أو الحصاد فى أشد الحاجة إليهم ؛ ومع هذا فإنه أقام أعمالاً هندسية عظيمة لوقاية البلاد من غوائل الفيضان ...

ومن أعماله أنه أنقذ الزراع من المرابين الذين كانوا يستعبدونهم ، وأقرضهم أموالاً بفوائد كانت تعد وقتئذ قليلة ليستعينوا بها على زرع أراضيهم ، وأمدّ الفلاحين بالبذور من غير ثمن ، ومنحهم من الأموال ما يعينهم على بناء مساكنهم على شريطة أن يردوا هذه الأموال إلى الدولة من غلات أراضيهم . وأنشأ لجاناً فى كل مركز من المراكز لتحديد أجور العمال وأثمان ضرورات الحياة . وأقدّم التجارة فكانت الحكومة تبتاع محصول كل إقليم من أقاليم البلاد ، وتخزن بعضه فى الإقليم ذاته اتقاء للطوارئ المحلية ، ثم تنقل ما بقى منه ليبياع فى مستودعات أقامتها الدولة فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم إنه وضع نظاماً لميزانية الدولة ، فعين لجنة للميزانية تعرض عليه مقترحاتها وما تقدره من النفقات لكل مصلحة حكومية ، وكانت الحكومة تتمسك بهذه التقديرات فى إدارة أعمال الدولة ، فاقصدت بذلك كثيراً مما كان يتسرب قبل من الأموال إلى الجيوب الواسعة الخلفية التى تعترض طريق كل درهم حكومى . يضاف إلى هذا كله أنه خصص معاشات للشيوخ والمتعطلين والفقراء ، وأصلح أساليب التعليم والامتحانات العامة ، وابتكر ضروباً من الاختبارات ليعرف بها مقدار ما يعلمه الطلاب من الحقائق لا من الألفاظ ، ويستبدل بعناية الناس بالأسلوب الأدبى عنايتهم بتطبيق مبادئ كنفوشيوس على الواجبات العامة والأعمال اليومية . وقلّ من اهتمام الملمين بالشكليات وبالحفظ عن ظهر قلب ، وقد أتى على البلاد حين من الدهر

التي فيه « التلاميذ أنفسهم » ، كما يقول أحد المؤرخين الصينيين ، « في مدارس القرى بكتب البلاغة وأخذوا يدرسون الكتب المبسطة في التاريخ والجغرافية والاقتصاد السياسي » (٢) .

تُرى لم أخفقت هذه التجربة النبيلة ؟ لعل من الأسباب الأولى لإخفاقها أن فيها عناصر عملية أكثر منها مثالية . وأولى هذه العناصر أنه وإن كان معظم الضرائب يجبي من الأغنياء — وذلك يتفق مع المبادئ الاشتراكية التي كان يسير عليها وانجح آن — شى — ، فإن الدولة كانت تحصل على جزء من المال الذي كانت تحتاج إليه لمواجهة نفقاتها الكثيرة المتنوعة باستيلائها على جزء من محاصيل كل حقل من الحقول ، وسرعان ما انضم الفقراء إلى الأغنياء في الشكوى من قذح الضرائب ، لأن الناس في جميع الأوقات أكثر استعداداً للمطالبة بإلقاء الأعمال على كاهل الحكومة منهم لأداء ما يلزمها من الأموال للقيام بها .

يضاف إلى هذا أن وانجح آن — شى أنقص الجيش العامل لأنه يستنزف جزءاً كبيراً من موارد البلاد ، ولكنه استعاض عنه بإصدار قانون عام يفرض على كل أسرة فيها من الذكور أكثر من فرد واحد أن تقدم من أبنائها جندياً في وقت الحرب . وأهدى الرجل إلى كثير من الأسر خيلاً وعلفها ، ولكنه اشترط عليها أن تعنى بالخليل العناية الواجبة ، وأن تقدمها إلى الحكومة إذا احتاجت إليها في الأعمال العسكرية . فلما أن تبين الناس أن الغزوات والثورات أخذت تزيد من مطالب الحكومة العسكرية فقدَ وانجح آن — شى في أسرع وقت مكاتنة بين الشعب وحبه إياه . وفوق هذا كله فإنه قد وجد من العسير عليه أن يعثر على الرجال الإشراف الأمناء ليعهد إليهم بالأعمال التي شرع في تنفيذها ، وما لبث الفساد أن استشرى في جميع نواحي الإدارة البيروقراطية الضخمة ، ووجدت الصين نفسها — كما وجدت نفسها أم أخرى كثيرة من

بعد — سرغمة على أن تختار بين اثنتين كإتاهما شر من الأخرى ، فإما الاتهاب الفردى وإما الفساد الحكومى .

وقام المحافظون بزعامة أخى وانج نفسه والمؤوخ زوما كوأنج ينددون بهذه التجربة الحكومية ويظهرون فسادها ؛ ويقولون إن الفساد والعجز المتأصلين فى الطبيعة البشرية يجعلان إشراف الحكومة على الصناعات مستحيلا ، وإن خير النظم الحكومية هو النظام الذى يدع الأمور تجرى فى مجراها ، والذى يعتمد على النوافع الاقتصادية الطبيعية التى تحمل الناس على إنتاج السلع وأداء الخدمات . واستخدم الأغنياء الذين آذاهم ما فرض على أموالهم من ضرائب باهظة واحتكار الحكومة للتجارة ، استخدم هؤلاء ما لهم من ثروة وقوة فى العمل على الخط من شأن النظم التى وضعها وانج آن — شى ومقاومة تنفيذها ، والقضاء عليها . وزاد ضغط هذه المعارضة المنظمة أحسن تنظيم على الإمبراطور . وحدث أن تعاقبت على البلاد عدة سنيين من الجذب وفيضان الأنهار ، اختتمت بظهور مذنب فى السماء ، فلم ير ابن السماء نفسه بدأ من إقصاء وانج عن منصبه ، وإلغاء القوانين التى أثار غضب الشعب ، ورفع أعداء وانج إلى مناصب الحكم ، وعادت الأمور مرة أخرى إلى ما كانت عليه من قبل<sup>(٣)</sup> .

## ٢ — إصياء العلوم

ازدياد عدد العلماء — الورق والخبر فى الصين — خطوات فى سبيل اختراع الطاعة — أقدم كتاب معروف — العملة الورقية — الحروف المنقلة — مجموعات الرسائل ، ومعجم اللغة والموسوعات

لقد كانت حياة الشعب الصينى فى هذه الأثناء تجرى فى مجراها العادى خلال جميع ضروب التجارب والنظم الإدارية ، لا تضطرب ولا تؤثر فيها الحوادث التى كانت لبعدها لا تصل إلى مسامعه ، إلا بعد أن تمر وتنقضى بزمان طويل . لقد زال حكم آل سونج فى شمالى البلاد ولكنه عاد من جديد فى جنوبها

وانتقلت العاصمة من بيان ليانج (وهي الآن كايبنج) إلى لين - آن (هانج تشاو الآن) .

وبدت مظاهر العز والنعمة في العاصمة الجديدة كما كانت في العاصمة القديمة ، وأقبل التجار من كل فج لينتاعوا منتجات الصناعة الصينية والفن الصينى . وضرب الإمبراطور هوى دزونج نفسه ( ١١٠١ - ٢٥ ) لشعبه أروع الأمثال في بيان - ليانج بأن كان فناناً قبل أن يكون حاكماً ، فكان في الوقت الذى يهاجم فيه البرابرة عاصمة ملكه يشتغل برسم الصور الفنية . وقد أنشأ مجمعاً للفن بعث النشاط فى الفنون بما كان يعرض فيه من روائعها وما يقدقه على الفنانين من جوائز جعلت الفنون أكبر مفاخر أسرة سونج وأجدرها بتخليد ذكرها فى سجلات الحضارة الإنسانية .

وقد حوت المتاحف وقتئذ مجموعات موحية من النقوش الفنية على البرنز وأحجار اليشب ومن الصور الزيتية والمخطوطات ؛ وأنشئت فى البلاد دور الكتب التى بقى بعضها بعد أن زالت أمجاد الحروب ، وكانت كلتا العاصمتين الشمالية والجنوبية كعبة يحج إليها العلماء والفنانون .

وفى أيام هذه الأسرة دخلت الطباعة البلاد فأحدثت فى حياة الصين الأدبية ثورة كاملة وإن لم يدرك الناس مداها وقتئذ ، وكان هذا الفن قد نما شيئاً فشيئاً فى خلال القرون الطوال حتى بلغ أوجه فى أيام تلك الأسرة ، فأتم مرحلتيه الكبيرتين إذ صنعت الألواح المحفورة لتطبع عليها صفحات كاملة ، وصُنفت الحروف المفككة المفردة ، من المعادن المجموعة فى قوالب . وكان هذا الاختراع الصينى الخالص<sup>(٤)</sup> أعظم اختراع فى تاريخ الجنس البشرى بعد الكتابة .

وكانت الخطوة الأولى فى هذا الاختراع العظيم هى كشف مادة تكون الكتابة عليها أسهل منها على الحرير أو الغاب اللذين قنع بهما الصينيون . ذلك أن الحرير غالى الثمن والغاب ثقيل ، وقد احتاج مودى و - جرواله إلى ثلاث

عربات نقل يحمل عليها معه الكتب المدونة على شرائح الغاب التي كانت أئمن ما يملك من متاع الدنيا .

وكان شي هو أنج — دى يضطر إلى مراجعة مائة وعشرين رطلا من الوثائق الحكومية في كل يوم<sup>(٥)</sup> . فلما كان عام ١٠٥ ب . م أبلغ رجل يدعى تساي لون الإمبراطور أنه اخترع مادة للكتابة عليها أقل من الغاب ثمناً وأخف منه وزناً مصنوعة من لحاء الشجر والقنب الهندي والخرق وشباك السمك . وعين الإمبراطور تساي لون هذا في منصب كبير، ومنحه لقباً رفيعاً، ولكنه تورط مع الإمبراطورة في بعض الدسائس ، وافتضح أمره «فذهب إلى منزله، واغتسل ومشط شعره ، ولبس أحسن ثيابه ، وتجرع السم»<sup>(٦)</sup> . وسرعان ما انتشرت الصناعة الجديدة انتشاراً واسع النطاق ؛ وشاهد ذلك أن أقدم ما لدينا من الورق هو ما وجده سير أورل اشتين Sir Aurel Stein في طنف من السور الكبير، وهو مجموعة من الوثائق الرسمية دوتت فيها حوادث وقعت فيما بين عامي ٢١، ١٣٧ بعد الميلاد، وأكبر الظن أنها كانت معاصرة لآخر الحوادث التي دوتت عليها . ولهذا فإن عهدا يرجع إلى حوالي عام ١٥٠ م أي بعد خمسين عاماً لا أكثر من الوقت الذي أبلغ فيه تساي لون الإمبراطور نبأ اختراعه<sup>(٧)</sup> . وكان هذا الورق القديم يصنع من الخرق البالية دون غيرها من المواد ، فهو من هذه الناحية شبيه بما يصنع في هذه الأيام من ورق يحتاج فيه إلى طول البقاء . واستطاع الصينيون أن يرتقوا بصناعة الورق إلى أعلى درجة وذلك باستخدام مادة ماسكة من الغراء أو الجلاتين مخلوطة بمجينة نشوية ليقوا بها الألياف ، ويجعلوا الورق سريع الامتصاص للحبر . ولما أن أخذ العرب عن الصينيين هذه الصناعة في القرن الثامن الميلادي ، ثم أخذتها أوروبا عن العرب في القرن الثالث عشر، كانت قد بلغت غاية الكمال .

وكان اختراع الحبر أيضاً في بلاد الشرق . نعم إن المصريين قد صنعوا الورق

والحبر في المهد الذي نستطيع أن نسميه أقدم العهود ، ولكن الصين هي التي أخذت عنها أوروباً طريقة خلط الحبر بسفاج المصاييح . ولقد كان « الحبر الهندي » صيني الأصل . وكذلك كان الحبر الأحمر المصنوع من كبريتور الزئبق شائع الاستعمال في الصين من أيام أسرة هان . فلما ظهر الحبر الأسود في القرن الرابع الميلادي أصبح استعمال الحبر الأحمر ميزة خاصة بالأباطرة . وكان اختراع الحبر الأسود من العوامل المشجعة على انتشار الطباعة ، لأنه كان أصلح المواد للاستعمال في القوالب الخشبية ، ويمتاز بأن الكتابة به لا تكاد تمحى مطلقاً فلقد وجدت أكداس من الورق في آسية الوسطى ظلت تحت الماء حتى عطنت ولكن ما عليها من الكتابة ظل واضحاً تستطاع قراءته<sup>(٩)</sup> .

وكان استخدام الأختام في مهر الأوراق هو البداية غير المقصودة التي نشأت عنها الطباعة . ولا يزال اللفظ الصيني الذي يطلق على الطباعة هو نفسه الذي يطلق على الخاتم . وكانت الأختام الصينية تطبع في بادئ الأمر على الطين كما كانت تطبع عليه في بلاد الشرق الأدنى ، ثم أخذوا في القرن الخامس الميلادي يندونها بالحبر . وفي هذه الأثناء كانت أمهات الكتب الصينية القديمة تحفر على الحجر في القرن الثاني بعد الميلاد . وسرعان ما نشأت بعدئذ عادة استخراج صور من هذه النقوش المحفورة بعد طلاؤها بالحبر . وفي القرن السادس نجد الدّوين يستعملون أختاماً من الخشب لطبع الرق السحرية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت أخذ المبشرون البوذيون يجرون التجارب بقصد استخراج عدة نسخ مطبوعة باستخدام أختام وألواح وورق نضاح وطباعة على المنسوجات ، وقد أخذوا هذا النوع الأخير عن الهنود . وأقدم ما وصل إلينا من الطباعة على لوح محفور ألف ألف رقية سحرية طبعت في اليابان حوالي عام ٧٧٠ م مكتوبة باللغة السنسكريتية وبحروف صينية ، فهي بذلك مثل طيب لتفاعل الحضارات في بلاد آسية . وطبعت أشياء أخرى كثيرة من القوالب ( الككشيها ) في أيام أسرة تانج ، ولكن يلوح

أنها قد تلفت أو فقدت في أثناء الفوضى والفتنة التي أعقبت عهد منج هوآنج<sup>(١٠)</sup>.  
وحدث في عام ١٩٠٧ أن استطاع سير أورل اشتين أن يقنع السكينة الدويين  
في بلاد التركستان بأن يسمحوا له بفحص « كهوف الألف بوذا » التي في  
تون — هوآنج . فلما تم له ذلك عثر في حجرة منها — يلوح أنها قد سد مدخلها  
حوالي عام ١٠٣٥ ولم تفتح بعدئذ إلا في عام ١٩٠٠ — على ١١٣٠ إضمامة  
من الأوراق تشتمل كل منها على نحو اثني عشر ملفاً مخطوطاً أو أكثر من اثني  
عشر ، تتكون منها كلها مكتبة من خمسة عشر ألف كتاب ، مكتوب على  
الورق ، قد حفظت بعناية فبقيت في حالة جيدة كأنها لم تكتب إلا قبل العثور  
عليها بيوم واحد . وهذه المخطوطات هي التي عثر من بينها على أقدم كتاب  
مطبوع في العالم — كتاب « الحكم الماسية » — وهو ملف يختتم بالعبارة  
الآنية « طبعه في ( اليوم المقابل لليوم ) الحادى عشر من شهر مايو سنة ٨٦٨  
وآنج — چيه ، ليوزع بغير ثمن تخليداً لذكرى والديه وإجلالهما » . ووجدت  
بين هذه المخطوطات ثلاثة كتب أخرى مطبوعة ، يدل واحد منها على تطور  
جديد في شكل الكتب . ذلك أنه لم يكن ملفاً ككتاب « الحكم الماسية »  
ب. كان كتاباً صغيراً مطويًا هو أول ما عرف من هذا النوع من الكتب التي  
لا يحصى عديدها .

وقد كان الباعث الأول على اختراع الطباعة في بلاد الصين باعثاً دينياً ،  
كما كانت الحالة في أوروبا في العصور الوسطى المتأخرة ، وكأى الحال بين بعض الشعوب  
البدائية في الوقت الحاضر . ذلك أن الأديان في ذلك الزمن القديم كانت تسعى  
لنشر عقائدها من طريق العين ومن طريق الأذن معاً ، ولجعل صلواتها ورقاها  
وأفانصيصها في متناول كل إنسان . وتكاد أوراق اللعب تعادل هذه المطبوعات  
الدينية في قدم العهد — فقد ظهرت هذه الأوراق في الصين في عام ٩٦٩ أو قبل  
ذلك العام بقليل ، ثم انتقلت من الصين إلى أوروبا في أواخر القرن الرابع عشر<sup>(١٢)</sup> .



وقد طبعت الكتب الأولى على قوالب خشبية ، وأول ما وصل إلينا من نبأ عن هذا العمل ما ورد في رسالة صينية كتبت حوالي ١٧٠٠ م فقد جاء فيها : « حدث وأنا في سشوان أن فخصت في حانوت وراق كتاباً مدرسياً مطبوعاً عن أصل خشبي »<sup>(١٣)</sup> . ولوح أن فن الطباعة كان قد تقدم تقدماً كبيراً في الوقت الذي عثر فيه على هذا الخطاب . ومن الطريف أن نلاحظ أن هذا التقدم حدث أولاً في الولايات الغربية مثل سشوان والتركستان ، وهي الولايات التي دفعها في تيار المدنية المبشرون البوذيون الذين جاءوا من الهند والذين كانت لهم من عهد بعيد ثقافة خاصة مستقلة عن ثقافة العواصم الشرقية . ثم دخلت طريقة الطبع بالقوالب إلى الولايات الشرقية في أوائل القرن العاشر حين أقنع فننج - دو أحد رؤساء الوزارات الإمبراطور أن يخصص بعض المال لطبع أمهات الكتب الصينية القديمة . وتطلب القيام بهذا العمل عشرين عاماً ، وكان مقدار ما طبع منها مائة وثلاثين مجلداً ، وذلك لأن المطبوع لم يكن مقصوداً على نصوص هذه الكتب بل شمل أيضاً أشهر شروحيها . ولما أن تم طبع هذه الكتب انتشرت في البلاد انتشاراً واسعاً كان سبباً في إحياء المعارف القديمة وتقوية دعائم العقائد الكنفوشية في عهد الملوك من أسرة سونج .

وكان صنع الأوراق النقدية من أقدم ما أخرجته الطباعة بالقوالب . وقد ظهرت هذه الأوراق أولاً في سشوان في القرن العاشر الميلادي ثم أصبحت عملاً هاماً من أعمال الحكومة الصينية ؛ ولم يكده يمضي على اختراعها قرن من الزمان حتى أدت إلى تجارب في التضخم المالي ، واتبعت بلاد الفرس في عام ١٢٩٤ م هذه الطريقة الجديدة من طرق خلق الثروة . وقد وصف ماركو بولو في عام ١٢٩٧ في دهشة بالغة ما يظهره الصينيون من تقدير لهذه اللقصاصات من الورق . أما أوروبا فلم تعرف النقود الورقية إلا في عام ١٦٥٦ حين أصدرت أولى عملتها منها<sup>(١٤)</sup> .

كذلك كانت حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من اختراع الصينيين ، ولكن عدم وجود حروف هجائية محددة محصورة من جهة ، ووجود نحو ٤٠٠٠٠ من العلامات في اللغة الصينية المكتوبة من جهة أخرى ، جعل استعمال هذا الاختراع ترفاً يتعذر الانتفاع به في بلاد الشرق الأقصى . وقد صنع بي شنج حروف الطباعة المنفصلة المتنقلة من الخزف في عام ١٠٤١ م ، ولكن هذا الاختراع لم ينتفع به إلا قليلاً . وفي عام ١٤٠٣ صنع أهل كوريا أول ما عرف في التاريخ من حروف الطباعة المعدنية ؛ وكانت طريقة صنعها أن تحفر الحروف أولاً على الخشب الصلب ، ثم تصنع لهذه النماذج قوالب من عجينة الخزف تجفف في الأفران ، ثم تصب فيها الحروف المعدنية بعدئذ . وسرعان ما استخدم تاي دزويج أعظم أباطرة كوريا هذا الاختراع لتستعين به الحكومة في أعمالها ، وللاحتفاظ بالحضارة القائمة . ومن أقوال هذا المليك المستنير : « من شاء أن يحكم فعليه أن يكون ذا علم واسع بالقوانين والآداب القديمة ؛ ذلك بأنه إذا عرف هذه القوانين والآداب استطاع أن يكون عادلاً مستقيماً في أعماله الخارجية وأمكنه أن يكون بينه وبين نفسه ذا خلق كريم ؛ وبهذا ينشر السلام والنظام في البلاد . وإذا كانت بلادنا الشرقية تقع وراء البحار ، فإن الكتب التي تصلنا من بلاد الصين قليلة العدد ، وكثيراً ما تكون الكتب المطبوعة على اللقوالب ناقصة .

« هذا إلى أنه يتعذر طبع كل ما لدينا من الكتب كاملة . ولهذا أمر أن تصنع الحروف من البرنز ، وأن يطبع كل ما تستطيع يداي أن تصل إليه بلا استثناء حتى ينتقل ما يحتويه هذه الكتب إلى أحفادنا من بعدنا ، وتلك نعمة من أجل النعم التي تعود على البلاد إلى أبد الدهر . على أن نفقات هذا العمل الجليل لن تفرض ضرائب على الشعب ، بل سأحملها أنا وأسرتي ومن يريد أن يسهم فيها من الوزراء »<sup>(١٥)</sup>

وانشرت حروف الطباعة المفردة المنقولة من كوريا إلى اليابان ثم عادت بعدئذ إلى الصين ، ولكن يظهر أنها لم تعد إليها إلا بعد اختراع جوتنبرج Gutenberg الضئيل في أوروبا . واستمر الكوريون يستخدمون حروف الطباعة المنقولة قرنين كاملين ثم عفا عليها الزمان . أما في الصين فإن هذه الحروف لم تكن تستخدم إلا في أوقات متفرقة ، حتى نقل التجار والمبشرون أساليب الطباعة الغربية إلى بلاد الشرق ، كمن يعيد هدية قديمة إلى مهديها . وظل الصينيون من أيام فنج دو إلى أيام لي هوج — چانج مستمسكين بطريق الطباعة على القوالب لأنهم كانوا يرونها أكثر الطرق ملاءمة لقلوبهم . واستطاعت المطابع الصينية رغم هذا القصور أن تغمر الشعب بما لا يحصى من الكتب ، فأصدرت فيما بين عامي ٩٩٤ ، ١٠٦٣ م مئات من المجلدات في تواريخ الأسر الحاكمة ، كما أتمت في عام ٩٧٢ إصدار قوانين الشريعة البوذية في خمسة آلاف مجلد<sup>(١٦)</sup> . ذلك أن الكتاب وجدوا في يدهم سلاحا لم يكن لهم به عهد من قبل ، وكثر عدد من يقرءون كتبهم فلم يعد مقصوراً على أعيان البلاد ، بل شمل الأعيان والطبقة الوسطى على السواء ، وشمل كذلك بعض أفراد الطبقة الدنيا نفسها . واصطنع الأدب بصيغة أكثر ديمقراطية وأكثر تباينا مما كان عليه من قبل . وجملة القول أن فن الطباعة بالقوالب كان من أسباب النهضة العلمية في عهد أسرة سونج . وكان من نتائج هذا الاختراع المجيد أن غمر البلاد فيض من الأدب لم يكن له مثيل من قبل ، وأن عمت البلاد نهضة في الآداب الإنسانية شملت كل ما شملته النهضة في إيطاليا وسبققتها بمائتي عام كاملة . وطبعت من الآثار الأدبية القديمة نحو مائة طبعة ، كما طبعت لها شروح وتعليقات تباغ الألف عددا . وأجاد المؤرخون العلماء دراسة الحياة الصينية في الأيام الخالية ، ووضعوها بين أيدي ملايين القراء مطبوعة بحروف الطباعة الجديدة العجيبة . ونشرت مجموعات كبيرة من الأعمال الأدبية ، ووضعت معاجم لغوية واسعة ، وألفت موسوعات ضخمة

جبارة انتشرت في طول البلاد وعرضها ، وكانت أولى ما صدر من الموسوعات ذات الشأن هي الموسوعة التي أصدرها ووشو (٩٤٧ — ١٠٠٢) ؛ وقد حالت الصعاب الناشئة من عدم وجود حروف هجائية سهلة دون إصدارها مرتبة ترتيباً هجائياً ، فاضطر إلى تقسيمها حسب الموضوعات . وكان أهم ما احتوته من المعلومات ما يتصل منها بالعالم المادى .

وفي عام ٩٧٧ أمر الإاطور تاي دزونج أحد أباطرة أسرة سونج أن تجمع موسوعة أخرى أوسع من الأولى ، بلغت مجلداتها اثنين وثمانين مجلداً ، معظمها مختارات من ١٦٩٠ كتاباً كانت موجودة قبل ذلك الوقت . ثم وضعت موسوعة أخرى فيما بعد في عهد الإمبراطور يونج لو من أباطرة أسرة منج (١٤٠٣ — ١٤٢٥) ، وبلغت مجلداتها عشرة آلاف ، ولكن كثرة النفقات حالت دون طبعها . وحدث في فتنة الملاكين التي قامت في عام ١٩٠٠ أن احترقت النسخة الوحيدة التي أورثها ذلك العهد الأجيال التالية فلم يبق منها إلا مائة وستون مجلداً<sup>(١٧)</sup> . إن التاريخ لم يشهد قبل تلك الأيام عهداً سيطر فيه العلماء على الحضارة كما سيطروا عليها في ذلك العهد .

### ٣ — بعث الفلاسفة

چر - شى - وانج يانج - منج - ما وراء الخير والشر

لم يكن هؤلاء العلماء كلهم من أتباع كنفوشيوس ، ذلك أن مدارس فكرية منافسة لمدرسته قد نشأت في خلال القرون الخمسة عشر الخالية ، وحدثت في الحياة العقلية لهذا الشعب الخصب حركات قوية أثارت لديه أعنف الجدل حول هذه الآراء والآراء المناهضة لها . ولم تقف المبادئ البوذية التي تسربت إلى نفوس الصينيين عند عامة الشعب وطبقاته الوسطى ، بل وصلت إلى الفلاسفة أنفسهم ، فأثر معظمهم الآن طريقة العرلة والتأمل ، وبلغ من بعضهم أن احتقروا

كنفوشيوس لاحتقاره فلسفه ما وراء الطبيعة ، ونبذوا الطريقة التي كان يتبعها في معالجة مشا كل الحياة والعقل ، وعابوا عليها أنها طريقة خارجية فجأة إلى حد كبير . وأضحى طريقة التأمل الذاتي هي الطريقة المستحبة في دراسة الكون والكشف عن خفاياه ، وظهرت لأول مرة نظرية فلسفة المعرفة بين الصينيين ، وصار الأباطرة يتخذون الفلسفة البوذية أو الدويّة وسيلة يتحجبون بها إلى الشعب أو يسيطرون بها عليه ، ولاح في وقت من الأوقات أن سلطان كنفوشيوس على العقلية الصينية قد انقضى عهده إلى غير رجعة .

لكن چوشى أجه من هذا المصير . وكا أن شكرا فد طعم الفلسفة العقلية التي سادت الهند خلال القرن الثامن الميلادى بما كان للأيانيساد أحياناً من فراسة وبعده نظر ؛ وكا أن أكويناس Aquinas في أوربا قد مزج في القرن الثالث عشر مبادئ أرسطو والقديس بولس فأخرج منها الفلسفة الكلامية التي كانت لها الغلبة والسيادة خلال العصور الوسطى ، كذلك فعل حوشى في الصين في القرن الثانى عشر ، إذ أخذ حكم كنفوشيوس المتفرقة غير المتناسكة ، وأقام منها طريقة فلسفية بلغت من النظام حداً أرضى ذوق هذا العصر الذى ساد فيه العلماء ، وبلغت من القوة درجة جعلت أتباع كنفوشيوس يتزعمون الحياة السياسية والعقلية في الصين طوال سبعة قرون

وكان أهم ما نثار حوله الجدل الفاسق في ذلك الوقت معنى فقرة في كتاب العلم العظيم يعزوها كل من چوشى ومعارضيه إلى كنفوسيبوس<sup>(\*)</sup> ، فكان المتجادلون يئسءلون : ما معنى هذا المطلب المجيب القائل بأن نظام الدول يجب أن يقوم على تنظيم أحوال الأسرة ، وأن يقوم تنظيم الأسرة على تهذيب الإنسان لنفسه ، وأن تهذيب النفس يقف على الإخلاص في التفكير ، وأن الإخلاص في

(\*) أوردنا نص هذه الفقرة كاملاً في ص ٥٥

التفكير ينشأ من « انتشار المعرفة إلى أبعد حد » وذلك عن طريق « البحث عن حقائق الأشياء ؟ » .

وكان جواب چوشى عن ذلك أن هذه الفقرة تعنى بالضبط ما يفهم من ألفاظها ؛ تعنى أن الفلسفة والأخلاق وسياسة الحكم يجب أن تبدأ كلها بدراسة الحقائق دراسة متواضعة . وكان يقبل بلا معارضة أو مناقشة النزعة الإيجابية التى انتصف بها عقل المعلم الأكبر ؛ ومع أنه كان يجهد نفسه فى دراسة علم أصول الكائنات الحية دراسة أطول مما كان يرتضيه كنفوشىوس لو أنه كان حيا ، فقد أوصله هذا الدرس إلى أن يمزج الإلحاد بالتقوى مزجاً غريباً لعله كان يعجب حكيم شانتونج . وكان چوشى يعترف بوجود شىء من الاثنينية المتناقضة فى الحقائق الواقعية كما كان يعترف بها كتاب التعبيرات الذى كانت له على الدوام السيطرة على علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين ؛ فهو يرى أن الياح والين — أى الفاعلية والإنفعالية ، أو الحركة والسكون — يمتزجان فى كل مكان امتراج الذكورة والأنوثة ، وبوثران فى العناصر الخمسة الأساسية : الماء والنار والتراب والمعادن والخشب ليوجد منها ظواهر الخلق ؛ وأن اللى والچى — أى الفانون والمادة — وكلاهما عنصر خارجى ، يتعاونان معاً للتحكم فى جميع الأشياء وإكسابها صورها ولكن من فوق هذه الصور شىء يجمعها ويؤلف بينها ، وهو التاي چى — أى الحقيقة المطلقة أو قانون القوانين غير البشرى ، أو بناء العالم . وكان چوشى يقول : إن هذه الحقيقة المطلقة هى التين أو السماء الذى تقول به الكنفوشية الصادقة . وكان يرى أن الله هو عملية عقلية فى السكون منزهة عن الشخصية أو الصور المحسوسة ، وأن « الطبيعة إن هى إلا القانون »<sup>(١٨)</sup>

ويقول چو إن قانون السكون السالف الذكر هو أيضاً قانون الأخلاق والسياسة . فالأخلاق الفاضلة هى الانسجام مع قوانين الطبيعة ، وخير أنواع السياسة هو تطبيق قوانين الأخلاق على أعمال الدولة ، والطبيعة فى كل معاينها

تنتهي إلى الخير، وطبيعة الناس خيرة، واتباع سنن الطبيعة هو سر الحكمة والسلام. « وقد أبى جوامع ماوشو أن يقتلع الأعشاب التي كانت أمام نافذة بيته وقال إن ما يدفعها إلى التمام هو بعينه الذي يدفعني »<sup>(١٩)</sup>. ولربما ظن القارىء من هذه الأقوال أن جوشي كان يرى أن الفرائض هي الأحرى طيبة صالحة وأن على الإنسان أن يطلق لها السنان ولكنه لم ير هذا بل كان يندد بها ويقول إنها هي المظهر الخارجى للمادة « جى » وبطالِب. بإخضاعها لحكم العقل والقانون « لى »<sup>(٢٠)</sup>. وقد يكون فى هذا شيء من التناقض ولكن الإنسان لا يستطيع أن يكون عالماً أخلاقياً ومنطقياً معاً.

لقد كان فى هذه الفلسفة كثير من التناقض، ولكن هذا التناقض رغم كثرته لم يثر ثأرة كبيرة معارضيهما وهو وانج يانج - منج صاحب الشخصية الظريفة الفذة. ذلك أن وانج لم يكن فيلسوفاً حسب بل كان إلى جانب ذلك قديساً تملكته زعة التأمل التي اتصفت بها البوذية المهابانية<sup>(\*)</sup>، وسرت عاداتها إلى أعماق نفسه. وقد بدا له أن غلطة جوشي الأساسية ليست فيما يقوله عن الأخلاق بل فى طريقته، ولقد كان يرى أن البحث عن حقائق الأشياء يجب ألا يبدأ بدراسة العالم الخارجى بل بما هو أعمق من هذا العالم وأكثر منه إظهاراً للحقائق وهو دراسة النفس الداخلية كما يقول المنوود. ذلك أن العلوم الطبيعية فى بلاد العالم كلها إذا اجتمعت لا تستطيع أن تفسر حقيقة غصن خيزران أو حبة أرز، وفى هذا يقول :

قلت لصديق تشين فى السنين الخالية : « إذا كان لا بد للإنسان أن يبحث كل ما تحت قبة السماء لكي يكون حكيماً أو إنساناً فاضلاً، فكيف يستطيع إنسان فى الوقت الحاضر أن يستحوذ على هذه القدرة العظيمة ؟ » ثم أمرت إلى أعواد الخيزران التي أمام خيمتى وطلبت إليه أن يفحص عنها ويرى

(\*) نسبة إلى مهابانا وهى صرت من البوذية . ( المترجم )

نتيجة فحسه . فواصل تشين نهاره بليله يبحث في عناصر الخيزران ، وأضنى عقله وتفكيره بهذا البحث ثلاثة أيام كاملة ، حتى نضب معين جهوده العقلية وسئم العمل . وظننت في بادئ الأمر أن منشأ عجزه أن جهوده وقواه لم تكن كافية لهذا العمل ، فأخذت أنا على عاتق أن أقوم بهذا البحث ، وقضيت فيه ليلي ونهارى ولكنى عجزت عن فهم كنه الخيزران . وبعد أن واصلت العمل سبعة أيام انتابني المرض أنا أيضاً من فرط ما أجهدت نفسي وفكرى ؛ فلما التقينا بعدئذ قال كلانا لصاحبه في حسرة : « إنا لا نستطيع أن نكون حكيمين أو فاضلين » (٢١) .

ومن أجل هذا تخلى وانج يانج — مفتج عن بحث طبيعة الأشياء ، بل تخلى أيضاً عن دراسة أمهات الكتب القديمة ، فقد بدا له أن قراءة الإنسان قلبه وعقله وتأملهما في عزلته يهيئان له من أسباب الحكمة أكثر مما تهيشه له دراسة جميع الكتب والأشياء المادية » (٢٢) . ولما نفي إلى برية جبلية يسكنها أقوام هج وتنتشر فيها الأفاعى السامة اتخذ له من الجرمين الذين فروا إلى هذه الأصقاع أصدقاء وأتباعاً ، وعلمهم الفلسفة وطهى لهم طعامهم وأنشد لهم الأناشيد . وفي ذات مرة ، بينما هو قائم بالحراسة في منتصف الليل ، قفز من كوخه على حين غفلة وصاح قائلاً : « لا شك في أن طبيعتى وحدها كافية . ولقد أخطأت حين أخذت أبحث عن المبادئ في الأشياء المادية وفي شئون الخلق » . ولم يكن رفاقه واثقين من أنهم يدركون ما يرمى إليه ؛ ولكنه لم يلبث أن أرشدهم إلى الغاية المثالية التي كان يرمى إليها فقال : « إن العقل نفسه لينطوى على القانون الطبيعي ، وهل في السكون شيء يوجد مستقلاً عن العقل ؟ وهل ثمة قانون لا صلة له بالعقل ؟ » (٢٣)

ولم يستدل من هذا على أن الله من تصوير الخيال ، بل كان يعتقد أنه قوة أخلاقية غامضة ولكنها قادرة على كل شيء ، وأنها أعظم من أن تكون إنساناً وأنها قادرة على أن تحس بالعطف والغضب على الخلق » (٢٤) .



ومن هذه البداية المثالية وصل إلى المبادئ الأخلاقية التي وصل إليها جوشي والقاتلة إن الطبيعة هي الخير الأسمى ، وإن الفضيلة الكبرى إنما تكون بإطاعة قوانين الطبيعة والعمل بها كاملة<sup>(٢٥)</sup> . ولما قيل له إن في الطبيعة أفاعى كما فيها فلاسفة أجاب إجابة فيها أثر من فلسفة أكويناس واسبينوزا Spinoza ونتشة فقال إن « الخير » و « الشر » إنهما إلا رأيان مبتسران ولغظان تسمى بهما الأشياء حسب ما فيها من نفع أو أذى للفرد أو لبني الإنسان . وكان يعلم أتباعه أن الطبيعة نفسها فوق الخير والشر وأنها لا تعرف ما نطلقه نحن عليها من أسماء مبعثها الأناثية . وقد نقل عنه أحد تلاميذه ، أو لعله وضع من عنده ، حواراً كان في مقدوره أن يعنونه : ما وراء الخير والشر

ثم قال بعد ذلك بقليل : « إن منشأ هذه النظرة إلى الخير والشر في الجسم نفسه وأكبر الظن أنها نظرة خاطئة » . ولم أستطع فهم هذا فقال المعلم : « إن الغرض الذي تهدف إليه السماء من وراء عملية الخلق ليمثل في الأزهار والحشائش، فهل لدينا طريقة نفرق بها بينهما فنقول إن هذه خير وتلك شر ؟ فإن كنت أنت أيها الطالب يسرك أن ترى الأزهار قلت إن الأزهار حسنة والحشائش رديئة ، أما إن كنت ترغب في أن تنتفع بالحشائش فإنك ترى فيها الخير كل الخير ؛ وهذا النوع من الخير أو الشر إنما ينشأ مما هو كامن في عقلك من حب هذا الشيء أو كرهه ، ومن هذا أعرف أنك مخطئ » .

فقلت له : « وفي هذه الحال لا يكون ثمة خير أو شر ، فهل هذا صحيح ؟ » فأجاب المعلم : « إن الاطمئنان الناشئ من سيطرة القانون الطبيعي لهو حالة لا يفرق فيها بين الخير والشر ، على حين أن استثارة الطبيعة العاطفية هي الحالة التي يوجد فيها الخير والشر كلاهما . فإذا لم تثر تلك الطبيعة العاطفية لم يكن ثمة خير أو شر ، وهذا هو الذي يطلق عليه اسم الخير الأسمى ... »

فقات : « وإذن فالخير والشر لا يوجدان قط في الأشياء نفسها ؟ » فقال :  
« إنهما لا يوجدان إلا في عقلك » .

لقد كان من الخير أن يضرب وأنح وأن تضرب البوذية على هذه النعمة ،  
نعمة ما وراء الطبيعة المثالية ، في أبهاء الكنفوشيين الصادقين والمتأقين ؛ ونقول  
المتأقين لأن هؤلاء العلماء كانوا مفتونين بعض الافتتان بحكمتهم ، وأنهم أخحوا  
يؤلفون فيما بينهم ببروقراطية ذهنية متعبة مملّة معادية لكل روح مبدعة معرضة  
للخطأ ، وإن كانت نظرتهم إلى الطبيعة البشرية وإلى الأدوات الحكومية أصدق  
ما تصورته الفلسفة من نظريات ، وأكثرها عدالة . وإذا كان أتباع جوشي قد  
كتب لهم النصر على معارضيتهم في آخر الأمر ، وإذا كانت اللوحة التذكارية  
التي نقش عليها اسمه قد حظيت بشرف وضعها في البهو الذي وضعت فيه لوحة  
المعلم نفسه ( كنفوشوس ) ، وإذا كان شرحه لأهمّات الكتب الصينية قد  
أصبح هو القانون الذي يرجع إليه كل تفكير سليم مدى سبعمائة عام ، إذا كان  
هذا وذلك قد حدث فإن حدوثه كان نصراً مؤزراً للعقلية السليمة البسيطة غير  
المعقدة على التحذائق المزعج الذي كان يعمد إليه أصحاب العقول الميتافيزيقية .  
ولكن الأمة كالفرد قد تفرط في الحساسية ، وقد تكون عاقلة رزينة فوق  
ما يجب ، وقد تسرف في الاستمسك بالحق والصواب إسرافاً لا يطاق . ولقد كان  
انتصار جوشي والكنفوشية هذا الانتصار الكامل من الأسباب التي جعلت  
ثورة الصين ضرورية لا بد منها .

## الفصل الثاني

### البرنز واللآلئ واليشب

منزلة الفن في الصين - المسوحات - الأثاث - الحلى - المراوح - صنع  
الك - قطع حجر اليشب - روائع فنية في البرنز - النحت الصيني

طلب الحكمة والهيام بالجمال هما قطب العقل الصيني ، وفي استطاعتنا أن نعرّف بلاد الصين بأنها بلاد الفاسفة والخزف ، وإن لم يكن هذا التعريف جامعاً مانعاً . وكما أن طلب الحكمة لم يكن معناه في بلاد الصين الجرى وراء أخيلة ميتافيزيقية لا علاقة لها بالحياة ، بل كان فلسفة إيجابية تهدف إلى ترقية الفرد والنظام الاجتماعى ، فكذلك لم يكن عشق الجمال إحساساً به كامناً في النفس أو هواية خيالية للأشكال الفنية التى لا صلة لها بالشئون الإنسانية ، بل كان تزواجاً أرضياً وثيقاً بين الجمال والمنفعة ، وتصميماً عملياً لتزيين موضوعات الحياة اليومية وأدواتها .

ومن أجل ذلك ظلت الصين ، إلى الوقت الذى أخذت فيه تُنصع مثلها العليا لتأثير الغرب ، تأبى أن تعترف بوحود فرق ما بين الفنان والصانع أو بين هذا وبين العامل العادى . ولقد كانت الصناعات كلها إلا القليل منها من عمل الأيدى البشرية ، وكان كل ما عمله الأيدى منها حِرَافاً متقنة ؛ وكانت الصناعة كما كان الفن تعبيراً عن شخصية الصانع بالشىء المصنوع ، ولذلك بزت الصين كل ما عداها من البلاد فى الذوق الفنى وفى كثرة ما لديها من الأدوات الجميلة التى تستخدمها فى حياتها اليومية ، وإن لم تمد أهلها عن طريق الصناعات الكبيرة بالسلع التى تنعم بها كثرة الناس فى البلاد الغربية . فقد كان الصينى المتوسط الثراء يتطلب أن يكون كل ما يحيط به ، من الحروف التى يكتب بها إلى

الصحاف التي يأكل فيها ، مما يشبع حاسة الجمال ، وأن يدل بشكله وصنعه على الحضارة الفاضحة الذي هو رمز لها وقطعة منها .

وباعت هذه الحركة التي ترمي إلى تجميل الجسم والمعبد والمسكن غايتها في عهد أسرة سويج . لقد كانت هذه الحركة عنصراً أمن عناصر الحياة في عصر أسرة تانج ، وكان من شأنها أن تستمر وتنتشر في عهد الأسر التي أعقبها ؛ ولكن عهد



شكل ١ - عتبة العلى من الك الأزرق

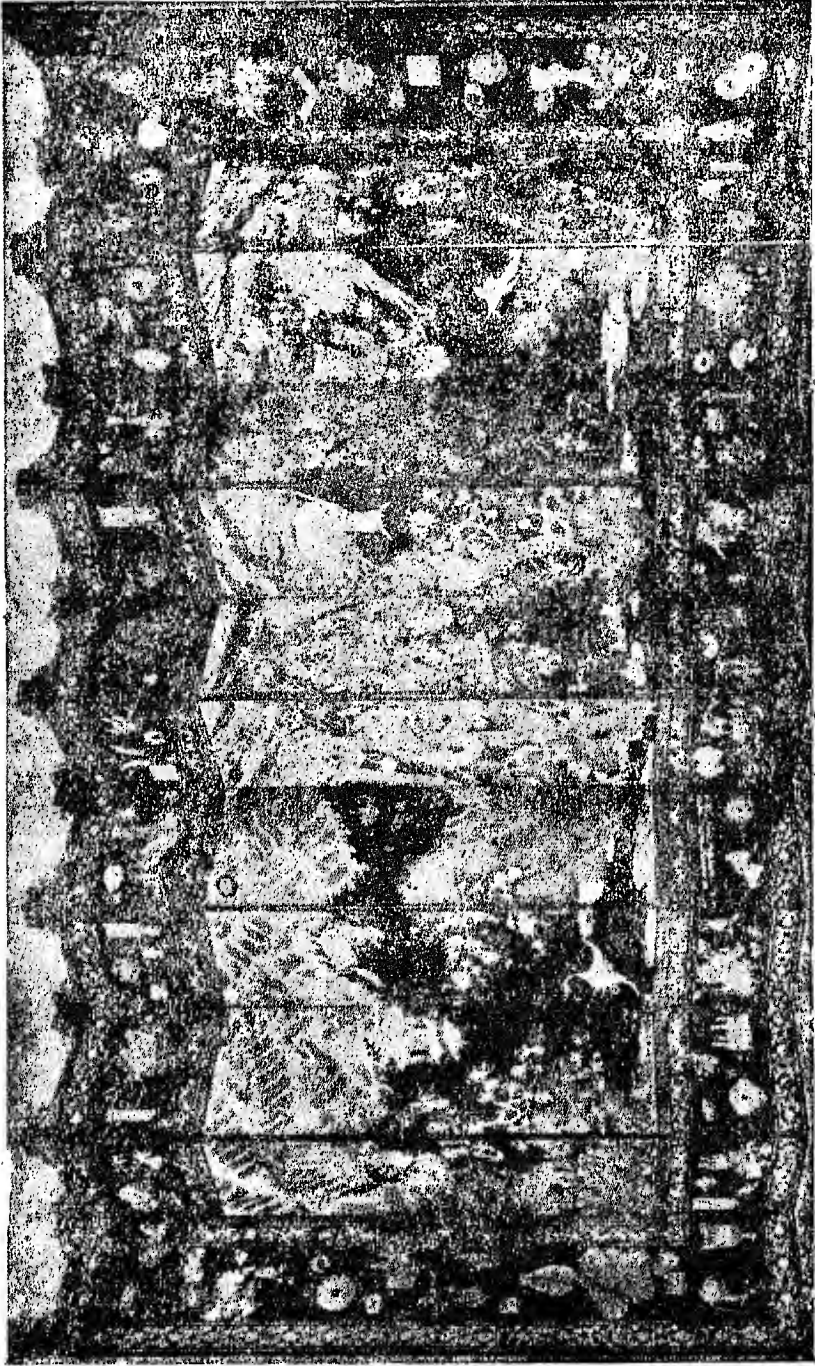
الفضام والرخاء الطويل الذي عم البلاد بعد تلك الأسرة قد أمد الفنون كلها بحاجتها من الغذاء ، وخلع على الحياة الصينية جمالا وزينة لم تستمتع بمثلها من قبل . وقد بلغ الصناع الصينيون في صناعة النسيج والمعادن في عهد أسرة سونج وما بعدها درجة من الإتقان والكمال لم يفقههم فيها أحد قبلهم ، وبزوا جميع منافسيهم في كافة أنحاء العالم في قطع اليشب وغيره من الأحجار الصلبة ، ولم يتفوق عليهم في نحت الخشب والنقش على العاج إلا من أخذوا عنهم هذه الصناعة من اليابانيين<sup>(٢٧)</sup> . لقد كان أثاث المنازل يصنع على أشكال متعددة مختلفة ، فذة في صورتها ولكنها غير صريحة لصاحبها ؛ وكان صناع الأثاث ، الذين تكفيهم صحفة من الأرز يوما كاملا ، يخرجون منه تحفة فنية صغيرة إثر تحفة . وكان الفنان ذو اليد الصناع الذي يخرج هذه الروائع الفنية الدقيقة يزين بها داره يتخذها بديلا من الأثاث الغالي الثمن ومن أسباب المتعة المنزلية ، وكانت تبعث في نفس مالكها بهجة لا يدركها في بلاد الغرب إلا الخبراء الإخصائيون .

أما الحلى فلم تكن موفورة العدد ولكنها كانت بدبعة القطع ، وكان الرجال والنساء يردون وجوههم بمراوح مزخرفة من الريش والخيزران ، أو الورق أو الحرير الملون ، بل إن المتسولين أنفسهم لم تكن تنقصهم المراوح الجميلة وهم يمارسون حرقهم التليدة .

وشأ فن الطلاء بالللك في الصين ، وبلغ ذروة الكمال في اليابان . والللك في بلاد الشرق الأقصى نتاج طبيعي لشجرة<sup>(\*)</sup> أصلها من أشجار الصين ، ولكنها الآن تزرع بكثرة في بلاد اليابان ، ويؤخذ عصيرها من جذعها وغصونها ، ثم

---

(\*) اسمها العلمي *Rias Vernicifere* . والللك مشتقة من الأصل الفرنسي لكرو ومعناه اللقى ، والكلمة الفرنسية نفسها مشتقة من الكلمة اللاتينية *Lac* ومعناها اللين . والللى التي اخترناها لترجمة كلمة *Resin* الإنجليزية معناها كما ورد في القاموس : « شئ يسقط من شجر السمير وما رق من العلوك حتى يسيل » . ( المترجم )



شكل ٢ - سمار كانج ثمى المثل بالک

يصفي ويغلي ليزول منه ما لا حاجة لهم به من السوائل ، ويطلق به الخشب الرقيق كما يطلق به المعدن والخزف في بعض الأحيان ، ثم يجفف بتعريضه للرطوبة<sup>(٢٨)</sup> . ويتكوّن الطلاء من طبقات تتراوح بين عشرين وثلاثين طبقة يبدل في تجفيف كل واحدة منها وصقلها جهد عظيم وعناية بالغة ، وتختلف كل طبقة عن غيرها في لونها وسمكها . وينقش الصينيون بمدنّد هذه الطبقات بعد تمامها بألة حادة على شكل (٧) بحيث يصل كل حز إلى الطبقة ذات اللون الذي يتطلبه الشكل المطلوب .

وقد نما هذا الفن على مهل وبدأ في صورة كتابة على شرائح من الخيزران ؛ وكانت مادة اللك تستخدم في عهد أسرة چو لتزيين الأواني والسروج والعربات وما إليها . ثم استخدم في القرن الثاني بعد الميلاد لطلاء الأبنية والآلات الموسيقية ؛ وفي عهد أسرة تانج أصدرت الصين كثيراً من الأدوات المطلية باللك إلى اليابان . ولما تولت الملك أسرة تانج كانت كل فروع صناعة اللك قد ازدهرت وتحددت أشكالها ، وكانت ترسل منتجاتها بجزاً إلى الثغور النائية كثغور الهند وبلاد العرب . ولما ولي الملك أباطرة أسرة منج خطأ الفن خطوة أخرى في طريق السكال ، وبلغ في بعض نواحيه ذروته<sup>(٢٩)</sup> . فلما جاس على العرش الإمبراطوران المستنيران كانج - شى ، وتشين لونج من أباطرة المانشو صدرت الأوامر الإمبراطورية بتشييد المصانع والإنفاق عليها من مال الدولة ، فأخرجت من روائع الفن أمثال عرش تشين لونج<sup>(٣٠)</sup> والستر الذي أهدها كانج - شى إلى ليو پولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية<sup>(٣١)</sup> . واحتفظ هذا الفن بتلك الدرجة الرفيعة حتى القرن التاسع عشر ، فكانت الحرب التي أوقد نارها النجار الأوروبيون وما للمستوردين والعملاء الأوربيين من أدواق منحطة كانت هذه وتلك سبباً في حبس معونة الأباطرة عنه فتدهور مستواه واحطت رسومه ، وانتقلت زعامته إلى اليابان .

أما صناعة اليشب فهي قديمة قدم التاريخ الصيني نفسه ، وشاهد ذلك أن آثارها وجدت في أقدم القبور . وتعزو أقدم السجلات أول استخدامه « حجر سمع » إلى عام ٢٥٠٠ ق . م وذلك أن حجر اليشب كان يقطع على صورة سمكة أو نحوها تعلق في إيسار ؛ فإذا ما أجيد قطع الحجر وتعليقه خرجت منه أنغام موسيقية واضحة جميلة تدوم مدى مدهشاً في طوله . والاسم الإنجليزي لهذا الحجر Jade مشتق من اللفظ الأسباني Ijada ( المأخوذ عن اللفظ اللاتيني Illia ) عن طريق اللفظ الفرنسي Jade ومعناه الحقو . ولما فتح الأسبان أمريكا وجد الفاتحون أهل المكسيك الأفديمين يأتون بهذا الحجر مسحوقاً ومعجوناً بالماء ليعالجوا به كثيراً من الأمراض الباطنية ، فلما عادوا إلى أوروبا حملوا معهم هذا العلاج هو والذهب الأمريكى إلى بلادهم . أما الاسم الصينى لهذا الحجر فهو أليق به من الاسم الأوروبى وأكثر مطابقة للمعقول . فلفظ جون الذى يطلق عليه معناه لين كاندنا<sup>(٢٢)</sup> ، ويتركب حجر اليشب من معدنى الجاديت والتفريت ، والأول يتكون من سليكات الألومنيوم والصدوديوم ويتكون الثانى من الكلسيوم والمغنيزيوم . وكلا المعدنين صلب قاس يحتاج تهشيم البوصة المكعبة منه إلى ضغط خمسين طنّاً فى بعض الأحيان وتكسر القطع الكبيرة منه عادة بتعريضها إلى الحرارة الشديدة ثم إلى الماء البارد على التعاقب .

وفى وسع الإنسان أن يدرك حذق الفنان الصينى من قدرته على إظهار ألوان براقه خضراء وسمراء وسوداء وبيضاء من هذا الحجر العديم اللون بطبيعته ، ومن صبره الطويل ومثابره ، حتى يخرج منه أشكالاً مختلفة لا عداد لها ، حتى لا يكاد الإنسان يجد بين مجموعات اليشب التى فى العالم كله قطعتين متماثلتين ، اللهم إلا أزرار الملابس .

وكان أول ما عثر عليه من مصنوعات يشبية فى عهد أسرة شانج فى صورة ضفدعة تستخدم قرباناً مقدساً<sup>(٢٣)</sup> ، وصنعت منه أدوات غاية فى الجمال فى أيام



كفوشيسوس<sup>(٣٤)</sup> . وبينما كان الناس في غير الصين يتخذون من اليشب فؤوساً ، ومدى وأوانى ، فإن الصينيين كانوا يعظمون هذا الحجر تعظيماً حملهم على ألا يستخدموه إلا في التحف الفنية الجميلة ، إذا استثنينا بعض القطع النادرة القليلة العدد . وكان عندهم أئمن من الفضة والذهب والحلى على اختلاف أنواعها<sup>(٣٥)</sup> . وكانوا يقدرون بعض مصنوعات اليشب الصغيرة كحواتم الإبهام التي يتجلى بها كبار الحكام الصينيين بما يقرب من خمسة آلاف ريال ، ويقدرون بعض القلائد اليشبية بمائة ألف ريال . وكان المعنيون بمجمع القطع النادرة منه يقصون السنين الطوال في البحث عن قطعة واحدة ، ويقال إن ما يوجد في الصين من التحف اليشبية إذا جمعت في مكان واحد تكونت منها مجموعة لا تماثلها مجموعة من أية تحف صنعت من مادة أخرى في جميع أنحاء العالم<sup>(٣٦)</sup> .

ولا يكاد البرنز يقل قدماً عن اليشب في الفن الصيني ، وهو يفوقه مقاماً وتقديراً عند الصينيين . وتروى الأفاصيص الصينية أن الإمبراطور يو ، أحد أباطرة الصين الأقدمين وبطل الطوفان الصيني ، تلقى المعادن التي بعثت بها إليه الولايات التسع الخاضعة لحكمه ، وهي الخراج المفروض عليها ، ثم صبها كلها وصنع منها ثلاثة فدور لكل منها تسع أرسل ، لها من القوة السحرية ما تستطيع به أن تدفع المؤثرات البغيضة ، وتجعل ما يوضع فيها من المواد يغلي بغير نار ، ويخرج منها كل ما لذ وطاب من الطعام والشراب .

ثم أصبحت هذه القدور الرمز المقدس للسلطة الإمبراطورية . وتوارثتها الأسر واحدة بعد واحدة ، فكانت كل منها تتلقاها بعناية فائقة من التي قبلها ، ولكنها اختفت بطريقة مجهولة عامضة بعد سقوط أسرة جيو ، وهي حادثة كان لها أسوأ الأثر في مزلة شى هوانج — دى . ثم أصبح صب البرونز ونقشه فناً من الفنون الجميلة الصينية ، وأخرجت منه البلاد مجموعات نطلب حصر أسمائها وتصنيفها اثنين وأربعين مجلداً<sup>(٣٧)</sup> . وكان يصنع منه أوانى للحفلات الدينية التي

تقييمها الحكومة أو يقيّمها الأفراد في منازلهم ، وقد أحال آلافاً من أنواع الأواني المنزلية إلى تحف فنية . وليس في العالم كله ما يضاهي مصنوعات الصين البرنزية إلا ما صنع منه في إيطاليا في عهد النهضة الأوروبية ، ولعلها لا يضاهيها من هذه المصنوعات إلا « أبواب الجنة » التي وضع تصميمها غبرتي Ghiberti ليزين بها موضع التعميد في فلورنس .

وأقدم ما لدينا من القطع البرنزية الصينية أواني قربانية كشفت حديثاً في هونان ؛ ويرجعها العلماء الصينيون إلى عهد أسرة شانج<sup>٣٨</sup>، ولكن الخبراء الأوروبيين يرجعونها إلى عهد متأخر عن ذلك الوقت وإن كانوا لا يحددونه تحديداً مضبوطاً . وأقدم الآثار المعروفة تاريخياً هي التي ترجع إلى عهد أسرة چو ومن أروعها كلها مجموعة آنية الحفلات المحفوظة في المتحف الفنى بنيويورك . وقد استولى شي هوانج — دى على معظم ما كان لدى أسرة چو من آنية برنزية لثلاث بصرها الأهلون ليتخذوا منها أسلحة . وصنع مما تجمع له من هذا المعدن اثني عشر تمثالا ضخماً يبلغ ارتفاع كل منها خمسين قدماً<sup>(٣٨)</sup>، ولكن هذه التماثيل كلها لم تبق منها قدم واحدة . وقد صنعت في عهد أسرة هان كثير من الآنية الجميلة طعمت أحياناً بالذهب .

وليس أدل على رقى هذا الفن في الصين من أن الفنانين الذين درّبوا في تلك البلاد هم الذين صنعوا عدداً من التحف التي تعد من روائع الفن ، والتي زين بها هيكل هريو چى في مدينة نارا اليابانية . وأجملها كلها ثلاثة تماثيل لأميذا — بوذا تصورها جالسة على أسرة في صوره رهرة الأزورد<sup>(٣٩)</sup>؛ وهي أجمل ما وجد من التحف في تاريخ صناعة البرنز في العالم أجمع<sup>(\*)</sup> ووصل فن البرنز إلى ذروة مجده أيام أسرة سونج ، وإذا كانت التحف التي صنعت منه لم ترق إلى ذروة السكّال فإنها قد بلغت الغاية في كثرة عددها وتباين أشكالها ؛ فقد صنعت منه قدور

(\*) انظر الفصل السابع من الباب الثلاثين في تاريخ اليابان .

ودنان خمر ، وآنية ، ومباخر ، وأسلحة ، ومرايا ، ونواقيس ، وطبول



شكل ٣ تمثال من البرنز لحوان - ين من عصر سوي  
محفوطة في متحف نيويورك

ومزهريات ؛ وكانت الآنية المنقوشة ولتماثيل الصغيرة تملأ الرفوف في دور خبراء الفن وهواته ، وتجد لها مكانا في كل بيت من بيوت الصينيين .  
ومن أجل النماذج الباقية من أيام أسرة سونج مبخرة في صورة جاموس البحر ، وقد ركب عليها لو -- دزه وهو هادى مطمئن لينبت بهذا قدرة الفلسفة على إخضاع الوحوش الكاسرة<sup>(٤٠)</sup> ، ولا يذئد سُمك جدران المبخرة على سُمك الورق ، وقد اكتسبت على مر الزمان قسرة أو طبة خضراء مبرقشة خلعت عليها جمال القدم<sup>(\*)</sup> ، ثم انحط هذا الفن انحطاطاً تدريجياً بطيئاً في عهد أسرة منج ، فزاد حجم التحف وقَلَّت جودتها ، وأصبح البرنز ، الذي كان مقصوراً على صنع آيات الفن في عهد الإمبراطور يو ، فذاً عاماً تصنع منه الآنية العادية التي تستخدم في الأغراض اليومية ، وتحلى عن مكانته الأولى للخزف .

ولم يكن النحت من الفنون الكبرى ، ولا من الفنون الجميلة ، عند الصينيين<sup>(٤١)</sup> . وسبب هذا أن تواضع الشرق الأقصى قد أوى عليه أن يتخذ الجسم البشري نموذجاً من نماذج الجمال . ولهذا فإن الذين اتخذوا صناعة التماثيل البشرية حرفة لهم وحبوا قليلاً من عنايتهم إلى تمثيل ما على الأجسام من ملابس ، واستخدموا تماثيل الرجال — وقلموا استخدموا تماثيل النساء — لدراسة بعض أنواع الإحساسات أو لتصويرها ؛ ولكنهم لم يجدوا الأجسام البشرية . ومن أجل ذلك تراهم في الغالب قد قصروا تصوير الأناسى على تماثيل القديسين البوذيين والحكام الدويين ، وأغفلوا تصوير الرياضيين والسراى ممن كانوا وكن مصدر الإلهام للفنانين من اليونان .

---

(\*) الكلمة الإنجليزية Patina أى القشرة مشتقة من كلمة لاتينية معناها طاق وتستعمل للدلالة على الطبقة التي تتكون من انحلال السطح المعدنى المتعرض لرطوبة الجو . ومن عادة هذه الأيام أن يكون من عوامل تآير قسمة التحف البرنزية ما يعشاها من طبقة خضراء أو سرداء تكونت عليها من مر الزمان ، أو من الأحماض التي تستخدم في تقليد الروائع الفنية القديمة .

وكان المثالون الصينيون يفصلون تمثيل الحيوانات على تمثيل الفلاسفة والحكماء أنفسهم .

وأقدم ما نعرفه من التماثيل الصينية التماثيل الإثنا عشر الضخمة المصنوعة من البرنز ، والتي أقامها شي هوانج — دى . وقد صهرها فيما بعد أحد الحكام من أسرة هان ليتخذ منها « فكة »<sup>(\*)</sup> برنزية . وبقى من أيام أسرة هان عدد قليل من التماثيل البرنزية ، ولكن كل ما صنع منها في ذلك العهد إلا قلة ضئيلة قضت عليه الحرب أو قضى عليه الإهمال الطويل الأمد . والتماثيل البشرية قايلة أيضاً في هذه القلة الباقية ، والأثر الهام الوحيد الباقي من أيام أسرة هان نقش بارز من نقوش القبور ، عتر عايه في شانتونج . وصور الآدميين قليلة نادرة في هذا النقش أيضاً ، وأهم ما يشغل رفقته صور حيوانات بارزة رقيقة . وأقرب من هذا النقش إلى صناعة النحت التماثيل الجنازية الصغيرة المتخذة من الصلصال — وأكثرها يمثل حيوانات ومنها قلة تمثل حدمًا أو زوجات — وكانت تدفن مع لموتى من الذكور عوضاً عن الأزواج والخدم الأحياء . وقد بقيت من هذا العهد تماثيل مستقلة لحيوانات منها تمثل رخامى لتمر كله عضلات يمثل اليقظة أدق تمثيل ، وكان يتولى حراسة معبد اسنيانج — فو<sup>(٤٢)</sup> ؛ ومنها الدببة المزججة التي تشتمل عليها الآن مجموعة جاردنر Gardner في مدينة بسطن Boston ، ومنها الآساد المنحثة المصابة بتضخم الغدة الدرقية والتي وجدت في مقابر ناكينج<sup>(٤٣)</sup> . وكل هذه الحيوانات والخيول المزهوة الممثلة في نقوش القصور البارزة السالفة الذكر تشهد بما كان للفن اليونانى البكتري والفن الأشورى والسكودى من أثر في الفن الصينى ؛ وليس فيها شيء من مميزات الفن الصينى الخالص<sup>(٤٤)</sup> .

وفي هذه الأثناء كانت الصين قد بدأت تتأثر بشيء آخر هو أثر الدين

---

(\*) لم نر في هذه اللغة ما يمنعنا من استعمال هذا اللفظ بمعناه المعروف بانفك والإفكاك هو الفصل والتفكك عدم التماسك (المترجم)

والفن البوذيين ، وقد استوطن هذا الفن البوذي في أول الأمر التركستان ، وأقام فيها صرح حضارة كشف اشتين Stein وپليوت Pelliot في أنقاضها عن أطنان كثيرة من التماثيل المحطمة يضارع بعضها أكثر ما أخرجته الفن الهندي البوذي . واستعمار الصينيون هذه الأشكال البوذية من غير تغيير كبير فيها ، وأخرجوا على غرارها تماثيل لبوذا تضارع في جمالها ما صنع في جندارا أو في الهند . وأقدم هذه التماثيل ما وضع في معابد يون كان الكهفية في شانسي (حوالي ٤٩٠ م) ، ومن أحسنها تماثيل مغارات لونج من هونان ، فقد أقيمت في خارج هذه المغارات عدة تماثيل ضخمة أعجبها كلها تماثيل بوذستوا الجميل ، وأروعها بوذا « فيروشانان » (حوالي ٦٧٤ م) الذي تحطم جزء منه عند قاعدته ، ولكنه لا يزال محتفظا بروعته الموحية الملهمة<sup>(٤٦)</sup> . وإلى شرق هذا الإقليم في شانتونج وجد كثير من معابد الكهوف نقشت على جدرانها أساطير على الطريقة الهندية يظهر في أماكن متفرقة منها تماثيل قوى ابوذستوا شبيهة بالتمثال الذي في كهف يون من ، (ويرجع تاريخه إلى حوالي عام ٦٠٠ م)<sup>(٤٧)</sup> . واحتفظت أسرة تانج بالتقاليد البوذية في النحت ، وقد بلغ درجة الكمال في تماثيل بوذا الجالس (حوالي ٦٣٩ م) الذي عثر عليه في ولاية شينسي Shensi<sup>(\*)</sup>(٤٨) . وأخرجت الأسر التي جاءت من بعدها تماثيل ضخمة من الصلصال تمثل أتباعاً لبوذا الظريف لهم وجوه كالحة كوجوه رجال المال<sup>(\*\*)</sup> ، كما أخرجت عدداً من التماثيل الجميلة تمثل كوان — بن إله مهايانا وهو يوشك أن يتحول من إله إلى إلهه<sup>(٤٩)</sup> .

وفقد فن النحت إلهامه الديني بعد أسرة تانج ، واصطعب بصيغة دنيوية تنحط أحياناً إلى صبغة شهوانية ، حتى شكوا رجال الأخلاق في ذلك لوقت ، كما شكوا رجال الأخلاق في إيطاليا في عصر النهضة ، من أن الفنانين ينحطون

(\*) هي صر ولاية شانسي المعروفة

(\*\*) في المتحف الفنني بنيويورك بمدح من هذا الطراز .

للقديسين تماثيل لا تقل رشاقة ورقة عن تماثيل النساء ، فوضع الكهنة البوذيين قواعد للتصوير تحرم تحديد شخصية صاحب الصورة أو إبراز معالم الجسم .  
ولربما كانت النزعة الأخلاقية القوية عند الصينيين هي التي عاقت تقدم فن النحت . ذلك أنه لما أن فقد الدافع الديني أثره المحرك للقوى في الفن ، ولم يسمح لجاذبية الجمال الجثماني بأن يكون لها شأن فيه ، اضمحل فن النحت في بلاد الصين ، وقضى الهدين على ما لم يعد في مقدوره أن يكون له ملامحاً . وما أن اقترب عهد أسرة تانج من نهايته حتى أخذ الابتكار في فن النحت ينضب معينه . وليس لدينا من القطع الفنية الممتازة التي أخرجتها أسرة سونج إلا عدد قليل ؛ أما المغول فقد خصوا الحرب بجهودهم ؛ وأما أباطرة المنج فقد نبغ في عهدهم بعض المثاليين الذين أخرجوا تماثيل غريبة وأخرى ضخمة من الحجارة كالمولات التي تقف أمام مقابر أباطرة المنج . فلما ضيق الدين الخلفاء على فن النحت لفظ أنفاسه الأخيرة ، وأخل ميدان الفن الصيني للخزف والنقش .

## الفصل الثالث

### المعابد (البيجودا) والقصور

المهارة الصينية - برج نانكج الحزفي - بيجودا بيججج البيشي - هيكل  
\* كنفوشيوس - هيكل السماء ومدحه - قصور كويلاي خان -  
دنت صيو، - داخل البيت - لونه وشكله .

كذلك كانت المهارة من الفنون الصفري في بلاد الصين ، ولم يكد يترك من كان فيها من البنائين العظام أثراً لهم يخلد ذكراهم ؛ ويلوح أن الشعب لم يكن يجلبهم لإجلاله صناع الخزف الكبار . والمأثر الضخمة نادرة في بلاد الصين حتى ما شيد منها تكريراً للآلهة ، وقلما نجد فيها مباني قديمة ، وليس فيها إلا القليل من المعابد التي يرجع عهدها إلى ما قبل القرن السادس عشر .

وقد أصدر مهندسو أسرة سونج في عام ١١٠٣ م ثمانية مجلدات موضحة بالرسوم الجميلة في شرح أساليب العمارة ؛ ولكن الآيات الفنية التي صوروها كانت كلها من الخشب ولم تبق منها قطعة واحدة إلى اليوم . ويستدل من الرسوم المحفوظة في المتحف الأهلي في باريس ، والتي يقال إنها تمثل المساكن والمياكل في أيام كنفوشيوس ، على أن فن العمارة الصينية قد قنع في خلال تاريخه الطويل الذي دام ثلاثة وعشرين قرناً بما كان عليه في تلك الأيام الخالية من أشكال وأحجام متواضعة (٥٠) .

ولعل إحساس الصينيين المرهف في مسائل الفن والذوق هو الذي حدا بهم إلى نبذ ما عساه أن يبدو من المأثر خالياً من الاحتشام مفرطاً في الضخامة ، أو لعل تفوقهم في الذكاء قد حد بعض الشيء من مدى خيالهم . ومهما يكن سبب هذا القصور فإن فن العمارة الصينية قد أضر به كثيراً انعدام ثلاث قوى



لم يخل منها تاريخ أمة عظيمة من الأمم القديمة ، وتلك هي الأرسقراطية الوراثةية وطبقة الكهنة القوية<sup>(٥١)</sup> والحكومة المركزية الكثيرة المال العظيمة السلطان<sup>(٥١)</sup> ذلك أن هذه القوى هي التي كانت في الأيام الخالية تبدل المال بسخاء لتشجيع الأعمال الفنية العظيمة ، من هياكل وقصور ومسارح ومظلمات ومقابر منحوتة في الصخور . ولقد انفردت الصين من بين الأمم القديمة بأنها لم تبطل بهذه الفظم الثلاثة .

غير أن العقيدة البوذية قد استحوذت وقتاً ما على روح الصينيين وعلى ما يكفي من ثروة البلاد لإقامة الهياكل العظيمة التي كشفت بقاياها أخيراً في التركستان<sup>(٥٢)</sup> . ولا تزال بعض الهياكل البوذية المتوسطة العظمة والفخامة باقية في أنحاء كثيرة من بلاد الصين ، ولكنها لم تسم إلى ما سمت إليه العمار الدينية في بلاد الهند . ويصل الإنسان إلى هذه الهياكل بممرات طبيعية جميلة المنظر صاعدة بالتواء فوق منحدرات ذات أبواب منقوشة يسمونها البايلو ، ولعلها مأخوذة عن درزين الأضرحة البوذية الهندية .

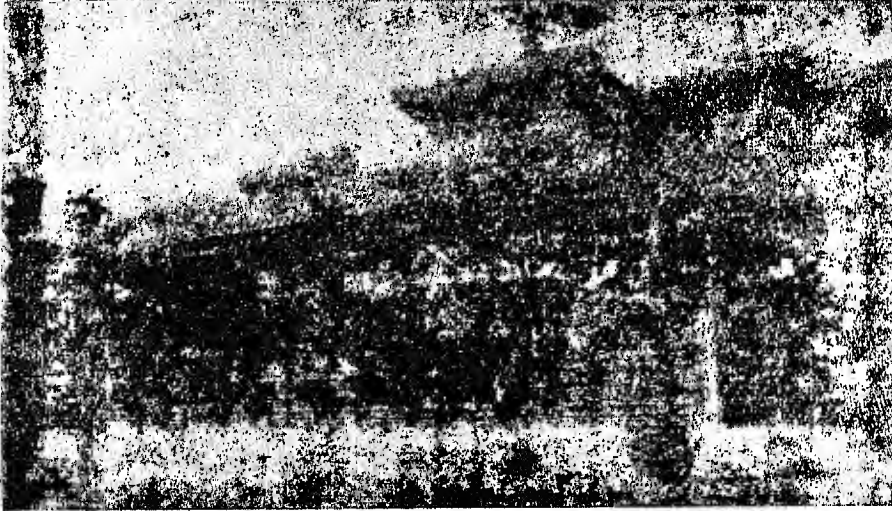
وتحرس مداخل هذه الهياكل في بعض الأحيان تماثيل بشعة وضعت لتخيف الشياطين الأجنبية فتبعدها عنها بطريقة ما . ومن أجل الأضرحة البوذية الصينية كلها هيكل بوذا النائم بالقرب من القصر الصيفي المشيد خارج بيجننج . ويرى فرجسون Fergusson أنه « أجل ما أخرجه فن العمارة في بلاد الصين »<sup>(٥٣)</sup> .

غير أكثر ما يميز الشرق الأقصى في فن العمارة عن سائر الأقطار هو الهياكل (الپجودات) التي تشرف على جميع المدن الصينية تقريباً<sup>(٥٤)</sup> . وقد

---

(\*) ولا يزال أصل هذه القصور ومنشأ اسمها الصيني « الپجودات » مثاراً للبحث والجدل العنيد . وقد يكون هذا الاسم مشتقاً من اللفظ الهندي العارسي بت - كده أي « بت الأصنام » ، وقد يكون شكلها صني المنشأ كما بظن بعض المؤرخين ، أو قد يكون مشتقاً من السُّرَج الذي كان يشرف على بعض الأضرحة الهندوكية<sup>(٥٥)</sup> .

اصطبغت هذه الصروح الجميلة ، كما اصطبغت العقائد البوذية التي ألهمت من شادوها ، ببعض الخرافات الدويّة التي كانت منتشرة في البلاد ، فكانت من أجل ذلك مراكز للاحتفالات الدينية وللتنبؤ بالغيب عن طريق دراسة الشقوق والعروق الأرضية . وكانت الجماعات المختلفة تشيد هذه الهياكل لاعتقادها أنها تقي الناس غوائل الأعاصير والفيضانات ، وتسترضى الأرواح الشريرة ، وتجذب الرخاء وورغد العيش . وكانت تتخذ عادة شكل أبراج ذات ثمانية أضلاع تشاد من الآجر وترتفع فوق قواعد من الحجارة خمس طبقات أو سبعماً أو تسعاً لأن الأعداد الزوجية في اعتقادهم أعداد مشئومة<sup>(٥٦)</sup> . وأقدم البجودات التي لا تزال قائمة حتى الآن البجودة القائمة في سونج إيو - سو ، والتي شيدت في عام ٥٢٣م على جبل سونج شان المقدس في هونان . ومن أجملها البجودة الصينية ، وأروعها منظرأً بجودة اليشب في بيجننج و « بجودة المزادة » في وو-واي-شان ، وأوسعها شهرة برج الخزف في نانكنج ( نانچنج ) وقد شيد في ١٤١٢-١٤٣١ ، ويمتاز بطبقة من الخزف فوق جدرانه المقامة من الآجر . وقد دمر هذا البرج في ثورة تايينج التي استمرت في عام ١٨٥٤ .



شكل ٤ - القصر الصيني في بيجننج

وأجل الهياكل الصينية هي التي كانت مخصصة للديانة الرسمية في بينجنج (بينجنج). ومن هذه الهياكل هيكل كنفوشيووس، ويحرسه باي-لو، نغم محفور أجل حفر، ولكن الهيكل نفسه يخلد الفلسفة أكثر مما يخلد الفن. وقد شيد في القرن الثالث عشر الميلادي ثم أدخلت عليه عدة تعديلات وأعيد بناء بعض أجزائه عدة مرات. وقد وضمت « لوحة روح أقدس القديسين المعلم والألب كنفوشيرس »، على قاعدة خشبية في مشكاة مفتوحة في الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسي: « إلى المعلم الأعظم والمثال الذي تحتذيه عشرة آلاف جيل ». ويقوم بالقرب من سور بينجنج التتاري الجنوبي هيكل



شكل هـ - هيكل السماء في بينجنج

السماء ومذبح السماء . والمذبح مكوّن من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامية التي كان لعددتها الكبير ونظامها أثر سحري في نفوس الزائرين . والهيكل نفسه بوجوده معدلة من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشيدة من الآجر والقرميد الخالين من الرونق . وكان الإمبراطور في الأيام الخالية يأتي إلى هذا المكان في الساعة الثالثة من صباح يوم رأس السنة الصينية للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفيق والفلاح ولشعبه بالرخاء ، ويقرب القران للسماء التي يرحو أن تكون في صفه لا في صف أعدائه ، ولم تكن السماء ذكرا أو أنثى عند الصينيين بل كانت جمادا . وقد نزلت صاعقة من السماء على هذا المعبد في عام ١٨٨٩ فأصابته بضرر بليغ<sup>(٥٧)</sup> .

وأجمل من هذه الأضرحة الخالية من الرونق والبهاء ، وأكثر منها جاذبية ، القصور المنة الضعيفة البناء التي كانت مساكن للأسماء وكبار الحكام في بيچنج . ومن أجمل هذه المباني البهو الأكبر ، وقد شاده عند قبر أباطرة منج عباقرة البنائين الذين جاد بهم عهد الإمبراطور تشنج دزو (١٤٠٣ — ٢٥) ، كما شادوا عددا من المساكن الملكية في بقعة عرفت فيما بعد باسم «المدينة المحرمة» أقيمت في الموضع الذي شاهد فيه ماركو پولو قصر كوبلاي خان قبل ذلك العهد بمائتي عام ، فدهس منه وأعجب به أيما إعجاب ، وتقوم آساد بشمة الخلقة على جانبي الدرزين الرحامي المؤدى إلى الشرفة الرخامية . وقد شيدت في هذا المسكان مبان رسمية ، بعضها غرف لعروش الأباطرة وأخرى للاستقبال أو للمآدب وغيرها من حاجات الأباطرة .

وانتشرت حولها البيوت الأنيقة التي كانت تسكنها في الأيام الخالية أسر الأباطرة وأبناؤهم وأقاربهم وخدمهم وأتباعهم وخصيانهم وسراريهم . ولا تكاد هذه التصور تختلف بعضها عن بعض . ففيها كلها العمدة الرفيعة ، والنوافذ المتشابكة الجميلة ، والطنف المنحوتة أو المسطورة ، والألوان الكثيرة الزاهية

والرفارف المقوسة المتجهة إلى أعلى المتصلة بالسقف المقرمدة الضخمة . وشبيه بهذه المتع المحرمة على غير هذه الطبقات من الأهلين القصر الصيفي الثاني الذي يبعد عن هذا المكان بضعة أميال ، ولعله أكثر رشاقة وتناسبا وتألقاً في النحت من البيوت التي كانت في يوم ما مساكن للملوك في بيجنج .

وإذا شئنا أن نذكر الخصائص العامة لفن العمارة الصينية في عبارة موجزة قلنا : إن من أول مظاهرها السور الجرد من الجبال الذي يفصل المبنى الرئيسي عن الطريق العام . وهذه الأسوار تمتد في الأحياء الفقير من بيت إلى بيت متصلة بعضها ببعض ، وتدل على أن الحياة في هذه الأحياء كانت غير آمنة . ويحيط هذا السور بفناء تفتح فيه أبواب ونوافذ لبيت واحد أو لعدة بيوت . وبيوت الفقراء مساكن كثيفة مظلمة ، ذات مداخل ودهاليز ضيقة وسقف منخفضة ، وأرض من التراب . وفي كثير من الأسر تعيش الخنازير والكلاب والدجاج والرجال والنساء في حجرة واحدة . وتعيش أفقر الأسر في أكواخ من الطين ولقش تغمرها مياه الأمطار وتصفر فيها الرياح ، وإذا كانت الأسر ذات يسار قليل غطت أرض الحجرات بالحصر أو رصفتها بالقرميد . أما الأثرياء فيزينون فناء المنزل الداخلي ببعض الشجيرات والأزهار والبرك ، أو يحيطون قصورهم بالحدائق يفرسون فيها مختلف الأشجار ، ويمرحون فيها ويلعبون . ولا ترى في هذه الحدائق طرفقات تزينا الورود، وممرات غرست حولها الأزهار ، ومرمعات أو دوائر أو مثمّنات من الكلا أو الزهر ؛ بل ترى ندلا منها ماشى ضيقة لا تثبت على حال ، تتلوى في بعض الأحيان مخترقة أخاديد تمر بين الصخور فوق مجار مائية متعرجة بين أشجار اضطرت جذوعها أو أغصانها إلى أن تتخذ لها أشكالاً غريبة ترضى عنها النفوس السوفسطائية . وترى في أماكن متفرقة من هذه الحدائق جواسق جميلة تكاد تخفيها الغضون يستريح فيها الجائلون .

وليس البيت نفسه ذا روعة ولو كان قصراً للمعطاء ، فهو لا يزيد على طبقة

واحدة، وإذا احتاجت الأمرة إلى أن تزيد حجرات منزلها فإنها تفضل إقامة مبنى جديد على إضافة حجرات للمبنى القديم. ومن ثم فإن القصر العظيم قلما يكون بناء منضم الأجزاء، بل يتكون من عدة مبان تمتد أهمها في وصف واحد من مدخل القصر إلى السور وإلى جانبيها المباني الثانوية التي تقل عن الأولى شأنًا. وأكثر ما تبني منه المنازل الخشب والآجر، وقلما تعلق الحجارة إلى أكثر من الشرفات التي فوق الأساس.

وكان يقصر استعمال الآجر عادة على الجدران الخارجية، أما السقف فتتخذ من لبنات رقيقة، وأما الأعمدة المزينة والجدران الداخلية فتقام من الخشب. وكانت تعلق الجدران الزاهية الألوان طنف ذات نقوش. وليست الجدران ولا العمدة هي التي تحمل السقف، بل إن هذه السقف رغم ثقلها تستقر على قوائم تكون جزءًا من الهيكل الخشبي للمنزل. والشقف أهم أجزاء الهيكل أو المنزل الصيني، فهو يبني من القمر ميد المصقول البراق — ذي اللون الأصفر إن كان يظلل رأس الإمبراطور، وإلا فهو أخضر أو أرجواني أو أحمر أو أزرق. وهو يبدو جميلًا وسط ما يحيط به من المناظر الطبيعية، بل إنه ليبدو كذلك حتى في فوضى شوارع المدن، ولربما كانت أعواد الخيزران التي تبرز أطرافها من أعلى الخيام هي التي أقيمت على غرارها في بلاد الشرق الأقصى رفارف السطوح الرشيقة المنحنية إلى أعلى، ولعل أقرب من هذا إلى الظن أن هذا الطراز الكثير الذبوع لم يكن منشؤه إلا رغبة البنائين الصينيين في وقاية البناء كله من مياه الأمطار<sup>(٥٨)</sup>.

ذلك أن النوافذ ذات المصاريع كانت قليلة في المباني الصينية، وكان يحل محلها الورق الكوري Korean<sup>(\*)</sup> أو النوافذ ذات القوائم المتقاطعة المتشابكة، وهذه لا تقي الحجرات من الأمطار.

(\*) نسبة إلى كوريا Korea

ولا يقع مدخل البيت الرئيسي عند طرفه ذى السقف الهرمى ، بل يقع عند واجهته الجنوبية . ويقوم فى داخل هذا الباب الكبير عادة ستار أو جدار يحجب نظر الزائر عن رؤية من فى داخل الدار ، ويقف فى طريق الأرواح الخبيثة التى لا تسير إلا فى حطوط مستقيمة ، وردة الدار وحجراتها معتمة لأن ضوء النهار تحجبه النوافذ المتشابكة والظنف البارزة . وبهو المنزل وحجراته مظلمة لأن النوافذ المتشابكة والظنف البارزة تحجب عنها ضوء النهار . ولما تجد فى المنزل وسائل تهوية الغرف ، وليس فيه من وسائل التدفئة إلا الجمر المتنقلة ، أو طبقات من الآجر تبنى فوق نار مُدخنة . وليس لهذه المدافئ مداخن أو فتحات يخرج منها الدخان<sup>(٥٩)</sup> . والأغنياء والفقراء على السواء يقاسون آلام البرد ويأتون إلى فراشهم مدثرين بالثياب الثقيلة<sup>(٦٠)</sup> . وإذا التقى السائح بصينى سأله : « أنت بردان ؟ فيجيبه هذا بقوله : بطبيعة الحال »<sup>(٦١)</sup> ، وقد تعلق فى سقف الدار فوانيس من الورق زاهية الألوان ، وتزين الجدران أحياناً بكتابات بخط جميل أو بنقوش من الحجر ، أو بسجف من الحرير مطرزة تطريزاً جميلاً ومقوش عليها مناظر ريفية . ويتخذ أثاث المنزل عادة من الخشب الثقيل المدهون باللون الأسود البراق والمنحوت نحتاً جميلاً . أما القطع ذات الألوان الفاتحة فتعطى بالك البراق . والصينيون هم الأمة الشرقية الوحيدة التى يجلس أبنائها<sup>(\*)</sup> على كراسى ، وحتى هم يفضلون أن يجلسوا متسكئين أو متربعين ؛ وهم يضعون ، على نضد خاص ، الأوانى التى تتخذ لتقديم القرابين لأسلافهم الأموات . وتقع فى مؤخرة الدار حجرات النساء ، وقد توجد فى حجرات مستقلة أو فى بناء منفصل عن سائر المنزل مكتبة أو مدرسة .

والأثر العام الذى تتركه العائز الصينية فى ذهن المشاهد الأجنبى غير الننى هو ما تتصف به من وهن سحرى يأخذ بالألباب ؛ واللون يطنى فيها على

(\*) لعله يقصد بأبنائها جمهرة الشعب . ( المترجم )

الشكل ، ومن واجب الجمال فيها أن يستغنى عن الضخامة والعظمة . والهيكل أو القصر الصيني لا يتناول إلى الإشراف على الطبيعة بل يتعاون معها على أن يخلق من الكل انسجاماً كاملاً يعتمد على تناسب أجزائه وتواضعها . والعمائر الصينية تعوزها الصفات التي تكسبها متانة وأمناً وطول بقاء ، كأن من شادرها يخشون أن تذهب الزلازل بجهدهم .

وإن من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن هذه العمائر تنتمي إلى ذلك الفن الذى أقام آثار الكرنك ورسبوليس ، والآثار التى شيدت على الأكربول ؛ فليست هى عمائر بالمعنى الذى يفهمه الغربيون من هذا اللفظ ، بل هى حفر فى الخشب ، وطلاء للخزف ، ونحت فى الحجر . وهى أكثر انسجاماً مع الخزف واليشب من الصروح الضخمة الثقيلة التى أقامها فنّا الهندسة والمعمار فى بلاد الهند وبلاد النهرين ورومة . وإذا لم تتطلب إليها العظمة والصلابة التى ربما لم يعن بها من أنشئوها ، وإذا أخذناها على أنها أهداف تعبر عن أرق الأذواق فى أضعف أشكال المباني وأقلها بقاء ، إذا فمأنا هذا وذاك كان لهذه العمائر مكانها بين أجمل طرز الفن الصينى الطبيعية التى تناسب أهل تلك البلاد وبين أجمل الأشكال التى ابتدعها الإنسان .



## الفصل الرابع

### التصوير

#### ١ — أساتذة فن التصوير الصيني

جور كاي - چيه « أعظم مصور ، وأعظم فكه ، وأعظم أبه » - صورة  
هان يو الصنيرة - المدرستان الإبتدائية والابتدائية - ونج وای -  
وو داو دزه - هو درونج الإمبراطور الفنان - أساتذة عصر سونج

لقد أبطأ الغرب في دراسة فن التصوير الصيني ، وليس عليه في ذلك لوم ، لأن مناحى الفن وأساليبه في الشرق تكاد كلها تكون مغايرة لمناحيه وأساليبه في الغرب ؛ وأول ما نذكره من هذا الخلاف أن المصورين في بلاد الشرق الأقصى لم يكونوا يصورون على القماش ؛ وقد نجد من حين إلى حين مظلمات على الجدران ، وأكثر ما يوجد من هذا أثر من آثار النفوذ البوذي ؛ ونجد في بعض الأحيان رسوماً على الورق وهذه من آثار ما بعد العهد البوذي ؛ كل هذا نجده ولكنه قليل ، أما معظم الرسوم الصينية فهي على الحرير ؛ ولقد كان ضعف هذه المادة وقصر أجلها سبباً في تلف الروائع الفنية جميعها حتى لم يبق من تاريخ هذا الفن إلا ذكريات له وسجلات تصف جهود الفنانين ؛ يضاف إلى هذا أن الصور نفسها كانت رقيقة خفيفة ، وأن كثرتها قد استخدمت فيها الألوان المائية وينقصها ما نراه في الصور الزيتية الأوربية من تلوين يظهرها للعين وكأنها صور مجسمة تكاد نامسها باليد . ولقد حاول الصينيون التصوير الزيتي ولكن يلوح أنهم تركوه لأنهم حسبوا هذه الطريقة من طرق التصوير خشنة ثقيلة لا تتفق وأغراضهم الدقيقة الرفيعة ؛ كذلك كان تصويرهم في أشكاله الأولى على الأقل ، فرعاً من فروع الكتابة أو الخط الجميل يستعملون فيه الفرشاة التي كانوا

يستعملونها في الخط ، وكانوا يقتصرون في كثير من روائعهم الفنية على الفرشاة  
والخبر (\*)

وآخر ما نذكره من أوجه الخلاف أن أعظم ما أخرجوه من الصور الملونة  
قد أخفى من غير قصد عن أعين الرحالة الغربيين ، ذلك أن الصينيين لا يقبأهون  
بعرض صورهم على الجدران العامة والخاصة بل يطوونها ويخبئونها بمنتهى العناية ،  
فإذا أرادوا أن يستمتعوا برؤيتها أخرجوها من مخبئها كما نخرج نحن كتاباً  
ونقرؤه . وكانت هذه الصور المطوية تلف متتابعة في ملفات من الورق أو الحرير  
ثم « تقرأ » كما تقرأ المخطوطات . أما الصور الصغيرة فكانت تعلق على  
الجدران ولما كانت توضع في إطارات . وكانت عدة صور ترسم أحياناً على  
شاشة كبيرة ، وفي العهد الأخير من عهد أسرة سونج كان فن التصوير قد  
تفرع إلى ثلاثة عشر « فرعاً » (٦٣) واتخذ أشكالاً لا حصر لها .

وقد ورد ذكر الفن الصيني بوصفه فناً ثابت الأساس ، قبل ميلاد المسيح  
بعدة قرون ، ولا يزال هذا الفن موطن الدعائم في بلاد الصين إلى يومنا هذا رغم  
ما عاناه بسبب الحروب الكثيرة . وتقول الأفاصيص الصينية إن أول من صور  
بالألوان في الصين امرأة تسمى لي وهي أخت الإمبراطور الصالح شوين . وقد ساء

---

(٥) يرى الصينيون أن التصوير ضرب من الكتابة ، ويعدون الخط فناً من الفنون  
الجميلة ، وإن كان العالم يرى عكس هذا ويعتقد أن الكتابة كانت في بادئ أمرها نوعاً من  
الرسم والاصوير . ومن أجل هذا ترى لوحات من الخط الجميل معلقة في بيوت الصينيين  
واليابانيين ، ومن أجل ذلك أيضاً يهوى المولعون بالفن وراء الروائع الخطية كما يحب جامعو  
التحف الفنية القارات في هذه الأيام للحصول على صورة أومزهرية . وكان أشهر الخطاطين  
الصينيين وانج شى - چى ( حولها ١٠٤٠ م ) ، وكانت الحروف الصينية الجميلة التي كتبها  
بيده هي التي قطعت عليها الأحرف التي اتخذت قوالب للطباعة . ولما أراد الإمبراطور العظيم  
داي ذويج أجد أباطرة أسرة تانج أن يحصل من بيان - داي على ملف بخط وانج شى -  
چى لم يجد سبيلاً إلى الحصول عليه إلا بالمرقة ، ويقال إنه لما تم له هذا فقد بيان - داي  
شهوة الطعام ومات نهما وكدا .



شكل ١ - صورة ملونة لآلات عشر أمير اطورا تنزى إلى عين ل - بن من مصوري القرن السابع  
مخطوطة في متحف الفن بباريس بسطة.

ذلك أحد الناقدین فقال : « مما يؤسف له أشد الأسف أن يكون هذا الفن  
القديم من اختراع امرأة »<sup>(٦٤)</sup>

ولم يبق شيء من الصور التي رسمت في عهد أسرة چو . لكن الذي لاشك  
فيه أن الفن في عهد هذه الأسرة كان قد تقدم عهده ، ويدلنا على ذلك تقرير  
كتبه كنفوشيوس يقول فيه إنه : أعجب أشد الإعجاب بالمظلمات التي رآها  
في الهيكل العظيم المقام في لو — يانج<sup>(٦٥)</sup> .

أما في أيام أسرة هان فحسبنا دليلاً على انتشار التصوير أن كاتباً من الكتاب  
قد شكنا من أن بطالا يعجب به لم يرسم له عدد كاف من الصور فقال : « إن  
الفنانين كثيرون فلم إذن لا يصوره أحد منهم؟ »<sup>(٦٦)</sup> ومن القصص التي تروى عن  
واحد من مهرة الفنانين في عهد الإمبراطور لي — يه — إى الأول أنه كان في  
استطاعته أن يرسم خطأ مستقيماً لا ميل فيه طوله ألف قدم ؛ وأن يرسم خريطة  
مفصلة للصين على سطح لا يزيد على بوصة مربعة ، وأن في مقدوره أن يملأ فاه ماء  
ملوناً ثم يبصقه فيكون صورة ، وأن الصور التي كان يرسمها للعنقاء قد بلغت من  
الإتقان حداً جعل الناس إذا نظروا إليها يتساءلون قائلين لم لا تطير من أمامهم<sup>(٦٧)</sup> .  
ولدينا ما يشير إلى أن فن التصوير الصيني بلغ إحدى درجاته القصوى من البكال  
في بداية التاريخ الميلادي ، ولكن الحروب محت كل دليل قاطع على هذا .  
ولقد تناوبت على الصين غلبة الفن والحرب في نزاعهما الأيدي القديم ، منذ العهد  
الذي نهب فيه لويانج الحاربون من إقليم تشين (حوالي عام ٢٤٩ ق . م) وأخذوا  
يحرقون كل ما لم يستطيعوا الانتفاع به ، إلى أيام ثورة الملاكين (١٩٠٠ م)  
حين كان جنود تونج چو يستخدمون الصور المرسومة على الحرير في المجموعة  
الإمبراطورية لحزم ما يريدون حزمه من الأمتعة . فكانت روائع الفن يحمل بها  
الدمار ولكن الفنانين لم يكونوا يتوانون عن الخلق والابتداع .

ولقد أحدثت البوذية انقلاباً في شئون الدين والفن في بلاد الصين لا يقل في عمقه ومداه عن الانقلاب الذي أحدثته المسيحية في ثقافة البحر المتوسط وفنونه . نعم إن الكنفوشية احتفظت بسلطانها السياسي في البلاد ، ولكن البوذية امتزجت بالدوية فأصبحت السلطة المهيمنة على الفن ، وأنشأت بين الصينيين وبين البواعث والرموز والأساليب والأنماط الهندية صلات ذات أثر قوى .

وكان أعظم العباقرة من رجال مدرسة التصوير الصينية البوذية جوو - كاي - جيه ، وهو رجل بلغ من قوة شخصيته وصفاته الفذة أن اجتمعت حوله أفاصيص وأساطير كثيرة . منها أنه أحب فتاة تسكن منزلاً يجاور منزله ، فلما عرض عليها أن تزوج به أبت لجهلها بما كانت تخبئه له الأيام من شهرة عظيمة ، فما كان منه إلا أن رسم صورة لها على أحد الجدران وأنفذ شوكة في قلبها ، فأشرفت الفتاة على الموت . ثم تقدم إليها مرة أخرى فرضيت به ، فرفع الشوكة عن صورتها فشفيت الفتاة من مرضها . ولما أراد البوذيون أن يجمعوا المال لتشييد هيكل في نانكينج وعد أن يمدّم بمليون كاش<sup>(٥)</sup> ، وسخرت الصين كلها من هذا الوعد ، لأن جوو قد بلغ من الفقر ما يبلغه الفنان .

فقال لهم : « اسمحوا لي أن أستخدم أحد الجدران » ، فلما وجد الجدار واستطاع أن ينفرد بنفسه عنده رسم عليه صورة القديس البوذي أو إيمالا - كيرتي . ولما أتم الصورة دعا الكهنة ، وأخذ يصف لهم طريقة جمع المال المطلوب فقال : « عليكم أن تطلبوا في اليوم الأول مائة ألف كاش » ممن يريد أن يدخل ايرى الصورة ، « وأن تطلبوا في اليوم الثاني خمسين ألفاً . أما في اليوم الثالث فدعوا الزائرين أحراراً يتبرعون بما يشاءون » . ففعلوا ما أمرهم به وجمعوا بهذه الطريقة مليون « كاش »<sup>(٦٩)</sup> . ورسم جوو سلسلة طويلة من الصور البوذية كما رسم صوراً

(\*) عملة صينية صغيرة قيمتها نحو 1/4 مليم . ( للترجم )

أخرى غير بوذية . ولكننا لم يصلنا شيء من رسومه المرثوق بنسبتها إليه (\*) .  
وكتب ثلاث رسائل في التصوير بقيت بعض أجزائها إلى اليوم . ومن أقواله : إن  
أصعب التصوير تصوير الرجال ، ويلى الرجال في الصعوبة تصوير المناظر الطبيعية  
ثم تأتي بعدها الخيل والآلهة (٧٢) . وكان يصرع على أنه فنان وفيلسوف معاً . ولما  
رسم صورة للإمبراطور كتب تحتها : « ليس في الطبيعة شيء عال لا ينحط بعد  
قليل ... فالشمس إذا بلغت كبد السماء أخذت في الانحدار ، والقمر إذا كمل  
وصار بديراً بدأ يفتاقص . ونسب المجد لا يقل صعوبة عن بناء حبل من حبات  
التراب ؛ أما التردى في الهلاك فسهل كأنسياب اللولب المشدود » (٧٣) (\*\*\*) ،  
وكان معاصروه يعدونه أعظم رجال زمانه في ثلاث نواح : في التصوير وفي  
الفكاهة وفي البلاهة (٧٤) .

وازدهر التصوير في بلاط الأباطرة من أسرة تانج ، ومن الأقوال الموبدة لهذا  
قول دوفو : « إن المصورين ليباغون من الكثرة عدد نجوم الصباح ، ولكن  
الفنانين منهم قليلون » (٧٥) .

وكتب جانج ين - يوان في القرن التاسع عشر كتاباً سماه : **عظماء المصورين**  
في **صحيح العصور** وصف فيه أعمال ثلثمائة وسبعين فناناً ، ويقول فيه : إن الصورة  
التي يرسمها أحد أساتذة التصوير كانت تدرّ عليه وقتئذ نحو عشرين ألف أوقية  
من الفضة ، ولكنه يحذرنا فيما بعد من أن نقدر الفن بالمال ويقول : « إن  
الصور الجميلة أعظم قيمة من الذهب واليشب ، أما الصور الرديئة فلا تساوي الواحدة  
عنها شققة » .

---

(\*) ويعزو له سدة المتحف البريطاني ملفاً جميلاً وإن يكن حائل اللون عليه خمسة رسوم  
تصور حياة نموذجية لأسرة من الأسر (٧٠) ، ويحوى هيكل كنفوشيوس في تشوفو نقشاً على  
حجر يقول ناقشه إنه هذا فيه حذو جوو . ويحوى معرض فريير Freer في واشنطن : من  
من كتابات تمزي إليه (٧١) .

(\*\*) اقرأ هذا المعنى نفسه في مقام بيكن « في المنصب الرقيق » أو ترجمة هذا المقال في  
الجزء الثاني من مقالات مختارة من اللغة الإنجليزية . ( المترجم )

ولا تزال تعرف من المصورين في عهد أسرة تانج أسماء مائتين وعشرين ، أما أعمالهم فلا يكاد يبقى منها شيء ، لأن ثوار التتار الذين نهبوا شانج — آن في عام ٧٥٦ لم يكونوا يعنون بهذا الفن ؛ وفي وسعنا أن نلمح الجو الفني الذي كان يمزج بشعر ذلك الوقت في قصة هان يو « أمير الأدب » الذائع الصيت .

وخلاصة هذه القصة أن هذا الأمير كسب من زميل له يقيم معه في نزل رقعة صغيرة اشتملت في أصغر مساحة مستطاعة على ثلاث وعشرين ومائة صورة من صور الآدميين ، وثلاث وثمانين من صور الجياد ، وثلاثين من صور الحيوانات الأخرى ، وصور لثلاث عربات ، وإحدى وخمسين ومائتي صورة لأشياء أخرى ويقول هو عنها : « لقد فكرت كثيراً في أمر هذه الصورة لأنني لم أكن أصدق أنها من عمل رجل واحد ، فقد جمعت عدداً من المزايا المختلفة الأنواع ، ولم يكن في وسمي أن أتخلى عنها مهما عرض عليّ من المال ثمناً لها . وفي العام الثاني غادرت المدينة وسافرت إلى هو — يانج ، وحدث أن كفت في أحد الأيام أتحدث عن الفن إلى بعض الغرباء ، وأخرجت لهم الصورة ليروها ؛ وكان من بينها رجل يدعى چو ، يشغل وظيفة رقيب (\*) وكان ذا ثقافة عالية ؛ فلما وقعت عيئه على الصورة دهش أيما دهشة لرؤيتها ثم قال بعد تفكير طويل : « إن هذه الصورة من عمل يدي رسمتها في أيام شبابي ، وهي منقولة عن صورة في معرض الفن الإمبراطوري ، ولقد فقدتها منذ عشرين عاماً ، وأنا مسافر في مقاطعة فوفين » ، فما كان من هان يو إلا أن أهدى الصورة الصغيرة إلى چو .

ولقد نشأت في فن التصوير الصيني مدرستان مختلفتان إحداهما في الشمال والثانية في الجنوب ، كما نشأت في الديانة الصينية مدرستان هي المدرسة الكنفوشية والمدرسة الدّوئية — البوذية وكما نشأت في الفاسفة مدرستان إحداهما بزعاية چوشى والثانية بزعامة وانج يانج منج ، تمثل الأولى ما يطلق عليه الغربيون العقلية

(\*) انظر واجبات الرقيب في الفصل السادس من الباب الحادي والعشرين .

الإتباعية ، وتمثل الثانية العقلية للإبتداعية ، فكان الفنانون الشماليون يتمسكون بالثقافة الصارمة ويتقدمون في رسومهم بقيود العفة والوقار ؛ أما أهل الجنوب فكانوا يعنون في تصويرهم بإبراز المشاعر والخيال . وعنيت المدرسة الشمالية أشد عناية بإبراز نماذج صحيحة متقنة من الأشكال التي تصورها وجعلها واضحة الخطوط والمعالم ، أما المدرسة الجنوبية فقد ثارت كما ثار منمارتر Montmarter على هذه القيود ، فكانت تحقر هذه الواقعية البسيطة ولا تستخدم الأشياء إلا عناصر في تجارب روحية ، أو نغمات في مزاج موسيقي<sup>(٧٧)</sup> . ولقد وجد لي سو — شون وهو بصور في بلاط منج هوانج بين زعازع السلطة السياسية وعُرلة النفي ما يكفي من الوقت لتوطيد دعائم المدرسة الشمالية . وصور هو نفسه بمض المناظر الصينية الطبيعية وبلغ فيها درجة من الواقعية تناقلتها فيما بعد كثير من الأفاضل . من ذلك قول الإمبراطور إنه يستطيع أن يستمع في الليل إلى خرير الماء الذي صور له على شاشة في قصره ، وإن سمكة في صورة أخرى له دبت فيها الحياة ووجدت بعد في بركة — وليس لنا أن نلوم الصينيين على هذه الأقوال ، فإن لكل أمة أقوالاً مثلها في مدح مصوريها .

ونشأت المدرسة الجنوبية مما أدخل على الفن من تجديد ومن عبقرية وانج واي ، فلم يكن المظهر الطبيعي في طرازه التأثيرى من طرز الفن أكثر من رمز لمزاج معين ، وكان وانج شاعراً ومصوراً معاً ، ولذلك عمل على ربط الفنين بعضهما ببعض ، وذلك بجعل الصورة تعبر عن قصيدة . وفيه قال الناس لأول مرة العبارة التي طالما لاكتها الألسن حتى ابتذلت ، والتي تنطبق كل الاطباق على الشعر والتصوير الصينيين كليهما وهي : « كل قصيدة صورة وكل صورة قصيدة » ( وكان يحدث في كثير من الأحيان أن تنقش القصيدة على الصورة وأن تكون القصيدة نفسها مخطوطاً فنياً جميلاً ) . ويروى المؤرخون أن تونج جي —



جانج قضى حياته كلها يبحث عن صورة أصلية من عمل وانج وبه (\*) (٧٨) .  
وأعظم المصورين في عهد أسرة تانج ، وأعظم المصورين في الشرق الأقصى كله  
بإجماع الآراء ، رجل علا فوق فروق مدرستي التصوير السالفتي الذكر ، وكان  
من الذين حافظوا على التقاليد البوذية في الفن الصيني ، واسم هذا المصور  
وودو — دزه ؛ ولقد كان في الحق خليقاً باسمه فإن معنى هذا الاسم هو وواستاذ  
الدو أو الطريقة ، ذلك أن جميع التأثيرات والأفكار المجردة التي وجدها لو دزه  
وجوانج دزه أدق من أن تعبر عنها الألفاظ ، وقد بدت وكأنها تنساب انسياً طبيعياً  
في صورة خطوط وألوان يجري بها قلمه ، ويصفه أحد المؤرخين الصينيين بقوله :  
« إنه كان شخصاً معدماً يتيماً ، ولكفه وهب فطرة إلهية ، فلم يكذب بلبس قلنسوة  
البلوغ حتى كان من أساتذة الفن ، وحتى غمر لو — يانج بأعماله . » وتقول  
الروايات الصينية إنه كان مفرماً بالخرم وبأعمال القوة ، وإنه كان يمتدح — كما  
يعتقد الشاعر الإنجليزي Poe — أن الروح تخرج أحسن ثمارها تحت تأثير قليل  
من السكر<sup>(٨١)</sup> . وقد برز في كل موضوع صوره ؛ في الرجال والأرباب والشياطين ،  
وفي تصوير بوذا بأشكال مختلفة ، وفي رسم الطيور والوحوش والنبات والمناظر  
الطبيعية — وكانت كلها تأتيه طائفة لفنه الخصب ؛ وبرع في الرسم على الحرير  
والورق والجدران الحديثة الطلاء فكانت هذه كلها عند سواء . وقد أنشأ ثلثمائة  
مظلم لاهيا كل البوذية منها مظلم يحتوى على صورة ألف شخص لاتقل شهرته في  
الصين عن شهرة « يوم الحساب » أو صورة « العشاء الأخير » في أوربا . وكانت  
ثلاث وتسعون صورة من صوره في معرض الصور الإمبراطوري في القرن الثاني  
عشر بعد أربعمائة سنة من وفاته ، ولكنها لم يبق منها شيء في مكان ما في الوقت  
الحاضر . ويحدثنا الرواة أن الصور التي رسمها البوذا « قد كشفت عن أسرار الحياة

---

(\*) لم يبق إلا صور منسوخة منها : أهمها « مسقط ماء » محفوظة الآن في معبد  
شساكوين في كيوتو (٧٩) وملف ( في كل من المتحف البريطاني ومتحف فريزر ) كتب عليه :  
« منظر وانج جوان » (٨٠) .

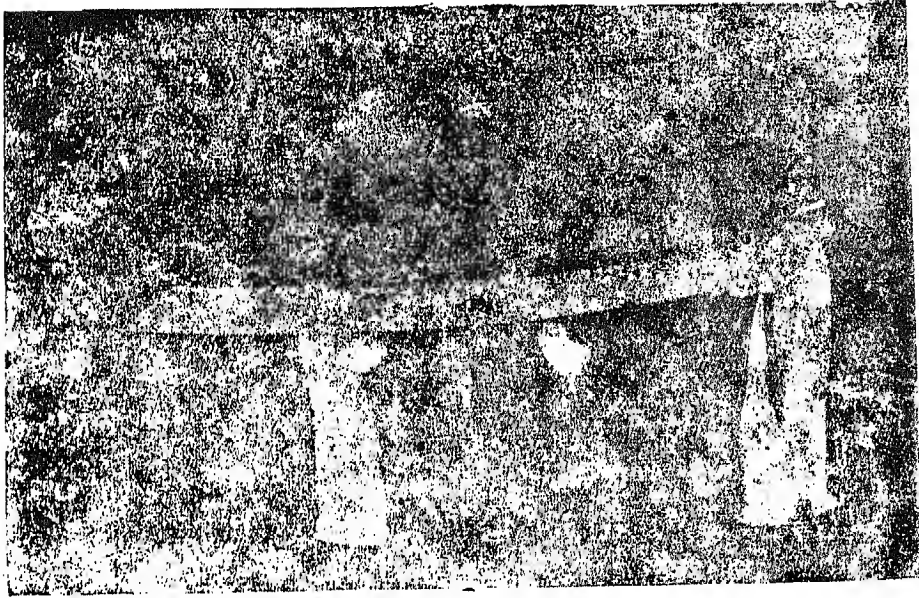
والموت» وقد بلغ من تأثير صورته التي تمثل الحشر أن ارتاع من رؤيتها بعض القصابين والسماكين فنبذوا حرقتهم المشينتين غير البوذيتين .

ولما رسم صورة تمثل رؤي منج هو انج أيقن الإمبراطور أن وو قد رأى هو أيضاً رؤي مثلها<sup>(٨٢)</sup> . ولما أرسل الملك وو ليرسم منظراً على ضفة نهر جيانج في ولاية سشوان هاله أن يعود الفنان دون أن يرسم خطأ واحداً ، فقال له وو : « لقد وعيته كله في قلبي » ، ثم انفرد بنفسه في حجرة من حجر القصر وأخرج ، كما يؤكد لنا المؤرخون ، مناظر تمثل ألف ميل<sup>(\*)</sup> . ولما أراد القائد باي أن ترسم له صورة طلب إليه وو ألا يقف أمامه ليرسمه ، بل أن يلعب بالسيف ، فلما فعل أخرج المصور له صورة لم يسع معاصريه إلا أن يقولوا إنها قد أوحى إليه بها ولم تكن من عنده . وقد بلغ من شهرته أن أقبلت « شانج — آن » على بكرة أبيها لتشاهده وهو يختتم رسم بعض الصور البوذية في هيكل شنج شان . ويقول مؤرخ صيني من مؤرخي القرن التاسع إنه لما أحاط به هذا الجمع الحاشد « رسم الهالات بسرعة عجيبة عنيفة بدا للناس معها كأن يده يحركها إعصار ، وصاح كل من رآه أن إلهاً من الآلهة كان يساعده »<sup>(٨٥)</sup> : ذلك أن الكسالى لا يفتشون بعزون العبقرية « لوحى » يوحى لمن ينتظر هذا الإيجاء .

ونقول لإحدى القصص الطريفة إنه لما طال الأجل بوو رسم منظراً طبيعياً كبيراً ، ودخل في فم كهف مصور في هذا المنظر ، ولم يره أحد بعد دخوله فيه<sup>(٨٦)</sup> . ولا جدال في أن الفن لم يصل قط إلى ما أوصله إليه هو من إتقان وإبداع . وأصبح الفن في عهد أسرة سونج شهوة عارمة عند الصينيين ، ذلك أنه بعد أن تحرر من سيطرة الموضوعات البوذية عليه غمر البلاد بما لا يحصى من الصور المختلفة ، ولم يكن الإمبراطور هواي دزونج نفسه أقل الثمانمائة الرسامين المشهورين في أيامه .

(\*) اقرأ رأى كروسي القائل بأن الفن هو الفكرة نفسها لا طريقة إخراجها<sup>(٨٤)</sup> .

ومن الكنوز المحفوظة بمتحف الآثار الجميلة ببسطن ملف صَوَّر فيه هذا الإمبراطور في بساطة عجيبة ووضوح أعجب المراحل المختلفة التي تسير فيها عملية إعداد الحرير على يد النساء الصينيات<sup>(٨٧)</sup>. ومن أعماله أنه أنشأ متحفاً للفن جمع فيه أكبر مجموعة من الروائع الفنية عرفت لها الصين من بعده<sup>(٨٨)</sup>؛ وأنه رفع المجمع الفني من فرع تابع للسكايية الأدبية لا غير إلى معهد مستقل من الدرجة الأولى، واستبدل الاختبار في الفن ببعض الاختبارات الأدبية التي جرت العادة بأن يمتحن فيها طلاب المناصب السياسية، ورفع رجالاً إلى مناصب الوزراء لأنهم برعوا في الفن بقدر ما رفع إليها غيرهم لأنهم برعوا في السياسة<sup>(٨٩)</sup>. وسمع التقار بهذا كله فغزوا الصين وأنزلوا الإمبراطور عن عرشه، ونهبوا المدينة وعاثوا فيها فساداً، ودمروا كل الصور المحفوظة في المتحف الإمبراطوري إلا القليل، وكانت سجلات هذه الصور تملأ عشرين مجلداً<sup>(٩٠)</sup>. وساق الغزاة الإمبراطور الفنان أمامهم ومات في ذل الأسر.



شكل ٧ - صناعة الحرير من تصوير الإمبراطور هواي دزو في متحف الفن الجميل بمدينة بسطن

وكان أجل من هذا الإمبراطور الفنان شأنًا رجلان من غير الأسر المالكة هما جووشى ، ولى لونج — مين . «ويقول الناقدون والفنانون إن جووشى نز جميع معاصريه في تصوير أشجار الصنوبر الباسقة ، والدوحات الضخمة ، والمياه الدوامة ، والصخور الباتنة ، والجروف الوعرة ، وقلل الجبال السامقة التي لا يحصى عديدها»<sup>(٩١)\*</sup> . وكان لى لونج — مين فنانًا وعالمًا وموظفًا ناجحًا ورجلا سميدعًا<sup>(\*\*)</sup> يجله الصينيون ويرون فيه مثلاً أعلى لما يجب أن يكون عليه الصينى المثقف . وقد بدأ أولاً بالخط ثم انتقل منه إلى الرسم بالخطوط ثم بالألوان ، وقبلما كان يستخدم في هذا كله شيئاً غير المداد ؛ وكان يفخر بحفاظته الشديدة على تقاليد المدرسة الشمالية ، ويبدل جهوده كلها في ضبط الخطوط ودقتها . وقد برع في رسم الخليل براعة بلغ منها أن اتهمه الناس حين ماتت ستة منها بأن الصورة التي رسمها لها قد سلبتها أرواحها ، وأن حذره كاهن بوذى من أنه سيصبح هو نفسه جواداً إذا دأب على العناية برسم الجياد بدقته المعهودة ، فما كان منه إلا أن قبل نصيحة الكاهن وصور خمسمائة لوهان<sup>(†)</sup> . وفي وسعنا أن ندرك شهرته إذا عرفنا أن معرض هواى دزونج الإمبراطورى حين نُهب كان يحتوى على مائة صورة وسبع صور من عمل لى لونج — مين وحده .

ونبغ في عهد أسرة سويج عدد كبير من أساتذة الفن ، نذكر منهم مى فاي وهو عبقرى غريب الأطوار ، كان لا يرى إلا هو يفسل يديه أو يغير ملابسه إذا لم يكن يشتغل بجمع أعمال رجال الفن القدماء ، أو يرسم صوراً لمناظر طبيعية

---

(\*) فى معرض فريير المني بواشنطن « منظر على الهوانج — هو » يعزى إلى جو — شى وإن كان هذا مشكوكاً فيه<sup>(٩٢)</sup> .

(\*\*) السَّمِيدَعُ أو السَّمِيدِع . السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكتاف والشجاع ، وقد اخترنا هذا اللفظ لترجمة كلمة Gentleman  
(†) اللوهان هو الذى وصل إلى النرفانا أى الذى سمى نفسه إلى أرق المراتب الروحية

« بطريقة التنقيط » أى بنقط من المداد يضعها دون أن يستعين بالخطوط الخارجية (\*). ومنهم أيضاً شيه جواى وقد رسم ملفاً طويلاً يحتوى على مناظر متفرقة لنهر يانج-دزه (\*\*\*) من منابعه الصغيرة، ومجرأه، مخترقا اللويس والخوافق إلى مصبه الواسع الغاص بالسفن التجارية والقوارب الصغيرة (السمبان)؛ وهذا الملف قد جعل بعض الفنانين<sup>(٩٣)</sup> يضعون صاحبه على رأس مصورى المناظر الطبيعية فى الشرق والغرب على السواء. ومن مشهورى المصورين فى هذا العهد ما يوان؛ ويزدان متحف الفن الجميل فى بَسْطُنْ بمناظر طبيعية أنيقة، ومناظر مصورة عن



شكل ٨ - منظر طبيعى ، جسر وصهفصاف من تصوير ما يوان فى القرن الثانى عشر محفوظ فى متحف الفن الجميل ببسطن

(\*) فى الحجر رقم ١١ فى المتحف الفن بنىورك منظر طبيعى يقال إنه من تصوير  
« مى فائى » .

(\*\*) Ynng-tze وهو النهر الذى يطلق اسمه أحياناً يانج - تسى أو يانج - تسى - كيانج

بعد<sup>(\*)</sup>. ومنهم ليانج كاي الذي رسم صورة نخمة للشاعر الصيني لي بو، وموتشي صاحب صورة النمر الرهيب، والزرزور، وصورة كوان ين الظريف المكتئب، وفي وسعنا أن نذكر غير هؤلاء كثيرين من المصورين الصينيين الذين لم يألف الغرب سماع أسمائهم أو يعيها إذا سمعها لغرابتها، ولكنهم في واقع الأمر نماذج من تراث الشرق العقلي العظيم. وما أصدق ما قاله عنهم فنلوزا Fenolosa: «لقد كانت ثقافة أسرة سونج أنضج تعبير عن العبقرية الصينية»<sup>(٩٥)</sup>.

وإذا شئنا أن نقدر فن التصوير الصيني في أيام مجد أسرتي تانج وسونج، كما كن يحاولون من مؤرخي المستقبل أن يكتبوا عن عصر النهضة الإيطالية بعد أن فقدت جميع أعمال رفاثيل وليوناردو دافنشي وميكل أنجلو. ويبدو أن فن التصوير الصيني قد كسر في ذرعه وهد ركنه ما توالى عليه من غارات جحافل اللابرة الذين دمروا روائعه وعاقوا تقدمه قرونًا عدة. ومع أنه قد نبغ في عهد الأسر التي تربعت على عرش الصين بعد أسرتي تانج وسونج، الصينية منها والأجنبية، فنانون لهم رسوم بلغت مستوى عظيمًا من الظرف أو القوة، فليس من هؤلاء الفنانين من يرقى إلى مستوى أولئك الرجال الذين عاشوا في جنان بلاط منج هوانج أو هواي دزونج وخليق بنا إذا فكّرنا في الصينيين ألا نفكر فيهم على أنهم مجرد شعب سلطت عليه الفاقة، وأضعفه فساد الحكم، وفرقتهم التحزبات والانقسامات السياسية، وأذلتهم المزايم الحربية، بل يجب أن نفكر فيهم أيضًا على أنهم أمة شهدت في تاريخها الطويل عصورًا لا تقل في مجدها عن عصور بركليز وأغسطس وآل ميديشي، وأنها قد تشهد عصورًا أخرى مثلها في مستقبل الأيام.

(\*) ومن أروع الصور صورة «السيدة لنج - چاو واقفة بين الثلوج». والصورة تمثل السيدة (وهي صوفية بوذية من نساء القرن الثامن) ساكنة غارقة في التفكير كأنها مقرط واقف وسط الثلوج في پلانوية. ويخيل إلينا أن الفنان يقول «إن العالم لا وجود له إلا إذا أدرك العقل وجوده، وإن في وسع العقل أن يتجاهله إلى حين».

## ٢ - خصائص فن التصوير الصيني

نُبذ فن المنظور - الواقعية - الخط أسمى من اللون -  
الشكل إيقاع - التصوير بالإيجاء - العرف والقيود  
أمانة الفن الصيني وإخلاصه

ترى ما هي الخصائص التي تميز فن التصوير الصيني فتجعله يختلف كل الاختلاف عما أنتجتته أية مدرسة أخرى من مدارس التصوير في التاريخ كله عدا تلاميذه في اليابان؟ إن أول ما نذكره من هذه الخصائص أن الصور الصينية ترسم على ملفات أو شاشات كبيرة، ولكن هذه مسألة تتعلق بالشكل الخارجي، وأهم منها وأعرق وأكثر صلة بالصفات الذاتية احتقار الصينيين للمنظور والظلال. فلما أن قبل مصوران أوروبيان دعوة وجهها إليهم الإمبراطور كانج شى ليزينوا له قصوره رفض الإمبراطور ما عرضه عليه من زينات لأنهم رسموا العمدة البعيدة في صورهم أقصر من القريبة. وقال لهم الصينيون في هذا أن لاشيء يمكن أن يكون أكذب وأبعد عن الطبيعة من تمثيل المسافات حيث لا توجد مسافات مطلقاً<sup>(٩٦)</sup>. ولم تستطع إحدى الفئتين أن تفهم آراء الأخرى ومبادئها لأن الأوربيين اعتادوا أن ينظروا إليه من أعلاه<sup>(٩٧)</sup>. وكذلك كان يخيل إلى الصينيين أن الظلال لا محل لها في نمط من أنماط الفن لا يهدف في زعمهم إلى محاكاة الحقيقة بل يهدف إلى إدخال السرور على النفس، وتمثيل الأمزجة، والإيجاء بالأفكار عن طريق الأشكال التامة الكاملة.

وكان الشكل كل شيء في هذه الصور، ولم تكن السبيل إلى إجادته غزارة اللون أو بهجته، بل كانت في انسجامه ودقة خطوطه. وكانت الألوان محرمة تحريمًا باتا في الرسوم الأولى، وظلت نادرة في رسوم أساتذة الفن؛ فقد كان هؤلاء يكتبون بللداد والفرشاة؛ ذلك أن اللون لم يكن في رأيهم ذا صلة ما

بالشكل ، بل كان الشكل على حد قول شيا هـ — هو هو الانسجام؛ وأول معاني الانسجام عند الصينيين هو أن يكون الرسم الصيني السجل المرئي لحركة منسجمة أو رقصة تمثلها اليد<sup>(٩٨)</sup>؛ ومعناه كذلك أن الشكل البديع يكشف عن «انسجام الروح» وعن جوهر الحقيقة وحركتها المادية<sup>(٩٩)</sup>. ومظهر الانسجام في آخر الأمر هو الخط — غير مستخدم في بيان حدود الأشياء ومحيطها الخارجي ، بل مستخدم في بناء الأشكال التي تعبر عن النفس بطريق الإيحاء أو الرمز. وتكاد دقة الخطوط وجمالها يكونان وحدهما في فن التصوير الصيني السبب الوحيد في براعة التنفيذ المستقلة عن قوة الإدراك والشعور والخيال . ومن أجل هذا كان من واجب المصور أن يلاحظ ما يريد تصويره بصبر وعناية ، وأن يكون ذا شعور قوى مرهف ، وأن يضبط أحاسيسه أدق الضبط وأحكمه ، وأن يتبين غرضه واضحا ، ثم ينقل بعد هذا على الحرير ما تمثله في خياله ، نقلا لا يترك فيه مجالا للإصلاح أو التعديل ، وذلك بعدد قليل من الضربات المتواصلة السهلة . وقد وصل فن التصوير بالخطوط ذروة مجده في الصين واليابان ، كما اقترب فن التلوين من ذروة مجده في البندقية وفي الأراضي الوطيفة .

ولم يعن فن التصوير الصيني بالواقعية في يوم من الأيام ، بل كان يهدف إلى الإيحاء أكثر مما يهدف إلى الوصف . أما « الحقيقة » فقد تركها للعلم ووهب نفسه للجمال . ولقد كان هذا النوع من التصوير فرعا لم يثبت في غير بلاد الصين ، ثم ترعرع وازدهر ، بعض الازدهار تحت سماء صافية ، فأصبح كافيا لأن يستهوى نفوس أعظم أساتذة الفن ويملك عليهم تفكيرهم ، وأن يكون تناوهم لرقعة التصوير الفارغة وتقسيمها تقسيما يناسب مع ما يريدون تصويره ، أن يكون هذا وذلك محكما تحتبر به قدرتهم ومهارتهم . ومن الموضوعات التي كانت تعرض على طالبي الالتحاق بجمع هواي ذرويح للتصوير موضوع يوضح لنا مقدار تأكيد الصينيين للإيحاء غير المباشر وعنايتهم به لا بالتصوير الصريح . ذلك أن المتسابقين



كان يعرض عليهم أن يشرحوا بالرسم بيتاً من أبيات الشعر هو . « وعاد حافر جواده مثقلاً بمبيرا ما وطئه من الأزهار » . وكان المتسابق الذى أحرز قصب السبق فى هذا المضمار فناً رسم صورة فارس ومن حول كعوب جواده سرب من الفراش .

ولما كان الشكل كل شىء فإن من الممكن أن يكون الموضوع أى شىء .  
وقلما كان الرجال مركز الصورة أو جوهرها ؛ وإذا ما ظهروا فيها كانوا فى كل الأحوال تقريباً شيوخاً وكانوا كلهم متقاربين فى الشبه .  
وقلما كان المصور الصينى ينظر إلى العالم بعينى الشاب وإن لم يكن قط واضح التشاؤم فى تصويره ولقد رسم المصورون صوراً لبعض الأفراد ولكنها كلها صور لم تبلغ ما بلغه غيرها من الجودة والإتقان ؛ ذلك أن الفنان الصينى لم يكن يعنى بالأفراد ، وما من شك فى أنه كان يحب الأزهار والحيوانات أكثر مما يحب الرجال ، ولذلك أطلق لنفسه العنان فى تصويرها ؛ فترى هواى — دزونج وهو الذى كانت تأتمر بأمره إمبراطورية متسعة الأرجاء يهب نصف حياته لتصوير الطيور والأزهار . وكانت الأزهار والحيوانات كالأزورد والنين تتخذ رموزاً غير مقصودة لذاتها فى بعض الأحيان ؛ لكنها فى الأغلب الأعم كانت ترسم لأن سر الحياة وسحرها يتمثلان فيها كاملين كما يتمثلان فى الإنسان نفسه ، وكان الحصان محبباً للفنانين الصينيين بنوع خاص ، ومن أجل هذا ترى فنانين كباراً مثل هان كان لا يكادون يملون شيئاً غير رسم شكل فى إثر شكل لهذا المخلوق الذى هو جسم حى للتخطيط الفنى .

ولسنا ننكر أن التصوير فى الصين قد لاقى الأمرين من جراء التقاليد الدينية أولاً ومن القيود التى وضعها العلماء بعدئذ ، وأن تقليد الأساتذة القدامى والنسج على منوالهم كانا من العوامل المعوقة فى تدريب طلاب الفن ، وأن الفنان كان فى كثير من الأحوال يقيد بعدد محدود من المسائل لا يسمح له أن يلجأ إلى

غيرها في تشكيل مادته<sup>(١٠٠)</sup>. وفي وسع للقارىء أن يدرك قوة العرف والتقاليد من قول أحد كبار النقاد الفنيين في عهد آل سويج: « لقد كنت في أيام شبابي أثنى على الأستاذ الذى أحب صورته؛ فلما أن نضج عقلى أصبحت أثنى على نفسى لأنى أحببت ما اختاره الأساتذة لى لكى أحبه<sup>(١٠١)</sup>، وأنا ليدهشنا ما بقى فى هذا الفن من حيوية بالرغم من قيود العرف والقواعد التى وضعت له. وفى وسعنا أن نقول فى هؤلاء ما قاله هيوم عن كتاب عهد الاستنارة وهم الذين علا شأنهم رغم الرقابة المفروضة عليهم: « إن القيود التى عانى الفنانون ما عانوه منها قد أرغمتهم هى نفسها على أن يكونوا عطاء ممتازين ».

وما من شك فى أن الذى أتخذ المصورين الصينيين من وهدة الركود هو إخلاصهم فى إحساسهم بالطبيعة. وقد استمدوا هذا الإحساس من مبادئ الدوية، وقوتها فى نفوسهم البوذية إذ علمتهم أن الإنسان والطبيعة شىء واحد فى مجرى الحياة وتغيرها ووحدها. وكما أن الشعراء قد وجدوا فى الطبيعة ملجأ يهرعون إليه من صحب المدن وكفاحها، وكما أن الفلاسفة كانوا يبحثون فيها عن نماذج للأخلاق وهادياً للحياة، كذلك كان المصورون يطيلون التأمل بجوار الجارى المائية المنعزلة ويوغلون فى شعاب الجبال الشجراء، لأنهم يشعرون أن الروح الأعلى الذى لا يعرفون له اسماً قد عبر عن نفسه فى هذه الأشياء الصامتة الخالدة تعبيراً أوضح مما عبر عنها فى حياة الناس وأفكارهم المضطربة الهائجة<sup>(\*)</sup>. ولقد أتخذ الصينيون الطبيعية الشديدة القسوة عليهم، والتي تنفث الموت ببردها وفيضان أنهارها، أتخذوها لهمهم الأعلى، ورضوا بذلك فى قوة وطمأنينة، ولم يقبلوا أن يقدموا لها القرابين الدينية، بل رضوا بأن تكون فوق هذا معبود فلسفتهم

---

(\*) لم يكن تصور المطر الطبيعية يسمى فى الصين بأكثر من شأن - روى أى الجبال والمياه.

وأديهم وفنهم . . . وحسبنا شاهداً على قدم عهد الثقافة الصينية وعمقها أن الصينيين قد هاموا بحب الطبيعة قبل أن يهيم بها كلود لورين ، وروسو ، ووردسورث ، وشاتو بريان بألف عام كاملة ؛ وأنهم أنشأوا مدرسة من مصورى المناظر الطبيعية أضحت صورها فى جميع بلاد الشرق الأقصى أسى ما عبرت به الإنسانية عن مشاعرها .

## الفصل الخامس

### الحزف الصيني

فن الحزف - صنع الحزف - تاريخه القديم - اللون الأخضر  
الحائل - الطلاء بالمينا - براعة هاوشى چيو - تقاسيم  
الطلاء - عصر كانج شى - عصر تشين لونغ

إذا أخذنا نتحدث عن الفن الذى يمتاز به الصين عن سائر الأمم ، والذى لا يجادل أحد فى أنها هى حاملة لوائه فى العالم كله ، وجدنا فى أنفسنا نزعة قوية إلى اعتبار الحزف صناعة من الصناعات . ولما كانت كلمة « الصينى » إذا وردت على لساننا ارتبطت فى عقولنا بالمطبخ وأدواته . فإننا إذا ذكرنا الفاخورة تمثلنا من قورنا المكان الذى يصنع فيه « الصينى » ، وظننا هذا المكان مصنعاً ككل المصانع لا تثير منتجاته فى النفس روابط عليا سامية . أما الصينيون فقد كانت صناعة الحزف عندهم فناً من الفنون الكبرى ، تبهج له نفوسهم العملية المولعة مع ذلك بالجمال ، لأنه يجمع بين النعم وبهاء المفطر .

فلقد أمدم هذا الفن بأنية يستخدمونها فى شرابهم القومى الشمبر - شراب الشاى - جميلة فى ملمسها ومنظرها ، وازدانت منازلهم بأشكال بلغت كلها من الجمال حداً تستطيع معه أفقر الأسر أن تمشى فى صحبة نوع من أنواع الكمال ، لقد كان فن الحزف هو فن النحت عند الصينيين .

ولفظ الفخار يطلق أولاً على الصناعة التى تحيل الطين بعد حرقه إلى أدوات صالحة للاستعمال المنزل ، ويطلق كذلك على الفن الذى يحمل هذه الأدوات ، وعلى الأدوات التى تنتجها هذه الصناعة ؛ والحزف هو الفخار المزجج أى أنه هو الطين المزوج بالمعادن والذى إذا عرض للنار ساح واستحال إلى مادة نصف

شفافة شبيهة بالزجاج (\*) . وقد صنع الصينيون الخزف من مادتين الكولين — وهو طين أبيض نقي مكون من فتات الفلسبار والحجر الأعبل (الجرانيت) ، ومن الپي — تن — دزى وهو كوارتز أبيض قابل للانصهار ، هو الذى يكسب الأوانى الخزفية ما فيها من الشفافية . وتسحق هذه المواد كلها وتحلظ بالماء فتتكون منها عجينة تشكل باليد أو على عجلة ، ثم تعرض لدرجة حرارة مرتفعة تصهر العجينة وتحيلها إلى مادة زجاجية براقه صلبة . وكان يحدث فى بعض الأحيان ألا يقنع الخزاف بهذا النوع الأبيض البسيط ، فكان يغطى « العجينة » أى الإناء قبل حرقه بطبقة من مسحوق الزجاج ، ثم يحرق فى أتون . وكان فى بعض الأحيان يضع هذه الطبقة الزجاجية على العجينة بعد حرقها قليلاً ثم يعيد حرق الإناء بعدئذ . وكانت الطبقة الزجاجية تلون فى أغلب الأحيان ، ولكن العجينة كثيراً ما كانت تنقش وتلون قبل أن تضاف إليها المادة الزجاجية الشفافة أو تلون الطبقة الزجاجية بعد حرقها ثم تثبت عليها بحرقها مرة ثانية . أما الميناء فقد كانت تصنع من الزجاج الملون يدق ويسحق ثم يحول إلى مادة سائلة يصبها الرسام على الآنية بفرشاته الرفيعة . وكان من الصينيين إخصائىون قضوا حياتهم فى التدريب على عملهم ؛ تخصص بعضهم فى رسم المناظر الطبيعية ، وغيرهم فى رسم القديسين والحكماء للمتقنين للتأمل والتفكير بين الجبال ، أو الذين يمتطون ظهور حيوانات غريبة فوق أمواج البحار .

وصناعة الفخار عند الصينيين قديمة العهد قدم العصر الحجري ، فقد عثر الأستاذ أندرسن على أوانى من الفخار فى هونان وكانسو « لا يمكن أن تكون أحدث عهداً من عام ٣٠٠٠ ق . م » (١٠٣) . وإن ما تتصف به تلك المزهرىات

---

(\*) لما أدخلت صناعة الخزف فى أوروبا اشتق اسمها من الإرسلا نا أى صدفة الودع ، ولفظ الإرسلا نا نفسه مشتق من المشابهة المزعومة التى بين الصدفة وبين ظهر الإرسلا نا أو الخزير الصينى (١٠٢) .

من جمال قائق في الشكل وفي الصقل ليدل دلالة قاطعة على أن هذه الصناعة قد أصبحت فنا من الفنون الجميلة قبل ذلك العهد بزمن طويل . وبعض القطع التي عثر عليها شبيهة بفخار أنو ، وتوحى بأن الحضارة الصينية مأخوذة عن حضارة البلاد الواقعة في غربها . وهناك قطع من الأواني الفخارية الجنائزية كشفت في هونان وتمزى إلى عهد اضطراب أسرة شانج ولكنها أحط كثيراً من بقايا العصر الحجري الحديث السالفة الذكر .

ولم يعثر المتقنون بعد عصر هذه الأسرة على بقايا من الفخار ذات قيمة فنية قبل أيام أسرة هان ، ففي عهد هذه الأسرة عثروا على فخار وعثروا فوق ذلك على أول إناء من الزجاج عرف في الشرق الأقصى (\*) ، وكان انتشار عادة شرب الشاي في عهد أباطرة تانج باعثاً قوياً على تقدم فن الخزف . وقد كشفت العبقرية ، أو المصادفة المحضة ، حوالي القرن التاسع أن من المستطاع صنع إناء مزجج لا من سطحه الخارجي فحسب ( كالآنية المصنوعة في عهد أسرة هان وفي حضارات غير حضارة الصين قبل ذلك العهد ) ، بل زجاجي كله من أوله إلى آخره — أي من خزف حقيقي وقد كتب أحد الرحالة المسلمين المدعو سليمان إلى بني وطنه يقول : « إن في الصين طيناً رقيقاً جميلاً يصدمون منه أواني شفافة كالزجاج ، يرى من جدرانها ما في داخلها من الماء » . وقد كشفت أعمال التنقيب الحديثة في موضع إحدى المدن القديمة عند سر من رأى على نهر دجلة قطعاً من الخزف من صنع الصين . وظهر الخزف بعدئذ في السجلات المدونة خارج بلاد الصين حوالي عام ١١٧١ م حين أهدى صلاح الدين إلى سلطان دمشق إحدى وأربعين قطعة من الخزف (١٠٥)

(\*) لقد صنع المصريون الأندلسيون فخاراً مزججاً قبل المسح بقرون عدة لا يمكن تحديدها ، وإن ما على أقدم الفخار الصيني من نقوش ليدل على أن الصين قد أخذت طريقته المزجج عن بلاد الشرق الأدنى (١٠٤) .

وليس نمة شاهد على أن صناعة الخزف بدأت في أوربا قبل عام ١٤٧٠ م ،  
فقد ذكر في ذلك العام على أنه فن جميل أخذه البنادقة عن العرب في أثناء  
الحروب الصليبية<sup>(١٠٦)</sup> .

وكان عهد أسرة سونج هو العهد الذي بلغ فيه فن الخزف الصيني ذروة مجده .  
وحبراء هذا الفن يعززون إلى هذا العهد أقدم ما لدينا من الأنية الصينية وأحسنها  
بل إن صناع الخزف في عهد أسرة منج ، وهم الذين جاءوا بعد هذا العصر ونبغ  
فيه بعضهم نبوغ فنانيه ، حتى هؤلاء كانوا إذا ذكروا خزف أسرة سونج ذكروه  
بالإجلال والإكبار ، وكان حامعو المعاديات الصينية يحتفظون بما يمترون عليه من  
خزف هذه الأسرة ويمدونه من السكروز التي لا تقوم بمال وأنشئت في القرن  
السادس الميلادي مصانع عظيمة في جنج ده — جن حيث توجد الرواسب الغنية  
من المعادن التي تستخدم في صنع الفخار وتلوينه ، واعترف البلاط الإمبراطوري  
بهذه امصانع رسمياً ، وبدأت تفر الصين بفيض من الصحاف الخزفية والأقداح  
والجفان والزهريات والطاسات والأباريق والقنينات والجرار والصفاديق ورقع  
الشطرنج والمائلات<sup>(\*)</sup> والخراط<sup>(\*\*)</sup> . وحتى مشاحب القبعات كانت تصنع من الخزف  
المطلي بالمينا والمرصع بالذهب<sup>(١٠٧)</sup> ؛ وظهرت في ذلك الوقت لأول مرة القطع  
ذات اللون الأخضر اليشي<sup>(\*\*\*)</sup> المعروفة بالسلاذون<sup>(†)</sup> والتي أصبحت محاكاتها  
أهم ما يصبو إليه الفخراى في الوقت الحاضر ، كما أصبح اقتناؤها أهم ما يصبوا إليه  
جامع التحف<sup>(††)</sup> . وقد أرسل سلطان مصر في عام ١٤٨٦ نماذج منها إلى لورنزو ده

( \* ) في القاموس المائلة منارة المرسجة وقد استمرناها ( لشمندان ) .

( \*\* ) الشبيه بخضرة اليش .

( † ) اسم أطلقه عليها الفرنسيون في القرن السابع عشر وهو مأخوذ من اسم بطل براياقة  
الكوكب « Astroe » تأليف دورفيه . وكان ذا البطل إذا مثلت الرواية يرتدى حل اللوام  
ملابس خضرا<sup>(١٠٨)</sup> .

( †† ) وليس أصعب من محاكاتها عند الغربيين إلا اقتنؤها ، ذلك أن اليابانيين —

ميديشى ، وكان الفرس والأتراك يقدرونها لا لنعومة ملمسها وشدة برقيها  
فحسب ، بل لأنها فوق هذا تكشف عن وجود السم ، فقد كانوا يمتقدون أن  
تلك الآنية يتغير لونها إذا وضعت فيها مواد مسمومة<sup>(١٠٩)</sup> . وترى أسر الخبيرين  
المولعين بهذا الفن يتوارثون هذه القطع جيلا بعد جيل ؛ ويحتفظون بها احتفاظ  
الناس بأمن الكفوز<sup>(١١٠)</sup> .

ولقد ظل الصنّاع فى عهد أسرة منج نحو ثلثمائة عام يبذلون أقصى ما يستطيعون  
من جهود ليحتفظوا بفن الخزف فى المستوى الرفيع الذى بلغه فى عهد أسرة  
سونج ، وليس فى مقدورنا أن نقول إنهم مجزوا عن بلوغ هذه الغاية . وكان فى  
چنجد ده — چن خمسمائة أتون لحرق الخزف ، وكان البلاط الإمبراطورى وحده  
يستخدم ٩٦٠٠٠ قطعة خزفية لتزيين حدائق القصور وموائدها وحجراتها<sup>(١١١)</sup>  
وظهرت فى أيام هذه الأسرة أول قطع جيدة من الميناء التى حرقت ألوانها بعد  
ترجيحها . وأتقن إلى أقصى حدود الإتقان صنع اللون الأصفر الواحد ؛ والخزف  
الأزرق والأبيض القذى يشبه فى رفته قشر البيض ، ولا يزال القدح الأزرق  
والأبيض المطعم بالقضبة والمسمى باسم الإمبراطور واندى ( أو شن دزونج ) يعد  
من آيات فن الخزف فى العالم كله إلى هذه الأيام .

وكان هاوشى — جى من أبرع صنّاع الخزف وأعظمهم خبرة فى أيام واندى .  
وكان فى مقدوره أن يصنع أقداحاً للنبىذ لا يزيد وزن الواحد منها على جرم من  
ثمانية وأربعين جزءاً من الأوقية ، ويروى أحد المؤرخين الصينيين أن هاوشى — جى  
زار فى يوم من الأيام بيت موظف كبير ، واستأذنه فى أن يفحصه ، وعن وعاء من الخزف  
ذى ثلاث أرجل ، تملكه هذا الكبير ويعد من أمن ما صنّع فى عهد أسرة سونج .

---

— قد جمعوا منقطع السلادون الصينية الدائمة الصيت ، وهم يأبون أن يبيوها مهما  
عرض عليهم من الثمن . وقد عجز صنّاع الخزف المتأخرون عن مجازاة ثنائى عهد أسرة سونج  
فى هذا المضمار .



وأخذ هاو يلمس الإناء بيديه برقة ولطف ، وهو ينقل ما عليه من الرسوم سرا على قطعة من الورق مخبأة في كفه . ثم عاد لزيارة هذا الموظف بعد ستة أشهر من زيارته الأولى ، وقال له : « إنك يا صاحب السعادة تمتلك مبخرة ذات ثلاث أرجل من الدنج — ياو الأبيض<sup>(٥)</sup> ، وها هي ذى مبخرة مثلها أمتلكها أنا » . وأخذ نانج الموظف الكبير يوازن بين هذه المبخرة ومبخرته ، ولكنه لم يستطع أن يتبين فرقاً ما بينهما . وبلغ من تشابههما أن قاعدة مبخرة الفنان وغطاها قد واءما بمبخرته كل المواءمة . وأقر هاو وهو بيتسم أن مبخرته تقليد لمبخرة العظيم ، ثم باعها نانج بستين قطعة من الفضة ، وباعها هذا بعدئذ بألف وخمسةائة<sup>(١١٣)</sup> .

وقد بلغت صناعة الخطوط الفاصلة بين الميئات أقصى حد من الإتقان في عهد أسرة منج . ولم يكن منشأ هذا الفن في بلاد الصين بل جاء إليها من بلاد الشرق الأدنى في أيام الدولة البيزنطية ، وكان الصينيون يسمون مصنوعات هذا الفن في بعض الأحيان جوى جود ياو ، أى آنية بلاد الشياطين<sup>(١١٣)</sup> . وهذا الفن يتكوّن من قطع شرائح من النحاس أو الفضة أو الذهب ، وتثبيتها على حدها فوق خطوط شكل رُسيم من قبل على جسم معدنى ، ثم ملء ما بين هذه الفوارق من فراغ بمينا من اللون المطلوب الملائم لها ، ثم تعريض الإناء بعدئذ للنار عدة مرات وذلك السطح الصلب بقطعة من حجر الخفاف وصقله بقطعة من فحم الخشب ، ثم تزليق أطراف الحواجز المعدنية الظاهرة . وأقدم ما عرف من منتجات هذا الفن في الصين سرايا استوردتها نارا في اليابان في منتصف القرن الثامن عشر . وأقدم الأواني المحددة التاريخ ترجع إلى أواخر العهد المغولى أو إلى أيام أسرة يوان ، وأحسنها كلها ما صنع في أيام الإمبراطور چنچ دى

(٥) وهو الاسم الذى كان الصينيون يطلقونه على نوع من الخزف فى لون العاج كان يصنع فى عهد أسرة سونج .

من أباطرة المنشو العظماء في القرن الثامن عشر الميلادي .

ودمرت المصانع التي كانت قائمة في عهد أسرة چنچ ده — چین في أثناء الحروب التي قضت على أسرة منج ، ولم تعد إلى سابق عهدها إلا بعد أن جلس على العرش إمبراطور من أعظم أباطرة الصين استنارة وهو الإمبراطور كآنج—شى ، وكان ملكاً أصيلاً جمع كل صفات الملوك كما جمعها معاصره لويس الرابع عشر . وقد أمر هذا الملك بإعادة بناء مصانع چنچ ده — چین ، وسرعان ما أوقدت النار في ثلاثة آلاف مصنع أخذت تعمل عملها المتواصل ، فأخرجت خزفاً جميلاً ظريفاً بلغ من الكثرة درجة لم تر الصين ولا غيرها من البلاد مثيلاً لها من قبل . وكان صناع كآنج شى يظنون أن آنتهم أقل جودة مما صنع في عهد أسرة منج ، ولكن الخبيرين بأصول الفن في هذه الأيام لا يوافقونهم على رأيهم ، بل يرون أن الأشكال القديمة قد قللت تقليداً بلغ أقصى درجات الكمال ، وأن أشكالاً جديدة كثيرة العدد مختلفة الأنواع قد ابتكرت وارتقت رقياً عظيماً .

وكان في مقدور الفنانين في عهد أباطرة المنشو أن يغطوا عجينة الخزف بطبقة زجاجية تختلف عنها في سرعة انصهارها ، فأخرجوا بذلك أواني ذات سطح مسنن ؛ ثم كان في مقدورهم أن ينفخوا فقاعات من اللون على السطح الزجاجي فأخرجوا بذلك الصحف الرفيعة المغطاة بدوائر صغيرة من الألوان . وأتقنوا كذلك فن التلوين بلون واحد وأخرجوا ظلالاً من اللون الأحمر الخوخى ، والمرجاني ، والياقوتي ، والقرمزي ، ودم الثور (الأحمر القاتم) والوردي ؛ وأخرجوا من اللون الأخضر الخياري ، والتفاحي ، والطاوسي ، والنباتي ، والسلادون (الأخضر الحائل) ؛ ومن اللون الأزرق « المزران » ، والساوي ، والبنفسجي الفاتح ، والفيروزجي ؛ ومن اللونين الأصفر والأبيض ضروباً ملساء مخملية كل ما يستطيع الإنسان أن يصفها به أنها النعومة ذاتها ترى رأي العين . وابتدعوا أعماطاً مزخرفة يطلق عليها جامعو التحف الفرنسيون الأسر الوردية ؛ والخضراء ،

والسوداء ، والصفراء<sup>(\*)</sup> . وقد أتقنوا ذلك الفن الشاق فن تعدد الألوان بتعريض الإناء في التنور إلى تيارات متعاقبة من الهواء الصافي والحمل بالسناج — الأول يُدخل فيه الأكسجين ، والثاني يمتصه منه — بحيث يتحول الطلاء الزجاجي الأخضر إلى لُهب متعدد الألوان . وكانوا يرسمون على بعض انيتهم صور كبار الموظفين في أبواب قضاة ذات ذبول طويلة ، فابتدعوا بذلك طراز الآنية المعروفة « بالندرين » ( طراز كبار الموظفين ) . وكانوا يرسمون أزهار البرقوق باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء ( أو سوداء في قليل من الأحيان ) ، وهم الذين ابتدعوا ما للزهريات التي في صورة العوسج من رقة ورشاقة .

وكان آخر ما سر به الخزف الصيني من عهود المجد في عهد تشين لويج الرخي الطويل . ولم يقل الإنتاج في ذلك العهد عما كان عليه في العهود التي تقدمته ، كما أن مهارة الصناع الممتازين لم تفقد شيئاً من عظمتها وتفوقها وإن لم تحفظ بعض الأشكال الجديدة بما كانت تحظى به مبتكرات عهد كانج شى من نجاح . وقد بلغت الأُسرة الورديّة في هذا العهد أعلى درجات الكمال . فقد انتشرت فيها نصف أزهار الطبيعة وفاكتها فوق أبهى الطبقات الزجاجية ، كما كان ذوق الثراء المترفون يستخدمون الخزف الثمين الذي لا يزيد سمكه على سمك قشرة البيض غطاء لأضواء المصابيح<sup>(١١٤)</sup> . ثم شبت نار فتنة سى — پنج ودامت حمسه عشر عاماً جرت فيها الدماء أنهاراً ، ودُمّرت خمس عشرة ولاية من الولايات الصينية ، وهدمت ستائة مدينة ، وأهلكت عشرين مليوناً من الرجال والنساء . وأقمرت أسرة المنشو إققراراً اضطرها إلى أن تحبس معوتها عن مصانع الخزف ، فأغلقت هذه المصانع أبوابها ؛ وتشتت صناعاتها في أنحاء العالم المضطرب . ولم يبق فن الخزف الصيني حتى الآن مما أصابه من الهمار في أثناء هذه الفتنة

(\*) وفي متحف الفن بمدينة نيويورك أتمودجان ممتازان من المجموعتين الأخيرتين .

الصماء ولعله لن يفيق منها أبداً . ذلك ان عوامل أخرى قد ضاعفت من آثار



شكل ٩ - مزهرية عليها نقش لشجرة العضة

من عهد كانبج - شي

الحرب الطويلة ومن امتناع الرعاية الإمبراطورية؛ منها أن نمو تجارة الصادرات قد أغرى الفنانين بأن يخرجوا قطعاً خزفية توأم ذوق المشتريين الأوربيين . وإذا كان ذلك الذوق لا يبلغ من السمو ما بلغه ذوق أهل الصين فإن القطع المنحطة طردت القطع الثمينة من التداول ، كما تطرد العملة الرديئة العملة الطيبة حسب قانون جريشام<sup>(\*)</sup> .

وما أن حل عام ١٨٤٠ حتى شرع مصنع إنجليزى أقيم في مدينة كانتون يخرج أنواعاً منحطة من الخزف ويصدرها إلى أوروبا ويسمها « الأواني الصينية » . ثم قامت مصانع في سيفر بفرنسا ، وما بسن في ألمانيا وبورسلم في إنجلترا تماكي خزف الصينيين ، وقللت من نفقات الإنتاج باستخدام الآلات ، وأخذت تستحوذ عاماً بعد عام على تجارة الخزف الصينية الخارجية .

وكل ما بقي حتى الآن هو ذكرى ذلك الفن الذى خسره العالم خسارة كاملة لاتكاد تقل عن خسارته لزجاج العصور الوسطى الملون . ولقد عجز الخزافون الأوربيون رغم ما بذلوه من محاولات وجهود جبارة عن أن يبلغوا ما بلغه الخزافون الصينيون من الدقة والمهارة . وحسب الفنانين الصينيين نفراً أن الخبراء العالميين يضاعفون في كل عقد من الستين أثمان ما بقي من روائع فن الخزف الصيني ، فتراهم يطلبون خمسمائة ريال ثمناً لقدح الشاي ، ويبيعون المزهرية التي في صورة شجرة العوسج بثلاثة وعشرين ألف ريال ، وفي عام ١٧٦٧ وصل ثمن إناءين من الخزف بلون العقيق يعرفان « بكلي فو » في أحد المزادات إلى خمسة أضعاف ما وصل إليه ثمن صورة « الطفل يسوع » لجيدروتى ، وإلى ثلاثة أمثال ما وصل إليه ثمن صورة « الأسرة المقدسة » لرفائيل<sup>(١١٥)</sup> . على أن كل من أحس بعينه وأصابه ، وبكل عصب من أعصاب جسمه ، جمال الخزف الصيني بغضب

---

(\*) هو قانون النقد المشهور الذى يقول إنه إذا وجد في بلد ما عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة فإن العملة الرديئة لا تلبث أن تطرد العملة الجيدة . ( المترجم )

بلا ريب من هذا التقدير الضئيل وبعده إهانة للفن الصيني وازدراء به وتدنيماً  
لقدسيته . ذلك أن دنيا الجمال ودنيا الملل لا تلتقيان أبداً حتى في الوقت الذي  
تباع فيه الأشياء الجميلة . وحسبنا تقديراً للخزف الصيني أن نقول إن هذا الخزف  
هو ذروة الحضارة الصينية ورمزها ، وإنه من أنبل ما صنعته الجنس البشري ليبرر  
به وجوده على ظهر الأرض . -

# الباب السادس والعشرون

## الشعب والدولة

### الفضل الأول

#### نبذة تاريخية

#### ١ - ماركو بولونيوزور كوبيلاي خان

رسالة لا يصدّقون - يندق في الصين - جمال هانجتشان ورخاؤها - قصور  
بيجينج - فتح المغول - چنكيز خان - كوبيلاي خان - أخلاقه  
وسياسته - ساؤه - «ماركو الملايين»

في عصر البندقية الذهبي حوالي عام ١٢٩٥ أُقبل على المدينة رجلان طاعتان في السن ومعهما رجل كهل ، وقد أنهكهم التعب وأضنتهم الأسفار ، يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالا بالية ، ويعلمهم العثير ، ثم طلبوا إلى أهل المدينة أن يأذنوا لهم بدخول موطنهم الذي غادروه كما زعموا منذ ستة وعشرين عاماً ، فلما تردد مواطنوهم في الإذن لهم دخلوا المدينة على الرغم منهم . وقال ثلاثتهم إنهم جاؤوا بحاراً مفعمة بالأخطار ، وصعدوا فوق جبال وهضاب شائخة ، واجتازوا صحارى ملاءى باللصوص وقطاع الطريق ، واخترقوا السور العظيم أربع مرات ، وأقاموا عشرين عاماً في الخطأ(\*) ، وخدموا أعظم ملك في العالم كله . وأخذوا يمدنون مواطنيهم عن إمبراطورية أوسع رقعة ، ومدن أكثر سكاناً ، وحاكما

(\*) الاسم الذي يطنقه الروس على بلاد الصين وهو في الأصل اسم قبيلة مغولية ، وقد حور الإنجليز هذا الاسم فجعلوه كاثاي Cathay . ( المترجم )

أعظم ثروة ، من كل ما عرفته ومن عرفته قارة أوروبا ؛ وعن حجارة تتخذ للتدفئة ، وورق يتعامل به الناس بدل الذهب ، وعن بندق الواحدة منه أكبر من رأس الإنسان ، وعن أم تقف بكاراة الفتيات فيها حجر عثرة في سبيل الزواج ، وأم غيرها يقدم المضيف فيها لضيوفه أزواجه وبناته ليستمتعوا بهن وهن راضيات<sup>(١)</sup> . ولم يجد هؤلاء القادمون من أهل المدينة من يصدقهم ، وأطلقوا على أصغر الثلاثة وأكثرهم ثروة لقب « ماركو الملايين » لأن ما كان يرويه لهم من القصص كان مملوءاً بالأعداد الكبيرة العجيبة<sup>(٢)</sup> .

ولم يبتئس ماركو وأبوه وعمه من هذا المصير ، بل رضوا به مسرورين ، لأنهم جاءوا معهم بكثير من الأحجار الكريمة من حاضرة البلاد القاصية ، وأنت لهم هذه الأحجار بثروة رفعت منزلتهم في مدينتهم . ولما دارت رحى الحرب بين البندقية وجنوى في عام ١٢٩٨ عقد لواء إحدى السفن الحربية لماركو ، فلما أن استولى الأعداء على هذه السفينة وألتي هو في أحد سجون جنوى حيث مكث عاماً كاملاً ، أخذ يسلى نفسه بأن يملئ على أحد الكتبة أشهر كتاب في الأسفار في آداب العالم ؛ وقد قص فيه بأسلوب ساخر جميل خال من التكلف والتعقيد كيف غادر هو وأبوه نيقولو وعمه مافيو مدينة عكا ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وكيف تسلقوا جبال لبنان واجتازوا أرض الجزيرة إلى الخليج الفارسي ، ثم اخترقوا بلاد فارس وخراسان وبلخ حتى وصلوا إلى هضبة الپامير ، ثم انضموا إلى بعض القوافل وساروا معها سيراً بطيئاً إلى كاشغر وخوتان ، ثم اجتازوا صحراء جنوى إلى تنجوت ، ثم اخترقوا السور العظيم إلى شآنجتو حيث استقبلهم الخان الأكبر بوصفهم رسلاً أذلاء من العرب الناشئ<sup>(٣)</sup> .

---

(\*) شآنجتو هي المدينة التي يسميها الشاعر الإنجليزي كولردج « رندو » ، ولم يرتد أحد من الرحالة بعد ماركوپولو (إلا واحد منهم نسيه الناس على مر الأجيال) أقاليم آسية الوسطى التي وصفها إلا في عام ١٨٣٨ .



ولم يكونوا يظنون أنهم سيقومون في الصين أكثر من عام أو عامين ، ولكنهم وجدوا في تلك البلاد من الأعمال المحزية والفرص التجارية المربحة تحت حكم كوبلاي ما حملهم على البقاء فيها ما يقرب من خمسة وعشرين عاماً . وأثرى ماركو بنوع خاص وارتقى في مناصب الدولة حتى عين حاكماً على هانجتشوا . ويصفها ماركو في كتابه وصف المعجب بها الحافظ لعهدها ، فيقول إنها أرقى من بلاد أوروبا بأجمعها في جمال مبانيها وجسورها وفي عدد مستشفياتها العامة ورشاقة دورها ذات الحدائق ، وكثرة ما فيها من وسائل المتعة والفساد ، وجمال سراريها وسعرهن ، وقدرة حكامها على الاحتفاظ بالأمن العام والنظام ، ورقة أهلها وحسن أخلاقهن ، ويقول إن محيط المدينة يبلغ مائة ميل وإن :

« طرقاتها وقنواتها عريضة تتسع أولاً لمرور العربات وأخراً لمرور السفن محملة بالبضائع التي يحتاج إليها ساكنوها . والشائع على ألسنة الناس أن عدد ما فيها من الجسور على اختلاف أحجامها يبلغ اثني عشر ألفاً ، وأن الجسور الممتدة فوق القنوات الكبرى والمتصلة بالشوارع الرئيسية مقامة على عقود عالية وبمهارة فائقة تستطيع معها السفن أن تمر من تحتها مبسوطة الشراع ، كما تستطيع العربات والخيول أن تمر من فوقها لتدرج الحدارها من الشوارع إلى أعلى العقود ... وفي داخل المدينة عشرة ميادين رئيسية وأسواق عامة غير ما فيها من الحوانيت التي يخطئها الحصر ، والممتدة على جانبي شوارعها . . . . . ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع هذه الميادين نصف ميل ، وأمام الميدان يمتد الشارع الرئيسي ويبلغ عرضه أربعين خطوة ، ويسير مستقيماً من أحد طرفي المدينة إلى الطرف الآخر . وتجرى في اتجاه مواز إلى اتجاه الشارع الرئيسي ... قناة كبيرة أقيمت على شاطئها الجاور للمدينة مخازن واسعة مشيدة من الحجارة يأوى إليها التجار القادمون من الهند وغيرها من الأقطار ، ومعهم بضائعهم ومتاعهم . وبهذه الطريقة يسهل عليهم الاتصال بالأسواق العامة . ويجتمع في كل سوق من هذه الأسواق مدة ثلاثة أيام

فى كل أسبوع نحو أربعين أو خمسين ألف شخص ...  
والشوارع كلها مرصوفة بالحجارة والآبر ... والشارع الرئيسى فى المدينة  
مرصوف منه على الجانبين مسافة قدرها عشر خطوات ، أما ما بينهما فملوه  
بالحصباء الصغيرة ومن تحتها مصارف مقيمة تجرى فيها مياه الأمطار تنقلها إلى  
القنوات المجاورة بحيث يبقى الشارع جافاً على الدوام . والمركبات لا ينقطع  
مرورها على هذه الحصباء جيئة وذهاباً . وهى طويلة الشكل مغطاة من أعلاها ،  
ولها ستائر ووسائد من الحرير وتتسع لسته أشخاص ، يستأجرها أهل المدينة  
رجالاً كانوا أو نساء ممن يميلون إلى التنزه والاستمتاع بركوبها ...  
ومن حول الأماكن فى جميع الجهات مسارح لصيد الحيوان على اختلاف  
أنواعه ... ولا يبعد البحر عن المدينة أكثر من خمسة عشر ميلاً ، وتحمل إليها منه  
فى كل يوم عن طريق النهر كميات كبيرة من السمك ... وإذا رأى الإنسان هذا  
السمك حين يأتى إلى المدينة ظن أول وهلة أنه لن يباع كله فيها ، ولكنه لا تمضى  
على مجيئه إليها إلا ساعات قليلة حتى يباع عن آخره وذلك لكثرة من فيها  
من السكان ... والشوارع المتصلة بالسوق كثيرة العدد وفى الكثير منها حمامات  
باردة يشرف عليها خدم وخادمات . وقد اعتاد من يتردد عليها من رجال ونساء  
أن يستعموا فيها بالماء البارد منذ صفرهم لاعتقادهم أن الاستحمام بالماء البارد  
مفيد لأجسامهم . لكن هذه الحمامات قد أعدت بجوارها مع ذلك حجرات مجهزة  
بالماء الساخن ليستحم فيها الغرباء الذين لا يتحملون الماء البارد . ومن عادة الأهلين  
كلهم أن يفتسلوا فى كل يوم وخاصة قبل وجبات الطعام ...  
وخصت فى شوارع أخرى من المدينة أحياء للماهرات وهن يبلغن من  
الكثرة حدّاً لا أجرو على ذكره ... وهؤلاء النسوة يلبسن الملابس الجميلة ،  
ويتعطرن ، ويسكن فى بيوت جميلة الأثاث ، ويقوم على خدمتهن كثيرات  
من الخادمات .

وفي شوارع أخرى يقيم الأطباء والمنجمون ... وقد أنشئت على جانبي شارع المدينة الرئيسي بيوت وقصور رحبة ... وأهل المدينة كلهم رجالا كانوا أو نساء بيض الوجوه على جانب كبير من الجمال، يرتدى معظمهم ملابس من الحرير ... والنساء ذوات جمال بارع ويعودن من صفرهن الرقة والحفاة، وليس في وسع من لم يشهد هؤلاء النسوة أن يتصور ما يتحلين به من حرير وجواهر<sup>(٣)</sup>.

وقد أعجب ماركو بولو بمدينة بيجنج (أو كبلوك كما كانت تسمى وقتئذ) أكثر من إعجاب بهانجتشاو نفسها، فهو إذ تحدث عنها عجزت ملاينته عن وصف ثروتها وتعداد عاصرها. وكانت ضواحي المدينة الاثنتا عشرة أجيل منها نفسها، ذلك بأن رجال الأعمال قد شادوا في هذه الضواحي كثيراً من البيوت الجميلة<sup>(٤)</sup> وكان في المدينة نفسها كثير من الفنادق وآلاف المتاجر الثابتة والمتنقلة. وكان الطعام فيها على اختلاف أنواعه موفوراً، وكان يدخلها في كل يوم ألف حمل من الحرير الخام لتصنع ملابس لأهلها. وقد كان للخان قصور في هانجتشاو وشانجتو وغيرها من المدن ولكن أكبر قصوره كان في بيجنج نفسها. وكان يحيط بهذا القصر سور من الرخام ويصمد إليه بدرج من الرخام أيضاً. وكان مبناه الرئيسي كبيراً « يتسع لأن تمد فيه موائد الطعام لجماعات كبيرة من الناس ». وقد أعجب ماركو بتنظيم الغرف، وبنوافذها البراقة الدقيقة الشفافة، وبما ينفى سقفا من قرميد مختلف الألوان، ويقول إنه لم ير في حياته مدينة في مثل غناها ولا ملكاً في عظمة ملكها<sup>(٥)</sup>.

وما من شك في أن الشاب البندقى قد تعلم اللغة الصينية حتى استطاع أن يتحدث بها ويقراها، ولعله عرف من المؤرخين الرسميين كيف فتح كوبلاي وأسلافه المغول بلاد الصين. وكان سبب غزوات المغول أن ما أصاب الأقاليم الممتدة بإزاء حدود الصين الشمالية الغربية من جفاف قد أحالها صحراء جدهاء

عاجزة عن الوفاء بحاجة أهامها الأقوياء ، فاندفع المغول ( أى البواسل ) إلى شن الغارات المستيئة لامتلاك بلاد أخصب من بلادهم وأوفر منها أرزاقاً . وكان نجاحهم فى غاراتهم سبباً فى تقوية روحهم العسكرية ونزعتهم الحربية ، فلم يقفوا فى فتوحهم إلا بعد أن اكتسحت جحافلهم بلاد آسية كلها إلا القليل منها ، وأجزاء من أوربا . وتقول الروايات إن قائدهم الجبار جنكيزخان قد ولد وفى كفه جلطة من الدماء ، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره أخذ يؤلف بين قبائل المغول ويجمعها تحت لوائه . واتخذ الإرهاب وسيلة إلى هذا الجمع ، فكان يصلب الأسرى على حمير من الخشب ، أو يقطعهم إرباً ، أو يقلى أجسامهم فى القدور ، أو يسلىخ جلودهم وهم أحياء . ولما تلقى من إمبراطور الصين تنج دزونج رسالة يدعوه فيها للخضوع بصق فى اتجاه عرش التنين ، وبدأ من فوره حملته مجتازاً ألفاً ومائتين من الأميال فى قلب صحراء جوى ؛ وهم على ولايات الصين الغربية ، ودمر من مدائنها تسعين مدينة سواها بالأرض حتى يستطيع الفرسان أن يسيروا فوق الأراضى الخربة فى الظلام دون أن تغتر خيولهم . وظل « عاهل العالم » خمس سنين كاملة يخرب فى بلاد الصين الشمالية . ثم أزعمه اقتران كوكبين من الكواكب رأى فى اقترانهما نذير مشئوم ، فقفل راجعاً إلى قريته ، ولكنه مرض ومات فى الطريق .

وواصل خلفاؤه أو جوادى ، ومانجو ، وكوبلاى حملاته بقوة همجية ؛ وكان الصينيون قد أهملوا فنون الحرب ووجهوا همهم كله مدة قرون عدة إلى الثقافة ، فلم يثبتوا أمام الغزاة بل خروا صرعى يجلهم العار القومى والبطولة الفردية ، وثبت أحد حكام الصين فى چويتنج — فو وصمد للحصار حتى قتل المحاصرون كل من كان فى المدينة من الشيوخ والعاجزين وأكلوا لحومهم ، وهلك جميع القادرين على القتال ولم يبق لحراسة الأسوار إلا النساء ، ثم أشعل النار فى المدينة واحترق هو نفسه فى قصره . واجتاحت جيوش كوبلاى بلاد الصين حتى وقفت أمام

كتنون آخر ملجأ لجأت إليه أسرة سونج الحاكمة . فلما عجزت الجيوش الصينية عن المقاومة حمل لوشى يوفو القائد الصيني الإمبراطور الغلام على ظهره وألقى به وب نفسه في البحر فاتا معاً . ويقال إن مائة ألف من الصينيين آثروا الموت غرقاً على التسليم للفاتح المغولي . وأسر كوبلاى أن يحتفل بجزاة الإمبراطور احتفالاً رسمياً كبيراً ، وشرع يؤسس الأسرة اليوانية « الأصيلة » وهى الأسرة المغولية التى حكمت الصين أقل من مائة عام .

ولم يكن كوبلاى نفسه بربرياً همجياً . وليس أهم ما يستثنى من هذا الوصف هو سياسته الغادرة لأن الغدر كان من الأخلاق الشائعة فى تلك الأيام ، بل أهم ما يستثنى منه هو ما عامل به ون تيان — شيانج ، وهو عالم وطنى أبى أن يترف بحكومة كوبلاى وفاء منه لأسرة سونج . فألقاه كوبلاى فى السجن ومكث فيه ثلاث سنين ولكنه أبى أن يخضع وكتب فى سجنه تلك القطعة التى تعد من أشهر ما كتب فى الأدب الصينى كله :

إن سجنى لا يضيؤه إلا الصيهد ولا تدخله نسمة من نسبات الربيع لتؤنسنى فى وحدتى وتخفف بعض ظلمته ... وكثيراً ما فكرت فى أن أقضى على نفسى من فرط ما أتر فى من الضباب والندى ، ولكن الموت ظل عامين كاملين يحوم حولى ولا يقضى علىّ ؛ وأضحت الأرض الرطبة المضرة بالصحة جنة الفردوس نفسها . ذلك بأنه كان يستقرين جوانحى مالا تستطيع الناثبات أن تفتصبه منى ، ولهذا بقيت مطمئن القلب ثابت الجنان أتطلع إلى السحب البيضاء فوق رأسى وأطوى قلبى على آلام لا حد لها كما لا حد للسماء .

واستدعاه كوبلاى آخر الأمر إلى المثول بين يديه وسأله الملك قائلاً : « أى شىء تريد ؟ » فجا به ون بقوله : « لقد عطف علىّ إمبراطور سونج فجعلنى وزيراً لجلالته ، وليس فى وسعنى أن أخدم سيدين ، وكل ما أطلبه أن أموت ! » . وأجابه كوبلاى إلى ما طلب ؛ وبينما كان ون ينتظر أن يهوى سيف الجلاد على

عنقه انحنى فى خضوع واحترام نحو الجنوب كان الإمبراطور من آل سونج لا يزال يحكم فى نانكنج العاصمة الجنوبية<sup>(٧)</sup> .

ومع هذا فقد أوتى كوبلاى من الحكمة ما جعله يعترف بتفوق الصينيين على المغول فى ميدان الحضارة ، ويعمل من أجل هذا على مزج عاداتهم بعادات أهل بلاده . وكان لا بد له أن يلقى نظام تقلد المناصب العامة بالامتحان ، وذلك لأنه لو اتبع هذا النظام لكان جميع الموظفين فى حكومته من الصينيين ، ثم قصر معظم الوظائف الكبرى على أتباعه من المغول وحاول وقتاً ما أن يدخل إلى البلاد الحروف الهجائية المغولية ، ولكنه قبيل هو وأتباعه فى معظم شئونهم حضارة الصين ، وما لبثوا أن استغلوا بفضل هذه الحضارة أمة صينية . وما يذكر له أنه أباح ما كان فى الصين من ديانات ، وشجع دخول الديانة المسيحية فى البلاد لأنه رأى فيها أداة صالحة لتهدئتها وبسط سلطانه عليها . وأعاد فتح القناة العظمى بين تيننسين وهنجتشاو ، وأصلح الطرق الكبرى ، وأنشأ نظاماً سريعاً للبريد فى أقاليم أوسع رقعة من البلاد التى خضعت لحكومة الصين منذ جلس على عرشها ، وأقام فى البلاد أهراء عامة عظيمة ليخزن فيها ما يفيض عن حاجتها من المحصولات الزراعية ليوزعها على الأهالي فى أيام القحط ، وألقى الضرائب عن جميع الزراع الذين أضر بمزروعاتهم الجفاف والعواصف والحشرات<sup>(٨)</sup> ، وأوجد نظاماً تعين الدولة بمقتضاه الشيوخ من العلماء والأيتام والعجزة ، وكان سخياً فى تشجيع التعليم والآداب والفنون وبسط رعايته عليها . وقد عدل التقويم فى أيامه ، وافتتح الجمع العلمى الإمبراطورى<sup>(٩)</sup> ، وشاد عاصمة جديدة للبلاد فى بيكين كانت لروعها وكثرة

(\*) وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول : « لا يكاد يمضى يوم واحد لا يوزع فيه الموظفون المختصون مائة عشرين ألف وعاء من الأرز والذرة والبنام . وقد كان لهذا الكرم للعظيم المدمش الذى يعامل به الخان العظيم الفراء من أهل البلاد أعظم الأثر فى نفوس الناس جميعاً فأحبوه وأجلوه . »

عاصرها موضع إعجاب من يزورها من الغرباء ، وشيدت القصور وازدهرت العمارة  
ازدهاراً لم تر الصين له مثيلاً من قبل .

ويقول ماركو پولو : « وقد كان پولو حاضراً في البلاد حين كان هذا كله  
يحدث فيها »<sup>(١٠)</sup> واتصل الشاب بالخان وتقرّب إليه واستطاع بذلك أن يصف  
لنا ضروب تسليته وصفاً مفصلاً ينم عن إعجابه الشديد به ؛ ويقول إنّه كان للخان  
فضلاً عن زوجاته الأربع اللاتي يسمين بالإمبراطورات عدد كبير من السراري  
جاء بهن من أنجوت في بلاد التتار لأن الإمبراطور كان يعجب بجمال نساء تلك  
البلاد . ويضيف ماركو إلى هذا قوله إن عدداً من الموظفين المشهود لهم بحسن  
الدوق كانوا يرسلون إلى هذا الإقليم ليخدموا لخدمة جلالة الإمبراطور مائة من  
الفتيات حسب الأوصاف التي كان هو نفسه يعنى بوصفها أشد العناية .

فإذا ما مثلن أمامه ، أمر أن تختبرهن اختباراً جديداً طائفة أخرى من  
الباحثين وأن يختار من بينهن ثلاثون أو أربعون فتاة يستبقين في قصره ... ثم  
يمهد بكل واحدة منهن إلى إحدى كبار السيدات في القصر لتتأكد من أنها  
ليس فيها شيء من العيوب التي تخفى عن الأعين وأنها تمام نوماً هادئاً ، ولا تغط  
في أثناء نومها ، ولا تنبث راحه كريهة من أي جزء من أجزاء جسمها . فإذا  
ما نجحن في هذا الاختبار الدقيق قسمن جماعات كل منها مؤلفة من خمس نقيم  
في حجرة جلالتة الداخلية ثلاثة أيام وثلاث ليال يؤدين في خلالها كل ما يطلب  
إليهن من خدمات ويفعل بهن ما يشاء : فإذا ما انقضت هذه الفترة حلت محل  
تلك الجماعة جماعة أخرى وهكذا دواليك حتى تأخذ كل جماعة دورها ثم تعود  
الجماعة الأولى إلى الخدمة من جديد<sup>(١١)</sup>

\* \* \* \*

وبعد أن أقام ماركو پولو هو وأبوه وعمه عشرين سنة في بلاد الصين اغتتم  
ثلاثتهم فرصة قيامهم بمهمة إلى الفرس ، وأقدم بها الخان ، فعادوا إلى بلادهم بأقل

النفقات وأقل ما يمكن أن يتعرضوا له من الأخطار . وبعث معهم كوبلاي برسالة إلى البابا ، وحباهم بجميع ما كان معروفاً في ذلك الوقت من التسهيلات للمسافرين ، وقضوا في طوافهم ببحراً حول شبه جزيرة الملايو إلى الهند وفارس وفي رحلتهم البرية إلى طربزون على البحر الأسود وأخيراً في رحلتهم البحرية إلى البندقية ثلاث سنين . ولما وصلوا إلى أوربا عرفوا أن الخان والبابا قد توفيا<sup>(\*)</sup> . وعمر ماركو طويلا فلم يستسلم للموت حتى بلغ السبعين من عمره . فلما حضرته الوفاة طلب إليه أصدقاؤه أن ينجي نفسه من العذاب في الدار الآخرة بمحو ما ورد في كتابه من العبارات الواضحة البطلان ولكنه أحمهم برده عليهم : « إنني لم أذكر في كتابي نصف ما شاهدته » .

ولم يمض على وفاته إلا وقت قصير حتى أصبح من العادات المألوفة في حفلات البندقية الساخرة أن يرتدى شخص ثياب المهرجين ليسر الناس في تلك الاحتفالات بما ينطق به من المبالغات غير المعقولة ؛ وكان يطلق على هذا المهرج المساجن اسم « ماركو الملايين » :

## ٢ - أسرتا منج وبنج

سقوط المغول - أسرتا منج - غزو المنشو - أسرتا منج  
- ملك مستنبر - شين لونج يأبى قبول الأفكار الغربية

ولم تعرف الصين بعدئذ مثل هذا العهد الزاهر إلا بعد أربعة قرون ، فسرعان ما دب الاضمحلال في أسرتا يوان متأثرة بانتهيار سلطان المغول في أوربا وغرب آسيه وفي ذوبان المغول في جسم الشعب الصيني نفسه ، إذا جاز أن نلجأ إلى هذه العبارة السهلة المنحذقة لتعلل بها هذه الظاهرة التي تتكرر في جميع الأوقات . وهناك أسباب أخرى لا تقل عن هذين السببين قوة وخطراً ، ذلك أن إمبراطورية

(\*) لقد أثبت كوبلاي اعتناقه مبادئ الحضارة الأوربية بما أصيب به من داء القرمس .



كالصين مسعة الرقة ، قليلة التماسك من الناحية الطبيعية ، تفصلها الجبال والصحراوات والبحار لا يمكن أن تخضع إلى ما شاء الله لحكومة واحدة . وقد كان المغول رجال حرب خيراً منهم رجال حكم وإدارة ، ولذلك اضطر خلفاء كوبلاي خان أن يعودوا إلى نظام الامتحان وإلى الانتفاع بكفاية الصين الإدارية ، ولم يحدث الفتح المغولي أثراً يذكر في عادات الصينيين وأفكارهم إلا ما عسى أن يكون قد أدخله في الأدب الصيني من الروايات والمسرحيات . وتزوج الصينيون مرة أخرى من فاتحيهم ومدنوم وعلبوم على أمرهم . حتى إذا كان عام ١٣٦٨ تزعم أحد الكهنة البوذيين السابقين ثورة على هؤلاء الفاتحين ودخل بيكين منتصراً وأعلن نفسه أول إمبراطور من أسرة السنج (أي المتألقين) . وجلس على العرش في الجيل التالي ملك قدير من ملوك هذه الأسرة ، واستتمعت الصين في عهد يويج لومرة أخرى بمهد جديد من عهد الرخاء ، وعادت إلى تشجيع الفنون ، بيد أن عهد الأسرة « المتألقة » انتهى مع ذلك بفترة من الفوضى والاضطراب والغزو الخارجي ؛ وبينما كانت البلاد منقسمة إلى أحزاب متنافرة متعادلة اجتاحتها جحافل جديدة من الغزاة الفاتحين ، واقتحمت السور العظيم وحاصرت بيكين . تلك هي جحافل المنشو .

وكان للمنشوشعباً تنجوسياً ظل قرونًا كثيرة يعيش في البلاد التي تعرف الآن باسم منشوكو (أي مملكة المنشو) ، ومدوا فتوحهم في أول الأمر نحو الشمال حتى وصلوا إلى نهر عامور ، ثم اتجهوا نحو الجنوب وهجموا على عاصمة الصينيين . وجمع آخر أباطرة المنج أسرته حوله وشرب نخبهم ، وأسر زوجته أن تلتحق<sup>(\*)</sup> ، ثم شق نفسه بمنطقته بعد أن كتب آخر أوامره على طية ثوبه : « نحن الفقراء في النضيلة ، ذوى الشخصية الحقيرة ، قد استحققتنا غضب الله العلي القدير .

(\*) وصعدت بما أمرت ، ونقل الروايات الماثورة إن الكهيات من السراى قد حذون حنوما .

« لقد غررني وزرأني ، وإني لأستحي أن ألقى في الآخرة آبائي وأجدادي ، ولهذا فإني أخلع يدي تاجي عن رأسي ، وأنتظر وشمرى يغطي وجهي أن يقطع الثوار أشلائي ، لا تؤذوا أحداً من أبناء شعبي »<sup>(١٥)</sup> . ودفعه المنشو باحتفال يليق بكرامته وأسسوا أسرة الشننج ( الطاهرة ) التي حكمت الصين حتى عهدنا الثوري الحاضر .

وسرعان ما أصبحوا هم أيضاً صينيين واستتمعت البلاد تحت حكم كانج شي بعهد من الرخاء والسلام والاستنارة لم تعرف له مثيلاً في تاريخها كله . جلس هذا الإمبراطور على العرش وهو في السابعة من عمره ، فلما بلغ الثالثة عشرة أمسك بيده زمام الأمور في إمبراطورية لم تكن تشمل وقتئذ بلاد الصين وحدها بل كانت تشمل معها بلاد المغول و منشوريا وكوريا والهند الصينية وأنام والتبت والترستان . وما من شك في أنها كانت أكبر إمبراطوريات ذلك العهد وأكثرها ثروة وسكاناً . وحكمها كانج شي بحكمة وعدل حسدها عليهما معاصراه أورنجزيب ولويس الرابع عشر . وكان الإمبراطور نفسه رجلاً نشيطاً قوى الجسم والعقل ، ينشد الصحة في الحياة العنيفة خارج القصور ويعمل في الوقت نفسه على أن يلم بعلم تلك الأيام وفنونها . وكان يطوف في أنحاء مملكته ويصلح ما فيها من العيوب حيثما وجدها ، ومن أعماله أنه عدل قانونها الجنائي . وكان يعيش عيشة بسيطة ليس فيها شيء من الإسراف أو الترف ويمتصد في نفقات الدولة الإدارية ويفخر بالعمل على رفاهية شعبه<sup>(١٦)</sup> . وازدهرت الآداب والعلوم في أيامه بفضل تشجيعه إياها ومناصرتها ؛ وعادفن الخزف إلى أهل ما وصل إليه في أيام مجده السابقة . وكان متسامحاً في الأمور الدينية فأجاز كل العبادات ، ودرس اللغة اللاتينية على القساوسة اليسوعيين ، وصبر على الأساليب الغربية التي كان يتبعها التجار الأوروبيون في ثغور بلاده . ولما مات بعد حكمه الطويل الموافق ( ١٦٦١ — ١٧٢٢ ) كان آخر ما نطق به هو هذه الألفاظ : « إني

لأخشى أن تتعرض الصين في مئات أو آلاف السنين المقبلة إلى خطر الاصطدام مع مختلف الأمم الغربية التي تفد إلى هذه البلاد من وراء البحار<sup>(١٧)</sup> .  
وبرزت هذه المشاكل الناشئة من ازدياد التبادل التجارى والاتصال بين الصين وأوروبا مرة أخرى في عهد إمبراطور آخر قدير من أسرة المنشو هو شين لونغ . وكان هذا الإمبراطور شاعراً أنشأ ٣٤٠٠٠ قصيدة لإحداها في «الشاي» وصلت إلى مسامع قنشير فأرسل « تحياته إلى ملك الصين الفاتن »<sup>(١٨)</sup> ، وصوره المصورون الفرنسيون وكتبوا تحت صورته باللغة الفرنسية أبياتاً من الشعر لا توفيه حقه من الثناء يقولون فيها :

« إنه يعمل جاهداً دون أن يخلد إلى الراحة للقيام بأعمال حكومته المختلفة التي يعجب الناس بها . وهذا الملك أعظم ملوك العالم وهو أيضاً أعلم الناس في إمبراطوريته بفنون الأدب » .

وحكم الصين جيلين كاملين ( ١٧٣٧ — ١٧٩٦ ) ، ونزل عن الملك لما بلغ الخامسة والثمانين ، ولكنه ظل يشرف على حكومة البلاد حتى توفي ( ١٧٩٩ ) .  
وحدثت في آخر سنى حكمه حادثة كان من شأنها أن تذكر المفكرين من الصينيين بما أنذرهم به كإنج — شى ، فقد أرسلت إنجلترا بعد أن أثارت غضب الإمبراطور باستيراد الأفيون إلى بلاد الصين بعثة برئاسة لورد مكارتنى لتفاوض شين لونغ في عقد معاهدة تجارية بين البلدين . وأخذ المبعوثون الإنجليز يشرحون للإمبراطور المزايا التي تعود عليه من تبادل التجارة مع إنجلترا ، وأضافوا إلى أقوالهم أن المعاهدة التي يريدون عقدها سيفترض فيها مساواة ملك بريطانيا بإمبراطور الصين . فما كان من شين لونغ إلا أن أملى هذا الجواب ليرسل إلى جورج الثالث :

« إن الأشياء العجيبة الديمة لاقيمة لها في نظرى ؛ وليس لمصنوعات بلادكم فائدة لدى . هذا إذن هو ردى على ما تطلبون إلى من تعيين ممثل لكم في بلاطى

وهو طلب يتعارض مع عادات أسرتي ولا يعود عليكم إلا بالمتاعب . لقد شرحت لك آرائى مفصلة وأمرت مبعوثيك أن يغادروا البلاد فى سلام عائدين إلى بلادهم ، وخليق بك أيها الملك أن تحترم شعورى هذا ، وأن تكون فى المستقبل أكثر إخلاصاً وولاء مما كنت فى الماضى ، حتى يكون خضوعك الدائم لعرشى من أسباب استمتماع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام »<sup>(١٩)</sup> .

بهذه العبارات القوية الفخورة حاولت الصين أن تدرأ عنها شر الانقلاب الصناعى . ولكننا سنعرف فى الفصول التالية كيف غزت الثورة الصناعية البلاد رغم هذا الاحتياط . ولندرس الآن قبل الكلام على هذه الثورة العناصر الاقتصادية والسياسية والخلقية التى تتألف منها تلك الحصاراة الفذة للسنديرة الجديرة بالدرس ، والتى يبدو أن الثورة الصناعية ستقضى عليها القضاء الأخير .

## الفصل الثاني

### الصينيون ولغتهم<sup>(\*)</sup>

تعداد السكان - مظهرهم الخارجى - ملابسهم - خصائص  
اللغة الصينية - خصائص الكتابة الصينية

إن أول عنصر من عناصر الصورة التي سنرسمها في هذا الفصل هو عنصر العدد؛ فالصينيون كثيرون، وليس عددهم معروفاً بالضبط، وكل ما يقال عنه من قبيل الحدس والتخمين. ويظن بعض العلماء أن سكان الصين في عام ٢٨٠ ق.م كانوا يبلغون حوالي ١٤٠٠٠٠٠٠٠٠ وأنهم وصلوا في عام ٢٠٠ ق.م إلى ٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠ وفي عام ٧٢٦ ق.م إلى ٤١٥٠٠٠٠٠٠ وفي عام ١٦٤٤ بعد الميلاد إلى ٨٩٠٠٠٠٠٠٠٠ وفي عام ١٧٤٣ إلى ١٥٠٠٠٠٠٠٠٠ وفي عام ١٩١٩ إلى ٣٣٠٠٠٠٠٠٠٠<sup>(٢٠)</sup>. ويقول أحد الرحالة الأوربيين إنه أحصى في الصين في القرن الرابع عشر «مائتي مدينة كل واحدة منها أكبر من مدينة البندقية»<sup>(٢١)</sup> وإحصاء السكان في الصين يحدث تنفيذاً لقانون يحتم على كل صاحب بيت أن ينقش اسم كل ساكن فيه على لوحة عند مدخله<sup>(٢٢)</sup>. ولسنا نعلم بطبيعة الحال مدى صحة هذه اللوحات، ولا مدى صحة التقارير التي يقال إنها توضع على أساسها، وحسبنا أن نقول إن سكان الصين يبلغون الآن حوالي أربع مائة مليون من الأنفس. ويختلف الصينيون في أجسامهم، فهم في الجنوب أقصر قامة وأضعف أجساماً منهم في الشمال، غير أنهم بوجه عام أنشط أهل قارة آسية وأكثرهم حيوية، ذوو بأس وصبر على الشدائد والآلام، شديدو المقاومة للأمراض، سريعو التأقلم في كل مناخ؛

---

(\*) إن هذا الوصف الذي نصف به المجتمع الصيني لينطبق بنوع خاص على ذلك المجتمع في القرن التاسع عشر. أما ما حدث في هذا المجتمع من تطورات على أثر اتصاله بالأمم الغربية فستدرسه في الفصول التالية. ويجب أن يؤخذ كل ما نورد من وصف له بالخذر والاحتياط لأنه ما من حضارة من الحضارات تكون ماثلة في عهد طويل أو في رقعة من الأرض واسعة.

وقد استطاعوا بفضل هذه الصفة أن يعيشوا ويثروا في مناطق العالم كلها تقريباً . ولم يقو الأفيون ولا الزهرى ولا عدم الزواج بغيرهم من الشعوب على إضعاف صحتهم ؛ وإذا كان نظامهم الاجتماعى قد انهيار فى الأيام الأخيرة فإن هذا الانهيار لم يكن نتيجة ضعف ظاهرى فى قواهم الجسمية أو العقلية .

ووجه الصينى ينم عن أنه أذكى خلق الله طراً ، وإن لم يكن هذا الوجه على الدوام جميلاً جذاباً . نعم إن بعض الطبقات المعدمة تبدو فى أعين الغربيين بشعة شديدة القبح ، وإن لبعض المجرمين منهم نظرات خبيثة ما أجدر أصحابها بأن يكونوا ممثلين هزليين فى دور الخيالة ، ولكن كثرتهم العظمى ذات ملامح منتظمة متناسبة هادئة ، زادها هدوءاً عاملاً أحدهما جثامى وهو انخفاض الجفون وثانيهما اجتماعى وهو ما نعموا به من الحضارة التى دامت عدة قرون . وليس انحراف العينين كبيراً وانحاً إلى الحد الذى يتصوره المرء عما يقال أو يكتب عنهم ، وكثيراً ما تؤثر الشمس فى بشرتهم الصفراء فتخلع عليها لوناً أسمر جميلاً . ونساء الزراع منهم لا يكدن ينقص عن الرجال قوة فى الأجسام ، كما أن نساء الطبقات العليا رقيقات الحاشية جميلات بيضن وجوههن بالمساحيق ، ويحمرن شفاههن وخدودهن ، ويسودن حواجبهن ويزججنها حتى تكون أشبه بورقة الصفصاف أو الهلال<sup>(٢٣)</sup> .

وشعر الرأس خشن قوى عند الرجال والنساء ، خال من التجاعيد يعقسه النساء ويزينه عادة بالأزهار . ولقد أراد الرجال فى عهد آخر الأسر الحاكمة أن يسروا حكمهم فاتبعوا عادة المنشو وهى حاق شعر نصف الرأس الأعلى . ثم أرادوا أن يعوضوا هذا النقص فتركوا شعر النصف الخلقى وجمعه فى غديرة طويلة أصبحت على مر الزمن أداة لتقويم الخطى ومظهراً من مظاهر الكبرياء<sup>(٢٤)</sup> . ولحاهم لاتطول ، وكانوا يملقونها على الدوام ، وقبلما كان الواحد منهم يحاق لحيته بيده ، فقد كان من عادة الحلاقين أن يطوفوا بالناس ومعهم أدواتهم ، وكانوا طائفة موفورة الكسب .

وكانوا عادة يتكون رؤوسهم عارية ؛ فإذا غطى الرجال رؤوسهم اتخذوا لهم في الشتاء قلائس من الخمل أو الفراء ذوات حافات ممتددة إلى أعلى ، وفي الصيف قلائس مخروطية الشكل مصنوعة من خيوط الخيزران المجدولة تعالو الواحدة منها إذا كان صاحبها ذا شأن ، كرة ملونة وشريط حريري .

أما النساء فكان يضعن على رؤوسهن ، إذا مكتهن من ذلك مواردهن ، أشرطة من نسيج الحرير أو القطن مزينة بالبهرجان والحلى أو الأزهار الصناعية ، وكانت الأحذية تتخذ عادة من الأقمشة المدفئة ، ولما كانت أرض المنازل تصنع في كثير من الأحيان من القرميد البارد أو الطين فإن الصيني كان يحمل معه أينما سار طنفسة صغيرة يضعها تحت قدميه . وقد نبتت في بلاط الإمبراطور لي هو — جو (حوالي ٩٧٠ ب. م) عادة ربط أقدام البنات وهن في سن السابعة بأربطة ضيقة لكي تبقى صغيرة فتمشى السيدة الكبيرة تحطاً خطراً بمجرب به الرجال . وكان يعد من سوء الأدب أن يتحدث الناس عن قدم السيدة كما كان يعد من الإهانة الفاضحة أن ينظر الرجل إلى هذه القدم ؛ بل إن الكلمة الصينية التي معناها القدم كان يحرم ذكرها في حضرة السيدات<sup>(٢٥)</sup> . وانتشرت هذه العادة بين جميع الطبقات والجماعات عدا المنشو والتتار وأصبحت من العادات الثابتة الجامدة ، حتى لقد كان الكذب في حجم قدم العروس كافياً لإلغاء عقد الزواج<sup>(٢٦)</sup> . وحاول كإنج شي أن يبطل هذه العادة ولكنه أخفق وظلت حتى أبطلتها الثورة فكان إبطالها أثراً من آثارها الصالحة .

وكانت ملابس الرجال هي السراويل والجلابيب ، ويكاد لونها يكون على الدوام هو اللون الأزرق . وفي الشتاء كان السروال يغطى بالطاق ويضاعف عدد الجلابيب حتى يبلغ الثلاثة عشر في بعض الأحيان ، وكانت كلها تبقى على الجسم ليلاً ونهاراً طول فصل الشتاء ، فإذا أقبل الربيع خلعت تدريجاً واحداً بعد واحد<sup>(٢٧)</sup> . وكان المترز مختلف الطول فكان يصل حيناً إلى الحقوين وحيناً إلى

الركبتين وتارة إلى القدمين ، وكان يزرر إلى العنق ، وكان له كمان كبيران يغنيان عن الجيوب ، والصينيون لا يقولون إن الرجل وضع شيئاً ما في « جيبيه » بل يقولون إنه وضعه في « كنه » أما القمصان والملابس الداخلية فلسنا نخطئ كثيراً إذا قلنا إنها كانت غير معروفة . وكانت النساء في الريف يلبسن سراويل كسراويل الرجال لأنهن قد اعتدن أن يعملن أعمال الرجال وأكثر من أعمال الرجال . أما في المدن فكن يلبسن فوق السراويل نقياً(\*) . وكان الحرير كثيراً في المدن يستوى في ذلك هو والقطن .

ولم تكن للنساء مناطق تضغط على خصرهن أو مشدات تمسك أئداءهن ، وبذلك كانت ملابس الصينيين بوجه عام أكثر انطباعاً على مقتضيات العقل وأكثر ملاءمة لصحة الجسم وراحته من ملابس الغربيين في هذه الأيام . ولم يكن لأنماط الملابس سلطان قوى على المرأة الصينية كما لم تكن الملابس وسيلة لتباين الطبقات ورفع بعضها فوق بعض . ذلك بأن أهل المدن مهما اختلفت أقدارهم كانوا لا يختلفون في ملابسهم ، كما أن هذه الملابس لا تكاد تختلف في الأجيال المختلفة . نعم قد يختلف القماش الذي يصنع منه الثوب ، أما شكله فقد كان واحداً على الدوام ، ولم تكن طبقة من الطبقات تشك في أن نمطاً من الأماط سيبقى إلى أن يبلى الثوب .

وانة الصينيين تختلف عن سائر لغات العالم أكثر مما تختلف ملابسهم عن ملابس سائر الناس . ذلك أنها ليست لها حروف ولا هجاء ولا نحو ، ولا تنقسم إلى أسماء وأفعال وحروف ، وإنما للعجب كيف استطاعت هذه الأمة وهي أقدم أمم الأرض وأكثرها عدداً أن تعيش من غير هذه البلايا التي ابتلى بها شبان الأمم الغربية . ومن يدرى فلربما كان لهذه اللغة في الأيام الخالية المنسية اشتقاق ونحو وصرف وإعراب وتثنية وجمع وأفعال ماضية وحاضرة ومستقبلية ، ولكننا لا نجد

(\*) هي المعروفة بالجلونلات .



أثراً لشيء من هذا في أقدم ما عرفنا من عهود هذه اللغة ، فكل كلمة فيها قد تكون اسماً أو فعلاً أو صفة أو ظرفاً بحسب سياقها وطريقة النطق بها . ولما كانت اللهجات الكلامية لا تحتوى على أكثر من ثلثائة أو أربعمائة لفظ صوتي ذي مقطع واحد ، ولما كانت هذه المقاطع هي التي تستعمل للتعبير عن الأربعين ألف حرف المستخدمة في اللغة الكتابية فإن لكل واحد من هذه الألفاظ الصوتية « نغات » تختلف من أربع إلى تسع بحيث يختلف معناه باختلاف طريقة التغمي به .

وتوضح حركات الجسم وسياق الكلام هذه النغات ، وتجعل كل صوت يؤدي أغراضاً متعددة ، فحرف الباء وحده مثلاً قد يؤدي تسعة وستين معنى كما أن للفظ شي تسعة وخمسين ، ولللفظ كو تسعة وعشرين<sup>(٣٠)</sup> . ولهمنا نعرف لغة من اللغات قد باغت ما بلغته اللغة الصينية من التعقيد والدقة والاختصار .

وكانت لغة الكتابة أكثر اختلافاً عن سائر لغات العالم من لغة الكلام . تشهد بذلك الأدوات التي استخرجت من هونان والتي يرجعها المؤرخون إلى عهد أسرة شانج وإن لم يكونوا واثقين من ذلك كل الثقة ، فقد وجدوا على هذه الأدوات كتابة برموز لا تختلف كثيراً عن الرموز المستعملة في هذا الجيل . ولهذا فإننا إذا استثنينا عدداً قليلاً من الأقباط الذين يتكلمون اللغة المصرية القديمة<sup>(\*)</sup> فإن اللغة الصينية هي أقدم اللغات التي ينطق بها الناس في هذه الأيام وأوسعها انتشاراً . وكان الصينيون في بادئ الأمر يعقدون عقداً في خيوط لينقلوا بها رسائلهم ، وأكبر الظن أن حاجة الكهنة إلى نقل الطلسم السحرية وحاجة الفخريانيين إلى تمييز آياتهم بعضها من بعض هي التي أدت إلى الرموز المصوّرة<sup>(٢٢)</sup> .

---

(\*) فمؤن هـا ما قلناه من قبل وهو أن أقباط مصر لا يتحدثون اللغة المصرية القديمة ، وإذا كان من إخواننا الأقباط من يعرفون اللغة القبطية فإنهم لا يستعملونها في كلامهم . وليست اللغة القبطية هي اللغة المصرية القديمة وإن احتوت بعض ألقاطها . ( المترجم )

وكانت هذه الرموز المصورة البدائية منشأ العلامات الستائة ، وهى الرموز الأساسية فى الكتابة الصينية ؛ وقد سُمى نحو مائتين ، وأربعة عشر رمزاً منها « أصولاً » لأنها عناصر أساسية . وجميع حروف اللغة الدارجة ، والحروف المستعملة فى الوقت الحاضر ، رموز معقدة غاية التعقيد أثقل فيها العنصر التصويرى البدائى بزيادات كثيرة يقصد بها تحديد معنى اللفظ تحديداً واضحاً ، ويكون ذلك فى العادة ببيان ما يطرأ من تغيير على نغمته . ولم يكتب الصينيون بأن يجعلوا لكل كلمة ينطقون بها علامة بل إنهم يجعلون لكل فكرة أيضاً علامة خاصة ، فهذه علامة يرمز بها للحصان وهذه علامة أخرى يرمز بها «للحصان الأحمر الأسود ذى البطن الأبيض» (\*) كما يرمز برمز آخر للحصان ذى البقعة البيضاء على جبهته (\*\*). ولا تزال بعض هذه الرموز بسيطة بساطة نسبية ، فالقوس فوق خط مستقيم (أى الشمس فوق الأفق) معناها « الصباح » . والشمس والقمر مجتمعين يمثلان « الضوء » ؛ والفم والطارح معاً معناها « الغناء » ، والمرأة تحت ستف معناها « السلام » ؛ والمرأة والفم والعلامة الدالة على « الالتواء » يتكون منها الرمز الذى منه « خطر » ؛ والرجل والمرأة مجتمعين يعنىان « شرشرة » ؛ والنزاع يعبر عنه بإمرأة ذات فمين ؛ والزوجة يعبر عنها بالعلامات الدالة على امرأة ومكنسة وزوبعة (٣٣) .

وهذه لغة بدائية من بعض الوجوه استطاع أهلها بحفاظتهم الشديدة على القديم أن يبقوها حية فى هذه الأوقات « الحاضرة » . والصعوبات الكامنة فى هذه اللغة أوضح من مزاياها وفضائلها ، ويقال إن الصينى يحتاج إلى ما بين عشر سنين وخمسين سنة ليتعلم فيها جميع الأربعين ألف رمز التى تتكون منها

(\*) فى اللغة العربية شئ من هذا أو ما يقرب منه فهذه المعانى يؤديها فى العربية لفظ الكيت والأبط ، ولكن هذا لا يبلغ بالضبط مله فى اللغة الصينية إذ يؤديها فيها رمز واحد ( المترجم )

(\*\*). وهذا المعنى يؤديه فى العربية لفظ أصتق . ( المترجم )

لغته ، ولكننا إذا عرفنا أن هذه الرموز ليست حروفاً بل أفكاراً ، ثم فكرنا في طول الوقت الذي نحتاجه لكي نعرف أربعين ألف فكرة من الأفكار أو حتى أربعين ألف كلمة من الكلمات ، رأينا أن في العبارات التي نستخدمها للمفاضلة بين اللغة الصينية وغيرها من اللغات ظمناً شديداً للصينيين ، وأن من واجبنا إذا كنا ننشد الإنصاف أن نقول إن الصيني يحتاج إلى خمسين عاماً ليعرف أربعين ألف فكرة . والواقع أن الصيني العادي يكفيه ثلاثة آلاف علامة أو أربعة آلاف ، وأن من السهل عليه أن يعرف هذا العدد بمعرفة « أصولها » السالفة الذكر . وأوضع ميزة لهذه اللغة — التي لا تعبر عن الأصوات بل عن الأفكار — هي أن الكوريين واليابانيين يسهل عليهم أن يقرؤوها كما يسهل على الصينيين ، وأنها تعد لغة كتابة دولية لبلاد الشرق الأقصى . يضاف إلى هذا أنها تجمع في نظام واحد من نظم الكتابة بين جميع سكان الصين الذين تختلف لهجاتهم اختلافاً يجعل التفاهم بينهم يكاد يكون مستحيلاً ، حتى أن الرمز الواحد يقرأ بأصوات مختلفة وكلمات مختلفة في مختلف البيئات . وهذه الميزة تنطبق على مختلف الأزمنة انطباقها على مختلف الأمكنة ، ذلك بأن لغة الكتابة قد بقيت واحدة في جوهرها على حين أن لغة الكلام قد نقرعت إلى ما ينيف على مائة من اللهجات . ومن أجل هذا كان في وسع الصيني غير الأُمي أن يقرأ الأدب الصيني الذي ظل يكتب بهذه الحروف نحو ألفي عام كاملة ، وإن كنا لانعلم كيف كان الكتاب الأقدمون ينطقون بالألفاظ التي كتبوها أو يعبرون عن الأفكار التي ترمز لها هذه العلامات . ولقد كان هذا الإصرار الشديد على الاحتفاظ بالكتابة الموحدة القديمة بين هذا الفيض الدافق من اللهجات الكلامية المتباينة عاملاً قوياً على الاحتفاظ بالأفكار الصينية والثقافة الصينية إلى هذه الأيام كما كانت عاملاً قوياً في تمسك الصينيين بعبادتهم وتقاليدهم القديمة . ذلك أن الأفكار القديمة قد رسخت في البلاد ، وكانت هي القالب الذي صببت فيه عقول الشباب

وإن خصائص الحضارة الصينية لتتمثل في هذه الظاهرة الفذة التي امتازت بها كتابتها على غيرها من البلاد : وحدتها بين مختلف اللهجات والتطورات ، وتمسكها الشديد بالقديم واتصالها المنقطع النظير . ولقد كان هذا النظام الكتابي في حد ذاته من أجل الأعمال العقلية واعلاها شأنًا ، فقد صنف العالم بأجمعه — عالم الجاد والنشاط والأوصاف — إلى بضع مئات من الرموز التي جعلت « أصولا » ، ثم أضاف إلى هذه الأصول نحو خمسمائة وألف من العلامات المميزة فأضحت تمثل في صورها الكاملة جميع مافي الحياة من أفكار وآداب . ومن واجبنا ألا نتق كل النقطة من أن الطرق المختلفة التي ندون بها نحن أفكارنا أرقى من هذه الطريقة البدائية ، فقد كان ليبنتز في القرن السابع عشر وسير و نلدُرس في هذه الأيام يجلمان بوضع طريقة من العلامات الكتابية مستقلة كل الاستقلال عن لغات الكلام ، بعيدة كل البعد عن الاختلافات القومية ، وعن اختلافات الزمان والمكان ، يستطاع بها من أجل هذا التعبير عن أفكار الشعوب المختلفة بطرق واخدة يفهمها الناس كلهم على السواء ، ولكن لغة الرموز هذه التي كان يحلم بها هذان العالمان قائمة فعلاً في الشرق الأقصى توحد بين مائة من الأجيال وبين ربع سكان العالم . وإن النتيجة التي وصل إليها الشرق لننتيجة منطقية رهيبية : إن سائر بلاد العالم يجب أن تتعلم طريقة الكتابة الصينية .

## الفصل الثالث

### الحياة العملية

#### ١ - في الحقول

فقر الزراع - الوسائل الاقتصادية - المحصولات -  
الشاي - الطعام - صبر أهل القرية

لقد كان خصب التربة هو الدعامة التي يقوم عليها آخر الأمر كل ما حوته تلك اللغة من آداب، وكل ما اشتمل عليه التفكير الصيني من دقة وعمق، وكل ما انطوت عليه الحياة الصينية من نعيم وترف. وبعبارة أصح لقد كانت هذه الدعامة هي جهود الصينيين أنفسهم، لأن التربة الخصبة لا تتخلق خلاقاً بل تنشأ إثناء. وما من شك في أن سكان الصين الأولين قد ظلوا قروناً طوالاً يكافحون الأدغال والغابات، والوحوش والحشرات، والجفاف والفيضان، وأملاح التربة والصقيع، حتى استطاعوا في آخر الأمر أن يحولوا تلك البراري الشاسعة الموحشة إلى حقول خصبة مشجرة، وكان لا بد لهم أن يعودوا حيناً بعد حين إلى خوص هذه المزارك لكي يحتفظوا بما نالوا من نصر، فإذا ما استمروا يقطعون أشجار الغابات مائة عام مثلاً استجالت الأرض صحراء مجدبة(\*)، وإذا أهملوا تقطيعها بضع سنين استجالت حراجاً وغابات كثيفة.

ولقد كان هذا الكفاح كفاحاً مسيراً ينطوي على أخطار جسيمة، وكان يزيد من مسارته أن البلاد كانت معرضة لهجمات البرابرة واستيلائهم على

---

(\*) ذلك أن سفوح التلال والمنحدرات التي تقطع أتحارها لا تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار فتجرف مياهها الربة العليا الخصبة وتحد وتغزو من الدوائق التي تحول دون استياب السيول على الوديان وإغراقها

محصولات الأرض المستصلحة ، ومن أجل هذا كان الزراع يتقون هذه الإغارة بأن يمشوا في جماعات صغيرة لافي منازل متفرقة متباعدة ، وكانوا ينشئون حول قراهم أسواراً ، ويخرجون لزراع الأرض مجتمعين ، وكثيراً ما كانوا يقضون الليل ساهرين يحرسون الحقول .

وكانت طرق الزراعة عندهم ساذجة وإن لم تختلف كثيراً عن طرق الزراعة في هذه الأيام . وكانوا في بعض الأحيان يفلحون الأرض بالحارث ، وقد اتخذوها أولاً من الأخشاب ثم من الحجارة ، واتخذوها بعدئذ من الحديد ، ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يقلبون ما يمتلكون من قطع الأرض الصغيرة بالفأس يكدحون بها صابرين . وكانوا يستعينون على إخصاب التربة بكل ما يجذونه من الخصبات الطبيعية ، ولا يستنكفون أن يجمعوا لهذا الغرض فضلات الكلاب والأدميين . ولقد احتفروا من أقدم الأزمنة قنوات يجرّون فيها مياه أنهارهم الكثيرة إلى مزارع الأرز أو حقول الذرة ، فشقوا ترعاً عميقة يبلغ طولها عدة أميال في الصخور الصماء ليصاوا بها إلى مجرى مائى بعيد أو يحولوا مجراه حتى يصل إلى سهل جاف ، واستطاع الصينيون دون الاستعانة بالدورة الزراعية أو الخصبات الصناعية ، ومن غير حيوانات الجرفى كثير من الأحيان ، أن يزرعوا نصف أرضهم على الأقل زرعتين أو ثلاث زروعات في العام ، وأن يستخرجوا منها من أنواع الغذاء أكثر مما استخرجه أى شعب آخر في التاريخ<sup>(٢٤)</sup> .

وكانت أهم الحبوب التي زرعوها هي الأرز والذرة ويليهما في الأهمية القمح والشعير . وكانوا يتخذون من الأرز غذاء وخمراً ، ولكن الفلاح لم يدمن هذا الشراب في يوم من الأيام . أما شرابه الحبيب إليه ، ومحصوله الذي بلى الأرز في أهميته ، فهو الشاي . وكان استعماله في مبدأ الأمر مقصوراً على التداوى ، ثم زاد انتشاراً حتى صار في عهد أسرة تانج من المحصولات التي تصدر إلى خارج البلاد ،

والتي يتغنى بها الشعراء في أشعارهم . ولم يحلّ القرن الخامس عشر حتى كانت جميع بلاد الشرق الأقصى مغرمة بشراب الشاي تتغنى بمدحيه ، وحتى أخذ المولعون به يعملون لاستنبات أنواع جديدة منه ، ويعقدون مجالس الشراب للحكم على خير ما يقدم منها للحاضرين<sup>(٣٥)</sup> . وكان من محصولاتهم الأخرى الخضر اللذيذة والمغذية كفول الصويا ، والتوابل المقوية كالتوم والبصل ، وعشرات المثات من أنواع الفاكهة<sup>(٣٦)</sup> ؛ وكانت اللحوم أقل المنتجات الريفية شأنًا ؛ وكانت الثيران والجاموس تستخدم أحيانًا في حرث الأرض ، أما تربية الماشية للانتفاع بلحومها فكانت مقصورة على الخنازير والدجاج<sup>(٣٧)</sup> ، وكانت طائفة كبيرة من السكان تتخذ غذاءها من سمك البحر والمجاري المائية العذبة . وكان أهم ما تتغذى به الطبقات الفقيرة هو الأرز الجاف ، والمكرونة ، والشعيرية ، وقليل من الخضر والسمك . أما الطبقات الوسطى فكانت تضيف إلى هذا اللحم الخنازير والدجاج ، وتضيف إليه الغنمية لحم البط ، وكانت أرقى المآذب التي تقام في بيكين تحتوى على مائة صنف من أصناف البط<sup>(٣٨)</sup> . وكان ابن البقر نادرًا وكذلك كان البيض قليلا وقلما كان يؤكل طازجًا . غير أن فول الصويا كان يمد الأهلين باللبن الصالح والجبن . وقد تطور فن الطهو في الصين حتى أصبح من الفنون الجميلة ، وكان يستخدم فيه كل منتجات الأرض والماء وطيور الهواء ، فكانت الحشائش والأعشاب البحرية تقتلع من الأرض ، وأعشاش الطير تنهب لتعمل منها أنواع الحساء اللذيذ ، وكانت أطعمة لذيذة تتخذ من زعانف كلب البحر وأمعاء السمك والجراد والجنادب وصفار الديدان ودود القز ولحم الخيل والبقال والجرزان وثمانين الماء والقطط والكلاب<sup>(٣٩)</sup> . وكان الصينيون يحبون لذيذ المأكّل ، ولم يكن من غير المؤلف أن تشتمل مائدة الرجل الغنى على أربعين صنفًا ، وأن يظل القوم حول موائد الطعام ثلاث ساعات أو أربعمًا يأكلون فيها وشربون .

أما الرجل الفقير فلم يكن يصرف هذا الوقت كله في طعامه الذي كان

يتناول منه وجبتين في اليوم . ولم يكن الفلاح رغم كدحه المتواصل بمنجاة من الجوع طول أيام حياته ، إذا استثنينا بعض الحالات في مختلف الأقاليم والأوقات . وكان في وسع الأقوياء الماهرين منهم أن يستحوذوا على ضياع واسعة ، وأن يركزوا ثروة البلاد في أيدي قليلة . وكان يحدث في بعض الأحيان ، كما حدث في أيام الإمبراطور شي هوانج — دى ، أن يعاد توزيع الأرض على السكان ، غير أن ما بين الناس من فروق طبيعية سرعان ما كان يؤدي إلى تركيز الثروة مرة أخرى<sup>(٤١)</sup> . وكان معظم الزراع من ملاك الأراضي ، ولكن متوسط ما كان يملكه الفرد أخذ يتضاءل في كل قرن عن الذي قبله نظراً لتزايد عدد السكان أسرع من ازدياد مساحة الأرض الصالحة للزراعة . فكانت نتيجة هذا هي الفقر الذي لا مثيل له إلا في أفقر أقاليم الهند ! فقد كان دخل الأسرة المتوسطة لا يزيد على ٨٣ ريالاً أمريكياً ، وكان كثيرون من الأفراد يعيشون بما يعادل ١٠ من الريال في اليوم ، كما كان الملايين منهم يموتون من الجوع في كل عام<sup>(٤٢)</sup> . وقد ظلت الصين عشية القرنين كاملاً تعاني القحط بمعدل مرة في كل عام<sup>(٤٣)</sup> ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى أن الفلاح كان يستغل أسوأ استغلال ولا ينال من الطعام إلا ما يمسك الرمح ، ويرجع بعضه إلى ازدياد المواليد أسرع من تحسن الإنتاج الزراعي واتساع مساحة الأرض المنزرعة ، كما يرجع بعضه الآخر إلى سوء سبل الاتصال والنقل إلى حد يجعل السكان في بعض الأقاليم يهلكون من الجوع بينما الطعام في البعض الآخر يزيد على حاجة الأهليين . وآخر ما نذكره من هذه الأسباب أن الفيضان كان في بعض الأحيان يتلف ما يتركه المسالك والجاني للزراع فكثيراً ما كان نهر هوانج — هو ، الذي يسميه الناس « حزن الصين » ، يغير مجراه ويفرق ألفاً من القرى ويترك ألفاً أخرى صادية .

وكان الفلاحون يصبرون على هذه الكوارث ويتجرعون غصصها ، ومن أمثالهم المأثورة : « كل ما يحتاجه الإنسان في هذه الحياة الفانية هو قبة وحفنة



من الأرز<sup>(٤٤)</sup>. وكانوا يكدحون ولكنهم لا يسرعون في عملهم ، فلم تكن  
ثمة آلة معقدة تدفعهم إلى العمل سراعاً ، أو تنهك أعصابهم بضجيجها وخطرها  
وسرعتها. ولم يكن لهم أيام راحة في آخر الأسبوع ولا أيام آحاد ، ولكن  
كانت لهم أيام إجازات وأعياد كعيد رأس السنة وعيد الفوانيس تتيح للعامل  
فرصة يستريح فيها من عناء كدحه ؛ ويخفف فيها بالمسرحيات والأساطير ما في سائر  
فصول السنة من اكتئاب فإذا ما ولى الشتاء بزهريره ووجهه الكالح ،  
ولانت تربة الأرض بما سقط عليها من مطر الربيع بعد أن ذاب ما تراكم عليها من ثلج  
الشتاء ، خرج الفلاحون صرّة أخرى ليزرعوا حقولهم الضيقة ، ويفنوا في صرح  
وحبور أغاني الأمل التي تحدت إليهم من ماضيهم السحيق .

## ٢ - في المتاجر

الحرف اليدوية - الحرير - المصانع - الطوائف - الجمالون -  
الطرق والقنوات - التجار - الائتلاف والنقود - تجارب في العملة  
المتداولة - التصخم الناشئ من الطباعة

ازدهرت الصناعة في تلك الأيام ازدهاراً لم ير له مثيل في كافة أنحاء الأرض  
قبل القرن الثامن عشر. فهما تتبعنا تاريخ الصين إلى ماضيها السحيق وجدنا  
الحرف اليدوية منتشرة في البيوت والتجارة رائجة في المدن .

وكانت أهم الصناعات الأساسية هي صناعة النسيج وتربية دود القز  
لاستخراج خيوط الحرير . وكانت كلتا الحرفتين تقوم بها النساء في أكواخهن  
أو بالقرب منها . وكان غزل الحرير من الحرف القديمة في البلاد ، وترجع بدايتها  
في الصين إلى الألفي السنة السابقة ليلاد المسيح<sup>(\*)</sup>(٤٥) . وكان الصينيون يطعمون

---

(\*) لقد كان اليونان والرومان الأقدمون يعرفون طريقة غزل الحرير المستخرج من  
شراقت ديدانه البرية ؛ أما صناعة تربية الود وجمع الحرير ونسجه فقد جاء بها الرهبان  
الناسطرة من الصين إلى أوروبا حوالي عام ٥٢٢ م (٤٦) . وانتقلت هذه الصناعة في القرن  
الثاني عشر من القسطنطينية إلى صقلية ثم انتقلت إلى إنجلترا في القرن الخامس عشر .

الدود ورق التوت الحديث التقطيع ويحصلون من تربيته على نتائج عجيبة ، ولعل القارىء لا يصدق إذا قيل له إن رطلا من الديدان (أى ٧٠٠٠٠٠ دورة) يتغذى على هذا الورق كان يتضاعف إلى ٩٥٠٠ رطل فى اثنين وأربعين يوماً<sup>(٤٧)</sup> . وكانت الديدان الكبار توضع بمدند فى سدادات صغيرة من القش تنسج حولها شرائقها بما تفرزه من الحرير ، فإذا أتمت عملها أخذت الشرائق وأقيت فى ماء ساخن فخرج الحرير من القالب الذى لف عليه وعالجوه ونسجوه وصنعوا منه أنواعاً عدة من الثياب والأقمشة المزركشة والمطرزة والأنسجة المشجرة التى كانت تصنع منها ملابس الطبقات العليا فى العالم كله<sup>(\*)</sup> ، أما من ينتجون الحرير وينسجونه فكانوا يتخذون ثيابهم من القطن .

وكانت هذه الصناعة المنزلية تكمل بحوانيت فى المدن حتى فى القرون السابقة ليلاد المسيح ، ولذلك وجدت من بداية القرن الثالث قبل الميلاد جماعات من العمال فى المدن نظمت همى والمشرفون عليها فى طوائف من أرباب الحرف . وكان نمو هذه الصناعة فى الحوانيت سبباً فى ازدهام المدن بالسكان العاملين المجددين الذين جعلوا الصين فى أيام كوبرلاى خان تضارع من الوجهة الصناعية أوروبا فى القرن الثامن عشر بعد الميلاد . وقد كتب ماركوبولو فى ذلك يقول :

« لسكل حرفة من الحرف مائة متجر يهيم كل واحد منها العمل لعشرة أو خمسة عشر أو عشرين من الصناع ، وقد يصل هذا العدد فى بعض الصناعات إلى أربعين ... والسادة الأغنياء أصحاب الحوانيت لا يعملون بأيديهم بل يتظاهرون بالرقه والتسامى والتأنق فى حديثهم وحركاتهم<sup>(٥٠)</sup> . وكانت هذه النقابات تعمل ما عمله الصناعات المنظمة فى هذه الأيام ، فتحدد التنافس وتفظم

---

(\*) لم يكن من غير المألوف عند المضيف إذا جاءه الضيوف أن يمر عليهم بنسيج رقيق من الحرير يعرضه عليهم<sup>(٤٨)</sup> كما يمرض عليهم غيره آنية من الحرف أو يبسط أمامهم ملعا من الصور أو من الخط الجميل .

الأجور وساعات العمل ، وكان الكثير منها يحدد الإنتاج ليحتفظ بمستوى أسعار منتجاته ، ولعل رضاها بأساليبها القديمة واطمئنانها إليها كانا من أسباب تأخر العلوم في الصين ، ومقاومة الانقلاب الصناعي في تلك البلاد ، ومقاومة دامت حتى أخذت كل الحواجز والأنظمة في هذه الأيام تنهار أمام طوفان الصناعة الأوربية الجارف .

وكانت النقابات في الصين تضطلع بكثير من الواجبات التي عهد بها السكان الغربيون المتكبرون إلى الدولة . فكانت هذه النقابات تسن قوانينها بنفسها وتعدل في تنفيذها . وقد قلت من الإضراب بما كانت تقوم به من تسوية النزاع بين العمال وأصحاب الأعمال بطرق التحكيم على يد لجان الوسطاء التي يمثل فيها كلا الطرفين بالتساوي . وكانت هذه النقابات بوجه عام هيئات صناعية تحكم نفسها وتنظم شئونها ، وكانت مخرجا يدعو إلى الإعجاب من التذبذب الحادث في هذه الأيام بين مبدأى التخلي وترك الأمور تجري في مجراها من جهة وسيطرة الدولة على جميع الشئون من جهة أخرى .

ولم تكن النقابات مقصورة على التجار والصناع وعملهم ، بل كانت هناك نقابات لطوائف أقل من هؤلاء شأنها كالحلاقين والحمايين والطباخين . بل إن المتسولين أنفسهم كانت لهم هيئة تفرض على أعضائها قوانين صارمة<sup>(٥١)</sup> . وكانت أقلية ضئيلة من عمال المدن من الأرقاء يستخدم معظمهم في الأعمال المنزلية ويبقون تحت سلطان سادتهم عدة سنين أو طول الحياة ، وكان اليتامى والبنات يُعرضون للبيع في أيام القحط ويبيعون بمدد قليل من « الكاشات » ، وكان من حق الأب في كل وقت أن يبيع بناته أو عبده . على أن هذا الاسترقاق لم يبلغ في يوم من الأيام ما بلغه في بلاد اليونان أو الرومان ، وكانت كثرة العمال من أعضاء النقابات أو الوكلاء الأحرار — كما كانت كثرة الزراع من ملاك

الأراضى ... يحكمون أنفسهم فى هيئات قروية مستقلة فى معظم شئونها عن إشراف الدولة<sup>(٥٢)</sup>.

وكانت منتجات العمل تنقل على ظهور الناس ، بل إن الناس أنفسهم كان معظمهم ينقلون فى الحدوج فوق أكتاف الجمالين المكدودة المتصلبة ، ولم يكن هؤلاء يشكون من عمامهم أو يتضجرون منه<sup>(\*)</sup>، وكانت الدلاء الثقيلة أو الحزم الضخمة تعلق فى طرفى قوائم خشبية تحمل على الكتفين ، وكانت عربات النقل تجرها الجمير أحياناً ولكنها فى أكثر الأحيان كان يجرها الرجال . ذلك أن عضلات الادميين قد بلغت من الرخص حداً لا يشجع على رقى النقل الحيوانى أو الآلى ، كما كانت حال النقل البدائية غير حافزة على إصلاح الطرق وتعميدها . ولما أن أنشىء أول خط حديدى فى الصين بين شنغهاى و ووسونج بفضل رؤوس الأموال الأجنبية ، احتج الصينيون على هذا العمل وقالوا إنه سيزعج الأرواح التى فى باطن الأرض ، واشتدت مقاومتهم حتى اضطرت الحكومة إلى شراء الخط الحديدى وإلقاء القاطرات والعربات فى البحر<sup>(٥٣)</sup> . وقد أنشئت فى أيام شى هوآنج — دى وكوبلاى خان طرق عامة رصفت بالحجارة ولكنها لم يبق منها الآن إلا جوانبها . أما شوارع المدن فلم تكن سوى أزقة لا يزيد عرضها على ثمان أقدام صممت لكي تحجب الشمس ، وكانت القفاطر كثيرة العدد جميلة فى بعض الأحيان ، ومن أمثلتها القنطرة الرخامية التى كانت عند القصر الصيفى ، وكان التجار والمسافرون يستخدمون الطرق المائية بقدر ما كانوا يستخدمون الطرق البرية ، وكان فى البلاد قنوات مائية يبلغ طولها ٢٥٠٠٠ ميل ، تستخدم بدل السكك الحديدية ، ولم يكن فى الأعمال الهندسية الصينية ما يفوق القناة الكبرى التى تربط هانجتشاو بتيانشين التى يبلغ طولها ٦٥٠ ميلاً ، والتى بدى

(٥) إن المفظ الإنجليزية لهذه الكلمة وهو Cooli هدى الأصل ولعله مشتق من اللفظ

التبيل Kuli ومعناه الخادم المأجور .

في حفرها سنة ٣٠٠ م وتم في عهد كوبلاي خان ، لم يكن يفوقها إلا السور العظيم . وكانت القوارب المختلفة الأشكال والأحجام لا يقطع غدوها ورواحها في الأنهار ، ولم تكن تتخذ وسائل للنقل الرخيص فحسب بل كانت تتخذ كذلك مساكن للعاملين من الأهلين الفقراء .

والصينيون تجار بطبعهم وهم يقضون عدة ساعات في المساومات التجارية ، وكان الفلاسفة الصينيون والموظفون الصينيون متقنين على احتقار التجار ، وقد فرض عليهم أباطرة أسرة هان ضرائب فادحة وحرموا عليهم الانتقال بالعربات ولبس الحرير .

وكان أفراد الطبقات الراقية يطيلون أظافرهم ليدلوا بعملهم هذا على أنهم لا يقومون بأعمال جثمانية ، كما تطيل النساء الغريبات أظافر أيديهن لهذا الغرض عينه<sup>(٦٤)</sup> ؛ وقد جرت العادة أن يعد العلماء والمدرسون والموظفون من الطبقات الراقية ، وتليهم في هذا طبقة الزراع ، ويأتي الصناع في المرتبة الثالثة ، وكانت أوطأ الطبقات طبقة التجار لأن هذه الطبقة الأخيرة - على حد قول الصينيين - لا تجني الأرباح إلا بتبادل منتجات غيرها من الناس .

لكن التجار مع ذلك أثروا ونقلوا غلات حقول الصين واصلع متاجرهم إلى جميع أطراف آسية، وصاروا في آخر الأمر الدعامة الماوية للحكومة الصينية . وكانت التجارة الداخلية تمرقها الضرائب الفادحة ، وأما التجارة الخارجية فكانت معرضة لهجمات قطاع الطريق في البر والقراصنة في البحر . ومع هذا فقد استطاع التجار الصينيون أن ينقلوا بضائعهم إلى الهند وفارس وبلاد النهرين ورومة نفسها في آخر الأمر بالطواف حول شبه جزيرة الملايو بمرأ وبالسير في طرق القوافل التي تخرق التركستان<sup>(٥٥)</sup> وكانت أشهر الصادرات هي الحرير والشاي والخواخ والمشمش والبارود وورق اللعب ، وكان العالم يرسل إلى الصين بدل هذه الغلات والبضائع الفضة<sup>(\*)</sup> .

(\*) هو المعروف بالإنجليزية باسم Alfalfa واللفظة الأسبانية منحرفة عن اللفظة العربية « الفصفصة » وهو نبات ذو ثلاث أوراق .

والزجاج والجزر والنول السوداني والدخان والأفيون .

وكان من أسباب تيسير التبادل التجاري نظام الائتمان والنقود . فقد كان التجار يقرض بعضهم بعضاً بفوائد عالية تبلغ في العادة نحو ٣٦ ٪ ، ونقول إنها عالية وإن لم تكن أعلى مما كانت في بلاد اليونان والرومان<sup>(٥٦)</sup> . وكان من أسباب ارتفاع سعر الفائدة ما يتعرض له المرابون من أخطار شديدة ، فكانوا من أجل ذلك يتقاضون من الأرباح ما يتناسب مع هذه الأخطار ، ولم يكن أحد يجهم إلا في مواسم الاستدانة . ومن الحكم الصينية المأثورة قولهم : « السارقون بالجملة ينشئون المصارف »<sup>(٥٧)</sup> . وأقدم ما عرف من النقود ما كان يتخذ من الأصداف البحرية والمدى والحزير .

ويرجع تاريخ أقدم عمله معدنية إلى القرن الخامس قبل الميلاد على الأقل<sup>(٥٨)</sup> وجعلت الحكومة الذهب العملة الرسمية في عهد أسرة شين ، وكانت العملة المصغرى تصنع من خليط من النحاس والقصدير ، وما لبثت هذه أن طردت الذهب من التعامل<sup>(\*)</sup> . ولما أخفقت التجربة التي قام بها وودي والتي أراد بها أن يضرب عملة مصنوعة من الفضة والقصدير لكثرة ما زيف وقتئذ من النقود ، استعاض عنها بشرائح من الجلد يبلغ طول الواحدة منها قدماً ، وكانت هذه الشرائح مقدمة لاستعمال النقود الورقية . ولما أن أضحى ما يستخرج من النحاس أقل من أن يفي بالأغراض التجارية لكثرة البضائع المتداولة ، أمر الإمبراطور شين دزونج في عام ٨٠٧ أن تودع العملة النحاسية كلها في خزائن الحكومة وأن يصدر بدلاً منها شهادات مدينة أطلق عليها الصينيون اسم « النقود الطائفة » ، لأنهم كما يبدو تحملوا متاعبهم المالية بنفس الطبمأنينة التي تحمل بها الأمريكيون

(\*) لا يزال النحاس هو العملة السائدة في الصين في هذه الأيام وتصنع منه « الكاشة » وهي عملة قيمتها بببب أو بببب من الريال الأمريكى كما يصنع منه الثليل وهو يساوى ألف « كاشة » .

متابعهم في عام ١٩٣٣ . ولم تستمر هذه الطريقة إلا ريثما زالت الضائقة ؛ ولكن اختراع الطباعة بالقوالب أغرى الحكومة على أن تستخدم هذه الطريقة الجديدة في عمل النقود ، فشرعت ولاية سشوان شبه المستقلة في عام ١٩٣٥ م والحكومة الوطنية في شنجان عام ١٩٧٠ تصدران النقود الورقية . وأسرفت الحكومة في عهد أسرة سونج في إصدار هذه النقود ، فنشأ من ذلك تضخم شديد قضى على كثير من الثروات<sup>(٥٩)</sup> .

ويقول ماركو پولو عن خزائن كوبلاي خان : « إن دارالسك الإمبراطورية تقوم في مدينة كمبوك ( بيكين ) ، وأنت إذا شاهدت الطريقة التي تصدر بها النقود قلت إن فن الكيمياء أتقن إتقاناً لا إتقاناً بعده ، وكنت صادقاً فيما تقول . ذلك أنه يصنع نقوده بالطريقة الآتية » ، ثم أخذ يستثير سخرية مواطنيه وتشككهم فيما يقول وعدم تصديقهم إياه فوصف الطريقة التي يؤخذ بها الحاء شجر التوت فتصنع منه قطع من الورق يقبلها الشعب ويعدها في مقام الذهب<sup>(٦٠)</sup> . ذلك هو منشأ السيل الجارف من النقود الورقية الذي أخذ من ذلك الحين يدفع عجلة الحياة الاقتصادية في العالم مسرعة تارة ويهدد هذه الحياة بالخراب تارة أخرى

### ٣ - المخترعات والعلوم

البارود - الألعاب النارية والحروب - ندرة المخترعات الصناعية -

الجغرافية - الرياضيات - الطبعة - « فنج شوى » -

الفلك - الطب - تدبير الصحة

لقد كان الصينيون أقدر على الاختراع منهم على الانتفاع بما يبتكرون . فقد اخترعوا البارود في أيام أسرة تانج ، ولكنهم قصروا استعماله وقتئذ على الألعاب النارية ، وكانوا في ذلك جد عقلاء ، ولم يستخدموه في صنع القنابل اليدوية وفي الحروب إلا في عهد أسرة سونج ( عام ١١٦١ م ) . وعرف العرب ملح البارود ( نترات البوتاسا ) - وهو أهم مركبات البارود - في أثناء

تجارهم مع الصين وسموه « الثلج الصينى » ونقلوا سر صناعة البارود إلى البلاد الغربية ، واستخدمه العرب في إسبانيا في الأغراض الحربية ، ولعل سير روجر بيكين أول من ذكره من الأوربيين قد عرفه من دراسته لعلوم العرب أو من اتصاله به — روكى الرحالة الذى طاف في أواسط آسية .

والبوصلة البحرية أقدم عهداً من البارود . وإذا جاز لنا أن نصدق ما يقوله عنها المؤرخون الصينيون فإن دوق جو قد اخترعها في عهد الإمبراطور تشنج وأنج ( ١١١٥ — ١٠٧٨ ق . م ) ليهدى بها بعض السفراء الأجانب في عودتهم إلى بلادهم . ويقول الرواة إن الدوق أهدى إلى السفارة خمس عربات جهزت كل منها « بإبرة تشير إلى الجنوب »<sup>(٦٣)</sup> . وأكبر الظن أن الصينيين الأقدمين كانوا يعرفون ما للحجر المغنطيس من خواص مغنطيسية ، ولكن استعماله كان مقصوراً على تحديد الاتجاهات في بناء المياكل . وقد ورد وصف الإبرة المغنطيسية في السونج — شو وهو كتاب تاريخي مؤلف في القرن الخامس الميلادى . ويقول المؤلف إن مخترعها هو الفلكي چانج هنج (المتوفى في عام ١٣٩ م) ، على أن هذا العالم لم يفعل أكثر من أن يكشف من جديد ما كانت الصين تعرفه قبل أيامه . وأقدم ما ورد عن الإبرة من حيث فأئدتها للملاحين هو ما جاء في كتاب ألف في أوائل القرن الثانى عشر الميلادى وهو يعزو استخدامها في هذا الغرض إلى البحارة الأجانب — وأكبر الظن أنهم من العرب — الذين كانوا يسفرون سفنهم بين سومطره وكانتون<sup>(٦٣)</sup> . وأول إشارة معروفة لنا عن البوصلة في أقوال الأوربيين هي ما ذكر عنها في قصيدة لجنيو ده بروثن<sup>(٦٤)</sup> .

على أننا لانستطيع أن نصف الصينيين بأنهم من الأمم النشيطة في ميدان الاختراعات الصناعية رغم اختراعهم البوصلة والبارود والطباعة والخرف . ولقد كانوا مخترعين في الفنون ؛ وقد ارتقوا بها في صورها التى ابتدعوها حتى بلغت درجة من الكمال لا نظير لها في غير بلادهم أو في غير تاريخهم ، ولكنهم ظلوا حتى



عام ١٩١٢ قانعين بالجرى على طرقهم الاقتصادية القديمة ، يحتقرون الأساليب والحيل التي تغني عن العمل الشاق ، وبضاعف ثمار الجهود البشرية ، وتعطل نصف سكان العالم لتزيد من ثراء نصفه الآخر ، كأنهم في احتقارهم هذا كانوا يتنبئون بما تجره هذه الاختراعات على البشر من شرور . وكان الصينيون من أوائل الأمم التي اتخذت الفحم وقوداً واستخرجوه من الأرض بكميات قليلة منذ عام ١٩٢٢ ق م<sup>(٦٥)</sup> ، ولكنهم لم يخترعوا آلات تريحهم من كدح استخراجها وتركوا معظم ما تخبئه أرضهم من الثروة المعدنية دون أن يستغلوها ، ومع أنهم عرفوا كيف يصنعون الزجاج فقد رضوا أن يستوردوه من الغرب ، ولم يصنعوا ساعات للجيب أو للحوادث ، ولم يخترعوا المسامير المحواة بل إنهم لم يصنعوا من المسامير العادية إلا أغلظها<sup>(٦٦)</sup> . وقد ظلت حياة الصين الصناعية في أم نواحيها على حالها لم تتغير كثيراً خلال الألفي العام التي بين قيام أسرة هان وسقوط المنشو — شأنها في هذا شأن الحياة الصناعية في أوروبا من أيام بركلينز إلى عهد الانقلاب الصناعي .

كذلك كانت الصين تفضل سلطان التقاليد والعلماء على سلطان العلم والمال المثير للأعصاب ، ولذلك كانت الحضارة الصينية أفقر الحضارات العظمى فيما أفادته منها فنون الحياة المادية . فقد أخرجت هذه الحضارة كتباً من أرقى الكتب الدراسية في الزراعة وفي تربية دود القز قبل ميلاد المسيح بقرنين كاملين ، وألقت رسالات قيمة في علم تقويم البلدان<sup>(٦٧)</sup> . وقد خلف عالمها الرياضي المعمر چانج تسانج ( المتوفى في عام ١٥٢ ق . م ) وراءه كتاباً في الجبر والهندسة فيه أول إشارة معروفة للكميات السالبة . وقد حسب دزو تسو تشونج — جى القيمة الصحيحة للنسبة التقريبية إلى ثلاثة أرقام عشرية ، وحسن المغنطيس أو « الأداة التي تشير إلى الجنوب » وقد وردت إشارة عنه غير واضحة قيل فيها إنه كان يجرى التجارب على سفينة تتحرك بنفسها<sup>(٦٨)</sup> .

واخترع تشانج هنج آلة لتسجيل الزلازل (سيسمغرافا) في عام ١٣٢م<sup>(\*)</sup>. ولكن علم الطبيعة الصيني قد ضلت معظم أبحاثه في دياجير الفنج جوى السحرية واليانج والين من أبحاث ما وراء الطبيعة<sup>(\*\*)</sup>. وأكبر الظن أن علماء الرياضة الصينيين قد أخذوا الجبر عن علماء الهند، ولكنهم هم الذين أنشئوا علم الهندسة في بلادهم مدفوعين إلى هذا بحاجتهم إلى قياس الأرض<sup>(٧٠)</sup>. وكان في وسع الفلكيين في أيام كنفوشيسوس أن يتنبئوا بالخسوف والكسوف تنبؤاً دقيقاً، وأن يضعوا أساس التقويم الصيني بتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة وتقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً يبدأ كل منها بظهور الهلال، وكانوا يضيفون شهراً آخر في كل بضع سنين لكي يتفق التقويم القمري مع الفصول الشمسية<sup>(٧١)</sup>. وكانت حياة الصينيين على الأرض تتفق والحياة في السماء؛ وكانت أعياد السنة تحدها منازل الشمس والقمر، بل إن نظام المجتمع من الناحية الأخلاقية كان يقوم على منازل الكواكب السيارة والنجوم.

وكان الطب في الصين خليطاً من الحكمة التجريبية والخرافات الشمية. وكانت بدايته فيما قبل التاريخ المدون، ونبغ فيه أطباء عظام قبل عهد أبقراط بزمان طويل، وكانت الدولة من أيام أسرة چوتعقد امتحاناً سنوياً للذين يريدون الاشتغال بالمهن الطبية، وتحدد مرتبات الناجحين منهم في الامتحان حسب ما يظهرون من جدارة في الاختبارات. وقد أمر حاكم صيني في القرن الرابع

---

(\*) وكانت الآلة التي اخترعها تتركب من ثمانية تنينات من الحاس قائمة على لوابب دقيقة حول وعاء نحى في وسطه صنفعة فاغرة فاها. وكان كل تنين يمسك في فم كرة من النحاس؛ فإذا حدث زلزال سقطت الكرة من أقرب التنينات إلى مركزها في فم الصنفعة؛ وحدث مرة أن سقطت الكرة من أحد التنينات وإن كان الناس لم يحسوا بهزة زلزال فسخروا من تشانج هنج وقالوا إنه شعرد حتى حاهم رسول وقال لهم إن زلزالا وقع في أحد الأقاليم السائية<sup>(٦٩)</sup>.

(\*\*) كان المنج حى (الرياح والماء) فنا واسع الانتشار في الصين الغرض منه التوفيق بين مواضع السيوت والتدور في الإقليم ومهاب الرياح وتيارات الماء فيه.

قبل المسيح أن تشرح جثت أربعين من المجرمين المحكوم بإعدامهم ، وأن تدرس أجسامهم دراسة تشريحية ، ولكن نتائج هذا التشريح وهذه الدراسة قد ضاعت وسط النقاش النظري ، ولم تستمر عمليات التشريح فيما بعد . وكتب جانج جونج — تنج في القرن الثاني عدة رسائل في التغذية والحميات ظلت هي النصوص المعمول بها مدى ألف عام ، وكتب هوا — دوفى القرن الثالث كتاباً في الجراحة ، وأشاع العمليات الجراحية باختراع فييدو يخنذر المريض تخديراً تاماً . ومن سخافات التاريخ أن ضاعت أوصاف هذا المخدر فيما بعد ، ولم يعرف عنها شيء . وكتب وانج شو — هو فى عام ٣٠٠ بعد الميلاد رسالة ذائعة الصيت عن ضربات القلب<sup>(٧٢)</sup>

وفى أوائل القرن السادس كتب داو هونج — جنج وصفا شاملاً لسبعائة وثلاثين عقاراً مما كان يستخدم فى الأدوية الصينية ، وبعد مائة عام من ذلك الوقت كتب چاويوان — فانج كتاباً قيماً فى أمراض النساء والأطفال ظل من المراجع الهامة زمناً طويلاً . وكثرت دوائر المعارف الطبية فى أيام أباطرة أسرة تانج كما كثرت الرسائل الطبية المتخصصة التى تبحث كل منها فى موضوع واحد فى عهد الملوك من أسرة سونج<sup>(٧٣)</sup> . وأنشئت فى أيام هذه الأسرة كلية طبية ، وإن ظل طريق التعليم الطبى هو التمرين والممارسة . وكانت العقاقير الطبية كثيرة متنوعة حتى لقد كان أحد محازن الأدوية منذ ثلثمائة عام يبيع منها بنحو ألف ريال فى اليوم الواحد<sup>(٧٤)</sup> . وكان الأطباء يطنبون ويتخذون فى تشخيص الأمراض ، فقد وصفوا من الحميات مثلاً ألف نوع ، ويميزوا من أنواع النبض أربعاً وعشرين حالة . واستخدموا اللقاح فى معالجة الجدري ، وإن كانوا لم يستخدموا التطعيم للوقاية منه ، واعلمهم قد أخذوا هذا عن الهند ، ووصفوا الزئبق للعلاج من الزهرى . ويلاحظ أن هذا المرض الأخير قد ظهر فى الصين فى أواخر أيام أسرة منج وأنه انتشر انتشاراً مروعاً بين الأهلىن ، وأنه بعد زواله قد خلف

وراءه حصانة نسبية تقيهم أشد عواقبه خطورة . غير أن الإجراءات الصحية العامة ، والأدوية الواقية ، والقوانين الصحية ، لم تتقدم تقدماً يذكر في بلاد الصين ؛ كما كان نظام المجارى والمصارف نظاماً بدائياً إذا كان قد وضع لها نظام على الإطلاق<sup>(٧٥)</sup> . وقد عجزت بعض المدن عن حل أول الواجبات المفروضة على

كل مجتمع منظم — ضمان ماء الشرب النقي والتخلص من الفضلات . وكان الصابون من مواد الترف التي لا يحصل عليها إلا الأثرياء للممتازون ، وإن كان القمل وغيره من الحشرات كثير الانتشار . وقد اعتاد الصينى الساذج أن يهرش جسمه ويخدشه وهو مطمئن هادئ هدوء الكنفوشيوسين . ولم يتقدم علم الطب تقدماً يستحق الذكر من أيام شى هوانج — دى إلى أيام الملكة الوالدة . ولعل في وسعنا أن نقول هذا القول بعينه عن علم الطب في أوروبا من عهد أبقراط إلى عهد باسثير . وغزا الطب الأوروبى بلاد الصين في حجة المسيحية ، ولكن المرضى الصينيين من الطبقات الدنيا ظلوا إلى أيامنا هذه يقصرون الانتفاع به على الجراحة . أما فيما عداها فهم يفضلون أطباءهم وأعشابهم القديمة على الأطباء الأوربيين والعقاقير الأوربية .

## الفصل الرابع

### دين بلا كنيسة

الخرافات والتشكك - عمادة الطبيعة - عبادة السماء - عبادة  
الأسلاف - الكيموشية - الدونة - لكسير الخلود -  
الروذية - النسامح البدني والتصوف - الإسلام - المسيحية  
وأسباب إخماقها في الصين

لم يتم المجتمع الصيني على العلم بل قام على خليط فذ عجيب من الدين والأخلاق والفلسفة، ولم يشهد التاريخ شعباً من الشعوب أشد من الشعب الصيني استمساكا بالخرافات، أو أكثر منه تشككا أو أعظم منه تقي، أو أكثر انصياعاً لحكم العقل أو أقوى منه دنيوية. ولم توجد على ظهر الأرض أمة تماثل الأمة الصينية في التحرر من سيطرة الكهنة، ولم يسعد قوم غير الهنود بأهنتهم، أو يشقوا بهم بمثل ما سعد بهم الصينيون أو شقوا. ولسنا نستطيع أن نقسر هذه المتناقضات إلا بأن نعزو لفلاسفة الصين نفوذاً لا نظير له في التاريخ، وأن نقر بما في فقر الصين من معين للأمانى الخيالية لا يفضب.

ولم يكن دين سكان الصين البدائيين يختلف بوجه عام عن دين عبدة الطبيعة، وأهم عناصره الخوف من الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة في جميع نواحيها، وإجلال شعري لما على الأرض من صور رهيبه وما فيها من قدرة عظيمة على الإنتاج والتوالد، وخشية السماء وعبادتها وإجلال ما فيها من شمس منعشة وأمطار مخصبة كانوا يعدوهمما عنصراً من عناصر الوثام والارتباط بين ما على الأرض من حياة وما في السماء من قوى خفية، فكانوا يعبدون الريح والرعد والأشجار والجبال الأفاعي؛ ولكن أعظم أعيادهم كانت تقام لمعجزة السماء، وكان

الشبان والفتيات في أيام الربيع يرقصون ويتضاجعون في الحقل ليضربوا المثل  
لأمهم الأرض في الإخصاب والإنتاج. ولم يكن ثمة فرق كبير بين الملك والكاهن  
في تلك الأيام ، وكان ملوك الصين الأولون ، كما ورد في أقوال المؤرخين الذين  
أطنبوا فيما بعد في وصفهم ، كهاناً سياسيين لا يقدمون على عمل من أعمال البطولة  
إلا بعد أن يمهّدوا له بالأدعية والصلوات ويستعينوا عليه الآلهة<sup>(٧٦)</sup>.

وكانت الأرض والسماء في هذا الدين البدائي مرتبطين إحداهما بالأخرى ،  
لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة ، وكانت صلة إحداهما بالأخرى أشبه  
ما تكون بصلة الرجل والمرأة وصلة السيد بالتابع واليانج بالين . وكان نظام  
السموات ومسلك الآدميين الخلقى عمليتين متقاربتين متشابهتين لأنهما شطران  
من نظام عالمي لا غنى عنه يسمى دو — أى الطريقة السماوية ؛ وليست الأخلاق  
الطبيعية في اعتقادهم إلا نتيجة للتعاون القائم بين أجزاء هذا الككل شأنها في هذا  
شأن القوانين التي تسير نجوم السماء .

وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها ، هذا النظام الأخلاقي ،  
هذا الترتيب القدسي ، الذي يشمل بين طياته الناس والجماد ويحدد العلاقات  
الحقة بين الأطفال وآبائهم ، والزوجات وأزواجهن ، وبين الأتباع وسادتهم ،  
والسادة والإمبراطور ، والإمبراطور والإله. لقد كان هذا تفكيراً عجبياً ولكنه  
تفكير نبيل يتأرجح بين التجسيد الشخصي حين يصلى الشعب لتين — للسماء  
المعبودة — والتجريد حين يتحدث الفلاسفة عن جماع تلك القوى — الشديدة  
البعده عن قوة البشر فرادى أو مجتمعين — التي تسيطر على السموات والأرضين  
والأناسي . ولما تقدمت دراسة الفلاسفة أضحّت فكرة « السماء » الشيثية مقصورة  
على عامة الشعب ، أما فكرتها المجردة غير الشيثية فأضحّت عقيدة الطبقات المتعلمة  
ودين الدولة الرسمي<sup>(٧٧)</sup> .

ومن هانين البدايتين نشأ العنصران اللذان يتألف منهما دين الصين القومي وهما : عبادة الأسلاف المنتشرة بين جميع طبقات الأمة وعبادة السماء وعظاء الرجال التي تدعو إليها الكنفوشية . وكان الصينيون يقربون في كل يوم قرباناً متواضعاً — ويكون في العادة شيئاً من الطعام — للموتى ، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم ؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه أو أسلافه يعيشون بعد موتهم في مملكة غير محددة أو واضحة له ، وأن في مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه . وكان الصينى المتعلم يقرب لأسلافه مثل هذا القربان ، ولكنه لم يكن ينظر إلى المراسم التي تصحبه على أنها عبادة ، بل كان ينظر إليها على أنها نوع من إحياء ذكراهم . ولقد كان من الخير لأرواح الموتى وللشعب الصينى بوجه عام أن يعظم هؤلاء الأموات ، وأن تخلد ذكراهم لأن في تخليدها تعظيماً للطرق القديمة التي كانوا يسرون عليها وسداً لطريق البدع وإقراراً للسلام في أنحاء الإمبراطورية . وما من شك في أن هذا الدين كان يسبب للصينيين بعض المتاعب والمضايقات ؛ من ذلك أنه ملأ البلاد بما لا يحصى من القبور الضخمة التي لا يمكن انتهاك حرمتها ، فعاقبت هذه القبور إنشاء الطرق الحديدية وفتح الأرض للزراعة ؛ ولكن هذه الصعاب كانت في نظر الفيلسوف الصينى صماباً تافهة لا يقام لها وزن أمام ما تسديه عبادة الأسلاف إلى المدنية الصينية من استقرار سياسى واطراد روحى . ذلك أن هذا النظام المتغلغل في كيان الأمة الصينية قد أفاض عليها وحدة روحية زمانية رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال التي تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة ، ومن فقرها في وسائل النقل وسبل الاتصال . وبفضل هذه الوحدة الروحية ارتبطت الأجيال بعضها ببعض برباط قوى من وحدة العقائد ، وبذلك كان للحياة الفردية نصيب مشرف موفور وخطر عظيم في هذه العظمة التي لا يجدها وقت وفي ذلك المجال الممتد على مدى الزمان .

ومن عجب أن الدين الذى اعتنقه العلماء واتبعته الدولة قد وسع دائرة هذه العقائد الشعبية وضيق نطاقها فى آن واحد؛ ذلك أن إجلال الناس لكنفوشيوس قد أخذ يعظم جيلاً بعد جيل حتى أصبح بفضل ما كان يصدره الأباطرة من مراسيم فى المكانة الثانية بعد السماء نفسها . فكانت كل مدرسة تكرمه بوضع لوحة تذكارية وكل مدينة تكرمه ببناء هيكل فيها ، وكان كبار الموظفين يحرقون البخور أو يقرّبون القرابين من حين إلى حين تكريماً لروحه أو إحياء لذكراه ، ويعدون هذه الذكرى أعظم دافع لفعل الخير بين جميع ذكريات الشعب الصينى التى يخطئها الحصر .

ولم تكن الطبقات الراقية المتقفة تعدّه إلهاً ؛ بل كان كثير من الصينيين يعدّونه بديلاً من الإله ؛ ولربما كان من بين من يحضرون الصلوات التى تقام تكريماً له لا أدريون أو كفرة ملحدون ، ولكنهم — إذ اذما عظموه وعظّموا أسلافهم — كانوا يعدون فى المجتمع الذى يعيشون فيه أتقياء متديّنين . وكان من الأصول المقررة فى الديانة الكنفوشية الاعتراف بالشانج — تى ، أى القوة العليا المسيطرة على العالم ، وكان الإمبراطور فى كل عام يقرّب القران واحتفال عظيم على مذبح السماء لهذا المعبود الجرد . وقد حلا هذا الدين الرسمى من كل إشارة للخلود<sup>(٧٨)</sup> ، فلم تكن السماء مكاناً بل كانت إرادة الله أو نظام العالم .

لكن هذا الدين البسيط الذى يكاد ينطبق على مقتضيات العقل لم يرض أهل الصين فى وقت من الأوقات . ذلك بأن مبادئه لا تفسح المجال واسعاً أمام خيال الناس ، ولا تستجيب إلى آمالهم وأمانيتهم ، ولا تشجع الخرافات التى تبعث البهجة فى حياتهم اليومية . ولقد كان الناس فى الصين كما كانوا فى سائر بلاد العالم يحملون الحقائق الواقعية العادية بخوارق الطبيعية الشعرية ، وكانوا يحسون بأن آلافاً من الأرواح الطيبة والخبيثة ترفرف من حولهم فى الهواء المحيط بهم وفى



الأرض التي تحت أقدامهم ، وكانوا يحرسون على أن يردوا عداوة هذه القوى الخفية أو يستمينوها بالأدعية وبالرقى السحرية . وكانوا يستأجرون المتنبئين ليكشفوا لهم عن مستقبلهم من سطور الإلإى — جنج أو أصداف السلاحف أو حركات النجوم ، ويستأجرون السحرة ليوجهوا منازلهم نحو الريح والماء ، والعرفانين ليستنزلوا لهم نور الشمس وماء الأمطار<sup>(٧٩)</sup> . وكانوا يعرضون للهوت من يولد لهم من الأطفال في أيام « النحس »<sup>(٨٠)</sup> . وكانت البنات المتوقدات حماسة وغيره يقتلن أنفسهن في بعض الأحيان ليجلبن الخير أو الشر لآبائهن<sup>(٨١)</sup> . وكانت نفوس الصينيين عامة وفي الجنوب خاصة تنزع إلى التصوف ، وتشمئز من النزعة العقلية الجامدة التي تسود العقائد الكنفوشية ، وتتوق إلى عقيدة تجد فيها ما يجده غيرها من الأمم من سلوى دائمة تحيي موات النفوس .

ومن أجل هذا عمد بعض الفقهاء الشعبيين إلى عقيدة لو دزه الغامضة فصاغوها تدريجاً في دين جديد . لقد كانت الدوية في رأى الأستاذ القديم وفي رأى جوانج — دزه طريقة للحياة تهدف إلى الحصول على السلام الشخصى على ظهر الأرض ؛ ويبدو أنهم لم يؤهلوا هذه الطريقة أو يتخذوها نوعاً من العبادة ، كما أنهم لم يظفروا إليها على أنها ثمن يؤدونه في هذه الدار ليشتروا به الحياة في الدار الآخرة<sup>(٨٢)</sup> ، فلما كان القرن الثانى بعد الميلاد عدلت هذه العقائد على يد رجال ادعوا أنهم قد وصل إليهم عن طريق لو دزه نفسه إكسير يهب صاحبه الخلود . وكان هذا الإكسير في صورة شراب شاع بين الصينيين وأسرفوا فيه إسرافاً يقال إنه أودى بحياة عدد غير قابل من الأباطرة الصينيين لسكثرة إدمانهم إياه<sup>(٨٣)</sup> .

وأشد من هذا غرابة أن معلماً من رجال الدين في ششوان (حوالى عام ١٤٨ بعد الميلاد) كان يعرض على الناس أن يشفيهم من أمراضهم كلها بطلمس بسيط يعطيهم إياه في نظير خمس حفنات من الأرز . وبدا لبعض الناس أنهم قد شفوا من أمراضهم بفضل هذه الأعمال السحرية ، وقيل للذين لم يثمر فيهم العلاج إن

إخفاقه كان نتيجة لضعف إيمانهم<sup>(٨٤)</sup> . وأقبل الفاس على الدين الجديد زرافات ووحداً ، وشادوا له الهياكل وأغدقوا المال على كهنته بسخاء عظيم ، ومزجوا به جزءاً من قصصهم الشعبي الخرافي الذي لا ينضب له معين . واتخذ الفاس لودزه إلهاً يعبدونه ، وقالوا إن أمه حملت فيه سملاً سماوياً ، واعتقد المؤمنون الصالحون إنه ولد كامل العقل طاعماً في السن لأنه أقام في بطن أمه ثمانين عاماً<sup>(٨٥)</sup> . ثم ملأوا الأرض بشياطين وآلهة جديدة ، وكانوا يخيفون الأولى بصواريخ ناربة تنفجر في أفنية الهياكل ويتهج بانفجارها من يجتمع حولها من الناس ، ويوقظون الثانية من سباتها بنواقيس ضخمة قوية الصوت لتستمع إلى دعوات عبّادها ومطالبهم الملحة .

وظلت العقائد الدوية ألف عام عقيدة الملايين من الصينيين ، وآمن بها كثير من الأباطرة ، وحاك أتباعها كثيراً من الدسائس ، وكافحوا أشد الكفاح ليعتزعوا من الكنفوشيين حقهم المقدس في فرض الضرائب وإنفاق حصيلتها . ثم قضى عليها آخر الأمر ، ولكن الذي قضى عليها لم يكن منطق كنفوشوس وأتباعه بل قضى عليها دين جديد أقدر مها هي نفسها على إلهام رجل الشارع وبعث الساوى في نفسه .

وهذا الدين الجديد هو البوذية ، ولم تكن البوذية التي بدأت تنتقل من الهند إلى الصين في القرن الأول الميلادي هي العقيدة الجامدة المكتتبة التي نادى بها « المستدير » قبل دخولها إلى الصين بخمسمائة عام ، ولم تكن عقيدة قائمة على الزهد والتقشف ، بل كانت ديناً يدعو إلى الإيمان في غبطة وبهجة بآلهة تعين البشر على أعمالهم ، وجنة ذات أزهار وورباض . واتخذت على توالي الأيام صورة المركبة الكبرى أو الماهيانا التي وفق فقهاء الكتسكا بينها وبين الحاجات العاطفية لسكان الصين السذج ؛ وغمرت الصين بآلهة جدد لا يفترون كثيراً عن الآدميين أمثال أميتها حاكم الجنة ، وكوان — ين إله الرحمة وإلهتها فيما

بعد ، وأضافت إلى مجمع آلهة الصين عدداً من اللوهانه والأرباط — وهم ثمانية عشر من أتباع بوذا الأولين — المتأهبين في كل حين لأن يهبوا الناس بعض ما لهم من فضائل لكي يساعدوا بني الإنسان الحيارى المعذبين .

ولما ألقت الصين نفسها بعد سقوط أسرة هان مقطعة الأوصال من جراء ما سادها من فوضى سياسية ، وخيل إلى أهلها أن حياتها نفسها قد قضى عليها اضطراب حبل الأمن وتوالى الحروب ، ولت الأمة المذبذبة وجهها شطر البوذية كما ولي العالم الروماني وجهه في ذلك الوقت نفسه شطر المسيحية وفتحت الدوية ذراعها لاحتضان الدين الجديد وامتزجت به على مر الزمان في نفوس الصينيين امتزاجاً تاماً ؛ وأخذ الأباطرة يضطهدون البوذية والفلاسفة يشكون مما فيها من خرافات ، وأخذ الساسة بأسفون لأن طائفة من خير أبناء الصين قد انزوت في الأديرة وعقمت فأضحت لا تنفيذ منها البلاشيتا . لكن الحكومة وجدت آخر الأمر أن الدين أقوى من الدولة ؛ فتصالح الأباطرة مع الآلهة الجدد ؛ وأجيز للكهنه أن يجمعوا الزكاة ويشيدوا الهياكل ، ورضيت طبقة الموظفين والعلماء على الرغم منهما أن تبقى الكنفوشية ديناً أرستقراطياً لها . واستولى الدين الجديد على كثير من المزارات القديمة وأقام رهبانه وهياكله إلى جانب رهبان الدوية وهياكلها على تاي — شان جبلها المقدس ، وحث الناس على أن يهجوا إلى هذه الهياكل سراراً كثيرة إظهاراً لورعهم وتقواهم ، وكان له أثر عظيم في إزدهار فنون التصوير والنحت والعمارة والآداب ، وتقدم الطباعة ، ورتقى كثير من طباع الصينيين ، ثم اضمحل كما اضمحلت الدوية ، فدب الفساد في نفوس كهنة الديانة الجديدة ، وتغلغل في عقائدها على مر الأيام كثير من الأرباب المشثومين والخرافات الشعبية المؤذية ، وقضى على ما كان لها من سلطان سياسي . لم يكن كبيراً في يوم من الأيام — نهضة الكنفوشية على يد چوشى . والآن قد هجرت هياكلها ، ونصب معين مواردها ، وأضحت وليس لها عبادة إلا كهنتها الفقراء المعدمة . (٨٦)

بيد أنها مع ذلك قد نفذت إلى قرار النفس الصينية ، ولا تزال حتى الآن عنصراً هاماً من العناصر المعقدة غير الرسمية في دين الصينى الساذج . ذلك أن الأديان في الصين ليست محدودة مانعة كما هي في أوروبا وأمريكا ، ولم تدفع البلاد في يوم من الأيام إلى الحروب الدينية . فأنصار كل دين في تلك البلاد متسامحون عادة مع أهل كل دين آخر ، وليس هذا التسامح مقصوراً على شئون الدولة السياسية بل تراه أيضاً في العقائد نفسها ؛ فالصينى العادى من عبدة مظاهر الطبيعة ودوئى وبوذى وكنفوشى في وقت واحد . ذلك أنه فيلسوف متواضع ، يعرف الأشياء في هذا العالم محقق مؤكداً ، ويقول في نفسه لعل رجال الدين على حق و لعل هناك جنة كما يقولون ، وخير ما يفعله الإنسان أن يتقبل كل هذه العقائد ؛ ويستأجر كثيراً من الكهنة من ديانات مختلفة ليتلوا الصلوات على قبره . على أن المواطن الصينى لا يعبأ كثيراً بالآلهة مادام الحظ يبسم له ؛ فهو يعظم أسلافه ولكنه يترك هياكل الدوية والبوذية في رعاية الكهنة وعدد قليل من النساء .

ولم يعرف التاريخ نفساً أشد دنيوية من نفسه ، فأكبر ما يهتم به الصينى أن يعيش بغير في هذه الحياة الدنيا ، وإذا صلى فإنه لا يطلب في صلواته أن يقال نعيم الجنة بل يطلب الخير لنفسه في هذا العالم الأرضى<sup>(٨٧)</sup> . وإذا لم يستجب إلهه لدعائه فقد يطلق فيه لسانه بالسباب ثم يقذفه آخر الأمر في النهر . ومن الأمثال الصينية المأثورة : « ليس من صانعى التماثيل والصور من يعبد الآلهة ، فهم يعرفون من أية مادة تصنع<sup>(٨٨)</sup> » .

ومن أجل هذا لم يقبل الصينى العادى بحماسة على الإسلام أو المسيحية ، فذاتك الديان يمينانه بجنة قد وعدته إياها البوذية من قبلهما ؛ ولكن الذى يريده بحق هو دين يضمن له السعادة في هذه الأرض . وإذا قيل إن في الصين مسلمين فإجابنا أن معظم الخمسة عشر مليوناً من المسلمين في الصين ليسوا في

الحقيقة صينيين ؛ بل هم من أصول أجنبية أو أبناء أجانب<sup>(٨٩)</sup> . وقد دخلت المسيحية الصين على يد النساطرة ، وكان ذلك حوالى عام ٦٣٦ م . وأظهر الإمبراطور ناي دزونج شيئاً من العطف عليها ، وحى الداعين لها من الاضطهاد ، وبلغ من اغتباط نساطرة الصين بهذا التسامح أن أقاموا في عام ٧٨١ نصيباً تذكاريّاً سجلوا عليه تقديرهم لهذا التسامح المستنير ، ورجاءهم أن تعم المسيحية في القريب العاجل جميع أنحاء البلاد<sup>(٩٠)</sup> .

ومن ذلك الحين ظل المبشرون اليسوعيون ذوو الغيرة الدينية والعلم الغزير ، وظل المبشرون البروتستانت تؤيدهم الأموال الأمريكية التي لا ينضب لها معين ، ظل هؤلاء وأولئك يبذلون أقصى جهودهم ليحققوا آمال النساطرة فإذا كانت النتيجة ؟ إن عدد المسيحيين في الصين في هذه الأيام لا يتجاوز ثلاثة ملايين أى أن واحداً في المائة من سكان الصين قد اعتنق المسيحية في ألف عام كاملة<sup>(٩١)</sup> .

---

(\*) لقد فانت المسيحية فرصة أتاحت لها في القرن الثامن عشر حين قام النزاع بين اليسوعيين وغيرهم من المذاهب الكاثولكية الرومانه في الصين ذلك أن اليسوعيين كانوا حرياً على براعتهم السياسية قد وجدوا وسيلة للوفيق بين العنصرين الأساسيين في الديانات الصينية - عبادة الأسلاف وإجلال السماء - وبين العقائد المسيحية من غير أن بقوضوا دعائم النظم المدينة المتأصلة في الصين أو يعرضوا للخطر كيان الصين الأخلاقي . لكن رهبان الدمنيكين والفرنسيسيين لم يرضهم إلا أن يفسروا الدين المسيحي على أصوله الدقمة ، وأخذوا يشتهرون بكل ما في العقائد الدينية الصينية من مبادئ ومراسم وتقولون إنها من فعل الشيطان . وكان الإمبراطور كانج - شى رجلاً مستنيراً شديد العطف على المسيحيين ، عهد إلى اليسوعيين أن يعلموا أبناءه وعرض هو نفسه أن يعتنق المسيحية بعمض الشروط ؛ فلما أن أهدت الكنيسة المسيحية في الصين رسمها موقف الدمنيكين والفرنسيسيين الحامد الشديد قمض يده عن معرفة المسيحية ، ولم يكف خلعاؤه بأن يقفوا منها هذا الموقف السلمى بل قرروا أن يقاوموها مقاومة فعالة . وكانت مطامع الغربيين في الأيام الأخيرة وذرعتهم الاستعمارية من العوامل التي أضعفت قدرة المبشرين المسيحيين على الإقناع ، وزادت الحركة المضادة للمسيحية التي يقوم بها الثوار الصينيون قوة على قوتها .

## الفصل الخامس حكم الأخلاق

ما للأخلاق من مكانة سامية في المجتمع الصيني - الأسرة -  
الأطفال - العمة - الدعارة - العلاقات الجنسية قبل الزواج -  
الزواج والحب - الاقتصار على روجة واحدة وتعدد الزوجات  
- التسرى - الطلاق - إمبراطورة صينية - الحكم  
الأبوي للذكور - حصوع النساء للرجال - الخلق الصيني

لقد تغلبت الكنفوشية وعبادة الأسلاف على كثير من الديانات المنافسة لها، وقاومتا هجمات كثير من أعدائهما، وخرجتا ظافرتين من صراع دام عشرين قرناً، لأن الصينيين يشعرون بأنهما لاغنى عنهما للاحتفاظ بالتقاليد القوية السامية التي أقامت الصين عليها حياتها. وكما كانت هاتان الديانتان هما الضمانتين الدينيتين لهذه الحياة، فكذلك كانت الأسرة هي الوسيلة الكبرى لدوام هذا التراث الأخلاقي. فقد ظل الأبناء يتوارثون عن الآباء قانون البلاد الأخلاقي جيلاً بعد جيل حتى أصبح هذا القانون هو الحكومة الخفية للمجتمع الصيني، وكان قانوناً قوياً ثابت الدعائم بلغ من قوته وثباته أن أمكن المجتمع الصيني من أن يحتفظ بنظامه رغم ما انتاب الدولة غير المستقرة من نوائب وما اجتاحتها من أعاصير سياسية. وفي ذلك يقول فلتيير: « إن خير ما يعرفه الصينيون، وأكثر ما يفرسونه في نفوس أبنائهم، وما بلغ به ذروة الكمال، هو قانونهم الأخلاقي »<sup>(٩٢)</sup> ويقول كنفوشوس في هذا المعنى نفسه: « إذا قام البيت على أساس سليم أمن العالم وسلم »<sup>(٩٣)</sup>.

وكان الصينيون يفترضون أن الغرض الذي يهدف إليه القانون الأخلاقي هو أن يحول فوضى العلاقات الجنسية إلى نظام ثابت مقرر يهدف إلى تنشئة الأبناء. فالطفل هو علة وجود الأسرة، ويرى الصينيون أن أطفال الأسرة مهما كثروا

لا يمكن أن يزيدوا على الحد الواجب المعقول . ذلك أن الأمة معرضة على الدوام لهجمات الغزاة فهي في حاجة إلى من يحميها ، وأن الأرض خصبة غنية يجد ملايين الناس فيها كفايتهم ؛ وإذا فرض أن اشتد تنازع البقاء بين الناس في الأسرة الكبيرة والبيئات المزدهمة فإن هذا التنازع نفسه سيقضى على أضعفهم ويحتفظ بأقدرهم على الحياة ، فيتضاعف عددهم ليكونوا دعامة قوية للأمة ومصدرا لعزة آبائهم وكرامتهم ، يرعون قبور أسلافهم الرعاية الدينية الواجبة . ولقد صاغت عبادة الأسلاف من الأجيال المتعاقبة سلسلة قوية لا آخر لها ، كثيرة الحلقات تربط الأجيال بعضها ببعض وتضاعف قوتها . فكان على الزوج أن يلد أبناء ليقرنوا له القربان بعد وفاته وليواظبوا في الوقت نفسه على تقريب القربان لأسلافه . وفي ذلك يقول منثيس : « ثلاثة أشياء لا يليق صدورها من الآباء ، وشرها كلها ألا يكون لهم أبناء »<sup>(٩٤)</sup> .

وكان الآباء يدعون في صلواتهم أن يرزقوا أبناء ؛ وكان من أشد أسباب المذلة الدائمة للأمهات ألا يكون لهن أبناء ذكور لأن هؤلاء أقدر من البنات على العمل في الحقول وأثبت منهن خفائاً في ميدان القتال ؛ وكان من الشرائع المتبعة في البلاد — ولعل هذا الاعتقاد قد روعى في وضعها — ألا يسمح لغير الذكور بتقريب القربان إلى الآباء والأسلاف . وكانت البنات تعد عبئاً على الآباء لأنهم يربونهن ويصبرون على تربيتهن ولا ينالهن من ذلك إلا أن يبعثوا بهن متى كبرن إلى بيوت أزواجهن ليعملن فيها وبلدن أبناء يكدون لأسر غير أسرهم . وإذا ولد للأسرة بنات أكثر من حاجتها وصادفت الأسرة الصعاب في إعالتهم تركتهن في الحقول ليقضى عليهن صقيع الليل أو الحيوانات الضارية<sup>(٩٥)</sup> دون أن تشعر بشيء من وخز الضمير . وكان من بقى على قيد الحياة من الأبناء والبنات بعد أخطار الطفولة وأمراضها ينشئون بحنان عظيم ؛ وكانت القدوة الحسنة تحمل في تربيتهم محل الضرب واللكم ، وكان الأقارب يتبادلون الأبناء في بعض الأحيان حتى لا يتلفهم

حب الآباء وحنانهم<sup>(٩٦)</sup> . وكان الأطفال يتركون في المنزل في الجناح الخاص بالنساء ، ولما كانوا يختلطون بالكبار من الذكور حتى يبلغوا السابعة من العمر ، وبعدها يرسل الأولاد إلى المدارس إذا كانت موارد الأسرة تكفي لتعليمهم ويفصلون عن البنات فصلاً تاماً ، حتى إذا بلغوا العاشرة لم يسمح لهم بأن يختاروا لهم رفقاء من غير الرجال والمخاطى . ولكن انتشار اللواط جعل هذا الاختيار صورياً<sup>(٩٧)</sup> .

وكانت العفة تعد من الفضائل السامية ، وكان الآباء يحرصون عليها أشد الحرص في بناتهم ، وقد نجحوا في غرس هذه الفضيلة في البنات نجاحاً منقطع النظير ، يدل عليه أن البنات الصينيات كن في بعض الأحيان يقتلن أنفسهن إذا اعتقدن أن شرفهن قد تلوث بأن مسهن رجل مصادفة<sup>(٩٨)</sup> . غير أنهم لم يبذلوا أى مجهود يرمى إلى أن يحتفظ الرجل غير المتزوج بعفته ، بل كان يعد من الأمور العادية المشروعة أن يتردد على المواقير ، وكان الزنا عند الرجال من الشهوات المألوفة الواسعة الانتشار ، يستمتع به الرجل كما يشتهي من غير أن يناله من ورائه أى عار إلا ما ينال المفرط في أية عادة من العادات<sup>(٩٩)(١٠٠)</sup> .

وكان إعداد النساء لإشباع هذه الشهوات من النظم المقررة في الصين من زمن بعيد . من ذلك أن الوزير الشهير جوان چونج وزير ولاية تشى أعد مقراً للقوادات تؤخذ فيه من التجار القادمين من الولايات الأخرى مكاسبهم قبل أن يعودوا إلى أوطانهم<sup>(١٠١)</sup> .

ويقول ماركو پولو إنه شاهد في عاصمة كويلاى خان من العاهرات ما لا يحصى عددهن وما لا يتصور العقل جمالهن . وهؤلاء البنات مريضات لهن

---

(١) وكان الرجال في بعض الأحيان يعدون أنفسهم حبرة لقضاء الليل في بيت من بيوت الدعارة بالصورة الخليمة والباهات والأغاني<sup>(١٠٠)</sup> . ومن أحسننا أن نقول إن هذه العادات الجنسية الشاذة آخذة في الزوال في هذه الأيام .



بمزاولة مهنتهن ، وتنظم الدولة أمورهن وتراقبن من الواجهة الطبية ، وتقدم  
أجملهن دون أجر إلى أعضاء السفارات الأجنبية<sup>(١٠٢)</sup> .

ونشأت فيما بعد طائفة خاصة من الفاتنات يعرفن « بالبنات المغنيات »  
مهنتهن أن يتحدثن حديثاً مهذباً إلى الشبان إذا أرادوا أو يستخدمن في بيوت  
الأزواج لتسليية الضيوف . وكثيراً ما تكون هؤلاء الفتيات من البارعات  
في الأدب والفلسفة ومن يجدن الموسيقى والرقص<sup>(١٠٣)</sup> .

وقد كان الرجال يستمتعون بحرية واسعة في صلاتهم بالنساء قبل الزواج ،  
كما كانت صلات النساء المحترمات بالرجال قبل زواجهن مقيدة بأشد القيود ،  
وكان من نتائج هذه الحرية الواسعة من جهة وهذا التقييد الشديد من جهة أخرى  
أن الفرصة لم تتح كثيراً لنشأة الحب العاطفي السامح . على أنه قد ظهرت كتابات  
تصف هذا الحب العاطفي في عهد أسرة تانج ؛ وفي وسعنا أن نرى شواهد دالة على  
وجود هذه العاطفة منذ القرن السادس قبل الميلاد في قصة واى شنج . فقد تواعد  
هو وفتاة أن يلتقيا تحت قنطرة ، وظل هو ينتظرها هناك بلا جدوى وإن كان الماء  
قد علا فوق رأسه وأغرقه<sup>(١٠٤)</sup> . وما من شك في أن واى شنج كان أعرف  
بحقائق الأمور مما يبدو في هذه القصة . ولكن الشاعر الذى نظمها يظن هو  
وأمثاله من الشعراء أنه قد لا يعرف ، وفي هذا الظن ما فيه من الدلالة . وقصارى  
القول أن الحب بوصفه عاطفة رقيقة وهياماً بالحبوب وتعلقاً به كان بين الرجال  
بعضهم بعضاً أقوى منه بين الرجال والنساء ؛ والصينيون في هذا أشبه الناس  
باليونان<sup>(١٠٥)</sup> .

ولم يكن الزواج صلة بالحب . ولما كان الغرض من الزواج هو ربط  
زوجين أصحاء بعضهما ببعض لكي تنشأ من ارتباطهما أسرة كبيرة ، فإن هذه  
الرابطة لم يكن يصح في اعتقاد الصينيين أن تترك لحكم العواطف القائم على غير  
أساس من العقل . ومن أجل هذا كان الآباء يحرصون على فصل الذكور عن

الإناث حتى يبحثوا هم زوجات لأبنائهم أو أزواج لبناتهم . وكانوا يعدون امتناع الرجل عن الزواج عيباً خلقياً ، كما كانت العزوبة جريمة في حق الأسلاف . وفي حق الدولة وفي حق الجنس لا تغتفر حتى لرجال الدين . وكان الصينيون في أيامهم الأولى يميّنون موظفاً خاصاً عمله أن يتأكد من أن كل إنسان في الثلاثين من عمره متزوج وأن كل امرأة قد تزوجت قبل العشرين<sup>(١٠٦)</sup> . وكان الآباء يفظمون خطبة أبنائهم وبناتهم بمعونة وسطاء محترفين (ماي - رن = وسطاء) ، وكانوا يفعلون هذا عقب بلوغهم الحُلُم وقبله أحياناً وقبل أن يولدوا في بعض الأحيان<sup>(١٠٧)</sup> . وكان ثمة قيود تفرض على الزواج بين الأقارب وأخرى على الزواج من غير الأقارب تحد من هذا الاختيار ، منها : أن الزوج يجب أن يكون من أسرة معروفة من زمن بعيد للأب الذي يبحث عن زوج لابنه أو بنته ولكنها بعيدة النسب عنه بعداً يجعلها خارج دائرة عشيرته . وهذا القول نفسه يصدق على الزوجة . وكانت طريقة الخطبة أن يرسل والد الخطيب هدية قيمة إلى والد الفتاة ، ولكن الفتاة كان ينتظر منها هي الأخرى أن تأتي معها ببائنة قيمة إلى زوجها تكون في الغالب على شكل متاع أو بضاعة كما كانت الأسرتان تتبادلان في العادة كثيراً من الهدايا ذات الشأن وقت الزواج . وكانت البنت تظل في عزلة شديدة عن حطّيبها حتى تزف إليه ، فلم يكن زوجها المرتقب يستطيع رؤيتها إلا إذا احتال على ذلك احتيالاً — ولقد كان هذا الاحتمال مستطاعاً في بعض الأحيان — ، ولكنه في كثير من الحالات كان يراها أول مرة حين يرفع النقاب عن وجهها في حفلة الزفاف وكانت هذه الحفلة من الطقوس الرمنزية المعقدة ، أهم ما فيها أن يحتمس المرء من الحجر ما يكفي لأن يزيل ما عساه أن يفتابه من حياء يعد في عرف الصينيين جريمة لا تغتفر<sup>(١٠٨)</sup> . أما البنت فكانت تدرّب على أن تكون حية ومطبعة في وقت واحد . وكانت الزوجة تعيش بعد الزواج مع زوجها في بيت أبيه أو باقرب منه ، حيث تكدح كدحاً في خدمة زوجها وأمه حتى يحين

الوقت الذي يجررها فيه الموت من هذا الاسترقاق ، ويتركها على استعداد لأن تفرضه هي نفسها على زوجات أبنائها .

وكان الفقراء يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن حرص الصينيين على إنجاب أبناء أقوىاء كان من القوة بحيث يجعلهم يسمحون عادة للقادرين منهم بأن يتخذوا لهم سرارى أو « زوجات في الدرجة الثانية » . أما تعدد الزوجات فكان في نظرهم وسيلة لتحسين النسل ؛ وحجتهم في هذا أن من يستطيعون القيام بنفقاته منهم هم في العادة أكثر أهل العشيرة قدرة على إنجاب الأبناء . وكانت الزوجة الأولى إذا ظلت عاقراً تمح زوجها على أن يتخذ له زوجة ثانية ؛ وكثيراً ما كانت هي نفسها تتبنى ابن إحدى المحاظلى . وكثيراً ما كان يحدث أن الزوجات اللاتى يرغبن في أن يحتفظن بأزواجهن داخل بيوتهن يطلبن إليهم أن يتزوجوا بالمحاظلى اللاتى يؤثرونهن بالعناية وبالصلوات الجنسية ، وأن يأتوا بهن إلى منازلهم ويتخذونهم فيها زوجات من الدرجة الثانية<sup>(١٠٩)</sup> .

ومن أجل ذلك رى القصص والأخبار الصينية تنفى على زوجة الإمبراطور جوانج — تشو أطيب الثناء لأنها قالت : « لم أكف قط عن إرسال الرسل إلى المدن المجاورة للبحث عن النساء الجميلات لأجعلهن خايلات لمولاي »<sup>(١١٠)</sup> وكانت الأسرى ينافس بعضها بعضاً في أن يبلن شرف الخطوة بإرسال إحدى بناتها إلى حريم الإمبراطور . وكان من حق الإمبراطور أن يتخذ له ثلاثة آلاف من الخصيان ليحرسوا له حريمه وليعنوا ببعض الشئون الأخرى في بلاطه ، وكان هؤلاء الخصيان يخلصهم آباؤهم وهم في سن الثامنة ليضمنوا لهم الحصول على رزقهم<sup>(١١١)</sup> .

ولم تكن الزوجات الثانيات في جنبة الذكور هذه يفترقن كثيراً عن الإماء ، كما لم تكن الزوجات الأوليات إلا رئيسات هيئة لإنتاج الأبناء ، والبنات ، تعتمد مكانتهن في الأسرة اعتماداً يكاد يكون تاماً على عدد من يبلن من الأبناء وعلى

جنسهن . وإذ كانت الزوجة قد نشئت على الرضا بسيادة زوجها عليها فقد كان في وسعها أن تفعم بقسط متواضع من السعادة بالاندماج ببطء ويُسْرٍ في النظام الرتيب الذي هيئت له والذي ينتظره الناس كلهم منها . وإذا كانت النفس البشرية كما نعلم جميعاً سريعة القبول لما تنشأ عليه فإن الرجل والمرأة المرئيين برباط الزوجية في تلك البلاد كانا يمشيان كما يبدو لنا عيشة راضية سعيدة لا تقل في ذلك عن عيشة الزواج التي تعقب الحب الروائي في البلاد الغربية . وكان في وسع الرجل أن يطلق الزوجة لأي سبب كان ، لعقمها أو لثرتتها<sup>(١١٢)</sup> ، ولم يكن من حقها هي أن تطلق زوجها ، بل كان لها أن تغادر داره وتعود إلى دار أبويها . وإن كان هذا لا يحدث إلا في القليل النادر . على أن الطلاق كان مع ذلك قليلاً ، ويرجع بعض السبب في هذا إلى ما كان ينتظر المطلقة من مصير أسوأ من أن تستطيع التفكير فيه ، وبعضه إلى أن الصينيين فلاسفة بطبيعتهم يرون الألم أمراً طبيعياً وأنه من مقتضيات النظام العام .

وأكبر الظن أن الأم قبل أيام كنفوشيوس كانت محور الأسرة لأنها مصدر وجودها وسلطانها . وكان الناس في أول عهودهم كما سبق القول « يعرفون أمهاتهم ولا يعرفون آباءهم » ، ولا يزال اللفظ الدال على اسم أسرة مكوناً من الأصل الذي اشتق منه لفظ « امرأة »<sup>(١١٣)</sup> ، واللفظ الصيني المقابل لكلمة الزوجة معناه « المساوي » ، وكانت الزوجة تحتفظ باسمها بعد زواجها . وكانت النساء حتى القرن الثالث بعد الميلاد يشغلن في البلاد مناصب إدارية وتنفيذية رفيعة ، وقد وصل بعضهن إلى أن يكن حاكمات للبلاد<sup>(١١٤)</sup> ؛ ولم تكن « الإمبراطورة الأم » حين قبضت بيدها على شؤون الدولة إلا متبعة لخطى الإمبراطورة « لو » التي حكمت الصين حكماً صارماً دام من عام ١٩٥ إلى عام ١٨٠ ق . م . وكانت « لو » قاسية لاتلين قناتها ، قتلت منافسيها وأعداءها أو قضت عليهم بالسيم ، وكانت تفتبط بتقتيلهم وتسميمهم اغتباط آل ميديشى ، وكانت تختار الملوك وتخلعهم عن

عرشهم ، وتصلم آذان محظيات زوجها وتفقا عيونهم ثم تلقين في المراحيض<sup>(١١٥)</sup> وكان التعليم منتشراً بين نساء الطبقات العليا في الأيام القديمة وإن كان عدد من يعرفون القراءة والكتابة من الصينيين في أيام المنشو لا يكاد يبلغ واحداً في كل عشرة آلاف . وكانت كثيرات من النساء يقرضن الشعر ، ولقد أتت بان چاو أخت المؤرخ بان كوهو ( حوالى عام ١٠٠ م ) تاريخه بعد وفاته ونالت حظوة كبيرة عند الإمبراطور<sup>(١١٧)</sup> .

واعمل قيام نظام الأقطاع في الصين قد قلل من منزلة المرأة السياسية والاقتصادية في تلك البلاد ؛ وجاء معه بنمط صارم من الأسرة الأبوية . ذلك أن الأبناء الذكور هم وزوجاتهم وأطفالهم كانوا يعيشون في العادة مع أكبر رجال الأسرة . ومع أن الأسرة كلها كانت تمتلك أرضها امتلاكاً مشتركاً فإنها كانت تعترف للأب بالسلطان الكامل على الأسرة وعلى أملاكها . فلما أن حل عهد كنفوشيوس كاد سلطان الأب يكون سلطاناً مطلقاً في جميع الأمور ، فكان في وسعه أن يبيع زوجته وأبناءه ليكونوا عبيداً ، وإن لم يفعل هذا إلا إذا ألجأته إليه الضرورة القصوى ؛ وكان يستطيع إذا شاء أن يقتل أبناءه لا يحول بينه وبين هذا إلا حكم الرأي العام<sup>(١١٨)</sup> . وكان يتناول طعامه بمفرده لا يدعو زوجته ولا أبناءه إلى المائدة معه إلا في أوقات قليلة نادرة ، وإذا مات كان ينتظر من أرملته ألا تتزوج بعده ، وكان يطلب إليها في بداية الأمر أن تحرق نفسها تكريماً له ؛ وظلت حوادث من هذا النوع تقع في الصين إلى أواخر القرن التاسع عشر بعد الميلاد<sup>(١١٩)</sup> . وكان الصيني يحامل زوجته كما يحامل كل إنسان سواها ، ولكنه كان في حياته بعيداً كل البعد عن زوجته وأبنائه كأنه من طبقة غير طبقتهم . وكان النساء يعشن في أقسام خاصة من المنزل ، ولما كن يختلطن فيه بالرجال ، وكانت الحياة الاجتماعية كلها مقصورة على الرجال إلا إذا كانت النساء من الطبقات التي يسمح لأفرادها بالاختلاط بالرجال كالمغنيات والمحدثات ومن إليهن .

وكان الرجل لا يفكر في زوجته إلا بوصفها أم أبنائه ولا يكرمها لجمالها أو لثقافتها بل لخصوبتها وجدتها وطاعتها؛ يشهد بذلك ما كتبتة السيدة بان هو — بان لإحدى بنات الطبقة العليا في رسالة ذائعة الصيت بعبارات غاية في التواضع والخضوع تصف فيها المكانة الحقة للمرأة :

نشغل نحن النساء آخر مكان في الجنس البشري ، ونحن أضعف قسم من بنى الإنسان ، ويجب أن يكون من تصييننا أحقر الأعمال ... وما أعدل ما يقوله في حقنا كتاب قوانين الجنسين وأصدقه : « إذا كان للمرأة زوج يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه طيلة حياتها ؛ وإذا كان للمرأة زوج لا يرتضيه قلبها وجب أن تبقى معه أيضاً طيلة حياتها » (١٣٠) .

ويغنى فوشوان قائلاً :

ألا ما أتمس حظ المرأة !

ليس في العالم كله شيء أقل قيمة منها .

إن الأولاد يقفون متكئين على الأبواب ،

كأنهم آلهة سقطوا من السماء ،

تتحدى قلوبهم البحار الأربعة ،

والرياح والتراب آلاف الأميال ؛

أما البنت فإن أحداً لا يسر بمولدها ،

ولا تدخر الأسرة من ورائها شيئاً ،

وإذا كبرت اختبأت في حجرتها ،

تخشى أن تنظر إلى وجه إنسان ،

ولا ييكها أحد إذا اختفت من منزلها —

على حين غفلة كما تختفي السحب بعد هطول الأمطار ،

وهي تطأطأ رأسها وتجمل وجهها .

وتعص بأسفانها على شفيتها ،  
وتنحني وتركم صراراً يخطئها الحصر (١٥١) .

قد يكون في هذه المقتبسات ظلم للبيت الصيني ؛ نعم قد كان فيه خضوع ومذلة ، وكثيراً ما قام فيه النزاع بين الرجل والمرأة وبين بمض الأطفال ، ولكن كان في البيت أيضاً كثير من الحب والحنان ، وكثير من التعاون والتآزر في الأعمال المنزلية ، مما يجعل البيت مكاناً طبيعياً ومستقراً صالحاً للأسرة . وكانت المرأة رغم خضوعها للرجل من الناحية الاقتصادية تستمتع بكامل حقها في استخدام لسانها ، وكان في وسعها أن تؤنب الرجل حتى يرهبها أو يفرد من وجهها كأحسن ما تستطيعه المرأة الغربية في هذه الأيام . هذا وجدير بنا أن نقول إن الأسرة ذات النظام الأبوي ليس في مقدورها أن تكون أسرة ديمقراطية ، وهي أشد من ذلك عجزاً عن أن يكون جميع أفرادها متساوين في الحقوق ، وذلك لأن الدولة كانت تترك للأسرة مهمة القيام على النظام الاجتماعي ، ولأن المنزل كان مربى للأطفال ومدرسة ومصنعاً وحكومة في وقت واحد . ولم يتراخ نظام الأسرة في أمريكا إلا بعد أن ضعف شأن المنزل في المدينة ، وقلت أهميته بانتقال واجبات الأسرة إلى المدرسة والمصنع والدولة .

ولقد أثنى كثير من الرحالة أجمل ثناء على الخلق الذي كان ثمرة هذه النظم المنزلية . فإذا صرفنا النظر عن الحالات الشاذة الكثيرة التي تضعف كل حكم عام يمكن أن يصدره الإنسان على أي نظام اجتماعي ، استطعنا أن نقول إن المنزل الصيني العادي كان مثلاً يحتذى في طاعة الأبناء والآباء ، وإخلاصهم وفائهم لهم ، وفي احترام الصغار للكبار وعنايتهم بهم عن رضا واختيار (\*) وكان الصيني يقبل الحكم

---

(\*) توضيح إقاصيص الصينية هذه المصنفات توضيحاً فكها بما ترويه في قصة هكوجا التي كانت أمه تضربه بالسوط كل يوم ولكنه لا يبكي أبداً . لكنه يبكي في يوم من الأيام في أثناء ضربه ، ولما سئل عن سبب اضطرابه هذا الاضطراب الغير المألوف قال إنه يبكي لأن أمه بعد أن كبرت وضمفت عجزت عن أن تسبب له الأذى بطرباتها (١٢٢) .

الأخلاقية التي جاءت في اللي — شى أو كتاب الحفلات ، ويعمل بما فيها من آداب اللياقة رغم مشقتها ، وينظم كل ناحية من نواحي حياته حسب ما فيها من قواعد المجاملة العاطفية التي أكسبت أخلاقه من الرقة والسهولة والاتزان والكرامة ما لم يفلح أمثاله من الغربيين — فقد يظهر الجمال الذي ينقل الأقدار في الطرقات من الأدب وحسن التربية واحترام النفس أكثر مما يظهره التاجر الأجنبي الذي باعه الأفيون . ولقد تعلم الصيني فن التراضى والمصالحة واستطاع بذلك أن يستل ضغينة عدوه المغلوب . ولقد كان في بعض الأحيان عنيفاً في قوله ، وكان على الدوام ثرثاراً ، وكثيراً ما تراه قذراً أو ثملايد من القمار ويلتهم الطعام التهاماً<sup>(١٢٤)</sup> ، ويميل إلى ابتزاز الأموال العامة وإلى سؤال الناس في غير الحالف<sup>(١٢٤)</sup> ، يعبد إله المال عبادة وثنية مسرفة في صراحتها<sup>(١٢٥)</sup> ، ويجرى وراء الذهب جرى الأمريكى كما نراه في صورهِ الساخرة ، يستطيع أحياناً أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب ، إذا توالى عليه المظالم ثار أحياناً وأقدم على ضروب من السلب والتقتيل في جماعات كبيرة . ولسكنه في جميع أحواله تقريباً رجل مسالم رحيم ، كثير الاستعداد لمساعدة جيرانه ، يحتقر المجرمين والحاربين ، مقتصد مجد مثابر على عمله وإن كان لا يعجل فيه ، بسيط في أسلوب حياته لا يحب التظاهر والتصنع ، شريف إلى حد كبير في معاملاته التجارية والمالية . وكان من عاداته الصبر على الفوائد ، يستقبل النعم والنقم على السواء بحكمة ووداعة ، ويتحمل الحرمان والعذاب دون أن يفقد سلطانه على نفسه ، وبصبر عليهما صبر من يرى أن كل شىء مقدر عليه في الأزل ، ولا يعطف قط على من يتأفف منهما على مسمع من الناس ، يحزن حزناً صادقاً طويلاً على من يموت من أقاربه ، وإذا عجز عن الفرار من الموت بجميع ما لديه من الوسائل واجهه وهو صابر صبر الفلاسفة ؛ وكان

(\*) كان الباعة الجوالون يقفون على جوانب الطرق في كثير من المدن ويبيد كل منهم طبق ويرد وفتجان على استعداد لإشباع رغبة المقامر العابر<sup>(١٢٥)</sup> .



مرهف الشعور بالجمال بقدر ما كان قليل الشعور بالألم ، وكان يزين مدائنه  
بالقوش الملونة ويقنعم في حياته بأرقى أنواع الفن .

وإذا شئنا أن نفهم هذه الحضارة حق الفهم كان علينا أن ننسى ، ولو إلى  
حين ، ما تردت فيه البلاد من فوضى وعجز بسبب ضعفها في الداخل ، واحتكاكها  
بمدافع الغرب وآلاته الضخمة القوية ، وأن نراها في فترة من فترات عزها  
ومجدها في عهد أسراء تجو أو في عهد منتج هواج أو هواي دزونج أو كايج — شى .  
ذلك أن الصينى في تلك الأيام أيام حب الجمال كان يمثل بلا ريب أرقى المدنيات  
وأنضج الثقافات اللتين شهدتهما آسية أو إن شئت فقل أية قارة من القارات .

## الفصل السادس

### حكومة يثني عليها فلتير (١٢٦)

- المررد المغمور - الحكم الداقى - القرية والإقليم - نراخى القانون -
- صرامة العقاب - الإمبراطور - الرقيب - المحالس الإدارية -
- الإعداد للمناصب العامه - الرشيع بالتعليم - نظام الامتحانات -
- عبهه - وفصائله

إن أكثر ما يروعنا فى هذه الحضارة هو نظام حكومتها . وإذا كانت الدولة المثالية هى التى تجمع بين الديمقراطية والأرستقراطية فإن الصينيين قد أنشأوا هذه الدولة منذ ألف عام أو تزيد ؛ وإذا كانت خير الحكومات هى أقلها حكماً ، فقد كانت حكومة الصين خير حكومات العالم على الإطلاق . ولم يشهد التاريخ قط حكومة كان لها رعايا أكثر من رعايا الحكومة الصينية أو كانت فى حكمها أطول عهداً وأقل سيطرة من تلك الحكومة .

لسنا نقصد بهذا أن النزعة الفردية أو الحرية الفردية كان لها شأن عظيم فى بلاد الصين ؛ ذلك أن فكرة الفردية كانت ضعيفة فى تلك البلاد وأن الفرد كان مغموراً فى الجماعات التى ينتمى إليها . فقد كان أولاً عضواً من أعضاء أسرة ، ووحدة عابرة فى موكب الحياة بين أسلافه وأخلافه ؛ وكانت القوانين والعادات تحمله تبعه أعمال غيره من أفراد أسرته كما يحملون هم تبعه أعماله ؛ وكان فضلاً عن هذا ينتمى عادة إلى جمعية سرية ، وإذا كان من سكان الخواضر فإنه ينتمى إلى نقابة من نقابات الحرف .

وهذه كلها أمور تحد من حقه فى أن يفعل ما يشاء . وكان يحيط به فضلاً عن هذا طائفة من العادات القديمة ويهدده رأى عام قوى بالطرد من البلاد إذا خرج على أخلاق الجماعة أو تقاليدها خروجاً خطيراً . وكانت قوة هذه العظم

الشعبية التي نشأت بطبيعتها من حاجات الناس وتعاونهم الاختياري هي التي أمكنت الصين من أن تحتفظ بنظامها واستقرارها رغم ما يشوب القانون والدولة من لين وضعف .

ولكن الصينيين ظلوا أحراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية في داخل هذا الإطار من نظم الحكم الذاتي التي أقاموها بأنفسهم لأنفسهم .

لقد كانت المسافات الشاسعة التي تفصل كل مدينة عن الأخرى ، وتفصل المدن كلها عن عاصمة الإمبراطورية ، والجبال الشاخمة والصحارى الواسعة والمجارى التي تتمذرف فيها الملاحاة أو لاتقوم عليها القناطر ، وانعدام وسائل النقل والاتصال السريع ، وصعوبة تموين جيش كبير يكفي لفرض سلطان الحكومات المركزية على شعب تبلغ عدته أربعمئة مليون من الأنفس -- كانت هذه كلها عوامل تضطر الدولة لأن تترك لكل إقليم من أقاليمها استقلالاً ذاتياً يكاد يكون كاملاً من كل الوجوه .

وكانت وحدة الإدارة المحلية هي القرية ، يحكمها حكماً مترخياً رؤساء العشائر بإشراف « زعيم » منهم ترشحه الحكومة . وكانت كل طائفة من القرى مجتمعة حول بلدة كبيرة تؤلف « بينا » أى مقاطعة بلغت عدتها فى الصين نحو ألف وثلثمائة . ويتألف من كل بينين أو أكثر تحكهما معاً مدينة « فو » ومن كل

فوين أو ثلاثة « داو » أى دائرة ، ومن كل داوين أو أكثر « شنج » أى إقليم . وكانت الإمبراطورية فى عهد المذشو تتألف من ثمانية عشر من هذه الأقاليم .

وكانت الدولة تعين من قبلها موظفاً فى كل بين يدير شئونهُ ، ويجبى ضرائبهُ ، ويفصل فى قضاياهُ ، وتعين موظفاً آخر فى كل فو وآخر فى كل داو ؛ كما تعين قاضياً ، وخازناً لبيت المال ، وحاكماً ، ونائباً للإمبراطور أحياناً فى كل إقليم<sup>(١٢٧)</sup> .

ولكن هؤلاء الموظفين كانوا يقنعون أحياناً بجباية الضرائب والفروض الأخرى

والفصل في المنازعات التي يهجز المحكومون عن تسويتها بالحسنى ، ويتركون حفظ النظام لسلطان العادة وللأسرة والعشيرة والنقابة الطائفية . وكان كل إقليم ولاية شبه مستقلة لا تتدخل الحكومة الإمبراطورية في أعمالها ، ولا تفرض عليها شرائعها طالما كانت تدفع حصتها من الضرائب وتحافظ على الأمن والنظام في داخل حدودها . وكان انعدام وسائل الاتصال السهلة مما جعل الحكومة المركزية فكرة معنوية أكثر منها حقيقة واقعية . وبما جعل عواطف الأهلين الوطنية تنصرف في دوائرهم وأقاليهم ، ولا تتسع إلا في القليل النادر حتى تشمل الإمبراطورية بوجه عام .

وفي هذا البناء غير المحكم كان القانون ضعيفاً ، بغضاً ، متبايناً . وكان الناس يفضلون أن تحكمهم عاداتهم وتقاليدهم ، وأن يسووا نزاعهم بالتراضي خارج دور القضاء . وكانوا يعبرون عن آرائهم في التقاضي بمثل هذه الحكم والأمثال القصيرة القوية : « قاض برغوثاً يعضك » و « اكسب قضيتك تحسر مالك » . وكانت تمر عدة سنين على كثير من المدن التي تبلغ عدة أهلها آلاف مؤلفة لا ترفع فيها قضية واحدة إلى الحاكم<sup>(١٢٨)</sup> . وكانت قوانين البلاد قد جمعت في عهد أباطرة تانج ولكنها كلها اقتصرت تقريباً على الجرائم ولم تبذل محاولات جديدة لوضع قانون مدني . وكانت المحاكمات بسيطة سهلة لأن المحامي لم يكن يسمح له بمناقشة الخصم داخل المحكمة ، وإن كان في استطاعة كتاب مرخصين من الدولة أن يعدوا في بعض الأحيان تقارير بالنيابة عن المتقاضين ويتلوها على القاضي<sup>(١٢٩)</sup> .

ولم يكن هناك نظام للمحلفين ، ولم يكن في نصوص القوانين ما يحمي الفرد من أن يقبض عليه موظفو الدولة على حين غفلة ويعتقلوه . وكانت تؤخذ بصمات أصابع المتهمين<sup>(١٣٠)</sup> ، ويلجأ أحياناً إلى تعذيبهم لكي يقرّوا بجرائمهم ، ولم يكن هذا التعذيب الجسمي ليزيد إلا قليلاً على ما يتبع الآن لهذا الغرض عينه في أكثر المدن رقيقاً . وكان العقاب صارماً ، وإن لم يكن أشد وحشية مما كان في معظم

بلاد القارة الآسيوية؛ وكان أوله قص الشعر وبلية الضرب ثم النفي من البلاد ثم الإعدام . وإذا كان التهم ذات فضائل غير معهودة ، أو كان من طبقة راقية ، سمح له أن ينتحر<sup>(١٣١)</sup> . وكانت العقوبات تخفف أحياناً تخفيفاً كريماً ، وكان حكم الإعدام لا يصدر في الأوقات العادية إلا من الإمبراطور نفسه . وكان الناس جميعاً من الناحية النظرية سواسية أمام القانون ، شأنهم في هذا كشأننا نحن في هذه الأيام . ولكن هذه القوانين لم تمنع السطو في الطرق العامة أو الارتشاء في وظائف الدولة ودور القضاء ، غير أنها كان لها قسط متواضع في معاونة الأسرة والعادات الموروثة على أن تهب الصين درجة من النظام الاجتماعي والأمن والاطمئنان الشخصي لم تضارعها فيها أمة أخرى قبل القرن العشرين<sup>(١٣٢)</sup> .

وكان الإمبراطور يشرف على هذه الملايين الكثيرة من فوق عرشه المزخرف ، وكان يحكم من الواجهة النظرية بحقه المقدس ؛ فقد كان هو « ابن السماء » وممثل الكائن الأعلى<sup>(\*)</sup> في هذه الأرض . وبفضل سلطانه الإلهي هذا كانت له السيطرة على الفصول، وكان يأمر الناس أن يوفقوا بين أعمالهم وبين النظام السماوي المسيطر على العالم ، وكانت كلمته هي القانون وأحكامه هي القضاء الذي لا مرد له . وكان المدير لشؤون الدولة ورئيس ديانتها ، يعين جميع موظفيها ، ويمتحن المتسابقين لأعلى مناصبها ، ويختار من يخلفه على العرش . لكن سلطانه كان يحدده من الواجهة العملية القانون والعادات المرعية ، فكان ينتظر منه أن يحكم من غير أن يخرج على النظم التي انحدرت من الماضي المقدس . وكان معرضاً في أي وقت لأن يعزَّر على يد رجل ذي مقام كبير يسمى بالرقيب ؛ وكان في واقع الأمر محوطاً بحلقة قوية من المستشارين والمبعوثين من مصلحته أن يعمل بمشورتهم ، وإذا ظلم أو فسد حكمه خسر بحكم العادات المرعية وباتفاق أهل الدولة « تفويض السماء » ، وأمكن

(\*) ومن أجل هذا كانت مملكته تسمى أحياناً تيان - شان أي التي « تحكمها السماء » : وقد ترجم الأوروبيون هذه العبارة « بالمملكة السماوية » وسموا الصينيين حذلقة باسم « السماويين » .

خلعه بالقوة من غير أن يعد ذلك خروجاً على الدين أو الأخلاق .

وكان الرقيب رئيس مجلس مهمته التفتيش على جميع الموظفين في أثناء قيامهم بواجباتهم ، ولم يكن الإمبراطور نفسه بمنجاة من إشرافه . وقد حدث صراراً في تاريخ الصين أن عزز الرقيب الإمبراطور نفسه . من ذلك أن الرقيب سونج أشار على الإمبراطور جيايه تشنج ( ١٧٩٦ — ١٧٢١ ) بالاحترام اللائق بمقامه العظيم طبعاً ، أن يراعى جانب الاعتدال في صلاته بالممثلين وبتعاطى المسكرات فما كان من جيايه تشنج إلا أن استدعى سونج المشول أمامه وسأله وهو غاضب أى عقاب يليق أن يوقع على من كان موظفاً وقحاً مثله ، فأجابه سونج : « الموت بتقطع جسمه إرباً » ولما أمره الإمبراطور باختيار عقاب أخف من هذا أجابه بقوله : « إذن فليقطع رأسى » فطلب إليه مرة أخرى أن يختار عقاباً أخف فاختر أن يقتل خنقاً . وأعجب الإمبراطور بشجاعته وخشى وجوده بالقرب منه فعيّنه حاكماً على إقليم إيلي<sup>(١٣٤)</sup> .

وأضحت الحكومة المركزية على مرّ الزمن أداة إدارية شديدة التعقيد . وكان أقرب الهيئات إلى العرش المجلس الأعلى ، ويتكون من أربعة « وزراء كبار » يرأسهم في العادة أمير من أمراء الأسرة المالكة . وكان يجتمع بحكم العادة في كل يوم في ساعات الصباح المبكرة لينظر في شئون الدولة السياسية . وكان يعاونه في المنزلة ، ولكن يقل عنه في السلطان ، هيئة أخرى من المستشارين يسمون « بالديوان الداخلي » . وكان يشرف على الأعمال الإدارية « ستة مجالس » للشئون المدنية ، والدخل ، والاحتفالات ، والحرب ، والمقوبات ، والأشغال العامة ؛ وكان ثمة إدارة للمستعمرات تصرف شئون الأقاليم النائية مثل منغوليا ، وسكيانج ، والتبت ، ولكنها لم تكن لها إدارة للشئون الخارجية لأن الصين لم تكن تعترف بأن في العالم دولة مساوية لها ، ومن أجل ذلك لم تنشأ في

بلادها هيئة للاتصال بها غير ما وضعته من النظم لاستقبال البعث التي تحمل لها الخراج .

وكان أكبر أسباب ضعف الحكومة قلة مواردها، وضعف وسائل الدفاع عن أراضيها، ورفضها كل اتصال بالعالم الخارجي يعود عليها بالنفع. لقد فرضت الضرائب على أراضيها، واحتكرت بيع الملح، وعطلت نماء التجارة بما فرضته بعد عام ١٨٢١ من عوائد على انتقال البضائع على طرق البلاد الرئيسية، ولكن فقر السكان، وما كانت تعانيه من الصعاب في جباية الضرائب وللكوس، وما يتصف به الجباة من الخيانة، كل هذا قد ترك خزانة الدولة عاجزة عن الوفاء بمحاجات القوى البحرية والبرية التي كان في وسعها لولا هذا العجز أن تنفذ البلاد من مذلة الغزو والمهزيمة<sup>(\*)</sup>. ولعل أهم أسباب هزأها هو فساد موظفي حكومتها؛ ذلك أن ما كان يتصف به موظفوها من جدارة وأمانة قد ضعف في خلال القرن التاسع عشر، فأضحت البلاد تعوزها الزعامة الرشيدة في الوقت الذي كان فيه نصف ثروة العالم ونصف قواه يتجمعان اسباب استقلالها، وانتهاب مواردها، والقضاء على أنظمتها .

بيد أن أولئك الموظفين كانوا يختارون بوسيلة لا مثيل لها في دقتها، وتمدد في جملتها أجدد وسائل الاختيار بالإعجاب والتقدير، وخير ما وصل إليه العالم من الوسائل لاختيار الخدم العموميين . لقد كانت وسيلة جديدة بإعجاب أفلاطون، ولا تزال رغم عجزها وتخلي الصين عنها تقرب الصين إلى قلوب الفلاسفة . وكانت

---

(\*) بلغ متوسط دخل الخزانة الإمبراطورية في أواخر القرن الماضي نحو ٧٥ مليوناً من الدولارات الأمريكية في العام، ويضاف إليها من الإيرادات التي تجمع للأغراض المحلية ١٧٥ مليوناً أخرى (١٣٦)، وإذا أوزنا بين هذه الإيرادات التي لا غنى عنها لاستتباب الأمن والنظام وبين الـ ١٥٠ مليوناً من الدولارات التي فرضتها اليلبان على الصين غرامة حربية في عام ١٨٩٤ والغرامة التي فرضها عليها الحلفاء بعد حرب الملاكين لم تكن مسألة انهيار الصين في نظرنا أكثر من مسألة حسابية .

هذه الطريقة من الناحية النظرية توفق أحسن التوفيق بين المبادئ الأرسطراطية والديمقراطية : فهي تمنح الناس جميعاً فرصة متكافئة لإعداد أنفسهم للمناصب العامة ، ولكنها لا تفتح أبواب المناصب إلا لمن أعدوا أنفسهم لها. ولقد أنتجت خير النتائج من الوجهة العملية مدى ألف عام .

وكانت بداية الطريقة في مدارس القرى — وهي معاهد خاصة ساذجة لا تزيد قليلاً على حجرة واحدة في كوخ صغير — يقوم فيها معلم واحد بتعليم أبناء سرات القرية تعليماً أولياً ينفق عليه بما يؤديه هؤلاء الأبناء من أجر ضئيل . أما النصف الفقير من السكان فقد ظل أبناءه أميين<sup>(١٢٧)</sup> . ولم تكن الدولة هي التي تنفق على تلك المدارس ، ولم يكن الكهنة هم الذين يديرونها ، ذلك أن التعليم قد بقي في الصين ، كما بقي الزواج فيها ، مستقلاً عن الدين لا صلة بينهما سوى أن الكنفوشية كانت عقيدة المعلمين . وكانت أوقات الدراسة طويلة كما كان النظام صارماً في هذه المدارس المتواضعة . فكان الأطفال يأتون إلى المعلم في مطلع الشمس ويدرسون معه حتى الساعة العاشرة . ثم يفطرون ويواصلون الدرس حتى الساعة الخامسة ، ثم ينصرفون بقية النهار . وكانت العطلات قليلة المدد قصيرة الأجل ، وكانت الدراسة تعطل بعد الظهر في فصل الصيف ، ولكن هذا الفراغ الذي كان يصرف في العمل في الحقول كان يعوض بفصول مسائية في ليالي الشتاء . وكان أهم ما يتعلمه الأطفال كتابات كنفوشوس وشعر تانج ؛ وكانت أداة المعلم عصا من الخيزران . وكانت طريقة التعليم الحفظ عن ظهر قلب ؛ فكان الأطفال الصغار يواصلون حفظ فاسفة المعلم كوتج ، ويناقشون فيها مدرّسهم ، حتى ترسخ كل كلمة من كلماته في ذاكرتهم ، وحتى يستقر بعضها في قلوبهم . وكانت الصين تأمل أن يتمكن جميع أبنائها ، ومنهم الزراع أنفسهم ، بهذه الطريقة القاسية الخالية من اللذة أن يصبحوا فلاسفة وسادة مهذبين ،



وكان الصبي يخرج من المدرسة ذا علم قليل وإدراك كبير ، جاهلاً بالحقائق ناضج العقل<sup>(٥)</sup>.

وكان هذا التعليم هو الأساس الذي أقامت عليه الصين - في عهد أسرة هان على سبيل التجربة وفي عهد أسرة تانج بصفة نهائية - نظام تولى المناصب العامة بالامتحان . ومن أقوال الصينيين في هذا : إن من أضر الأمور بالشعب أن يتعلم حكامه طرق الحكم بالحكم نفسه ، وإن من واجهم كلما استطاعوا أن يتعلموا طرق الحكم قبل أن يحكموا ، ومن أضر الأمور بالشعب أن يحال بينه وبين تولى المناصب العامة وأن يصبح الحكم امتيازاً تتوارثه فئة قليلة من أبناء الأمة ؛ ولكن من الخير للشعب أن تقصر المناصب على من أعدوا لها بفضل مواهبهم وتدريبهم . وكان الحل الذي عرضته الصين لمشكلة الحكم القديمة المستعصية هي أن نتيح لكل الرجال ديمقراطياً فرصاً متكافئة لأن يدرّبوا هذا التدريب ، وأن تقصر الوظائف أرسقراطياً على من يثبتون بأنهم أليق الناس لأن يتولوها . ومن أجل هذا كانت تعقد في أوقات معينة امتحانات عامة في كل مركز من المراكز يتقدم إليها كل من شاء من الذكور متى كانوا في سن معينة .

وكان المتقدم إلى الامتحان يمتحن في قوة تذكره وفهمه لكتابات كنفوشيوس وفي مقدار ما يعرف من الشعر الصيني ومن تاريخ الصين ، وفي قدرته على أن يكتب أبحاثاً في السياسة والأخلاق كتابة تدل على الفهم والذكاء . وكان في وسع من ينفق في الامتحان أن يعيد الدرس ويتقدم إليه مرة أخرى ، ومن نجح مُنح درجة شيو دزاي التي تؤهله لأن يكون عضواً في طبقة الأدباء ولأن يعين في

---

(٥) وكان في وسع الأطفال بهم أن يتموا الدراسة في هذه المدارس أن يلحقوا بإحدى كليات الدولة القليلة العدد الفتيرة في أدائها واستعدادها . ولكنهم كانوا في أكثر الأحيان يتلقون العلم على مدرسين خصوصيين أو يواصلون الدرس في منازلهم في عدد قليل من السكتب الثمينة وكان المؤسرون في بعض الأحيان يعينون المقراء من الطلاب على مواصلة الدرس في هذه الكليات على أن يكون ما يتفق عليهم فرضاً يؤديه مع فوائده حين يعينون في منصب من المناصب ويستطيعون أن « يبتزوا » الأموال من الناس .

المناصب الصفري في الحكومة الإقليمية؛ وأهم من هذا أن يكون من حقه أن يتقدم إما مباشرة أو بعد استعداد جديد لامتحان آخر يعقد في الأقاليم كل ثلاث سنوات شبيه بالأول ولكنه أصعب منه . ومن أخفق فيه جاز أن يتقدم إليه مرة أخرى . وكان يفعل ذلك كثيرون من المتقدمين فكان يجتازه في بعض الأحيان رجال جاوزوا الثمانين وظلوا طول حياتهم يدرسون ، وكثيراً ما مات الناس وهم يتأهبون لدخول هذه الامتحانات . وكان الذين ينجحون يُختارون للوظائف الحكومية الصفري ، كما كان من حقهم أن يتقدموا للامتحان النهائي الشديد الذي يعقد في بيكين . وكان في تلك المدينة ردهة للامتحان العام تحتوي على عشرة آلاف حجرة انفرادية يقضى فيها المتسابقون ثلاثة أيام منفردة في عزلة تامة ، ومعهم طعامهم وفراشهم ، يكتبون مقالات أو رسائل في موضوعات تعلن لهم بمدخولها . وكانت هذه الغرف خالية من وسائل التدفئة والراحة ، رديئة الإضاءة غير صحية لأن الروح لا الجسم — في رأيهم — هي التي يجب أن تكون موضع الاهتمام ! وكان من الموضوعات المألوفة في هذه الامتحانات أن ينشئ المتقدم قصيدة في : « صوت المجاديف والتلال الخضراء والماء » ، وأن يكتب مقالا عن الفقرة الآتية من كتابات كنفوشيوس . قال دزانج دزي : « من يك ذا كفاية ويسأل من لا كفاية له ؛ ومن يك ذا علم كثير ويسأل من لا يعلم إلا القليل ؛ ومن يملك ثم يتظاهر بأنه لا يملك ؛ ومن يمتلك ثم يبداً أنه فارغ » . ولم يكن في أى امتحان من هذه الامتحانات كلمة واحدة عن العلوم أو الأعمال التجارية أو الصناعية ، لأنها لم تكن تهدف إلى تبين علم الرجل بل كانت ترمي إلى معرفة ما له من حكم صادق وخلق قويم وكان كبار موظفي الدولة يُختارون من الناجحين في هذا الامتحان النهائي .

وتبين على مر الزمن ما تفتوى عليه هذه الطريقة من عيوب . فقد وجد الغش سبيله إلى الحكم على الامتحان ، وإن كان الغش في الامتحان أو في

تقديره يعاقب عليه أحياناً بالإعدام . وأصبح شراء الوظائف بالمال كثيراً متفشياً في القرن التاسع عشر<sup>(١٣٨)</sup> ، من ذلك أن موظفاً صغيراً باع عشرين ألف شهادة مزورة قبل أن يكشف أمره<sup>(١٣٩)</sup> . ومنها أن صورة المقالة التي تكتب في الامتحان أصبحت صورة عادية معروفة يمد المتسابقون أنفسهم لها إعداداً آلياً . كذلك كان منهج الدراسة ينزع إلى الهبوط بالثقافة إلى الصور الشكلية دون اللباب ، ويحول دون الرقي الفكري لأن الأفكار التي كانت تتداول في هذه المقالات قد تحددت وتعميت خلال مئات السنين . وكان من آثارها أن أصبح الخريجون طبقة ديوانية (بيروقراطية) ذات عقلية رسمية متعجرفة بطبيعتها ، أنانية ، مستبدة في بعض الأحيان ، وفاسدة في كثير من الأحوال ؛ لا يستطيع الشعب مع ذلك أن يعزلها أو يشرف على أعمالها ، إلا إذا لجأ بعد بأسه إلى الطريقة الخطرة طريقة الإضراب عن طاعتها أو مقاطعتها وعدم التعامل معها . وقصارى القول أن هذا النظام كان ينطوى على كل العيوب التي يمكن أن ينطوى عليها أى نظام حكومي مبتدعه ويسيره بنو الإنسان ؛ فعيوبه هي عيوب القائمين عليه لا عيوب النظام نفسه ، وليس ثمة نظام آخر لم يكن فيه من العيوب ما في هذا النظام<sup>(٤٠)</sup> .

أما مزاياه فهي كثيرة : فهو برىء من طريقة الترشيح وما يؤثر فيها من تيارات خفية ؛ وليس فيه مجال للمساعي الدنيئة وللنفاق والخداع في تصوير النتائج ، ولا تدور فيه الممارك الصورية بين الأحزاب ، ولا يتأثر بالانتخابات الفاسدة ذات الجلبه والضجيج ، ولا يتيح الفرصة لتسهم المركز الرفيع عن طريق الشهرة الزائفة . لقد كانت الحكومة القائمة على هذا النظام حكومة ديمقراطية بأحسن ما لهذا اللفظ من معان ، لأنها تتيح للناس جميعاً فرصاً متكافئة للتنافس على الزعامة وعلى المناصب الرفيعة . وكانت أرسنقراطية في أحسن صورها ، لأنها

---

(\*) يقول الدكتور لا ثورت : « قل أن توجد مجموعة كبيرة من بنى الإنسان عاشت في رخاء وعاشت قائمة كما عاش الصينيون تحت سيطرة أداتهم الحكومية حين كان يشرف عليها أقدر ملوكهم » . وكان هذا الرأي أيضاً رأى العالم الكيبن برنكالي (١٤٠)

حكومة يتولاها أقدر الرجال الذين اختيروا اختياراً ديمقراطياً من بين جميع طبقات الشعب ومن كل جيل . وبفضل هذه الطريقة وجهت عقول الأمة ومطامعها وجهة الدرس والتحصيل ، وكان أبطالها الذين تفتدى بهم هم رجال العلم والثقافة لاسادة المال<sup>(٥)</sup> .

ولقد كان جديراً بالإعجاب أن يجرب مجتمع من المجتمعات أن يحكمه من الفاحيتين الاجتماعية والسياسية رجال أعدوا للحكم بتعلم الفلسفة والعلوم الإنسانية ولذلك كان من شر المآسى أن تنقض قوى التطور والتاريخ القاسية التي لا ترحم ولا تلين على ذلك النظام الفذ وعلى جميع معالم الحضارة التي كان هو أهم عناصرها فتدمرها تدميراً .

---

(\*) يقول السير ربرت هارت . « يعبد الصينيون المواهب العقلية ، ويتهجون بالآداب »  
ويقومون في كل نوادي صغيرة للتعليم والدرس وللمناقشة مقالاتهم وأشعارهم »

# الباب السابع والعشرون

## الثورة والتجديد

### الفضل الأول

#### الخطر الأبيض

النزاع من آسيا وأوروبا - البرتغاليون - الأسبان -  
الهولنديون - الإنجليز - بحارة الأفقيون - حروب الأفيون -  
فتنة بنج تاي - منج - حرب اليابان - محاوله تمزيق  
الصين - « الباب المفتوح » - الإمبراطورة الوالدة -  
إصلاحات كوانج شو - عزاه - الملا كون - العرامة الحربيه

اتخذت هذه القوى شكل الانقلاب الصناعي . فقد نشطت أوروبا وتجدد شبابها على أثر كشف القوى الآلية واستخدامها في صنع الآلات ومضاعفة الإنتاج . وما لبثت أوروبا أن وجدت نفسها قادرة على إنتاج سلع أرخص من التي تنتجها أية أمة أو قارة ، ظلت تعتمد على الصناعات والحرف اليدوية ، وعجزت أوروبا عن تصريف منتجات آلاتها بين سكانها لأنها كانت تؤدي لعمالها أجوراً أقل بمض الشيء من القيمة الكاملة لجهودهم ، واضطرت من أجل ذلك إلى البحث عن أسواق خارجية لتصرف فيها ما زاد من منتجاتها على حاجتها ، فكان لا بد لها أن تستعمر ودفعها الاستعمار إلى الحروب . وأصبح القرن التاسع عشر ، بحكم الظروف القائمة فيه وبدافع الاختراعات الكثيرة التي تعاقبت في خلاله ، لا ينقطع فيه النزاع بين ما كان في آسيا من حضارة قديمة ناضجة منهوكة ، وما قام في أوروبا الصناعية من حضارة فتية ، قوية منهومة .

وكان الانقلاب التجارى الذى حدث في أيام كولب هو الذى أفسح الطريق ومهد السبيل للانقلاب الصناعى ، فقد كشف الرحالة عن أراضى قديمة ، وفتحوا ثغوراً جديدة ، ونقلوا إلى الثقافات القديمة منتجات الغرب وأفكاره . وكان البرتغاليون المغامرون في أوائل القرن السادس عشر قد استولوا على جزائر ملقا ، وكاوا من قبل قد ثبتوا أقدامهم في بلاد الهند ، ثم طافوا حول شبه جزيرة الملايو ، ووصلوا بسفائنهم الجميلة ومدافعهم الرهيبة إلى كانتون (١٥١٧) .

وكان أولئك القادمون خلقاً متوحشين لا يخضعون لقانون ، ويعدون كل الشعوب الشرقية فريسة مشروعة مباحة لهم ، ولم يكونوا يفترقون إلا قليلاً عن القراصنة ... إن كان بين هؤلاء وبينهم فرق على الإطلاق<sup>(١)</sup> . . . وعاملهم الصينيون معاملة القراصنة فألقوا بممثليهم في السجن ، ورفضوا ما عرضوه عليهم من تجارة حرة ، وكثيراً ما طهر الصينيون الغضاب الخائضون الأحياء التي استقر فيها البرتغاليون بذبح ساكنيها . ولكن البرتغاليين أعانوا الصينيين على قتال غيرهم من القراصنة ، فكان جزاؤهم على هذه المعونة أن منحهم بيكين حق الإقامة في مكاو وحكمها كأنها ملك لهم ، فشادوا في تلك المدينة مصانع كبيرة ، لصنع الأفيون ، وأجازت لهم أن يستخدموا في هذه المصانع الرجال والنساء والأطفال . ودرت عليهم هذه الصناعة أرباحاً عظيمة يكفي لمعرفة مقدارها أن نقول إن مصنعاً واحداً كان يعود على الحكومة البرتغالية التي أنشئت في هذا الإقليم بربح مقداره ١٥٦٠,٠٠٠ دولار في كل عام<sup>(٢)</sup> .

ثم جاء الأسبان وفتحوا جزائر الفلبين في عام ١٥٧١ واستقروا في جزيرة فرموزا الصينية ؛ وأعقبهم الهولنديون ، وفي عام ١٦٣٧ أقبلت خمس سفن إنجليزية وصعدت في النهر إلى كانتون ، وأسكتت بمدافعها القوية المدافع التي قارمتها ، وأنزلت في المدينة بضائعها<sup>(٣)</sup> . وعلم البرتغاليون الصينيين شراء الدخان وشربه ، ثم بدأ في مستهل القرن الثامن عشر استيراد الأفيون من الهند إلى الصين . وجرمت

الحكومة الصينية على الشعب تعاطى الأفيون ، ولكن عادة تعاطيه انتشرت انتشار النار في الهشيم حتى بلغ ما استورد منه إلى الصين في عام ١٧٩٥ أربعة آلاف صندوق<sup>(\*)</sup> . وحرمت الحكومة استيراده في تلك السنة وكررت هذا التحريم في عام ١٨٠٠ ولجأت إلى المستوردين وإلى الأهلين على السواء تبين لهم ما لهذا المخدر القوي من أثر في إصعاف حيوية الأمة . ولكن تجارة الأفيون لم تنقطع رغم هذا التحريم ، ولم تكن رغبة الصينيين في شرائه أقل من رغبة الأوروبيين في بيعه ، ولم يهد الموظفون حرجاً في تداول الرشاوى التي كانت تقدم إليهم ليتفاوضوا عن أوامر التحريم بل كانوا يتقبلونها شاكرين .

وأصدرت حكومة بيكين في عام ١٨٣٨ أمراً تشديداً في تنفيذ قرار تحريم استيراد الأفيون ، وجاء موظف قوي يدعى لن تزه — شو فأمر من في كانتون من المستوردين الأجانب أن يسلموا ما في مخازنهم منه . فلما أبوا حاصر الأحياء الأجنبية وأرغمهم على أن يسلموه عشرين ألف صندوق من هذا المخدر ، ثم أقام في كانتون شبه حفلة أفيونية أتلف فيها هذه الكمية كلها . وعلى أثر هذا انسحب البريطانيون إلى هنج كنج وبدأت « حرب الأفيون » الأولى . وقال الإنجليز إن الحرب لم تكن حرب أفيون ، بل كان سببها أنهم غضبوا لما أظهرته الحكومة الصينية من قسوة وغلظة في استقبالها ممثلهم أو برفضها استقبالهم ، وما وضعته أمامهم من عقبات في صورة ضرائب باهظة ومحاكم فاسدة مرتشية أقامت القوانين والعمادات الصينية تعطل بها تجارة منظمة مشروعة . وأطلقوا المدافع على المدن الصينية التي كان في وسعهم أن يصلوا إليها من الشاطئ ، وأرغموا الصين على طلب الصالح باستيلائهم على مصب القناة الكبيرة عند شنكيانج . ولم تذكر معاهدة نانكنج شيئاً عن الأفيون ، وتحملت الصين بمقتضاها عن هنج كنج إلى

(\*) يمكن تقدير ثمن هذه الكمية إذا ذكرنا أن قطعة من الأفيون يتسع لها جيب صديريّة الرحل يبلغ ثمنها ثلاثين دولاراً .

البريطانيين ، وأرغمت الصين على تخفيض الضرائب إلى ٥ ٪ ، وفتحت للتجارة الأجنبية خمسة « نغور معاهدات » ( كانتون ، وأموى ، وفوتشو ، وتنجيو ، وشنغهاي ) ، وفرضت على الصين غرامة حربية لتغطية نفقات الحرب وما أتلفته من أفيون ، واشترطت أن يحاكم الرعايا البريطانيون في الصين ، إذا اتهموا بمخالفة قوانين البلاد ، أمام محاكم بريطانية<sup>(٥)</sup> . وطلبت عدة دول أخرى منها الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا أن تطبق هذه « الامتيازات الأجنبية » على تجارها ورعاياها المقيمين في الصين وأجريت إلى طلبها .

وكانت هذه الحرب بداية انحلال النظام القديم . ذلك أن الحكومة خذلت أشد الخذلان في نزاعها مع الأوربيين ، فقد سخرت منهم أولاً ، ثم تحدثهم بعدئذ ، ثم خضعت لهم آخر الأمر ، ولم تفد الألفاظ الظريفة المسولة في إخفاء الحقائق عن الوطنيين المتعدين أو الأجانب المتربصين .

وسرعان ما ضعف سلطان الحكومة في كل مكان تسربت إليه أخبار هزيمتها ، وما لبثت القوى التي كانت من قبل صامتة خاضعة — والتي كانت تظل صامتة خاضعة لولا هذه الهزيمة — ما لبثت هذه القوى أن ثارت علناً على حكومة بيكين . من ذلك أن وطنيا متحمساً يدعى هونج سيو — شوان ، بعد أن تعلم طرفاً من البروتستنتية وتراءت له بعض الخيالات الوهمية ، اعتقد في عام ١٨٤٣ أن الله قد اختاره ليظهر الصين من عبادة الأوثان ويحولها إلى المسيحية . وبعد أن بدأ هونج عمله بهذه الدعوة المتواضعة تزعم آخر الأمر حركة ترمي إلى القضاء على أسرة المنشو الحاكمة وإيجاد أسرة جديدة هي أسرة التاي بنج أي السلم العظيم ، وحارب أتباعه حرب الأبطال البواسل يحدوهم التعصب الديني من جهة والرغبة في إصلاح الصين على غرار الدول الأوربية من جهة أخرى ، وحطموا الأصنام ، وقتلوا المخالفين من الصينيين ، وأتلفوا كثيراً من دور الكتب والجامع العلمية القديمة ومصانع الخزف القائمة في جينج ده — جن ، واستولوا على نانكينج وظلت في



أيديهم اثنتى عشرة سنة (١٨٥٣ - ٦٥) ، وزحفوا على بيكين وزعيمهم من خلفهم فى مآمن من الأعداء مغفمس فى ترفه وملذاته ؛ ولسكهم هزموا وتشقتوا لعجز قادتهم ، وارتدوا إلى أحضان إخوانهم مئاث الملايين الصينيين<sup>(٦)</sup> .

وبينا كانت فتنة تآى — بئج السماء تمزق الصين وتقطع أوصالها اضطرت الحكومة إلى مواجهة أوربا مرة أخرى فى « حرب الأفيون » الثانية (١٨٥٦ - ١٨٦٠) . وكان سببها أن بريطانيا العظمى ، تعاونها فرنسا والولايات المتحدة معاونة تقوى تارة وتضع تارة أخرى ، طلبت إلى الصين أن تجعل تجارة الأفيون تجارة مشروعة ( وكانت هذه التجارة قد ظلت قائمة بين الحربين . رغم ما صدر من الأوامر بتجريمها ) ، وأن تسمح لها بالدخول فى مدن جديدة غير التى كانت قد سمح لها بدخولها ، وأن يستقبل الرسل الغربيون بما يليق بهم من التكريم فى بلاط بيكين . فلما رفض الصينيون هذه المطالب استولى البريطانيون والفرنسيون على كانتون ، وأرسلوا حاكمها مقيداً بالأغلال إلى الهند ، واقتحموا حصون تينتسين وزحفوا على العاصمة ، ودمروا القصر الصيفى انتقاماً لما نال مبعوثى الحلفاء من تعذيب وقتل على يد الصينيين فى بيكين . وأملى الغزاة الظافرون على المهزومين معاهدة فتحت لهم بمقتضى شروطها ثغور جديدة كما فتح نهر جنج — دزه للتجارة الأجنبية ، وحددت طريقة لاستقبال الوزراء الأمريكيين والأوربيين فى الصين على قدم المساواة مع الوزراء الصينيين ، ووضعت الضمانات القوية لسلامة المبشرين والتجار الأجانب والسماح لهم بممارسة نشاطهم فى جميع أجزاء الصين ، وأخرجت البعثات التبشيرية من اختصاص الحكام والموظفين . وزادت فى امتيازات أبناء الأمم الغربية وتحرروهم من الخضوع لقوانين البلاد ، وأعطت بريطانيا قطعة من الأرض مقابلة لهنج كننج ؛ وجعلت استيراد الأفيون عملاً مشروعاً ، وفرضت على الصين غرامة حرية لينفق منها على إخضاعها لسلطان الغربيين وتدريبها على أساليبهم .

وشجعت الأمم الأوروبية انتصاراتها السهلة فأخذت تقتطع من الصين قطعة بعد قطعة ، فاستولت روسيا على الأراضي التي تقع في شمال نهر عامور وشرق نهر الأوسوري ( ١٨٦٠ ) ، وانتقم الفرنسيون لموت أحد المبشرين بالاستيلاء على الهند الصينية ( ١٨٨٥ ) ، وانقضت اليابان على جارتها ومصدر حضارتها وأثارت عليها حرباً فجائية ( ١٨٩٤ ) ، وهزمتها بعد عام واستولت على فرموزا وحررت كوريا من الصين لتستولى عليها هي فيما بعد ( ١٩١٠ ) ، وفرضت على الصين غرامة حربية تبلغ ١٧٠٠٠٠٠٠٠٠ دولار لما سببته لها من متاعب حمة<sup>(٧)</sup> . ومنعت روسيا اليابان أن تستولى على شبه جزيرة لياتنج على أن تؤدي الصين إلى اليابان غرامة إضافية ، فلما انقضت ثلاث سنين من ذلك الوقت استولت روسيا نفسها على شبه الجزيرة وأقامت فيها عدة حصون منيعة . وكان مقتل اثنين من المبشرين على يد الصينيين سبباً في استيلاء ألمانيا على شبه جزيرة شانتنج ( ١٨٩٨ ) ، ثم قُسمت الدولة الصينية التي كانت تحكمها من قبل حكومة قوية إلى « مناطق نفوذ » تستمتع فيها هذه الدولة الأوروبية أو تلك بامتيازات في التعدين أو التجارة لا تشاركها فيها غيرها من الدول . وخشيت اليابان أن تقسم الصين تقسيماً حقيقياً بين الدول الغربية ، وأدركت شدة حاجتها إلى الصين في مستقبل الأيام ، فانضمت إلى أمريكا وطالبت الدولتان بسياسة « الباب المفتوح » ، أي بحق الدول جميعاً في الاتجار مع الصين على قدم المساواة رغم اعترافها بالدول في الصين من « مناطق نفوذ » ، على أن تكون الضرائب الجمركية ونفقات النقل واحدة لجميع الدول على السواء . وأرادت الولايات المتحدة أن تضع نفسها في مركز يمكنها من أن تساوم على هذه المسائل ، فوضعت يدها على جزائر الفلبين ( ١٨٩٨ ) وأعلنت بعملها هذا عزمها على أن تشارك في النزاع القائم من أجل الاتجار مع الصين . وفي هذه الأثناء كان فصل آخر من الرواية يمثل وراء جدران القصر الإمبراطوري في بكين . ذلك أنه لما دخل الحلفاء عاصمة الصين ظافرين في

نهاية « حرب الأفيون » الثانية (١٨٦٠) فر الإمبراطور الشاب شيان فننج إلى  
چيهول حيث توفي، بعد عام واحد من ذلك الوقت وترك العرش لابنه البالغ من  
العمر خمس سنين، فما كان من زوجة الإمبراطور الثانية أم ذلك الغلام إلا أن  
استولت على مقاليد الحكم وتسمت باسم تزه شى— وعرفها العالم باسم الإمبراطورة  
الوالدة — وحكمت الصين حكماً طيباً صارماً مجرداً من الرحمة دام جيلاً كاملاً .  
وكانت هذه السيدة فى شبابها قد حكمت البلاد بقوة جمالها ؛ أما الآن فقد حكمتها  
بقوة إرادتها . ولما مات ولدها عند بلوغه سن الرشد (١٨٧٥) لم تعبأ الإمبراطورة  
بالسوابق ولم تأبه بالمعارضين وأجلست على العرش غلاماً قاصراً— جوانج تشو —  
واستبقت مقاليد الحكم فى يدها . وحافظت هذه الإمبراطورة الجريئة على السلام .  
فى بلاد الصين نحو ثلاثين عاماً مستعينة على ذلك برجال من دهاقين السياسة أمثال  
لى هونج — چانج ، وأرغمت الدول الجشعة على أن تحسب للصين بعض الحساب .  
فلما أن انقضت اليابان على الصين نجاة ، وأسرعت الدول الأوربية إلى تقطيع  
أوصال البلاد تقطيعاً جديداً بعد انتصار اليابانين عليها ، قامت فى عاصمة الصين .  
حركة قوية تطالب بأن تحذو حذو اليابان التى أخذت بأساليب الدول الغربية —  
أى أن تجيش جيشاً قوياً ، وأن تنشئ المصانع وتمهد الطرق ، وأن تحاول الحصول  
على الثروة الصناعية التى مولت بها اليابان وأوربا حروبهما الظاهرة . وقاومت  
الإمبراطورة ومستشاروها هذه الحركة بكل ما لديهم من قوة ، ولكن جوانج شو  
انضم إليها سرراً ، وكان قد أذن له أن يتربع على العرش وأن يكون إمبراطوراً  
بحق . فلم تشعر الإمبراطورة ومستشاروها إلا وقد أصدر جوانج إلى الشعب الصينى  
( فى عام ١٨٩٨ ) من غير أن يستشير « بوذا المعجوز » ( وهو الاسم الذى كانت  
حاشية الإمبراطورة تطلقه عليها ) عدة مراسيم مجيبة لو أن البلاد قبالتها وعلت  
بها لسارت سيراً حثيثاً سلمياً فى طريق الأخذ بأساليب الغرب ونظمه ، وتحال  
أخذها بها دون سقوط الأسرة المالكة وتدهور الأمة فى هاوية الفوضى والشقاء .

فقد أمر الإمبراطور الشاب بإقامة نظام جديد للتعليم ، وإنشاء مدارس لا يقتصر التعليم فيها على كتب كنفوشيوس وأتباعه القدماء ، بل تدرس فيها أيضاً الثقافة الغربية في العلوم والآداب والفنون الصناعية ؛ وشجع على إنشاء الطرق وإصلاح الجيش والبحرية ، وكان يهدف بهذا إلى الاستعداد لمواجهة « الأزمة » المقبلة على حد قوله هو « لأننا محوطون من كل ناحية بحيران أقوياء يريدون بختلهم أن يظفروا بنا ، ويحاولون بتألبهم علينا أن يقلبونا على أمرنا »<sup>(٨)</sup> . وهال الإمبراطورة الوالدة أن يصدر الإمبراطور هذه المراسيم التي رأت فيها تطرفاً لا تحمد مغيبته ، فسجنت جوانج شو في أحد القصور الإمبراطورية ، ونقضت مراسيمه ، وقبضت بيدها مرة أخرى على أزمة الحكم في الصين .

وبدأ في ذلك الوقت رد فعل عنيف ومعارضة قوية لجميع الأفكار الغربية اتخذتها الإمبراطورة الداهية عوناً لها على الوصول إلى أغراضها . وكان بعض العصاة قد أقاموا في البلاد جماعة تعرف باسم أي هو — جوان ؛ أي قبضات التوافق الصالحة . ويطلق عليهم المؤرخون اسم « الملاكين » ( البكسر ) . وكانت هذه الجماعة تهدف في الأصل إلى خلع الإمبراطورة والأسرة المالكة . ولكن الإمبراطورة أفلحت في إقناع زعمائها بأن يوجهوا هذه الحركة وقوتها لمقاومة الغزاة الأجانب بدل أن يوجهوا لمقاومتها هي . وقيل الملاكون أن يصدعوا بأمرها ونادوا بإخراج جميع الأجانب من بلاد الصين ، وجرفهم تيار الوطنية العارمة فشرعوا يذبحون المسيحيين بلا تفریق بين الطيب منهم والخبيث في كثير من أنحاء الصين ( ١٩٠٠ ) . فما كان من الجيوش المتحالفة إلا أن زحفت مرة أخرى على بكين ، وكان زحفها في هذه المرة لحماية مواطنيها الذين استولى عليهم الرعب فاختموا في أركان دور السفارات الأجنبية . وفرت الإمبراطورة وحاشيتها إلى شيانغو ، وانقضت جيوش إنجلترا وفرنسا وروسيا وألمانيا واليابان والولايات المتحدة على المدينة ، وأعملت فيها السلب والنهب ،

وقتل كثيراً من الصينيين انتقاماً منهم لمواطنيها ، وخربت كثيراً من الممتلكات القيمة أو نهبتها<sup>(٥)</sup> . وفرض الحلفاء على عدوهم المهول المغلوب غرامة حربية مقدارها ٣٣٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار يجمعها الأوربيون من المكوس المفروضة على الواردات الصينية وعلى احتكار الملح . على أن جزءاً كبيراً من هذه الغرامة قد رفعتة فيما بعد الولايات المتحدة ؛ وبريطانيا العظمى ، والروسيا ، واليابان ، عن الصين . وكانت هذه الدول تشتط عليها عادة أن تدفق الأموال التي نزلت عنها على تعليم الطلبة الصينيين في جامعات الدول التي كانت هذه الأموال من حقها . وكان هذا منها عملاً كريماً كان له من الأثر في تحطيم الصين القديمة أقوى مما كان لأي عمل آخر بمفرده في الصراع التاريخي المرير بين الشرق والغرب .

---

(\*) ويقول الكپتن درنكل في ذلك . « ما بمشعر مه بدن كل شحص أبيض أن يعلم أن أربعين من النساء المبشرات وخسة وعشرين من الأطفال دبجهم الملاكون ، ولكن جسمائة وسماً وثلاثين من نساء الطنقات العلبا في الصين قد انتحروا في تونجشاو وحدها مفضلين هذا الانتحار على الحياة بعد ما لاقوا من عار ومذله ، مع أن الصينيين لم يبدوا أية مقاومة في هذه المدينة ولم يقع فيها قتال ما » .

## الفصل الثاني

### حضارة تموت

طلبة الغراماة الحربية - تشرهم بالحضارة الغربية - أثرهم في  
تفكك الوحدة الصينية - عمل المدشرين - صون يات - صن  
المسيحي - مامراته في شبابه - التنازه بل هونج - چانج -  
تديبره للثورة - نجاحهما - يوآن ثي - كاي - موت صون  
باد - صن - الفوضى والنهب - الشيوعية - « الشمال  
يهدأ » - جيانج كاي - شك - اليابان في منشوريا - شنغهاي

و غادر « طلبة الغراماة » وآلاف غيرهم من الطلبة بلاد الصين ليرتادوا  
حضارة الغزاة القاتمين . فذهب كثيرون منهم إلى إنخاترا ، وذهب أكثر من  
هؤلاء إلى ألمانيا ، وأكثر من هؤلاء وأولئك إلى أمريكا ، وأكثر منهم جميعاً  
إلى اليابان . وتخرج في جامعات أمريكا وحدها مئات منهم في كل عام ، وكانوا  
يأتون إلى هذه الجامعات وهم صغار السن سريعو التأثر قبل أن تنضج عقولهم ،  
فيدركوا ما تنطوى عليه حضارتهم القومية من عمق وما لها من قيمة ، وارتووا وهم  
شاكرون معجبون من معين التربية الجديدة التي قدمت لهم ، ومن علوم الغرب  
وأساليبه وأفكاره ، وأدهشهم ماشاهدوه حولهم من وسائل الراحة والحياة النشيطة  
القوية ، ومن حرية الأفراد في بلاد الغرب ، وما تستمتع به الشعوب من حقوق .  
ودرسوا الفلسفة الغربية وفقدوا إيمانهم بدين آبائهم ، وسرهم أن يكونوا مصالحين  
متطرفين يشجعهم في ذلك من لقنوم علومهم وحضارتهم ، كما تشجعهم بيئتهم  
الجديدة على نبذ جميع العناصر التي تتكون منها حضارة بلادهم . ورجع إلى الصين  
في كل عام آلاف من هؤلاء الشبان الذين انتزعوا من بيئتهم في حداثة سنهم  
وهم حائقون على تأخر بلادهم المادى وخطوها البطيء في سبيل الحضارة الغربية  
وبذروا في كل مديفة دخلوها بذور البحث والثورة على القديم .

وأعانتهم على غرضهم سلسلة من الحوادث والظروف ، منها أن التجار والمبشرين الذين غزوا الصين من الغرب قد ظلوا قرابة جيلين مراكز للعدوى الغربية أرادوا هم ذلك أو لم يريدوه ، فقد كان طراز معيشتهم وأساليب متعتهم وراحتهم مما بعث في نفوس من حولهم من شباب الصين رغبة قوية في أن ينالوا حظا من هذه الحضارة الراقية . وكان هؤلاء التجار والمبشرون رغم قلتهم قد قوضوا بنشاطهم العقيدة الدينية التي كانت دعامة القانون الأخلاق القديم ؛ وأثاروا شبان البلاد على شيوعها بدعوتهم إلى نبذ عبادة الآباء ؛ ومع أنهم كانوا يدعون إلى دين عيسى المسالم الوديع فقد كانوا إذا تآزمت الأمور تحميمهم مدافع ترهب الشرق بضخامتها وقوتها وتحضمه لسيطرة الأوربيين . لقد كانت المسيحية في أول نشأتها ثورة المظلومين على الظالمين ، وها هي ذى قد عادت في يد معتنقيها من شباب الصين عاملا من عوامل الثورة .

وكان زعيم الثورة ممن اعتنقوا المسيحية . ذلك أن أحد المستأجرين من الزراع القاطنين قرب كانتون قد ولد له في عام ١٨٦٦ ولد مشاغب سماه العالم فيما بعد — في سخرية غير مقصودة — صون يات — صن ؛ أى الشمس جنية السكنينة<sup>(١٠)</sup> . واعتنق صون المسيحية وقوى إيمانه بها فاندفع يحطم أصنام الآلهة في معبد قريته . وكان لهذا الغلام أخ له أكبر منه سنا هاجر من قبل إلى جزائر هاواي ، فجاأ بأخيه الأصغر إلى هنولولو وأدخله مدرسة يديرها راهب من أتباع الكنيسة الإنجليزية ويسير التعليم فيها بالأساليب الغربية البحتة<sup>(١١)</sup> . ولما عاد صون إلى الصين التحق بالكلية الحربية البريطانية فكان أول من تخرج فيها من الصينيين .

وكانت هذه الدراسات من أكبر الأسباب التي أفقدت الرجل كل ما كان في قلبه من العقائد الدينية ، كما كانت الإهانات وضروب الإذلال التي يلغاها هو وأبناء وطنه في الجمارك التي يسيطر عليها الأوربيون وفي الأحياء الأجنبية من

ثغور المعاهدات مما أوغر صدره وجعله يفكر في الثورة . وكان عجز الحكومة الفاسدة الرجعية عن أن تقي الصين العظيمة مذلة الهزيمة على يد اليابان الصغيرة ، وتجزئة البلاد بين الدول الأوربية لأغراضها التجارية ، مما أشعره بالمذلة وملا قلبه حقداً وضعيفة على تلك الحكومة ، فاعتقد أن أول خطوة يجب عليه أن يخطوها في سبيل تحرير الصين هي أن يقضى على أسرة المنشو .

وكانت أولى حركاته شاهداً حقاً على ثقته بنفسه ، ومثاليته ، وبساطته . ذلك أنه ركب سفينة تجارية دفع أجرها من ماله الخاص وسار بها مدى ألف وستائة ميل نحو الشمال ليعرض على لي هونج — جانج نائب الملكة الوالدة مشروعاته التي تهدف إلى إصلاح أحوال البلاد واستعادة عزها وكرامتها . فلما رفض هذا الحاكم مقابلته بدأ حياة كلها مغامرات وتحوال لجمع المال الذي يؤجج به نار الثورة الصينية ، ولقى معونة من كثير من النقابات التجارية والجمعيات السرية القوية التي كان قادتها يحسدون الطبقة الحاكمة الأرستقراطية ، ويتوقون إلى إقامة نظام للحكم يكون فيه للطبقات الحديثة من أرباب المصانع والتاجر شأن يتناسب وثروتهم المتزايدة : ثم غادر الصين وأبحر إلى أمريكا وأوربا يجمع المال القليل من ملايين الغساليين وآلاف التجار الصينيين . فلما جاء إلى لندن اعتقلته المفوضية الصينية دون سند قانوني أو شكت أن ترسله سراً إلى الصين مكبلاً بالأغلال بحجة أنه خائن لحكومته ، ولم ينجه إلا مبشر من علموه في صباه ، فنبه الحكومة البريطانية وتدخلت هذه في الأمر وأنقذته . وظل خمسة عشر عاماً أخرى ينتقل من مدينة إلى مدينة في جميع أنحاء العالم ، وجمع في تجواله مليونين ونصف مليون من الدولارات ليمول بها الثورة ، ويلوح أنه لم ينفق شيئاً من هذا المال على نفسه . ثم جاءته على حين غفلة في أثناء تجواله رسالة تنبئه أن قوات الثورة استولت على الجزء الجنوبي من بلاد الصين ، وأنها بسبيل الاستيلاء على شمالها ، وأنها اختارته رئيساً مؤقتاً للجمهورية الصينية . وبعد بضعة أسابيع من



ذلك الوقت رست السفينة التي أقلتته في هنج كنج التي لقي في نغرها المذلة منذ عشرين عاماً على يد الموظفين البريطانيين .

وكانت الإمبراطورة الولدة قد قضت نجحها في عام ١٩٠٨ بعد أن دبرت موت الإمبراطور السجين جوانج شو قبل موتها بيوم واحد ، وخلفها على العرش بويسى ابن أخى جوانج ، وهو الآن إمبراطور منشوكو<sup>(\*)</sup> . وأدخلت الحكومة الصينية في أواخر حكم الإمبراطورة الوالدة وأوائل حكم خليفتها الطفل كثيراً من ضروب الإصلاح التي تهدف إلى تجديد البلاد وصيغها بالصبغة الغربية الحديثة ؛ فدت الطرق الحديدية مستعينة في الغالب برءوس الأموال الأجنبية وبحبرة الأجانب وإشرافهم ، وألغى نظام الامتحان للتعين في المناصب الحكومية ، وأنشئ نظام جديد للتعليم ، ودعت جمعية وطنية لتجتمع في عام ١٩١٠ ، ووضع مشروع يستغرق تنفيذه تسع سنين يهدف إلى إقامة حكومة ملكية دستورية ، وينتهي بتعميم حق الانتخاب بعد أن يتدرج خطوة خطوة مع انتشار التعليم العام في البلاد . وجاء في المرسوم الذي أعلن به هذا المنهج ما يأتي : « كل تسرع في إدخال هذه الإصلاحات سيؤدى في النهاية إلى ضياع كل ما بذل فيها من جهود<sup>(١٣)</sup> . ولكن الثورة لم تكن لتوقف تيارها هذه الثورة التي جهرت بها الأسرة المريضة وهي على فراش الموت ، وألغى الإمبراطور الشاب نفسه تحيط به الثورة من كل جوانبه ، وقد تخلى عنه الجيش فلم يجد من يدافع عنه ، فلم يربداً من أن يعلن تخليه عن العرش ، وأصدر نائب الإمبراطور الأمير چون مرسوماً هو أعجب ما صدر من المراسيم في تاريخ الصين كله :

إن الشعب في جميع أنحاء الإمبراطورية يتجه الآن بعقله نحو الجمهورية ...

---

(\*) لقد كتب هذا الفصل قبل الحرب الأوربية الأخيرة ، وكانت اليابان قد غزت الصين ، واجتاحت جيوشها منشوريا ، وأقامت فيها دولة تأمر بأمرها هي دولة منشوكو ، وأجلست هذا الإمبراطور على عرشها . ولكن الحرب الأخيرة بدلت هذا كله ( المترجم )

إن إرادة الله واضحة ورغبات الشعب غير خافية . فكيف أستطيع أن أعارض .  
رغبات الملايين الكثيرة للاحتفاظ بمجد أسرة واحدة وكرامتها ؟ ومن أجل  
ذلك فإنى أنا والإمبراطور نرى أن تكون الحكومة فى الصين جمهورية  
دستورية إجابة لرغبات الشعب فى داخل الإمبراطورية كلها ، وعملا بأراء  
الحكماء الأقدمين الذين كانوا يرون أن العرش تراث عام<sup>(٤)</sup> .

وكانت الثورة كريمة كل الكرم فى معاملتها ليو — بى ؛ فقد أمنت على  
حياته ومنحته قصرًا مريحًا ومرتبًا سنويًا يقوم بشئونه ، وخبيلة يسكن إليها .  
لقد جاء المنشور إلى الصين آسدا وخرجوا منها حملانا .

وكان مولد الثورة هادئًا سلميا ، ولكن حياتها كانت حياة عاصفة مليئة  
بالأحداث . فقد كان ليوان شى — كى وهو سياسى من الطراز القديم جيش .  
قادر على مقاومة الثورة . وطلب أن يكون ثمن تأييده إياها أن يتولى رئاسة  
الجمهورية ، وأجابه صون يات — صن إلى ما طلب واعتزل الحياة العامة فى  
كرم وعزة نفس ، وكان قد بدأ منذ قليل يستمتع بمنصبه الجديد . وأخذ يوان  
يمد العدة لأن يجعل نفسه إمبراطورًا وينشئ أسرة حاكمة جديدة مستعينا فى  
عمله هذا بجاعات مالية قوية أجنبية ووطنية ؛ وحجته فى هذا أن الإمبراطورية  
هى السبيل الوحيدة لمنع تدهور الصين وتفككها . واتهمه صون يات — صن  
بالخيانة وأهاب باتباعه أن يجددوا عهد الثورة ، ولكن يوان مرض ومات  
قبل أن يصل الأمر إلى امتشاق الحسام .

ولم تعرف الصين النظام والوحدة من ذلك الحين . فقد تبين أن صون يات —  
صن رجل أحلام يسبح فى بيداء الخيال ، وأنه خطيب مفوه ولسكنه سياسى عاجز  
عن تولى زمام الحكم وقيادة الأمة إلى بر السلام ، فكان ينتقل من خطة إلى خطة  
ومن نظرية إلى أخرى ، أغضب من عاونوه من الطبقات الوسطى بما أظهره من  
ميل إلى الشيوعية ، وانتهى أمره بالازواء فى كاتون ليعلم شبابهها ويث فيهم روحه .

ويحكم أهلها في بعض الأحيان<sup>(١٥)</sup>. وحرمت الصين من حكومة تعترف بها جميع أجزائها، ومن ملكية كانت رمز وحدتها، ونبذت عادة الطاعة والخضوع لتقاليدها وشرائعها؛ وهي من بداية أمرها ضعيفة النزعة الوطنية التي تربط النفس بالوطن كله لا بالإقليم الذي تعيش فيه، فشبت فيها نار حرب متقطعة بين الجنوب والشمال تارة، وبين طائفة وطائفة تارة أخرى، ثم بين السراة والجياغ، وبين الشيوخ والشبان. وقام المغامرون يجيشون الجيوش، ويفرضون سلطانهم على الولايات النائية، يجبون منها الضرائب ويزرعون الأفيون<sup>(١٥)</sup>، ويخرجون بجنودهم من حين إلى حين ليضموا ضحايا جدداً إلى رعاياهم المساكين. واضطربت أحوال الصناعة والتجارة وازدهرت لكثرة ما كان يفرضها عليها قائد منتصر بعد قائد. وأخذ اللصوص وقطاع الطريق يفرضون الإتاوات، وينهبون ويقتلون، لأنهم لا يجدون قوة منظمة تقف في وجههم وتضرب على أيديهم. ووجد الناس في التلصص والجنديّة وقاية لهم من الهلاك جوعاً، وكثيراً ما كان هذا القائد أو ذلك المنسرب من اللصوص يداوم أسرة مقتصدّة فيسلبها ما ادخرته طول حياتها من المال أو ما جمعه من المتاع. وحسبنا تصويراً لهذه الحال أن عدد قطاع الطريق في ولاية هونان وحدها قد بلغ في عام ١٩٣١ - ٤٠٠.٠٠٠<sup>(١٦)</sup> أو يزيدون.

وبينا كانت هذه الفوضى ضاربة أطنابها في البلاد أرسلت روسيا في عام ١٩٢٢ اثنين من أقدر ساستها هما كرخان وچف ليضمّا الصين إلى نطاق الثورة الشيوعية. ومهد كرخان لعمله هذا بنزول روسيا عاملها من امتيازات في الصين، وبتوقيع معاهدة تعترف فيها بشرعية حكومة الثورة وبمركزها الدولي. ولم يجد چف الداهية صعوبة ما في أن يستميل صون يات - صن إلى الشيوعية لأن جميع السلطات الأخرى كانت قد نبذته، ولم يمض إلا وقت قصير حتى تكون جيش وطني جديد ودرب بمهونة سبعين من الضابط السوفيت. وزحف هذا

(\*) ومات بيكين عام ١٩٢٥ في أحسن الفرص التي أتاحت لأعدائه المحافظين.

الجيش من كاتون إلى الشمال تحت إمرة جيانج كاي - شك أمين سر صون يات - صن السابق ، ويقوده عمليا المستشار الروسي برودين ، يخضع بلدة في إثر بلدة حتى استقر أخيراً في بيكين<sup>(\*)</sup> . ولكن المنتصرين انقسموا على أنفسهم في ساعة النصر فخرج جيان كاي - شك على الحركة الشيوعية وأقام دكتاتورية عسكرية إجابة لرغبات رجال الأعمال والمال<sup>(\*\*)</sup> .

إن الأمم كالأفراد من العسير عليها الأنقيد من مصائب جيرانها . ومصداق ذلك أن اليابان ، التي كان ينبغي صون يات - صن أن تكون صديقة الصين وحليفها على الأمم الغربية ، والتي شجعت الثورة الصينية بنجاحها السريع في السير على النظم الأوروبية في الصناعة والسياسة والحرب ، تقول إن اليابان وجدت في الفوضى التي تردت فيها معلمتها القديمة فرصة سانحة لحل المشكلة التي أثارها نجاحها هي وتقدمها السريع . ذلك أن اليابان لم يكن في وسعها أن تحمد من عدد سكانها دون أن تعرض سلامتها للخطر الشديد بعجزها عن صد من تحدته نفسه بالإغارة عليها ؛ ولم يكن في وسعها كذلك أن تمون سكانها المتزايدين إلا إذا زادت مواردها بتشجيع الصناعة والتجارة ؛ وليس في وسعها أن تشجع الصناعة والتجارة من غير أن تستورد الحديد والفحم وغيرها من المواد الأولية التي لا تجدها في بلادها ، وليس في وسعها كذلك أن تنمي تجارتها وأن تفيد منها أكبر فائدة دون أن يكون لها نصيب موفور في السوق العظيمة الوحيدة التي لاتزال خارجة عن نطاق الاستعمار الأوربي الذي شمل الكرة الأرضية كلها . وكانت الصين

---

(\*) وتغير اسم تلك المدينة من ذلك الوقت فسميت بـ «بيجينج» أي الشمال المهدأ بدل بيكين .  
(العاصمة الشمالية) ، واتخذت الحكومة الوطنية مقرها في فانكنج «العاصمة الجنوبية» لتكون قريبة من مواردها المالية في تشنغهاي .

(\*\*) أما الحوادث التي تلت هذا فلا تزال ماثلة في الأذهان ، فقد اندلعت نار الحرب العالمية الثانية ، وهزمت اليابان ، وزحف الشيوعيون بجيوشهم على الجنوب تعاضدًا لهم روسيا السوفيتية وانتصروا على جيان كاي - شك ، وهزموا جيوش الحكومة الوطنية ، وأصبحت الصين كلها تقريباً دولة شيوعية . ( المترجم )

مشهورة بكثرة ما فيها من الحديد والفحم ، ويرجى منها أن تكون في المستقبل أعظم الأسواق العالمية . وهي إلى ذلك أقرب الأسواق إلى اليابان . وهل في العالم أمة يبدو لها أن في مقدورها أن تختار بين العودة إلى الزراعة ، الفاقة والمذلة ، وبين التقدم في الصناعة والفتح والاستعمار ، ثم تستطيع أن تقاوم الميل الشديد إلى اختطاف جزء من الصين الضعيفة المقطعة الأوصال في الوقت الذي كانت فيه النبور الأوروبية يقطع بعضها أشلاء بعض في ميدان فرنسا (\*) ؟

من أجل هذا أعلنت اليابان الحرب على ألمانيا في بداية الحرب العالمية الأولى ، وانقضت على إقليم چياو چو وهو الإقليم الذي كانت ألمانيا قد استأجرت من الصين قبل ذلك الوقت بستة عشر عاماً ، ثم قدمت إلى حكومة يوان شى كاي « واحدًا وعشرين مطلباً » لو أجابتها الصين لأصبحت مستعمرة سياسية واقتصادية لليابان ، ولولا احتجاج الولايات المتحدة ومقاطعة الصينيين بزعماء طلابها الغضاب للبضائع اليابانية لفذت هذه المطالب قوة واقتداراً . ذلك أن الطلاب انطلقوا في شوارع المدن الصينية ليكون أو يقتلون أنفسهم لأنهم يستحون أن يرى الناس وجوههم بعد هذا الإذلال الذي حاق ببلادهم (١٧) .

وكان اليابانيون يستمعون وهم ساخرون إلى غضب أوروبا واحتجاجها وهي التي ظلت تنخر في عظام الصين خمسين سنة أو تزيد . وارتدت اليابان دون أن تصل إلى أهدافها ولكنها ظلت تتحين فرصة أخرى تحقق فيها أطباعها . ولاحق لها هذه الفرصة حين كانت أوروبا وأمريكا تتردبان في عواقب خططهما الصناعية الاستعمارية التي كانت تعتمد على الأسواق الأجنبية لاستيعاب « الفائض » من محصولاتها التي لا يستطيع منتجوها أن يبتاعوها . وزحفت اليابان على منشوريتها وأقامت پويي إمبراطور الصين السابق رئيساً لجمهورية منشوكو التي أنشأتها في ربوعها ثم نصبته بعدئذ إمبراطوراً عليها . ثم عقدت مع الدولة الجديدة حلفاً

(\*) يشير المؤلف بهذا القول إلى الحرب العالمية الأولى ( المترجم )

سياسيا، ثم تفلعلت فيها اقتصاديا، وسيطرت عليها عسكريا، وجعلت لنفسها بهذه الوسائل فيها مركزاً ممتازاً يمكنها من استغلال موارد منشوريا الطبيعية، واستخدام أهلها، وفتح أسواقها للتجارة اليابانية. وانضمت الدول الأوربية التي كانت قد اتفقت فيما بينهما على وقف غارات التلصص زمنا ما بعد أن جمعت كل ما تستطيع أن تجمعه من الأسلاب، انضمت هذه الدول إلى أمريكا، ووجهت احتجاجا ضعيفا إلى اليابان على هذا النهب الصريح؛ ولكنها كانت في هذه المرة كما هي عادت في جميع الأحوال على استعداد لأن تعد النصر مبرراً للغاية.

كانت آخر مذلة لحقت بأوروبا وأمريكا هي ما أقدمت عليه اليابان في شنغهاي. ذلك أن اليابان ثار ثائرها لما أصاب تجارتها من جراء المقاطعة الصينية، فأنزلت جيوشها المنتصرة في أغنى ثغور الصين، واحتلت حى جپاى ودمرته، وأنذرت الحكومة الصينية بأن توقف أعمال جمعيات المقاطعة. ودافع الصينيون عن أنفسهم دفاع الأبطال، وقاوم جيش الطريق التاسع عشر القادم من كاتون. قوى اليابان التي كانت تفوقه عدة ونظاما، ووقف وحده تقريبا في وجهها شهرين، كاملين. ثم عرضت حكومة نانكينج على اليابان أن تتراضى وإياها على حل وسط، وانسحبت اليابان من شنغهاي، وعادت الصين تضمد جراحها، فاعتزمت أن تضع لنفسها أساس حضارة جديدة أقوى من حضارتها السابقة وأمتن منها دعامة تستطيع أن تدفع بها العالم النهم وترد مطامعه.

## الفصل الثالث

### بداية عهد جديد

التغيير في القرية - وفي المدينة - المصانع - التجارة - اتحادات العمال - الأجرور - الحكومة الجديدة - القومية واتباع الأساليب الغربية - إنزال كنفوشيوس عن عرشه - مناهضة الدين - المبادئ الخلقية الجديدة - التحول في نظام الزواج - تحديد النسل - التعليم المشترك بين الذكور والإناث - « التيار الجديد » في الأدب والفلسفة - لغة الأدب الجديدة - هوشى - عناصر التدمير - عناصر التحديد

كان كل شيء في الماضي يتغير ما عدا الشرق ، أما الآن فليس شيء في الشرق لا يتغير ، وأصبحت أشد الأمم استمساكا بالتقديم أكثرها تطرفا بعد روسيا ، وأخذت تدمر عامدة عادات ونظما كانت تعدها من قبل حرما آمنا غير قابل للتعديل . فليس الأمر الآن مقصوراً على القضاء على أسرة حاكمة كما حدث في عام ١٦٤٤ بل هو اقتلاع جذور حضارة قديمة .

وقد جرت العادة أن يكون آخر التغيير وأقله في القرية ، لأن اعتدال القرية وبطء سيرها لا يشجعان على التجديد ، والجيل الجديد نفسه لا بدله أن يزرع أولاً ثم يحصد ما زرعه فيما بعد . وأما الآن فإن سبعة آلاف ميل من الخطوط الحديدية تخترق الريف الصيني ، ولا تزال تربط القرى الشرقية بالمدن الساحلية وتحمل كل جديد من سلع الغرب إلى الملايين من بيوت الزراع ، رغم ما أصابها من الدمار في خلال الفوضى وسوء الإدارة الذين داماعشرات السنين ، ورغم ما تحمته من الأعباء الباهظة بسبب حاجات الحرب ومطالبها الملحة . ففي هذه القرى يرى السائح كثيراً من الواردات الأجنبية مثل الكيروسين ، ومصابيح الكيروسين ، وعيدان الثقاب ، ولقافات التبغ ؛ بل يرى فيها القمح الأمريكي نفسه . ولعل القارىء يظن أن وجود هذه البضائع والسلع في داخل البلاد أمر عادي غير جدير بالذكر ؛ والحق أن

نقلها إليها من أصعب الأمور لأن البلاد لا تزال جد فقيرة في وسائل النقل ، حتى أن نقل البضائع بين الأقاليم الداخلية والمقاطعات الساحلية يتطلب من النفقات أكثر مما يتطلبه نقلها إلى ثغور الصين من أستراليا أو الولايات المتحدة . ولقد تبين لأهل البلاد أن نمو الحضارة من الناحية الاقتصادية موقوف على سهولة سبل النقل ووسائل الاتصال . من أجل ذلك أنشئت طرق برية يبلغ طولها نحو عشرين ألف ميل تسير عليها ستة آلاف مركبة حافلة سيراً غير منتظم مملوءة على الدوام بالركاب . فإذا ما ارتبطت هذه القرى التي يخطئها الحصر بالسيارات السريعة فإن ذلك يحدث في الصين أعظم تغيير شهدته في تاريخها الطويل وهو القضاء حتى على القحط الذي طالما هدهدها وأفنى الكثيرين من أهلها .

هذا في القرى أما في الحواضر فإن انتصار الأساليب الغربية يسير بخطى أسرع وأيسر ، فالجرف اليدوية أخذت في الزوال بتأثير منافسة السلع الرخيصة السهلة النقل المستوردة من خارج البلاد . وقد تعطل لهذا السبب آلاف من المصانع ، ولكن المصانع الآلية التي أنشئت على طول السواحل بمعونة رءوس الأموال الأجنبية والوطنية تبتلعهم ابتلاعاً سريعاً . وقد سكّت صوت الأنوال اليدوية في المدن وإن كانت لا تزال تدور في الريف ، وغمر القطن والمنسوجات القطنية أسواق البلاد ، وشيدت مصانع النسيج لتجعل من فقراء الصين عبيداً مسخرين للآلات ، وأقيمت في هايتشواو أفران لصهر المعادن لا تقل ضخامة وروعة عن مثيلاتها في البلاد الغربية ، ووضعت مشروعات هائلة لإنشاء مخازن ومصانع لحفظ الطعام ولصنع الأسمنت والورق والصابون والشمع وتكرير السكر ، وهي تعمل رويداً رويداً على تحويل العامل الصيني اليدوي إلى صانع ومشرف على الآلات . لكن الصناعات الجديدة يعوق نموها السريع تردد أصحاب رءوس الأموال في أن يستثمروها في بلاد لا تنقطع فيها الثورات ، ويلاقون فيها صعاباً جمة من جراء نقص وسائل النقل وكثرة نفقاتها وثقل المواد في داخل



البلاد ، ومن جراء تمسك الصينيين بتلك العادة الجميلة عادة الولاء للأسرة قبل الولاء لكل ما عداها من الجماعات ، والتي تحمل كل مكتب من مكاتب الموظفين . وكل مصنع معششاً للأقارب والعاجزين عن أداء عمل من الأعمال<sup>(١٩)</sup> . والتجارة يعوقها فضلاً عن هذا ما يفرض عليها من الضرائب في داخل البلاد ومن الرسوم الجمركية والرشا وضروب الاغتصاب ، وإن كانت مع ذلك تنمو أسرع من نمو الصناعة وتضطلع بدور خطير في تحول الصين الاقتصادية<sup>(٢٠)</sup> .

وقد قضت الصناعات الجديدة على نقابات أرباب الحرف القديمة وأحدثت كثيراً من الاضطراب والفوضى بين العمال وأرباب الأعمال . ذلك أن هذه النقابات كانت تعيش بفضل ما تبذله من الجهود لتحديد أجور العمال وأثمان البضائع بالتوفيق بين الملاك والمفتحين الذين لم يكن لمنتجاتهم ما ينافسها في التجارة المحلية . فلما أن اتسع نطاق التجارة بزيادة وسائل النقل ، وجاءت البضائع من البلاد البعيدة تنافس في جميع المدن بضائع النقابات المصنوعة باليد ، تبين لها أن ليس في استطاعتها أن تشرف على الأسعار أو تحدد الأجور من غير أن تخضع في ذلك إلى أوامر المتنافسين الأجانب وإلى رموس الأموال الأجنبية . ومن أجل هذا تفككت النقابات وتقسمت إلى غرف تجارية من جهة وإلى اتحادات للعمال من جهة أخرى . فالغرف تعنى بالظلم والولاء لأصحاب الأعمال وبالحرية الاقتصادية ، والعمال يعنون بأجورهم المنخفضة التي تكاد تهميتهم جوعاً . وقد كثرت الإضراب والمقاطعة ولكن هذين قد أفلحا في إرغام أرباب الأعمال من الأجانب على التسليم للحكومة الصينية ببعض الامتيازات أكثر مما أفلحا في رفع

---

(\*) كانت بريطانيا العظمى في وقت من الأوقات هي المسيطرة على تجارة الواردات ، أما الآن فإن لها فيها نحو ١٤ ٪ وللولايات المتحدة ١٧ ٪ واليابان ٢٧ ٪ ، ولا يزال مركز اليابان في هذه التجارة يقوى عاماً بعد عام . وقد تضاعفت تجارة الصين فيما بين ١٩١٠ ، ١٩٣٠ قبلت ٦٠٠ ٪ وتقدر قيمتها بما يقرب من نصف بليون من الدولارات . غير أن الحرب المالية الأخيرة وهزيمة اليابان قد بدلنا من مركزها في هذه التجارة .

أجور العمال . وقد قدرت مصاحبة الشئون الاجتماعية التابعة لبلدية شنغهاي الصينية متوسط الأجر الأسبوعي لعمال مصانع النسيج بين ١٧٣، ٢٧٦ دولار للرجل ، وما بين ١٠، ٢٧٨ دولار للمرأة . وكان متوسط الأجور الأسبوعية للرجال في المطاحن والمصانع ١٩٦ دولار وفي مصانع الأسمت ١٧٢ دولار ، وفي مصانع للزجاج ١٨٤ ، وفي مصانع الكبريت ٢١١ ؛ وكان متوسط أجر العمال المهزلة في المصانع الكهربائية ٣١٠ وفي مصانع الآلات ٣٢٤ وبين عمال المطابع ٥٥٤<sup>(٢٣)</sup> . وما من شك في أن الزيادة الكبيرة في أجور عمال المطابع إنما ترجع إلى حسن تنظيمهم وإلى الصعوبة التي يعانها أصحاب المطابع في استبدال غيرهم بهم إذا توقفوا عن العمل فجأة . وتألقت أولى اتحادات العمال في عام ١٩١٩ وزاد عددها وقوتها حتى طلبت في أيام برودين أن تتولى هي حكم الصين ؛ ولكن جيانج كاي — شك كبح جماحها من غير رحمة بعد نزاعه مع روسيا ، وقد سنت لمقاومتها في هذه الأيام قوانين غاية في الصرامة ، ولكن عددها مع ذلك أخذ في الازدياد بسرعة لأنها الملاجأ الوحيد للعمال من عنق النظام الصناعي الذي لم يعمل حتى الآن أكثر . من أن يبدأ بوضع التشريع الخاص بالعمال ، ولم يبدأ قط في تنفيذه<sup>(٢٤)</sup> . وإن ما يعانیه صماليك المدن في هذه الأيام من فقر مدقع وكدح يدوم اثنتي عشرة ساعة في اليوم بأجور لا تكاد تمسك الروح بالجسم ، يهددهم للموت جوعاً إذا لم يجدوا عملاً في يوم من الأيام ، إن ما يعانیه هؤلاء الصماليك في هذه الأيام لأسوأ مما كان يعانیه فقراء القرى في الأيام الخالية حيث لم يكن يسمح للفقراء أن يروا الأغنياء ، وحيث كانوا يرضون بما قسم لهم منذ الأزل . ولعله كان من المستطاع تجنب هذه الشرور لو أن تبدل الأحوال في شرق الصين لم يتم بغير ما تم به من السرعة ولم يبلغ ما بلغه من الكمال . إذن لكان في مقدور كبار الموظفين الصينيين ، وإن فقدوا ما كان لهم من حيوية وتلوث أيديهم بالرشوة ، أن يكبحوا جماح القوى الصناعية الجديدة حتى تتأهب الصين

لقبولها من غير أن تقع في برائن الفوضى والعبودية؛ وإذن لنشأت من نمو الصناعة عامًا بعد عام طبقة جديدة من السكان لعلها كانت تستطيع أن تخطو بسلام إلى ميدان السلطة السياسية، كما خطا الصناع إليها في إنجلترا وحلوا محل كبار ملاك الأراضي الزراعية.

ولكن الحكومة الجديدة ألقت نفسها بلا جيش، ولا زعماء مجرّبين، ولا مال؛ ووجد الكومنتانج، أي حزب الشعب الذي أنشئ لتحرير الأمة، أن لا بد له أن يقف موقف العاجز وهو يرى الأمة تخضع لروس الأموال الأجنبية والوطنية. وكان هذا الحزب قد ولد في عهد الديمقراطية ونشأ في أحضان الشيوعية، ثم انحى جل اعتماده على مصارف شنغهاي المالية، فترك الديمقراطية وانحاز إلى الدكتاتورية وحاول أن يقضى على اتحادات الصناع<sup>(\*)</sup>. ذلك أن الحزب يعتمد على الجيش، ولا بد للجيش من مال، والمال لا يأتي إلا من القروض؛ وإلى أن يكون للجيش من القوة ما يمكنه من إخضاع الصين فإن الحكومة ستظل عاجزة عن فرض الضرائب على الصين، وإلى أن تستطيع الحكومة فرض الضرائب على الصين ستظل تتلقى النصيح والإرشاد من حيث تتلقى المال. على إنها مع هذا كله قد أنجزت الشيء الكثير؛ فقد أعادت إلى الصين إشرافها التام على التعريف الجمركية وعلى صناعاتها — داخل نطاق قوة المال العالمية — وأنشأت ودرّبت وجهزت جيشًا قد يستخدم في يوم من الأيام لقتال غير الصينيين؛ ووسعت رقعة الأقاليم التي تعترف بسلطة الحكومة، وقلّلت في هذه الرقعة من قوة قطاع الطرق الذين كانوا يجمنون على أنفاس الأمة ويكادون يقضون على حياتها الاقتصادية. وهي تسير في هذا سيرًا بطيئًا لأن إشعال نار الثورة مستطاع في يوم وليلة ولكن إقامة حكومة ثابتة يحتاج إلى جيل

---

(\*) وقد أعدم في عام ١٩١٧ وحدها آلاف مؤلفة من المهال لانفهامهم إلى هذه الاتحادات.

وليس تفكك الصين وانقسام عرى وحدتها إلا مظهرًا مما في النفس الصينية من انقسام ونتيجة لازمة له . إن أقوى ما في الصين من مشاعر في هذه الأيام هو شعور الكراهية للأجانب ، وأقوى التيارات التي تجتاح الصين هو تيار محاكاة الأجانب . والصين تعترف أن الغرب لا يستحق أن تتملقه وتحاكبه ؛ ولكن الصين يضطرها روح الأيام ودوافعها القوية إلى تملق الغرب ومحاكاته لأن الأمم في هذا العصر لا بد لها أن تختار بين التصنيع والاسترقاق ولا ثالث لهما . ومن أجل هذا نرى الصينيين في المدن الشرقية يهجرون الحقول إلى المصانع ، والثياب الفضفاضة إلى السراويل الضيقة ، ونفحات الماضي البسيطة الشجية إلى موسيقى الغرب المعقدة ، ويتخلون عن ذوقهم الجميل في الثياب والأثاث والفن ، ويزينون جدرانهم بالصور الأوروبية ، ويشيدون دور الحكومة ومكاتب الأعمال على أقبح الطرز الأمريكية . وقد تخلت نساء الصين عن عادة ضغط أقدامهن من الأمام إلى الخلف وأخذن يضغطن من اليمين إلى اليسار على آخر طراز غربي<sup>(\*)</sup> ، وأخذن فلاسفتها يتخلون عن مبادئ كنفوشيوس المعتدلة القنوعة الظريفة ويهرعون إلى مبادئ موسكو ولندن وبرلين وباريس ونيويورك الشرسة الخصيمة ، ويتلقونها بنفس الحماسة التي كان الأوروبيون يتلقون بها مبادئ النهضة في أواخر العصر الوسيط .

لقد نلَّ عرش كنفوشيوس وكان في الطريقة التي نل بها شيء من سمات عصر النهضة وعصر الاستنارة ؛ ولقد كان نبذا لأرسطو الصين والآلهة التي عبدها الشعب من أقدم الأزمنة . وأتى على الدولة حين من الدهر اضطهدت فيه البوذية وطوائف الرهبان في الأديرة ، ذلك أن ثوار الصين كانوا كثوار فرنسا ملاحدة لا يخفون عن الناس إلحادهم ، ويجهرون بعدائهم للدين ، ولا يعبدون غير

---

(\*) تتمد بعض الصينيات في هذه الأيام إلى وضع وسادات في أحذيتهم ليخفين عن الناس أن أقدامهن قد ضغطت في صغرهن (٢٦) .

العقل . واصل الكنفوشية كانت تترك الناس أحراراً في عقائدهم الدينية لأنها تفترض أن الآلهة سبقت ما بقي الفقر ؛ أما الثورة فكانت تظن أن في وسعها أن تقضى على الفقر ولذلك لم تر حاجة إلى الآلهة ؛ وكانت الكنفوشية ترى أن الزراعة والأسرة هما نظام الحياة العملية والاجتماعية الطبيعية ولذلك شادت صرحاً للأخلاق يهدف إلى حفظ النظام وإشاعة القناعة في نطاق دائرة البيت والحقل ؛ أما الثورة فوجهتها الصناعة وهي في حاجة إلى أخلاق جديدة تنفق مع الحياة الفردية في الحواضر . وقد بقيت الكنفوشية لأن الوصول إلى المناصب السياسية والمهن العلمية كان يتطلب معرفة مبادئها والأخذ بها ؛ أما الآن فنظام الامتحانات قد انقضى عهده وحلت العلوم الطبيعية في المدارس محل الفلاسفة الأخلاقية والسياسية ؛ وأصبح الرجل لا يصاغ للحكم بل يصاغ للصناعة ؛ وكانت الكنفوشية محافظة تكبح بحذر الشيوخ مثل الشباب العليا ؛ أما الثورة فروحها من أنفاس الشباب ولا تقبل أن يفرض عليها شيء من هذه القيود ، وهي تسخر من الشيوخ إذا رفعوا عقيرتهم محذرين : « إن الذين يظنون أن الجسور القديمة عديمة النفع ويحطمونها تحطياً سيصيبهم الدمار ويفرقهم تيار المياه الجارف » (٢٧) (٢٧) .

وقضت الثورة بطبيعة الحال على دين البلاد الرسمي ولم تعد تقرب القرابين الآن من مذبح السماء إلى التّيان الصامت الجرد . وتجزت الحكومة عبادة الأسلاف ولكن هذه العبادة آخذة هي الأخرى في الانقراض ، وينزع الرجال إلى تركها شيئاً فشيئاً للنساء وقد كانوا يظنونهم من قبل غير خليقات بهذه العقوس المقدسة . ولقد تلقى نصف زعماء الثورة تعليمهم في المدارس المسيحية ، ولكن الثورة رغم ائتمار جيانج كاي شك إلى الطائفة المسيحية النظامية (Methodism) لا تميل إلى دين يؤمن بخوارق الطبيعة وتصبغ كتبها المدرسية بالصبغة الإلحادية (٢٩) . أما

---

(\*) انظر ص ٦٣ . وتحاول الآن حركة « الحياة الجديدة » التي يتزعمها جيانج كاي - شك أن تميد الكنفوشية وقد نجحت في ذلك بمض النجاح .

الدين الجديد الذى يحاول أن يسد الفراغ العاطفى الناشئ من فراق الآلهة فهو دين الوطنية ، كما أن الدين الجديد فى روسيا هو الشيوعية . ولكن هذه العقيدة فى الوقت الحاضر لاترضى كافة الناس ، ولهذا ترى الكثيرين من صعاليك المدن يعمدون إلى العرافين والمتنبئين والوسطاء ليجدوا عندهم ملجأ من كدح الحياة اليومية الرتيب الذى لا لذة فيه ولا طرافة . ولا يزال القرويون يجدون بعض ما يسليهم عن فقرهم ويفرح عنهم كرهيم فى سكون المزارات القديمة . والقانون الأخلاقى القديم الذى كان الناس منذ جيل واحد يظنونه قانوناً سرمدباً لا يتبدل آخذ فى التفكك والانحلال بسرعة تتضاعف ثم تتضاعف على مدى الأيام بعد أن فقدت حماية الحكومة والدين والحياة الاقتصادية . وأهم ما طرأ على الصين من تبدل فى هذه الأيام ، إذا استثنينا ما أحدثه فيها الغزو الصناعى ، هو تحطيم نظام الأسرة القديمة لتحل محله نزعة فردية تترك كل إنسان حراً يواجه العالم بمفرده ، وقد استبدل الولاء للدولة من الوجهة النظرية بالولاء للأسرة . وإذا كان هذا الولاء الجديد لم ينتقل الآن من طور الأقوال والنظريات إلى طور الأعمال فإن المجتمع الجديد يعوزه الأساس الخلقى الذى يستند إليه . إن الزراعة يلائمها نظام الأسرة لأن الأرض ، قبل انتشار الآلات ، كانت تستغل أحسن استغلال على أيدى جماعة من الناس تربطهم رابطة الدين والسلطة الأبوية . أما الصناعة فتمزق الأسرة لأنها تعطى العمل والجزاء عليه للأفراد لا للجماعات ، ولا تعطيهما هذا الجزاء دائماً فى مكان معين ، ولا تعترف بأن للضعفاء حقاً فى مال الأقوياء ، ولا يمجّد التعاون والتراحم الطبيعيين القائمين بين الأسرة سنداً من التنافس المرير الذى هو من طبيعة الصناعة والتجارة ؛ وترى الجديد الذى ينفرد على الدوام من سلطان الشيوخ يهرع عن عمد إلى المدينة وفردية المصنع ، ولعل سلطان الأب القوى فى الزمن الماضى قد يعجل بالانقلاب لأن الرجعية هى التى يرجع إليها على الدوام إسراف المتطرفين . وهكذا انتزعت الصين نفسها من ماضيها واستأصلت

جدوره ، وما من أحد يدري هل تستطيع أن تمد لها جذوراً جديدة في وقت  
يمكنها من أن تنجى بها حياتها النفاقة .

وكذلك أخذت أساليب الزواج القديم تزول بزوال سلطان الاسرة . نعم  
إن معظم الزيجات لاتزال ينظمها الآباء ، ولكن الزواج بالاختيار الحر بين الفتيان  
والفتيات أخذ في الانتشار في الحواضر ؛ فالشباب لا يكتبون الآن بأن يرى نفسه  
حرّاً في أن يتزوج من يشاء ، بل هو يجرى تجارب في الزواج قد يرتاع لها أبناء  
الغرب أنفسهم ، وهذا القول نفسه ينطبق على الفتيات كما ينطبق على الفتيان .  
لقد كان نتشه يرى أن آسية على حق فيما تعامل به النساء ، ويرى أن إخضاعهن  
لرجال هو العاصم الوحيد من سيطرتهم عليهم سيطرة لاتقف عند حد ، ولكن  
آسية قد اختارت أساليب أوربا لا أساليب نتشه في معاملة النساء . وتعدد  
الزوجات أخذ في النقصان لأن الزوجة الجديدة تعارض فيه وتعارض في التسرى .  
والطلاق قليل غير عادي ، ولكن السبيل إليه أوسع مما كانت في الأيام الماضية<sup>(٣٠)</sup> .  
والتعليم المشترك هو القاعدة المتبعة في الجامعات ، واختلاط الجنسين اختلاطاً حرّاً  
أمر عادي في المدن ، وقد سنت النساء لمن قوانينهن الخاصة بهن وأنشأن مدارسهن  
الطبية ، بل سرن إلى أبعد من هذا فأنشأن مصرفاً مالياً خاصاً بهن<sup>(٣١)</sup> . واللائي  
انضممن إلى الحزب من النساء منحن حق الانتخاب ، وقد وجدت لهن وظائف  
في أرقى لجان الحزب والحكومة على السواء<sup>(٣٢)</sup> . ولقد نبذن عادة قتل الأطفال

---

(\*) تجيز الثورة الطلاق إذا طلبه الطرفان ، ولكن إذا كان الزوج أقل من ثلاثين  
سنة أو الزوجة أقل من خمس وعشرين فإن الطلاق يتطلب رضا الأبوين . ولا تزال الأسباب  
القديمة التي كانت تجيز للزوج أن يطلق زوجته معمولاً بها - وهذه الأسباب هي العقم ،  
والخيانة الزوجية ، وإهمال الواجب ، والثروة ، والسرقه ، والغيرة ، والأمراض الخطيرة ؛  
ولكن هذه الأسباب لا يعمل بها إذا كانت الزوجة قد حزنت ثلاث سنين على والدي زوجها ،  
أو لم تكن لها أسرة تعود إليها ، وكانت وفية لزوجها في أثناء ارتفاعه من الفقر إلى  
الفقر<sup>(٣٠)</sup> .

وأخذن بزاولن عادة تحديد النسل<sup>(٢٦)</sup>، ولم يزد عدد السكان زيادة ملحوظة منذ قيام الثورة ولعل تيار السكان الصينيين الجارف قد أخذ الآن يتراجع<sup>(٢٣)</sup>. ومع هذا فإن خمسين ألف صيني جديد يولدون في كل يوم<sup>(٢٤)</sup>. وسيكونون في مستقبل أيامهم جُدداً من كل الوجوه، جُدداً في تفصيل ملابسهم وترجيل شعرهم، جُدداً في تعليمهم وعاداتهم وأخلاقهم ودينهم وفلسفتهم، لقد اختفى ذيل ملابسهم الطويل واختفى معه ما كان في الأيام الخالية من ظرف ورقة، وخسخت أحقاد الثورة روح الأهلين، وأضحى من أصعب الأمور على المنظرين أن يجاملوا المحافظين<sup>(٢٥)</sup>. وها هو ذا تيار الصناعة السريع يبذل ما كان يتصف به الشعب الصيني القديم من تواكل وعدم مبالاة إلى صفات أخرى أكثر دلالة على طبيعتهم. إن هذه الوجوه البليدة لتخفى تحتها نفوساً نشيطة سريعة الاحتياج، وإن النزعة السلمية التي أثمرتها نفوس الصينيين بعد حروب دامت عدة قرون لأخذة في الزوال من طول تفكيرهم في هزائمهم القومية وتقطيع أوصال بلادهم؛ والمدارس تعد الآن كل طالب لأن يكون جندياً، وعاد القوم مرة أخرى يرون القائد بطالا.

وتبدل نظام التعليم من أوله إلى آخره فألقت المدارس بكنفوشيوس من النافذة وأحلت العلوم الطبيعية والرياضية محله، وإن لم يكن من الضروري أن تتخلى عنه لتحل العلوم محله لأن تعاليم كنفوشيوس لا تتعارض مطلقاً مع روح العلم. ولكن التاريخ كله لمحتمه وسذاه يتكون في جميع مراحل من غلبة الإحساسات النفسية على العقائد المنطقية. فدراسة الرياضيات والميكانيكا واسعة الانتشار لأنهما يعينان على صناعة الآلات، والآلات تعين على جمع الثروة وعلى صناعة المدافع، والمدافع قد تحفظ الحرية. ودراسة الطب في الصين أخذت في

(\*) إن الإعلانات الصريحة عن وسائل موانع الحمل في 'ازن الأدوية الصينية' لما يوحى إلى الله بوسيلة يلجأ إليها لينجو بها من «الخطر الأصفر».



الانتشار ، والفضل في انتشارها راجع معظمه إلى هبات المحسن ركفلر<sup>(\*)</sup> . وقد تضاعف عدد المدارس الجديدة والمدارس العليا والكليات بسرعة فائقة على الرغم من فقر البلاد ، والصين الحديثة تأمل ألا يمضي إلا القليل من الوقت حتى يستطيع كل طفل أن يتعلم من غير أجر وأن يسودها النظام لدمقراطي بفضل انتشار التعليم . وقد حدث في الأدب الصيني والفلسفة الصينية انقلاب شبيه بما حدث في عهد النهضة . ذلك أن دخول الكتب الغربية كان له من الأثر المنتج ما كان للمخطوطات اليونانية من أثر في عقول الإيطاليين ؛ وكما أن إيطاليا في إبان نهضتها قد هجرت اللغة اللاتينية لتكتب بالإيطالية فكذلك فعلت الصين بزعامه هوشى إذ حولت اللهجة الأرسقراطية القديمة إلى لغة أدبية هي المعروفة بالباى هوا ، وأقدم هوشى على عمل خطير جازف فيه بمصيره الأدبي فكتب بهذه « اللغة البسيطة » تاريخ الفلسفة الصينية في عام ١٩١٩ ؛ وكانت شجاعته سبباً في فوزه العظيم ، فأتخذت خمسمائة صحيفة دورية الباي هوا لغة لها ، ولم يمض إلا وقت قليل حتى كانت لغة الكتابة الرسمية في المدارس . وقامت في الوقت نفسه « حركة الحروف الألف » لإفصاف رموز الكتابة الصينية من ٤٠٠٠٠ رمز وهو العدد الذي كان يستخدمه العلماء في كتاباتهم إلى ١٣٠٠٠ تكفي للاستعمال العادي . وبهذه الطريقة أخذت لهجة المدرسين تذيب بسرعة في الأقاليم الصينية ، وقد لا ينتهي هذا القرن حتى تكون للصين كلها لغة واحدة وحتى تقترب من الوحدة الثقافية .

والأدب الصيني أخذ في الانتشار مدفوعاً بهذه اللغة الشعبية وبجاسة الأهاين ، وقد أُنحى عدد الروايات والقصائد والتمثيلات لا يقل عن عدد الصينيين أنفسهم ، وانتشرت الصحف والمجلات في كل مكان ، وأخذ الصينيون يترجمون آداب الغرب

---

(\*) في عام ١٩٣٢ فتحت كلية طب الاتحاد للطلاب والطالبات بفضله التي قدمها چون . و . ركفلر الصغير والبالغ مقدارها خمسة ملايين من الدولارات ، وتنفق اللجنة الطبية الصينية التي تمدها بالمال مؤسسة ركفلر على تسعة عشر مستشفى وثلاث مدارس للطب وتهب في كل عام خمسين وستين جائزة تعليمية<sup>(٣٦)</sup> .

بالجملة ، كما أخذت أشرطة الخيالة الأمريكية ، بشرحها مترجم صيني يقف إلى جانب الشاشة البيضاء ، تبعث البهجة في نفوس الصينيين العلماء منهم والسذج . وكذلك عادت الفلسفة إلى عطاء الفلاسفة الأقدمين للملحدين ، وأخذت تعيد دراستهم وتفسيرهم على نمط جديد بمزج واندفاع لا يقلان عن عزيمة أوروبا ونشاطها في القرن السادس عشر ، وكما أن إيطاليا بعد أن تحررت من القيود الكنسية قد راعتها العقلية اليونانية اللادينية وأثارت إعجابها ، كذلك أخذت الصين الجديدة تستمع بشغف ليس كمثل شغف إلى أقوال مفكرى الغرب أمثال جون ديوى وبرتراند رسل وأمثالهم من العلماء المستقلين في تفكيرهم استقلالاً تاماً عن جميع الأديان ، والذين يعظمون التجارب ويعتقدون أنها وحدها هي المنطق الواجب الاتباع ، والذين تتفق فلسفتهم لهذا السبب مع مزاج أمة تحاول أن تجمع الإصلاح الديني ، وإحياء العلوم والاستنارة والنهضة والثورة في جيل واحد<sup>(٣٨)</sup> .

وإذا ما امتدح أحدنا الآن ما لآسية من « قيم روحية » سخر منه هوشى وقال إنه يجد في إصلاح نظم الصناعة والحكم إصلاحاً يعين على استئصال العوز من البلاد قياً أخلاقية أعظم من كل ما في « حكمة الشرق » ، وهو يلقب كنفوشوس « بالشيخ الطاعن في السن » ويقول إن التفكير الصينى ليظهر على حقيقته إذا ما وضعت مدارس الملحدىن التى كانت قائمة فى القرن الخامس والرابع والثالث قبل الميلاد فى مكانها الصحيح من تاريخ الصين<sup>(٣٨)</sup> .

بيد أنه وهو فى وسط هذا « التيار الجديد » الجارف وهذه الحركة الفكرية الجديدة التى كان من أنشط زعمائها قد أوتى من الحكمة ما جعله يدرك ما للشيوخ أنفسهم من قيمة ، وقد صاغ مشكلة بلاده أكمل صياغة فى الفقرة الآتية :

---

(\*) لقد ضعف فى الأيام الأخيرة هذا الميل الشديد إلى تقليد المثل الغربية فى الأمور العقلية بتأثير حركة الحياة الجديدة التى يترجمها جيانج كاي - شك . وأخذت الصين واليابان تفرحان لها أشرطة خيالية خاصة بهما ، وعاد الاستمسك بالقديم يحل تدريجاً محل التطرف ، كما أخذت الصين تميل إلى الانضمام إلى اليابان فى الثورة على أفكار أوروبا وأمريكا وآساليهما .

« إن الجنس البشرى بأجمعه لتصيبه أكبر خسارة إذا ما استبدلت الحضارة الجديدة بالحضارة القديمة استبدالا سريعا مفاجئا يحجوها من الوجود بدل أن تمتصها البلاد امتصاصاً بطيئاً وتمثلها كما يمثل الغذاء الصالح . وعلى هذا فإن المشكلة التي تواجهها يمكن أن تصاغ على النحو الآتي . كيف نستطيع أن نهضم الحضارة الجديدة ونمثلها بحيث نجعلها متجانسة مؤتلفة مع الحضارة التي أنشأناها نحن في أيامنا الخالية ؟ » (٣٠) .

ويخيل إلى كل من يشهد ظواهر الأمور الخارجية السائدة في الصين الآن أنها لن تستطيع حل هذه المشكلة . ذلك أن الإنسان إذا ما فكر فيما يخيم على الحقل الصيني من وحشة ، وما حاق بها من خراب ، وما يتناوبها من جذب تارة وفيضان جارف تارة أخرى ، وما أصاب أشجارها من تقطيع وتدمير ، وفيما أصيب به زراعها من إنهاك وخول ، وفي الموت الذي يحصد أطفالها حصداً ، وفي عمالها الذين يكدحون في المصانع كالعبيد كدحاً يضعفهم ويهد قواهم ، وفي مدنها القذرة التي تنفث فيها الأمراض ، وتفرض على بيوتها أفدح الضرائب ، وفي الرشوة المنتشرة في تجارتها ، وفي صناعاتها التي يسيطر الأجانب عليها ، وفي فساد حكومتها ، وضعف وسائل الدفاع عن بلادها ، وفي أهلها الذين تفرقوا شيعاً وأحزاباً وامتلات قلوبهم غلا وحقداً ، إذا ما فكر في هذا كله هاله الأمر فلا يدري هل تستطيع الصين أن تستعيد عظمتها الماضية ، وهل في مقدورها أن تمتص مرة أخرى فاتحيتها وتمثلهم في جسمها الضخم ، وتحمي من جديد حياتها النشيطة المبدعة ؟ ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة تدقيق وإمعان رأينا من تحت هذه المظاهر السطحية عوامل النقاها والتجديد فأراضيها الواسعة الرقعة المختلفة الأنواع غنية بمعادنها الكفيلة بأن تجعلها بلدًا صناعياً عظيماً ، وقد لا يكون فيها من الثروة المعدنية ما قدره رختوفن ، ولكن فيها بلا ريب أكثر مما كشفت عنه البحوث التجريبية في هذه الأيام . وإذا ما تسربت للصناعة إلى داخل البلاد فستكشف عن خامات ومواد للوقود لا يتصور الناس

الآن أنها توجد فيها ، كما لم يكن أحد يتصور منذ قرن واحد ما في أمريكا من ثروة معدنية ومن وقود . أما عن قواها المعنوية فإن هذه الأمة التي مرت عليها ثلاثة آلاف عام سمت فيها إلى الجدة تارة وتردت في مهاوى الشقاء تارة أخرى ، وتوالت عليها فترات موت وبموت ، إن هذه الأمة لتظهر فيها اليوم كل دلائل الحيوية المادية والمعنوية التي تدينها في ، كثر عهدها إبداعاً وإنتاجاً . وليس في العالم كله شعب أكثر من هذا الشعب نشاطاً وذكاء ، وليس فيه شعب يمثله في قدرته على التكيف حسب ما يواجهه من الظروف ، وفي مقاومته للأمراض ، وفي انتمائه بمد الكوارث والآلام ، شعب علمه تاريخه الطويل الصبر على الأرزاء والخروج منها سالماً على مر الأيام . وليس في الخيال أن يتصور ما يجنبه المستقبل لحضارة تمتزج فيها الموارد المادية والطاقة البشرية والعقلية لهذا الشعب والوسائل والأدوات الفنية التي أوجدتها الصناعة الحديثة .

وأكبر الظن أن الصين ستنتج من الثروة ما لم تنتجها قارة من القارات حتى أمريكا نفسها ، ، وأن الصين ستزعم العالم في نعيم الحياة ونفها كما تزعمته مراراً في الزمن القديم في التعم وفي فنون الحياة .

ذلك أن المزايم الحربية واستبعاد الأموال الأجنبية مهما قست لا تستطيع أن تكبت إلى مدى طويل روح أمة غنية في مواردها وفي حيويتها ، بل سيخسر المغير عليها ماله وينفذ صبره قبل أن تستنفد البلاد قدرتها على التكاثر ؛ ولن يمضي قرن واحد من الزمان حتى تكون الصين قد امتصت فاتحها وهضبتهم وحضرتهم بحضارتها ، وتملكت جميع الفنون التي سيطقت عليها إلى وقت قصير اسم الصناعة الحديثة . وسوف توحد الطرق وسبل الاتصال أجزاءها ، وتمدها أساليب الاقتصاد والادخار بحاجتها من المال ، وستعيد إليها الحكومة القوية السلم والنظام . وبقيننا أن الفوضى مهما اشتدت ليست إلا أمراً عارضاً مصيره إلى الزوال ، ثم يتوازن

الاضطراب آخر الأمر مع الطفليان ويتعادلان ، وحينئذ تُكتسح العوائق القديمة وتتمو البلاد نماءً حُرّاً جديداً . إن الثورة كالموت هي اكتساح الأقدار ، وبتر الذي لا نفع فيه ؛ وهي لا تقوم إلا إذا كان في البلد الذي تقوم به أشياء كثيرة في دور الاحتضار . ولقد ماتت الصين سراراً من قبل ، ثم عادت وولدت من جديد .

( انتهى )

## المراجع<sup>+</sup>

### الباب الثالث والعشرون

1. I am indebted for this quotation from the *Book of Rites* to Upton Close. Cf. Gowen and Hall, *Outline History of China*, 60; Hirth, F., *Ancient History of China*, 155.
- 1a. Reichwein, A., *China and Europe: Intellectual and Artistic Contacts in the Eighteenth century*, 92.
2. *Ibid.*, 89f; Voltaire, *Works*, New York, 1927, xii, 19.
3. Keyserling, *Creative Understanding*, 122, 203; *Travel Diary*, ii, 67, 58, 50, 57, 48, 68.
4. Lippert, 91; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 58.
5. Smith, A. H., *Chinese Characteristics*, 98.
6. Giles, H., *Gems of Chinese Literature Prose*, 119.
7. Williams, S. Wells, *Middle Kingdom*, i, 5; Brinkley, Capt. F., *China: Its History, Arts and Literature*, x, 3.
8. *Ibid.*, 2; Hall, J. W., *Eminent Asiaus*, 41.
10. Pitard, 897; Buxton, 158; Granet, *Chinese Civilization*, New York, 1930, 68; Latourelte, K. S., *The Chinese: Their History and Culture*, 35-6; *New York Times*, Feb, 15, 1933,
11. Lowie, 182; Fergusson, J., *History of Indian and Eastern Architecture*. ii, 468; Legendre, A. F., *Modern Chinese Civilization*, 234; Granet, 64.
12. *Ibid.*, 215, 280.
13. Gowen and Hall, 26-7.
14. Coulaucis (?) *Book of History*, rendered and compiled by W. G. Old, 20-1.
15. Giles, *Gems*, 72.
16. Hirth, 40.
17. *Ibid.*, 53-7.
18. Wilhelm. R., *Short History of Chinese Civilization*, 124; Cranet, 86.
19. *Ibid.*, 87.
20. Confucius, *Analects*, XIV, xviii, 2, in Legge, Jas, *Chinese Classics, Vol, 1: Life and Teachings of Confucius*.
21. Legge, 213n
22. Hirth, 107-8, Latourelte, i, 57, Gowen and Hall, 64; Schneider, H., ii, 796-8.
23. Cranen, 78.
23. Cranet, 78.
24. *Ibid.*, 32-3; Hu Shih, *Development of the Logical Method in Ancient China*, 22, Latourelte, ii, 52.
25. *Ibid*, 58-9; Granet, 87-8; Hirth,

(+) سنثبت اسم الكتاب كاملاً عند أول وروده في هذه القائمة ثم نكتفي بعد ذلك

بذكره مختصراً

- 110.
26. Giles, H.A., *History of Chinese Literature*, 5
27. *Book of Odes*, 1, x, 8, and xii, 10, in Hu Shih, Pt. 1, p. 4.
28. Cranmer-Byng, L., *The Book of Odes*, 51.
29. Tr. by Helen Waddell in Van Dorren, *Anthology of World Poetry*, 1.
30. In Yang Chu's *Garden of Pleasure*, 64.
31. Fenollosa E.F., *Epochs of Chinese and Japanese Art*, 14, Hirth, 59-62; Hu Shih, 28f; Suzuki, D. T., *Brief History of Early Chinese Philosophy*, 14; Murdoch, Jas., *History of Japan*, .iii, 108.
32. Hu Shih, 12
33. Legge, 75n.
34. In Hu Shih, 12.
35. *Ibid.*, 13.
36. *Ibid.*, 12.
37. Giles, *History*, 57; Legge, Jas., *The Text of Taoism*, i, 4-5.
38. Giles, *History*, 57, Giles *Gems*, 55.
39. Legge, *Texts of Taoism*, 1, 4f.
40. *Ibid.*, lxxxii, 3, 1, lxxv, 1-2.
41. In Suzuki, 81.
42. *Ibid.*, lvii, 2-3, lxxx, Parenthetical passages, in this and other quotations, are usually explanatory interpolations, nearly always of the translator.
43. Yang Chu, 16, 19, Schlender, ii, 810; Hu Shih, 14, Wilhelm, *Short History*, 247.
44. *Ibid.*, xvi 1-2.
45. *Ibid.*, xliii, 1; xlix, 2; lxi, 2, lxiii, 1, lxxviii, 1, lxxxii, 1, Giles, *History*, 73.
46. *Ibid.*, lxi, 2.
47. *Ibid.*, lvi, 1-2.
48. Granet, 55.
49. *Ibid.*, lvi, 2.
50. *Ibid.*, xvi, 1, 11, lvi, 3, Parmelee, 43.
51. Legge, *Texts of Taoism*, 34, *Life and Teachings of Confucius*, 64.
61. Legge, *Texts*, 84.
62. *Ibid.*
63. Szuma Ch'inn in Legge, *Life*, 53n.
64. *Ibid.*
65. Legge, *Life*, 55-8, Wilhelm, R., *Soul of China*, 104.
66. Hirth, 229.
67. *Analects*, VII, xiii,
68. VII, viii.
69. XV, xv.
70. VII, viii.
71. VII, xi,
72. VI, ii, XI, iii.
73. XVII, xvii, XIV, xvi.
74. Legge, *Life*, 65.
75. *Ibid.*, 79.
76. V, xxvii.
77. VII, xxxii.
78. XIII, x.
79. IX, iv.
80. VII, i.
81. IV, xiv.
82. Legge, *Life*, 67.
83. XII, xi
84. Legge, *Life*, 68.
85. *Ibid.*, 72.
86. *Ibid.*, 75.
87. IX, xvii.
88. Legge, 83.
89. *Ibid.*, 82.
90. XV, xviii.
91. *Ibid.*, iv.
92. Legge, 82.
93. Mencius. *Works of*, tr. by Legge, III, 1, iv, 13.

94. Wilhelm, *Short History*, 148,  
Legge, *Life*, 16.
95. *Ibid.*, 267, 27, Hu Shih, 4.
96. XV, 40.
97. II, xvii.
98. XIII, iii.
99. III, xiii, 2.
100. IX, xv.
101. Legge, *Life*, 101, Giles, *History*,  
83, Suzuki, 20.
102. Legge, 101.
103. XI, xi.
104. VI, 20.
106. VII, 20.
106. Giles, *History*, 69.
107. XV, ii.
108. *Great Learning*, 1,4-5, in Legge,  
*Life*, 266. I have ventured to  
change "illustrate illustrious  
virtue" in Legge's translation,  
to "illustrate the highest virtue",  
and the words "own selves"  
have been substituted for  
"Persons," since "the cultivation  
of the person" has now a mis-  
leading connotation.
109. XIV, xiv.
110. XV, xxxi, II, xiv, XIII, iii, 7.
111. VI, xvi.
112. *Doctrine of the Mean*, XII, 4, in  
Legge.
113. *Analects*, II, xii.
114. *Doctrine of the Mean*, XIV, 5.
115. XV, xviii-xx.
116. XIV, xxix, XI, xiii, 3, *D. of M.*,  
XXXIII, 2.
117. *Ibid.*, XI, 8.
118. *Li-chi*, XVII, i, 11-2.
119. Spinoza, *Ethics*, Bk. III, Prop.  
59.
120. *D. of M.*, XXI, tr. by Suzuki,  
64.
121. Suzuki, 68.
122. *Analects*, XII, ii, V, xvi.
123. XV, xxiii.
124. XIV, xxxvi, 1-2.
- 124a. IV, xvii.
- 124b. XII, vi.
125. XIII, xxiii.
126. *D. of M.*, XIV, 3.
127. IV, xxiv, V, iii, 2, XVII, vi, XV,  
xxi.
128. V, xvi, XVI, iii, 5.
129. XVI, 10.
130. i, ii, 2, Legge, *Life*, 106.
131. IV, xviii, *Li-Chi*, XII, 'i. 15,  
Brown, B., *Story of Confucius*,  
183.
132. *Great Learning*, X, 5.
133. *Analects*, XII, vii.
134. XII, xix, II, ii, xx.
135. XII, xxiii, 3.
136. *D. of M.*, XX, 4.
137. *Analects*, XIII, x-xii.
138. *Great Learning*, X, 9.
139. *Analects*, XI, xix, XV, xxxviii.
140. *Li-chi*, XVII, i, 28, iii, 23, Brown,  
*Story of Confucius*, 181.
141. *Analects*, XX, iii, 3.
142. *Li-Chi*, XXVII, 33, XXIII, 7-8.
143. *Ibid.*, VII, i, 2-3, quoted in  
Dowson, *Ethics of Confucius*,  
299, from Chen Heang-chang,  
*The Economic Principles of Cou-  
fucius and School*.
144. Latourette, i, 80-1.
145. Legge, *Life*, 106.
146. *D. of M.*, XXX-XXXI.
147. Hu Shih, 109, f.
148. Hirth, 807.
149. Mencius, VII, i, 26, in Hu Shih,  
58.
150. Hu Shih, 72.
151. *Ibid.*, 57, 75, Latourette, i, 78.



152. In Hirth, 281.  
 153. Hu Shih, 69-70.  
 154. Thomas, E. D., *Chinese political Thought*, 29-30.  
 155. Hu Shih, 58.  
 156. Mencius, *Introd.*, 111.  
 157. Wilhelm *Short History*, 150, Hu Shih 110.  
 158. Hu Shih, 62.  
 159. Mencius, *Introd.*, 98.  
 160. Yang Chu, 10, 51, Latourette, i, 80.  
 161. Mencius, *Introd.*, 96, Yang Chu, 57.  
 162. Mencius, *Introd.*, 96-8.  
 163. Hirth, 27-9.  
 164. Mencius, III, ii, 9.  
 165. Mencius, *Introd.*, 14-18.  
 166. *Ibid.*, 42.  
 167. *Ibid.*, I, ii 3, ii, 5: pp. 156, 162.  
 168. *Ibid.*, 12.  
 169. VI, 1, 2.  
 170. I, i, 7.  
 171. III, i, 3.  
 172. I, i, 3.  
 173. II, i, 5.  
 174. Thomas, E.D., 87, Williams, S. Wells, i, 670.  
 175. IV, ii, 19.  
 176. Mencius, *Introd.*, 30-1.  
 177. VI, ii, 4.  
 178. VII, ii, 4.  
 179. Quoted in Thomas, E. D., 87.  
 180. I, i, 8.  
 181. II, ii, 4.  
 182. VII, ii, 14.  
 183. V, ii, 9, I, ii, 6-8.  
 184. Mencius, *Introd.*, 84.  
 185. *Ibid.*, 79-80.  
 186. *Ibid.*, 86.  
 187. In Hu Shih, 152.  
 188. Legge, *Texts of Taoism*, V, 5.  
 189. *Ibid.*, *Introd.*, 37.  
 190. XVII, 11.  
 191. I Thomas, E. D., 100.  
 192. XI, 1.  
 193. XVI, 2, IX, 2.  
 194. XII, 11.  
 195. XII, 2.  
 196. II, 2, XX, 7, Giles, *Gems*, 32.  
 197. II, 7, XXII, 5.  
 198. VI, 7.  
 199. In Suzuki, 86.  
 200. XVII, 4, Hu Shih, 146.  
 201. XVIII, 6.  
 202. II, 11, tr. by Giles, *History* 43  
 203. VI, 10, tr. by Suzuki, 181-2.  
 204. In Giles, *History*, 68.  
 205. In Reichwein 791.  
 206. *Ibid.*  
 207. *Ibid.*, 84.  
 208. Wilhelm, *Soul of China*, 233.  
 209. Thomas, E.D., 25.  
 210. Voltaire, *Works*, iv, 82.  
 211. Reichwein, 181, Hirth, xii.

### الباب الرابع والعشرون

1. Giles, *Gems*, 33.  
 2. Granet, 87, Owen and Hall, 84, Giles, *History*, 78.  
 3. Granet, 41.  
 4. Voltaire, *Works*, iv, 82.  
 5. Granet, 87, 97-8, 101-3, Boulger, D. C., *History of China*, i, 68-70 Wilhelm, *Short History*, 157.  
 6. Boulger, i, 71.  
 7. Granet, 88.

- 8 *ibid.*
9. *ibid.*, 103; Schneider ii, 790; Wilhelm, *Short History*, 160-1; Lautourette i, 96.
10. Gowen and Hall, 84f, Giles, *History*, 78.
11. Hall J. W., *Emu nt Aslans*, 6.
12. Boulger, i, 64.
13. *ibid.*, 62, Latourette, i, 99.
14. Granet; 38-40, Boulger i, 77. Giles in (Gowen) & H (all), 92.
15. Boulger, i, 106, Granet, 44.
16. Szuma Ch'ien in Granet, 113.
17. *ibid.*
18. Granet, 112-3.
19. *ibid.*, 118.
20. Fenollosa, i, 77.
21. Walley, Arther *Introduction to the Study of chinese Painting*, 27, O.H. 102.
22. Granet, 113-5.
23. Wilhelm, *Short History*, 186, 194.
24. Lautourette, i, 121.
25. *ibid.*, 120-2.
26. *ibid.*, 122.
27. G & H, 118.
28. *ibid.*, 117-21.
29. Fenollosa, i, 117.
30. Voltaire, *Works*, xiii, 26.
31. Tu Fu, *Poems*, tr. by Edna W. Underwood, xli
32. Li-Po, *Works*, done into English Verse by Shigeoyoshi Obata, 91.
33. Tu Fu, xlvii.
34. In Li-Po. 1.
35. In Tu Fu, xii.
36. Murdoch, *History of Japan*, i, 146.
37. Waley. *Chinese Painting*, 142.
38. *ibid.*, 97.
39. William, *Short History*, 224.
40. Williams, S. Wells, i, 696f.
41. Li-Po, 20.
42. *ibid.*, 95.
43. *ibid.*, 30.
44. Williams, S. Wells, i, 697.
45. Li-Po, 31.
46. G & H, 113.
47. Li-Po, 100.
48. *ibid.*, 84.
49. 138.
50. 191.
51. 71.
52. 55.
53. *ibid.*, ii.
54. *ibid.*,
55. *ibid.*, 25.
56. Giles, *History*, 60.
57. Translations by Arthur Waley Amy Lowell and Florence Ayscough, in Van Deren, *Anthology*, 18-20.
58. Waley, Arthur, 170 *Chinese Poems*, 106-8.
59. *ibid.*, 126.
60. *ibid.*, 168.
61. In Van Doren, 24.
62. Giles, *History*, 156; Ayscough, Florence, *Tu Fu: The Autobiography of a Chinese Poet.*, 105.
63. *ibid.*, 75.
64. Tu Fu, *Poems*, 118, 184, 154.
65. *ibid.*, 95,
66. 30, 7, 132.
67. 137.
68. 72, 133, and introd.
69. Williams, S. Wells, i, 602,
70. Giles, *History*, 276.
71. *ibid.*, 102.
72. *ibid.*
73. Thomas, E. D., 5.
74. Giles, *History*, 224.
75. *ibid.*, 160.
76. G & H, 156.
77. Wilhelm, *Short History*, 256; Giles,

- History*, 258,  
78. William, S. Wells, (i, 820 ;  
Latourette, ii, 220.  
79. *ibid.*,  
80. William, 141.  
81. Pratt, *History of Music*, 82-5.  
82. Olles, *Gems*, 117.

الباب الخامس والعشرون

1. O & H, 142.
2. *Ibid.*, 141.
3. *Ibid.*, 140-3 ; Latourette, i, 252-7 ;  
Wilhelm, 237-8 ; Murdoch, iii,  
106 ; Fenolosa, ii, ii, 33, 57.
4. O & H, 133, quoting Walter T.  
Swingle, Librarian of the U.S.  
Dept. of Agriculture.
5. Carter, *Invention of printing* 2.
6. *Ibid.*, 3.
7. *Ibid.*, 96.
8. Sarton, 369.
9. Carter ; 25.
10. *Ibid.*, 145 ; Sarton, 512.
11. Carter, 41.
12. *Ibid.*, 43, 183.
13. O & H, 133.
14. Carter, 250.
15. *Ibid.*, 178, 171.
16. *Ibid.* 177-8 ; Sarton, 663.
17. *Ibid.* ; O & H, 164 ; Giles, *History*  
296.
18. Chu Hai, *Philosophy of Human*  
*Nature*, 75 ; Bryan, J. J , *Literature*  
*of Japan*, 122 ; Latourtte, i,  
262-3 ; Williams, S. Wells, i, 683 ;  
Wilhelm, *Short History*, 249-50,  
Aston, W.G., *History of Japanese*  
*Literature*, 226-7.
19. Chu Hai, 68.
20. Wilhelm, 2249-50.
21. Wang Yang-ming, *Philosophy* tr.  
by Frank, G. Henke, 117-8.
22. Armstrong, R.C., *Light from the*  
*East : Studies in Japanese Confu-*  
*clanism*, 121, Brinkley, Capt. F.,  
*Japan : Its History, Arts and*  
*Literature*, iv, 125.
23. Wang Yang-Ming, 8, 12, 50, 59.
24. Brinkely, *Japan*, iv, 125.
25. Wang Yang - Ming, 106, 52.
26. *Ibid.*, 115-6.
27. Hobson, R. L., *Chinese Art*, 14.
28. *Encyc. Brit.*, xiii, 575.
29. Cf. the imperial marriage table  
in Hobson, R.L., Pl. LXXXIII.
30. *Ibid.*, XCI.
31. Illustrated in *Encyc. Brit.*, xiii, f.  
p. 576.
32. Ferguson. J. C, *Outlines of*  
*Chinese Art*, 67.
33. Hobson, R. L., LXXXVIII.
34. *Ibid.*, LXXVII, 1.
35. Lorenz, *Round the World Traveler*,  
197.
36. *Encyc. Brit.*, xii, 864.
37. Fry, R.E., *Chinese Art*, 81, Oranet,  
37, *Encyc. Brit.*, iv, 245.
38. *Chinese Art*, 33.
39. Fischer, Otto, 374.
40. *Encyc. Brit.*, Pl. XIV, f. p. 246,  
collection of Mr. Warren E. Cox.
41. *Chinese Art*, 47.
42. Faure, *History, of Art*, ii, 55.
43. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 581.
44. Siren, O, in *Encyc. Brit.*, v, 581,  
*Chinese Art*, 48.
45. Stein, Sir Aurel, *Innermost Asia*,

- Vol. i, Plates VIII, XI, XIX and XXIV.
46. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 586, Plate X, 2, Fischer, 866.
47. *Encyc. Brit.*, v, f. p. 584, Pl. VI, 4 $\frac{1}{2}$ .
48. *Ibid.*, f. p. 585, Pl. VIII, 2.
49. *Ibid.*, f. p. 586. Pl. XI 2 and 3.
40. Fergusson, Jas., *History of Indian and Eastern Architecture*, II, 454.
51. Fergusson, Jas., in William, S. Wells, I, 727.
52. Cf the decorative design reproduced in Steinhilber, A., *Innermost Asia*, Vol. III, Pl. XXV, and the patiently carved and ornamental ceiling shown in Pelliot, Vol. IV Pl. CCXXV.
53. Fergusson, op. cit., II, 464.
54. Coomarswamy, *History*, 152.
55. Williams, S. Wells, I, 744.
56. Lorenz, 203.
57. Cook's, *Guide to Peking*, 28, 30.
58. Fergusson, II, 481.
59. Legendre, 79.
60. *Ibid.*, 166.
61. Smith, *Chinese Characteristics*, 131.
62. Waley, *Chinese Painting*, 69-70.
63. Siren Oswald, *Chinese Paintings in American Collections*, I, 36.
64. Giles, H. A., *Introduction to the History of Chinese Pictorial Art*, 2.
65. Wilhelm, *Short History*, 38.
66. Giles, *Pictorial Art*, 3.
67. *Ibid.*, Waley, *Chinese Painting*, 32.
68. Fenollosa, II, p. xxx.
69. Wally, *Chinese Painting*, 45.
70. *Encyc. Brit.*, art. on "Chinese Painting." Pl. II, 6.
71. Fischer, 325-31.
72. Waley, 49.
73. *Ibid.*, 51.
74. Giles, *Pictorial Art*, 21.
75. Tu Fu, 97, cf. 175 and 187.
76. Giles, *Pictorial Art*, 79.
77. Wilhelm, 244.
78. Waley, 183.
79. Fenollosa, I, f. p. 120, Fischer, 490.
80. *Ibid.* 424.
81. Giles, 47-8.
82. *Ibid.*, 50, Binyon, LI, *Flight of the Dragon*, 43.
83. Giles, 47.
84. Croce, Benedetto, *Esthetic*, 60.
85. in Waley, 119.
86. Binyon, 111.
87. Siren, I, Plates 5-8 *Encyc. Brit.*, "Chinese Painting," Pl. II, 4.
88. Fenollosa, II, 27.
89. Waley, 177.
90. G & H, 146.
91. A Chinese writer in Giles, *Pictorial Art*, 115.
92. Fischer, 492.
93. E, g., Fenollosa, II, 42.
95. *Ibid.*, 62.
96. Gulland, W. G., *Chinese Porcelain*, I, 16.
97. *Chinese Art*, 11.
98. *Ibid.*, 2.
99. Hsieh Ho in Coomaraswamy, *Dance of Siva*, 43.
100. Binyon, 65-8, *China Art*, 47.
101. In Okakura-Kakuso, *The Book of Tea*, 108.
102. Gulland, I, 3.
103. *Encyc. Brit.*, xviii, 361.
104. *Ibid.*, Legendre, 283.
105. *Encyc. Brit.*, xviii, 362, Carter, 93.

106. *Ibid.*, 1 c.  
107. Brinkley, *China*, ix, 299.  
108. *Ibid.*, 62.  
109. *Ibid.*, 87, Gulland, 139.  
110. Brinkley, 76.  
111. G & H, 165.  
112. Brinkley, *China*, ix, 256.  
113. *Encyc. Brit.*, viii, 419.  
114. Brinkley, *China in*, 210, 215.  
115. *Ibid.*, 376, 554, *Encyc., Brit.*, art. "Ceramics".

الباب السادس والعشرون

1. polo, *Travels*, 78, 188.  
2. *Ibid.*, v-vii, a perfect introduction, to which the present account is much indebted.  
3. Polo, 232-4.  
4. 152.  
5. 129.  
6. G & H, 135f.  
7. Giles, *History*, 248-9.  
8. Polo, 172.  
9. Giles, 147.  
10. Polo, 158.  
11. *Ibid.*, 125.  
12. 149.  
13. P. xxiv of Komroff's introduction.  
14. G & H, 172.  
15. *Ibid.*  
16. Latourette, i, 380, Wilhelm, *Short History*, 260, G & H, 195, Giles, *History*, 291, Gulland, W. G., ii, 288.  
17. G & H, 209.  
18. *Ibid.*, 227.  
19. Quoted in Parmelec, 218, and in Bisland, Elizabeth *Three Wise Men of the East*, 125.  
20. Wilhelm, 204, Latourette, i, 208, G & H, 286, Brinkley, *China*, x, 4.  
21. Latourette, i, 289.  
22. Brinkley, *I.c.*, 12.  
23. Williams, S. Wells, i, 770.  
24. *Ibid.*, 762.  
25. Wilhelm in Keyserling, *Book of Marriage*, 133, Waley, *Chinese Painting*, 165.  
26. Legendre, 23.  
27. *Ibid.*, 75, Park, No Yong, *Making a New China*, 123.  
28. Smith, *Chinese, Characteristics*, 127.  
29. Polo, 286.  
30. Pitkin. *Short Introduction*, 182.  
31. Wilhelm, *Short History*, 64.  
32. Mason, *Art of Writing*, 154-76.  
33. Legendre, 76, 113.  
34. Okakura, 3, 36.  
35. Granet, 144-5.  
36. Legendre, 114.  
37. Wilhelm, *Soul of China*, 389.  
38. Smith, *Characteristics*, 21, Park, No Yong, 123, Legendre, 86, Williams, S. Wells, i, 775-80.  
39. Latourette, i, 275.  
40. Park, 121, Smith, *Characteristics*, 19.  
41. Eudy, Sherwood, *Challenge of the East*, 81.  
42. Giles, *Gems*, 285.  
43. Murdoch, iii, 267.  
44. Sartou, 452.  
45. National Geographical Magazine, April, 1932, p. 611.  
46. Sumner and Keller, iii, 2096.

49. Wilhelm, *Short History*, 134, Wilhelm, *Soul of China*, 861-2, G & H, 59.
50. Poio, 286.
51. Pefier, N., *China: the Collapse of a Civilization*, 25-32, Parmeice, 101, Legendre, 57.
52. Williams, S. Wells, i, 413, Wilhelm, *Short History*, 11.
53. Park, 86, G & H, 290.
54. Park, 67.
55. Latourette, ii, 206, G & H, 2-3.
56. Renard, 161.
57. Park, 92.
58. Summer, *Folkways*, 153, Latourette, i, 63.
59. *Ibid.*, 262.
60. Polo, 159, Carter, 77.
61. Carter, 92.
62. Hirth, 126f.
63. *Ibid.*,
64. Darter, 93.
65. Polo, 170n.
66. Legendre, 107-10.
67. Sartou, 871, 676, Schneider, ii, 860.
68. Sartou, 183, 410.
69. Waley, *Chinese Painting*, 30.
70. Schneider, ii, 837.
71. Voltaire, *Works*, iv, 82, Hirth, 119, Wilhelm, *Soul*, 306.
72. Garrison, 73, Schneider, ii, 859, Sarion, 810, 825, 842.
73. *Ibid.*, 436, 481, Garrison, 73.
74. Latourette, 813, Garrison, 75.
75. Williams, S. Wells, 785, Legendre, 56.
76. Wilhelm *Short History*, 79, 81; Smith, *Characteristics*, 290, 297; Spengler, O., *Decline of the West*, ii, 286, Granet, 163, Latourette, ii, 163-5.
77. Smith, *Characteristics*, 392, Suzuki, 47, 112, 139, Wilhelm, *Short History*, 69.
78. Hirth, 81.
79. *Ibid.*, 118, Smith, 164, 331.
80. Garnet, 321.
81. Wilhelm, *Soul*, 125.
82. Legge, *Tests of Taoism*, i, 41.
83. Suzuki, 72, Wilhelm, *Short History*, 248.
84. Waley, *Chinese Planting*, 28.
85. Potter, Chas, F. *History of Religion*, 198.
86. Wilhelm, *Soul*, 857, Murnoch, iii, 104, Waley, 38-4, 79, Sartou, 470, Latourette, i, 171, 1214, ii, 164-5, G & H, 104, Schneider, ii, 803.
87. Smith, *Characteristics*, 89, Latourette, ii, 129, Parmelee, 81.
88. Smith, 304, Legendre, 191.
89. Wilhelm, *Short History*, 234, Lorenz, 202.
90. G & H, 113, 527.
91. Fenollosa, ii, 149.
92. Voltaire. *Works*, xliii, 29.
93. Quoted by Wilhelm in Keyserling: *Book of Marriage*, 137.
94. Mencius, IV, I, 26.
95. Latourette, ii, 197, Garnet, 321, Williams, S. Wells, i, 836, Legendre, 26.
96. Wilhelm, in Keyserling, 137. Wilhelm, *Soul*, 22, Wilhelm, *Short History*, 104, Smith, 213, 7.
97. Granet, 245, Williams, S. Wells, i, 836, Westermarck, *Moral Ideas*, i, 462, Ellis, H., *Studies in the Psychology of Sex*, vol. II, *Sexual Inversion*, 6f.
98. Briffault, iii, 846.

99. *Ibid.*, Wilhelm in Keyserling, 126.
100. Williams, S. Wells, i, 834.
101. Brinkley, *China*, x, 101.
102. Polo, 184, 152, 235.
103. Parmelee, 182; Briffault, ii, 333.
104. Li-Po, 152.
105. Waley, 170 *Chinese Poems*, 19; Keyserling, *Travel Diary*, ii, 97.
106. Hirih, 116.
107. Williams, S. Wells, 785.
108. *ibid.*, 787-90.
109. Wilhelm, in Keyserling, *Book of Marriage*, 134.
110. Briffault, ii, 263.
111. Williams, S. Wells i, 407-8.
112. Park, 133.
113. Wilhelm, *Short History*, 59; Wilhelm, in Keyserling, 128; Briffault, i, 362f.
114. Thomas, E.D., 134; Briffault, i, 368.
115. Granet, 43.
116. Briffault, ii, ii, 331.
117. Granmer - Byng, *The Book of Odes* 11; Olls, *History*, 108, 274,
118. Smith, 194, Sumner and Keller, iii, 1754, Legendre, 18.
119. *Li-Chi*, IX, iii, 7; Smith, 215; Sumner and Keller, ii, 1844.
120. In Briffault, ii, 331.
121. Waley, 170 *Chinese Poems*, 94.
122. Armstrong, 56.
123. Williams, S. Wells, i, 825.
124. Westermark, *Moral Ideas*, i, 89. Keyserling, *Travel Diary*, ii, 65, Smith, 192, Legendre, 122.
125. Wilhelm, *Soul*, 309.
126. Voltaire, *Works*, xiii, 19.
127. Brinkley, *China*, x, 37, 44, 49.
128. Smith, 225.
129. Thomas, E. D., 236, Williams, S. Wells, i, 504, Latourette, ii, 46.
130. Garrison, 75.
131. Williams, i, 391-2, Latourette, ii, 46.
132. Williams, ii, 512, Hirih, 125, Wilhelm, *Soul*, 19.
133. Brinkley, i.c., 3.
134. *ibid.*, 78.
136. *Ibid.*, 92.
137. Williams, i, 544.
138. Legendre, 158, Hall, J. W., *Eminent Asiatics*, 35.
139. Williams, i, 569.
140. Latourette ii, 21; Brinkley, *China*, x, 86.

### الباب السابع والعشرون

1. Latourette, i, 313.
2. Lorenz, 248.
3. Latourette, i, 314.
4. Lorenz, 248, G & H, 233.
5. Norton, H. K., *China and the Powers*, 55, Latourette, i, 367, Poffer, 57,
6. Latourette, i, 376, Norton, 56.
7. Park, 149.
8. Peffer, 88f, Latourette, i, 413.
9. G & H, 306.
10. Hall, *Eminent Asians*, 17, Peffer, 151.
11. Latourette, i, 411.

12. Hall, 33.
13. Peffer, 98
14. G & H, 814.
15. N.Y. Times, Feb, 11, 1934.
16. Eddy, *Challenge of the East*, 78.
18. Park, 86.
19. Latourette, ii, 93-6.
20. Eddy, 74.
21. Park, 89.
22. Eddy, 89.
23. Peffer, 241.
24. Peffer, 251.
25. *Modern Review*, Calcutta, May 1, 1931.
26. Peffer, 185.
27. Latourette, ii, 174.
29. Ibid., 176.
30. Parmelee 94.
31. Park, 135, Lorenz, 192.
32. Wu, Chao-chu, *The Nationalist Program for China*, 28.
33. Legendre, 240.
34. Park, 114.
35. Close, Upton, *Revolt of Asia*, 245.
36. Lorenz, 250.
38. Hu Shih, 8.
39. Ibid., 7



# فهرس الأعلام

\* هذه العلامة تدل على أن الاسم في هامش الصفحة  
إذا لم يذكر لفظ قبل الميلاد مع التاريخ فعنى هذا أنه بعد الميلاد

٥٨ ، ٣٤ : ( ١٦٧٧ - ١٦٣٢ )  
أستراليا : ٣٠٦  
استر تدبرج ، أوغست ، الأديب والكاتب  
المسرحى السويدى ( ١٨٤٩ - ١٩١٢ ) :  
١٥  
الأسرة ، نظامها عند الصينيين : ٢٦٥ ،  
٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ،  
٣١٣  
« الأسرة المقدسة » لرفائيل : ٢١٦  
الإسكندر الأكبر : ١٠١  
الإسلام فى الصين : ٢٦٣  
آسية وأسيويون : ٩ ، ١١ ، ١٥٤ ، ٢٢٣ ،  
٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٥١ ، ٣١٣ ، ٣١٧  
اشتين ، سبر أورل : ١٥٣ ، ١٧٧  
أشور : ١١  
أصباغ التجميل : ٢٣٣  
الأغانى الغربية : ١٤٦  
أغسطس ، كيوس قيصر . يوليوس  
أكتافيانوس ( إمبراطور الرومان ) ٣١  
ق.م - ١٤ : ٢٠١  
أفلاطون : ٢٨٢  
الأقباط : ٢٣٦  
الإقطاع : ١٩٠ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٩٩ ، ١٣٨  
٢٧٢  
أكبر ، إمبراطور المنغول : ١١٠  
الأكروبول : ١٨٧

( ١ )

أپانيشاد : ١٦٠ ، ٨٩  
إيسن : ٩٢  
أبقراط الطبيب اليونانى ( ٤٦٠ - ٣٧٥  
ق.م ) : ٢٥٣ ، ٢٥٥  
ابن السماء : ٢١  
أبواب الجنة : ١٧٣  
اتحادات العمال : ٣٠٩ ، ٣١٠  
الأثاث عند الصينيين : ١٦٨ ، ٣١١  
أثينة : ٧٠ ، ١١  
أجور العمال فى الصين : ٣٠٨ ، ٣٠٩  
الأحاديث والمحاورات : ٥٠  
الأخلاق عند الصينيين : ٢٧٤ وما بعدها  
إخوة كرموف : ١٣٦  
الأدب الصينى : ٢٠٤ ، ٢٥ ، ٤٩ ، ٥١ ،  
١١٥ - ١٤٦ ، ٣١٦  
الأراضى الوطنيه : ٢٠٣  
أرستوجتون الوطنى الأثينى ( حوالى ٥٢٥  
ق.م ) : ٢١  
أرسطو الفيلسوف اليونانى ( ٣٨٤ - ٣٢٢  
ق.م ) : ٥٩ ، ١٦٠ ، ٣١١  
أرفيه ، أثوريه دورفيه ، الكاتب الفرنسى  
( ١٥٦٨ - ١٦٢٦ ) : \*٢١٠  
الأزلية ، الثقافة : ١٣٢  
أسانيا : ١١ ، ١٧١ ، ٢٥١ ، ٢٨٩  
سبنوزا ، بارونج الفيلسوف اليهودى

٢٢٩ . ( ١٦٥٨ - ١٧٠٧ )  
أوس سوري (هر) . ٢٩١  
أوكنن ، دانيل ، الخطيب ، والسياسي الأورلندي  
( ١٧٧٥ - ١٨١٧ ) : ٦٢  
إي جيج : ٢٧ ، ٢٦٠  
إيطاليا . ٩٨ ، ١٧٧ ، ٣١٦ ، ٣١٧  
إيمالا كيرقي : ١٩٢

( ب )

بابل : ٢١١  
البيات الممسوح . ٢٩٣ ، ٣١٧  
الپامير : ٢١٩  
بان چاو العالمه الصينيه : ٢٧٢  
بان جو أوكو آدم الصينيين : ١٤  
بان جو المؤرخ الصيني : ( حوالى ١٠٠ م )  
٢٧٢  
بان هو بان العالمه الصينيه . ٢٧٣  
باى القائد الصيني (حوالى ٧٠٠ م) . ١٩٧  
باى هو : ٣١٦١ ق.م  
بتشيل أوبيجيل ، خليج : ١٢  
بحودا : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣  
البحر المتوسط : ٧٠  
البحر الأسود : ٢٢٧  
البحر الأصفر : ١٢  
البرتغال والبرتغاليون . ٢٨٩  
برسوليس (المدائن) : ١٨٧  
بركلين السياسي الأثيني : ( ٤٩٩ - ٤٢٩ )  
ق م : ٢٠١ ، ٢٥٢  
برلين : ٩٤  
برنكي ، فرانك : ٢٩٦  
البرونستنت والبرونستنتية : ٢٩١  
برودين ، ميجائيل القائد الروسي السوفيتي  
٣٠٣ ، ٣٠٩  
بروفن ، حوده ، من شعراء العصور  
الوسطى ( حوالى ١١٩٠ م ) . ٢٥١  
بسنير ، لوى ، العالم الفرنسي ( ١٨٢٢ -  
١٨٩٥ ) : ٢٥٥

أكويناس ، الصديس تومس ، الإيطالى :  
١٦٠ ، ١٦٤  
ألمانيا . ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،  
٣٠٤  
الإمبراطورة الوالدة ، دزوتشى ٢٧١ ،  
٢٩٩ ، ٣٠٠  
الأمتهان للوظائف المدنيه . ١٤٩ ، ٢٨٢  
وما بعدها ، ٣٠٠  
أمريكا : ١٠ ، ١٧١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ،  
٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ،  
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩  
أموى : ٢٩٠  
أميتها حاكم الجسه عند الصينيين : ٢٦١  
أميدا . ١٧٣  
أنام : ١٠٤ ، ٢٢٩  
الانتهار عند الصينيين : ٢٠ ، ٢١  
إنجلترا . ٢٣٠ ، ٢٤٤ \* ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ،  
٢٩٧ ، ٣١٠  
الإنجيز : ٢٢٠ ، ٢٩٠  
أدرسن (جون) : ١٣ ، ٢٩٠  
أندروز ، روى تشايس : ١٣  
إنسان بيكين : ١٣  
الإنسانيات . ١٥٨  
الانقلابات فى الحضارة ( كتاب ) ١٠٩ \*  
آن لو - شان ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ،  
١٢١ ، ١٢٤ ، ١٤٧  
أنو : ١٤ ، ٢٠٩  
أوربا : ١٠ ، ١١ ، ١٤ ، ١٤٦ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ،  
١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٥٣ ، ١١٠  
١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧١ ،  
١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ،  
٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٤ \* ،  
٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٦٣ ، ٢٨٨ ،  
٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ،  
٣١٤ ، ٣١٧  
أورنجيب أو أورنجيب إمبراطور المنغول

بيان دزاي : ٢٨٩  
 بيان ليانج ( كاي فنج ) : ٢٥٣  
 پيچنج انظر پيچنج ويكينج ويكيين  
 پيتري ، سيروليم فنلدرز ، عالم الآثار : ١٠٩ \*  
 في شنج المصور الصينى ( حوالى ١٠٤٢ ) :  
 ١٥٧  
 في كان : ١٨  
 بيكن ، روجر : ٢٥٢  
 بيكن فرئيس فيكونت سنت أولينر  
 الفيلسوف والسيساي الإنجليزية : ( ١٥٦١ -  
 ١٦٢٦ ) : ٨٦ ، ١٩٣ \*

### ( ت )

التاريخ عند الصينيين . ١٣٧ وما بعدها  
 تاريخ الفلسفة الصينية : ٨٢١  
 تاكي زوجة چوسين ( حوالى ١١٣٥ ) : ١٨  
 تانج ، أسرة : ٩٦ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ \*  
 ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ،  
 ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ،  
 ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ،  
 ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤  
 تانجوت : ٢١٩  
 تانيس الحيوان : ٢٥  
 تاي پنج ، فتية : ١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٩١  
 ٢٩٢  
 تاي چي ، الحقيقة المطلقة : ٢٦١  
 تاي دزو الإمبراطور ( ٩٦٠ - ٩٧٦ ) :  
 ١٤٧  
 تاي دزونج الإمبراطور ( ٦٢٨ - ٦٥٠ ) :  
 ٦٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١٨٩ ، ٢٦٤  
 تاي دزونج الإمبراطور من أسرة سونج  
 ( ٩٧٦ - ٩٩٨ ) : ١٥٩  
 تاي دزونج إمبراطور كوريا ( القرن الخامس  
 عشر ) : ١٥٧  
 تاي شان ، الجبل المقدس : ٢٦٢

بسطن ، متحف الفن الجميل . ١٧٦  
 بسكال ، بليز ، الفيلسوف والعالم الرياضى  
 الفرنسى ( ١٦٢٣ - ١٦٦٢ ) : ٧١  
 بسمرك ، شوتهوزن أتو إدورد ليوپولد ،  
 الأمير فن بسمرك السيساي الروسى : ٨٦ ، ٩٨  
 بطرس الأكبر قيصر روسيا ( ١٦٨٢ -  
 ١٧٢٥ ) . ١١ ، ٩٤  
 بولديه . ٢١٩  
 بليخ . ٢١٩  
 بسترينا ، جيوفنى بيير لوجي دا ، الملحن  
 الإيطالى ( ١٥٢٤ - ١٥٩٤ ) . ١٤٥  
 البلقان ١١٠  
 بليوت ، ب : ١٧٧  
 بنارس . ٧٠٠  
 بينج هوانج : ١٣١  
 البندقية . ١١ ، ٢٠٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ،  
 ٢٢٧ ، ٢٣٢  
 پو ، إدجر أن ، الأديب الأمريكى ( ١٨٠٩ -  
 ١٨٤٩ ) : ١٩٦  
 پوچوى ، الشاعر السيساي الصينى ( ٧٢٢ -  
 ٨٤٦ ) : ١٣٠ ، ١٣٥  
 بوذا . ٨٩٠ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٧٧ ،  
 ١٨٠ ، ١٩٦ ، ٢٦٢  
 البوذية : ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٩ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ،  
 ١٥٨ ، ١٥٨ \* ، ١٥٩ ، ١٦٠ ،  
 ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ،  
 ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،  
 ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣١١  
 البوصلة البحرية : ٢٥١  
 بولو ، ماركو ، الرحالة البندقى ( ١٢٥٤ -  
 ١٣٢٤ ) . ١٥٦ ، ١٨٣ ، ٢١٩ ،  
 ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ \* ، ٢٢٨ ،  
 ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٦٧  
 چوي ، كانج ده إمبراطور منشوكو وآخر  
 أباطرة الصين ( ولد عام ١٩٠٦ ) . ٣٠٠ ،  
 ٣٠١ ، ٣٠٤

تشو بنج الشاعر الصيني ( المتوفى حوالى ۳۵۰ ق . م ) : ۹۶  
 تشوفو ، ۴۰۰ ، ۱۹۳ \*  
 تشى ، دوق ( حوالى ۵۲۰ ) : ۴۵  
 تشى ، ولاية : ۱۹ ، ۲۰ ، ۴۵ ، ۴۶ ،  
 ۴۷ ، ۷۴ ، ۷۹ ، ۸۱ ، ۹۷ ، ۲۶۷  
 تشين ، أسرة . ۱۰۳  
 تشين ، الملكة والدة شى هوانج دى . ۱۰۰  
 تشين ، ولاية : ۱۹ ، ۸۱ ، ۹۷ ، ۱۹۱ ،  
 تشين لونج : ۱۴۴ ، ۱۶۳ ، ۱۷۰ ، ۲۱۴  
 تعدد الزوجات فى الصين ۲۷۰ - ۲۷۱ ،  
 ۳۱۴  
 التعديل فى الصين : ۲۲ ، ۲۵۲  
 التعذيب فى الصين : ۲۷۹ - ۲۸۰  
 التعليم الأكبر : ۵۱  
 التعليم فى الصين : ۲۷۲ ، ۲۸۲ وما بعدها ،  
 ۲۹۵ ، ۳۰۰ ، ۳۱۴ ، ۳۱۵  
 التقييم عند الصينيين : ۲۵۳  
 التماثل الأعظم : ۶۳  
 التمثيل عند الصينيين : ۱۴۲ وما بعدها  
 تم جواز : ۱۳۷  
 تنج پو : ۲۹۰  
 تنج درونج : ۲۲۳  
 تنج سى سقراط الصين . ۲۶ ، ۲۹ ، ۳۰  
 تنجوت . ۲۱۹  
 تولستوى ، الكونت ليو يقولايفتش  
 الكاتب والمصاح الروسى ( ۱۸۲۸ -  
 ۱۹۱۰ ) : ۹۵  
 تومس ، إلبرت : ۹۴ \*  
 تونج چو : ۱۹۱  
 تونج جى چانج : ۱۹۵  
 تون شاو : ۲۹۶ \*  
 تون هوانج : ۱۵۵

التبت : ۲۲۹ ، ۲۸۱  
 التتار : ۱۰۷ ، ۱۰۸ ، ۱۹۴ ، ۱۹۸ ،  
 ۲۳۴ ، ۲۲۶  
 التجارة الخارجية الصينية . ۲۴۸ وما بعدها  
 ترجميف ، إيشان ، الكانب الروائى  
 المسرحى الروسى ( ۱۸۱۸ - ۱۸۵۳ ) :  
 ۵۸  
 الترك . ۲۱۰  
 التركستان : ۱۰۴ ، ۱۵۵ ، ۱۸۰ ،  
 ۲۲۹ ، ۲۴۸  
 تركيا . ۱۱۲  
 تزده تشى ، الإمبراطورة الوالدة : ( ۱۸۳۴ -  
 ۱۹۰۸ ) : ۲۹۴ ، ۲۹۵  
 تزده كونج تلميذ كنفوشىوس ۴۸ ، ۴۹ ،  
 ۵۱ ، ۵۳ ، ۵۴  
 تزده لاي ۹۲  
 تزده لونج تلميذ كنفوشىوس ( ۵۰۰ ق م )  
 ۴۵ ، ۴۶ ، ۴۷ ، ۴۸ ، ۴۹ ، ۵۳ ،  
 ۵۴ ، ۵۶  
 تسوا العائد الصينى ( حوالى ۷۴۰ ) : ۱۳۱  
 تسى ، دوق ( انظر تشى )  
 تسى ، ولاية ( انظر تشى )  
 نسي لون مخترع البرق ( حوالى ۱۰۵ ) :  
 ۱۵۳ - ۱۵۴  
 تسيى ( انظر تشين )  
 تشانجان أونشانج آن : ۱۵۳ \*  
 تشانج هنج : ۲۵۳  
 التشريع عند الصينيين : ۲۵۳ ، ۲۵۴  
 تشنج ( انظر أسرة المنشو )  
 تشنج دار : ۱۰ \*  
 تشنج دزو الإمبراطور ( ۱۴۰۳ - ۱۴۲۵ )  
 ۱۸۳  
 تشنج رانج الإمبراطور : ۲۵۱  
 تشو ملكة : ۹۷

الجر : ٢٥٢ ، ٢٥٣  
جين ، إيمورد المؤرخ الإنجليزي ( ٦٧٣٧  
- ( ١٧٩٤ ) : ١٣٩  
جرانت ، مارسل . ١٠٤ \*  
جريشام ، قانون . ٢١٦  
الجزويت انظر البسوعيين  
الجزيرة أو أرض النهرين . ١٤  
الجعرافيا عبد الصينيين . ٢٥٢  
چف ، ا . السياسي الروسي ( المتوفى  
سنة ١٩٢٨ ) . ٣٠٢  
چج ، دوقية . ٢٠ ، ٢٩  
چجبر خان أو چنكين خان الفاتح التتاري  
( ١١٦٤ - ١٢٢٧ ) . ٢٢٣  
چج دا - جن : ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،  
٢٩١  
چج دزه أو ينج تسي ، نهر : ٢٩٢  
چنج دي الإمبراطور ( ١٤٥٠ - ١٤٥٧ )  
٢١٣  
خندار : ١٧٧  
چنوى . ٢١٩  
چو ، أسرة : ١٨ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ،  
١٤٢ ، ١٧٢ ، ١٩١ ، ٢٥٣ ، ٢٧٦  
چو ، دوق . ٢١ ، ٤٥ ، ٧٤ ، ٧٥ ،  
٨٣ ، ٢٥١  
چو ، ولاية : ١٨ ، ٣٨ ، ٧٢ ، ٧٥ ،  
٩٧ ، ١٢٥  
حوان حوتج كبير وزراء تشي : ١٩ ، ٢٠ ،  
٢٦٧  
جوانج تسو ، الإمبراطور ( ١٧٧٥ -  
١٩٠٥ ) . ٢٧٠ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٠  
جوانج دزه ، الفيلسوف الصيني ( ولد حواليه  
٣٧٠ ق . م ) : ٣٠ \* ، ١٩٦ ، ٢٦٠  
جوان ين ١٧٤

تيان هو : ١٢  
في درونج . ١٤١٠  
تيلر ، بروت : ١٣٧ \*  
تيمن الأثيني . ٨٩  
تين ، هوليت أدولف ، الناقد الفرنسى  
( ١٨٢٨ - ١٨٩٣ ) . ١٣٩٠  
تيتسن أو تيتشين أو تياننسين : ٢٢٥ ،  
٢٤٧ ، ٢٩٢

### ( ث )

ثاى بونج ، فينوس الصينيين . ١١٦  
الثروة عند الصينيين ١١١ وما بعدها ،  
٣١٥ ، ٣١٩  
الثانية الخالدون أصحاب الكأس . ١١٩  
الثورة الصناعية أو الانقلاب الصناعى . ٢٤٦  
٢٥٢ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩  
الثورة الصينية : ١٢ ، ٨٣ ، ٢٩٩ -  
٣٠١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ \* ، ٣١٥  
ثورة الملاكين : ١٥٩ ، ١٩١ ، ٢٨٢ \* ،  
٢٠٥  
ثوكبديس ، المؤرخ اليونانى ( حوالى  
٤٧١ - ٣٩٩ ق . م ) ١٣٩

### ( ج )

چاى . ٣٠٥  
جارندر مجموعة جاردنر فى بسطن : ١٧٦  
چان بنج السيامى الصينى ( حوالى ٥٠٠ ق . م )  
چانج تسانج العالم الرياضى الصينى ( المتوفى  
سنة ١٥٢ ق . م ) : ٢٥٢  
چانج چونج ننج : ٢٥٤  
چانج هنج العالم الفلكى الصينى : ٢٥١  
چانج ين - يوان ، مؤرخ الفن الصينى  
( القرن التاسع بعد الميلاد ) : ١٩٣  
چان سو  
چان يوان فانج الكاتب فى الطب : ٢٥٤

( ١٨٨٨ ) : وما بعدها ، ٣٠٩ ،  
 ٣١٢ ، ٣١٧ \*  
 چياه تشنج ، الإمبراطور ( ١٧٩٦ -  
 : ( ١٨٢ : ١٧ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٨١  
 چياه لنج ، نهر : ١٩٧  
 چياو چو : ٣٠٤  
 چيته ، چوهان ولفجانج فن ، الشاعر  
 والفيلسوف الألماني ( ١٧٤٩ - ١٨٣٢ )  
 ٩٥  
 چيدورفي . ٢١٦  
 چيل بلاس : ١٣٧  
 جيلز ، ا. ه. : عالم اللغة الصينية ( ١٨٤٦ -  
 - ( ١٩٣٥ ) : ١٠ \* ، ٣٠  
 جيپول : ٢٩٤

### ( ح )

الحدائق في الصين : ١٢  
 حديقة شجرة الكثرى : ١١٢ ، ١٤٢  
 حرب الأفيون الأولى : ٢٩٠ ، ٢٩١  
 حرب الأفيون الثانية : ٢٩٢  
 الحروب الصليبية : ٢١٠  
 الحريم عند الصينيين : ٢٦٩ ، ٢٧٠  
 الحكام الخمسة : ١٥ ، ١٦  
 الحكم الماسية : ١٥٥  
 الحكومة في الصين : ٢٧٧ وما بعدها .  
 حلم الغرفة الحمراء : ١٣٦  
 الحلل عند الصينيين : ١٦٨ ، ١٦٩  
 حوليات الأباطرة : ١٣٨  
 حوليات الربيع والخريف أو التشنو چنج : ٤٩  
 حوليات كتب الخيزران أو الغاب : ١٣٧

### ( خ )

خراسان : ٢١٩  
 الخزف الصيني : ٢٠٧ وما بعدها : ٢٥١  
 الخطأ : ٢١٧ انظر أيضاً الصين

جوني ، صحراء : ٢١٩ ، ٢٢٣  
 جوتاما ، انظر بوذا  
 جوتنبرج ، چوهان ، مخترع « الطباعة  
 ( ١٤٠٠ - ١٤٦٨ ) : ١٥٨  
 جودزو ، الإمبراطور ( ٢٠٦ - ١٩٤  
 ق.م ) ١٠٣  
 جودزو ، الإمبراطور ( ٦١٥ - ٦٢٧  
 ق.م ) : ١٠٩  
 جورج الثالث ملك بريطانيا ( ١٧٦٠ -  
 ١٨٢٠ ) : ٢٣٠  
 جورو . ٤٢٠  
 جوسين ، نيرون الصين ( ١١٥٤ -  
 ١١٢٣ ق.م ) : ١٨  
 چوشى الفيلسوف الكنفوشى ( ١١٣٠ -  
 ١٢٠٠ ) : ٥١ ، ٨٣ ، ١٥٠ ،  
 ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،  
 ١٩٤ ، ٢٦٢  
 چولى : ٢١  
 چون ، الأمير نائب الإمبراطور : ٣٠٠  
 چونج جوو أو الدولة الوسطى : ١٢ ، ١٦  
 چويج دزه . ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ،  
 ٩٠ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤  
 چونج دو : ٤٦  
 چونج سون لونج الحكيم الصينى ( حوالى  
 ٤٢٥ ق.م ) : ٧٢  
 چونج - هوا - مين - چوو الاسم الصينى  
 لبلاد الصين : ١٢  
 چوو دره إلى القائد الصينى ( حوالى ٧٥٥ ) :  
 ٧٠ ، ١٢٤  
 چوو شى المصور الصينى ( ولد حوالى ١١٠٠ )  
 ١٩٩  
 چوو كاي چى چه المعبود الصينى : ١٩٢  
 چوو كى المصور الصينى ( حوالى ٣٦٤ ) :  
 ١٩٣  
 چو يتنج فو : ٢٢٣  
 چيانج كاي شيك دكتاتور الصين السابق

الدين عند الصينيين ۲۵۶ وما بعدها : ۳۱۳  
ديو وي چون الفيلسوف الأزميكي : ۳۱۷

( ر )

يهت هارت ۲۸۷  
رسل ، برتراند ، إيرل : ۳۱۷  
رفائيل ، ستنزيو المصور الإيطالي ( ۱۴۸۳ -  
۱۵۲۰ ) : ۲۰۱ ، ۲۱۶  
الرقص عند الصينيين : ۱۴۲ ، ۱۴۵  
الرقيب في الصين : ۲۸  
ركفلر ، چون ، ۳۱۶ \*  
روسو ، جان بياك ، الفيلسوف الفرنسي  
( ۱۷۱۲ - ۱۷۷۸ ) : ۳۰ ، ۳۷ ،  
۳۸ ، ۸۶ ، ۹۴ ، ۲۰۶  
الروسيا : ۱۱ ، ۱۴ ، ۲۹۳ ، ۲۹۵ ،  
۲۹۶ ، ۳۰۶ ، ۳۰۲ ، ۳۰۹ ، ۳۱۳  
رومة والرومان ۱۱ ، ۹۸ ، ۱۸۷ ،  
۲۴۶ ، ۲۴۸ ، ۲۴۹ ، ۲۶۲  
الرياضيات عند الصينيين ۲۵۳ ، ۳۱۵

( ز )

الزراعة عند الصينيين : ۲۴۰ وما بعدها : ۳۵۲  
الزنا عند الصينيين ۲۶۷  
زندو : ۲۱۹ \*  
زهاي : ۱۲  
الرواح عند الصينيين : ۲۱۸ ، ۲۶۹ ، ۲۷۰  
۲۷۱ ، ۳۱۴  
زوما نشين المؤرخ الصيني ( ولد عام ۱۴۵  
ق . م ) ۲۹ ، ۳۰ ، ۳۸ ، ۹۷ ، ۱۰۴ )  
۱۳۵ ، ۱۳۸ ، ۱۳۹  
روما جوانج أوكوانج : ۱۳۹ ، ۱۵۱  
زينون : ۷۰

( س )

سان چو وچي يان إي : ۱۳۶

الخليج الفارسي : ۲۱۹

خو : ۸۷

خونان : ۲۱۹

خيان : ۸۲

( د )

دائرة المعارف البريطانية : ۱۱۲  
دارون ، تشارلس ربرت العالم الإنجليزي :  
( ۱۸۰۹ - ۱۸۸۱ ) : ۹۱  
الدا - شوه أو التعليم الأكبر : ۵۱  
داوتشين ، الشاعر الرواق : ۱۲۹  
دجلة : ۲۰۹  
دزائج - دزي : ۲۷۵  
دزو تشونج چي العالم الرياضي الصيني  
( ۴۳۰ - ۵۰۱ ) : ۱۲۲ ، ۲۵۲  
دزو جوان : ۱۳۷ ، ۱۴۵  
دزونج تسان من تلاميذ كنفوشيوس ( حوالى  
۴۹۰ ق . م ) : ۵۱  
دمشق : ۲۰۹  
الدمنيك : ۲۶۴  
دنيج دوق لو ( حوالى ۵۰۰ ق . م ) : ۴۶  
اللو والدى : ۳۰ ، ۳۳ ، ۳۶ ، ۸۸ ،  
۹۰ ، ۲۵۷  
دودي چنج : ۳۰ \* ، ۳۱ ، ۳۸  
دور الكتب في الصين : ۱۰۱ ، ۱۰۴ ،  
۱۵۲  
دو فو الشاء الصيني ( ۷۱۲ - ۷۷۰ ) :  
۱۱۸ ، ۱۲۸ ، ۱۲۹ ، ۱۳۰ ، ۱۳۱ ،  
۱۳۳ ، ۱۹۳  
دو هونج چنج الكاتب الصيني ( القرن  
السادس ) : ۲۵۴  
الدوية ( يكتبها بعضهم الطاوية ) : ۳۱ ، ۳۰ ،  
۶۶ ، ۸۹ ، ۹۴ \* ، ۱۶۰ ، ۱۸۱ ،  
۱۹۴ ، ۲۶۰ ، ۲۶۱ ، ۲۶۲ ، ۲۶۳  
ديدرو ، ديش ، العالم الفرنسي ( ۱۷۱۳ -  
۱۷۸۴ ) : ۹۰

(ش)

- شان ولاية : ٧٤  
 شان تونج أو شان دونج : ١٩ ، ١٣٢ ،  
 ١٦١ ، ١٧٦ ، ٢٩٣  
 شانج أسرة : ١٧ ، ٢٤ ، ٦٠ ، ١٧١ ،  
 ٢٣٦ ، ٢٠٩  
 شانج ولاية : ٧٥  
 شانجان : ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ،  
 ١١٩ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،  
 شانجتو : ٢١١ ، ٢٢٢  
 شانج - قى أى القوة العليا : ٢٥٩  
 شانج چو : ٧٤  
 شانسى : ١٩ ، ١٧٧  
 شباب حديقة شجر الكثرى : ١٤٢  
 شتوبريان ، فرنسوا أوجست ، فيكونت  
 الأديب الفرنسى ( ١٧٦٨ - ١٨٤٨ ) :  
 ٢٠٦  
 الشق الأدنى : ٢٠٩ ، ٢١٢  
 الشق الأقصى : ١ ، ١٩ ، ٦٦ ، ١٢٦ ،  
 ١٥٧ ، ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٨٨ ، ١٩٦ ،  
 ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٢ ،  
 الشمر عند الصينيين : ٢٤ - ٢٦ ،  
 ١١٥ - ١٢٨  
 الشنج ، أسرة ( انظر أيضاً المنشو ) : ٢٢٩  
 شن تزوقج إمبراطور الصين : ( ١٥٧٣ -  
 ١٦٢٠ ) : ٢١١  
 شن سى ولاية : ١٩ ، ١٧٧  
 شنغهاى : ٢٤٧ ، ٢٩١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ،  
 ٣٠٩  
 شنكيانج : ٢٩٠  
 شن فونج ، الإمبراطور ( ٢٨٣٧ -  
 ٢٦٩٧ ق.م ) : ١٥  
 الشووات الأربعة : ٢٥٠  
 شوان ملك تشى : ٨٢ ، ٨٣

- السترا الماسية ، انظر الحكم الماسية  
 السجل التاريخى . ١٣٨  
 سترمن رأى : ٢٠٩  
 سنسوان : ١٢٦ ، ١٩٧ ، ٦٠ ،  
 السفن وصاعتها فى الصين : ٢٥١  
 سقراط الفيلسوف اليونانى : ( ٤٦٩ - ٣٩٩  
 ق.م ) ٣٧ ، ٤١  
 السكان وعددهم فى الصين : ٢٣٢ ، ٣١٥  
 الكوديون : ١٤  
 سليمان الرحالة المسلم : ٢٠٩  
 سمرقند : ١١٢  
 السنج ، أسرة . ٢٢٨  
 سن جيانج أو سن كيانج : ٢٨١  
 السنسكريتية ، اللغة : ١٥٤  
 سن تونج . ١٥  
 السور العظيم : ٣٤٨  
 السوس : ١٤  
 السوفيت : ٣٠٢  
 سومر : ١٣  
 سومطرة : ٢٥١  
 سون ليوسو : ١٨١  
 سونج ، أسرة : ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،  
 ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ،  
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٩ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ،  
 ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٤ ،  
 ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤  
 سونج الرقيب الصينى ( حوالى ١٨٠٠ ) :  
 ٢٨١  
 سونج ولاية : ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٦  
 سونج كانبج داعية السلام الصينى ( حوالى  
 ٣٢٠ ق.م ) : ٨١  
 سون شان ، جبل : ١٨١  
 سون شو . ٢٥١  
 سى آن فو أو سيان فو : ١٠٣ \*  
 سيبيريا . ١٣٠



صناعة الخزف عند الصينيين : ٢٠٧ وما بعدها  
صناعة الورق عند الصينيين : ١٥٢ وما بعدها  
صولون : ٢٣  
صون يات صن أو شون لون رئيس الجمهورية  
الصينية السابق ( ١٨٦٦ - ١٩٢٥ ) :  
٢٩٨ وما بعدها ، ٣٠١ ، ٣٠٣  
الصين ٩٠ - ١٤ ، ١٧ - ١٩ ، ٢٣ ،  
٢٥ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٧ ،  
٧٤ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٣ -  
١٠٠ ، ١٠٣ - ١١٢ ، ١١٩ ،  
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،  
١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٦ ،  
١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٥ ،  
١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ،  
١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،  
١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ،  
٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، \*  
٢٢٠ ، ٢٢٢ - ٢٣٨ ، ٢٤٠ ،  
٢٤٢ - ٢٤٨ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ،  
٢٥٤ - ٢٥٩ ، ٢٦٢ - ٢٦٥ ،  
٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،  
٢٨٠ - ٢٨٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ -  
٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،  
٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ،  
٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩

( ض )

الضرائب في الصين : ١٠٣ ، ٣٠٨ ،  
٣١٠ ، ٣١٨

( ط )

الطب عند الصينيين : ٢٥٣ وما بعدها : ٣١٥  
الطباعة عند الصينيين : ١٥٢ وما بعدها : ٢٥١  
الطبيعة ( علم ) عند الصينيين : ٢٥٣  
طريزون . ٢٢٧  
طعام الصينيين : ٢٤٢

شونج : ١٠٠ ، ١٣٧  
شوشنج السيامي الصيني المتطرف ( حوالى  
٣٠٠ ق.م ) : ١٨  
شون ، الإمبراطور ( ٣٢٥٥ - ٢٢٠٥  
ق.م ) ١٧ ، ٤٤ ، ٤٤ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٩ ،  
شون دزه ، ٧٠ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،  
٨٨  
شون دزو رسول الشر ( ٣٠٥ - ٣٣٥  
ق.م ) : ٦٨  
شى آن دزونج الإمبراطور ( ٨٠٦ - ٨٢١ )  
٢٤٩  
شى آن فنج إمبراطور الصين ( ١٨٥١ -  
١٨٦٣ ) : ٢٩٤  
شيا هـ ٢٠٣  
شى چنج : ١٠٠  
شى شه : ٩١ \*  
شيكسبير . ٨٩ \*  
شيه حواى : ٢٠٠  
شين ، أسرة ٢٤٩  
شين دزونج : ٢٤٩  
شين لونج : ٢٣٠  
شين هوانج دى ، الإمبراطور ( ٢٢١ -  
٢١١ ق.م ) : ٦٦ ، ٧٢ ، ٩٦ ، ٩٧ ،  
٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،  
١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٧ ،  
٢٥٥

شيو دزاي : ١٠٠

شيو فنج نو : ١٠٧

( ص )

صقلية . ٢٤٤  
صلاح الدين الأيوبي : ( ١١٣٧ - ١١٩٣ )  
٢٠٩  
الصناعة عند الصينيين : ٢٤٤ وما بعدها :  
٣١٥ ، ٢٥٥

الفيلين ، جزائر : ٢٨٩ ، ٢٩٣  
 فلتير ، فرنسوا ماري أرويه ده ، الكاتب  
 الفرنسي ( ١٦٠٤ - ١٧٧٨ ) : \* ٩٠٩ ،  
 ٧٨ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٧٧  
 الفلسفة الصينية : ٢٦ - ٢٩ ، ٣٠ -  
 ٤٠ ، ٤١ - ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ -  
 ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ -  
 ٧٧ ، ٨٠ - ٩٥ ، ١٥٩ - ١٦٥ ،  
 ٢٥٦ - ٢٦٣ ، ٣١٦  
 الملك عند الصينيين : ٢٥٣  
 الفن عند الصينيين : ١٨٨ وما بعدها ٣١١  
 فننج دو السياسي الصيني ونصير الطباعة  
 ( حوالى ٩٣٢ م ) : ١٥٦ ، ١٥٨  
 فننج شيانج ١٤٠  
 فنشى ، لورنزو دا ، الفنان الإيطالى  
 ( ١٤٥١ - ١٥١٩ ) : ٢٠١  
 فنولوزا ، إيرنست : ٢٠١  
 فوتشو : ٢٩٠  
 فوشوان الشاعر الصيني : ٢٧٣  
 فوشى ، إمبراطور الصين الأسطوري ( ٢٨٥٢  
 ٢٧٣٧ ق.م ؟ ) : ١٥ ، ٢٧ ، ١٤٥  
 فننج دو السياسي الصيني ونصير الطباعة  
 ( حوالى ٩٣٢ ) : ١٥٦ ، ١٥٧  
 فيثاغورس ، الفيلسوف اليونانى ( القرن  
 السادس ق.م ) : ٢٤

### (ق)

القاعدة الذهبية : ٥٨  
 القانون عند الصينيين : ٢٠ - ٢١ ، ٢٧٩  
 القانونيون ، أو المشترعون الصينيون ٦٥ -  
 ٦٦  
 القسطنطينية : ٢٤٤  
 قصة ، حواشى الماء : ١٣٦  
 قصر الصيف : ١٨٠ ، ٢٤٧ ، ٢٩٢  
 القصص الصيني : ١٣٥ ، ١٣٦

للطلاق عند الصينيين . ٢٧١ ، ٣١٤ \*  
 وما بعدها  
 الطهو عند الصينيين : ٢٤٢

### (ع)

عامور ٢٢٨ ، ٢٩٢  
 عبادة الأسلاف عند الصينيين : ٢٥٧ ، ٣١٢  
 العرب ، وبلاد العرب : ٢٥٣ ، ١٧٠ ،  
 ٢٥٠ ، ٢٥١  
 العشاء الأخير ( دافنشى ) : ١٩٦  
 العقاب عند الصينيين : ٢٧٩  
 عقيدة الوسط أو چونج يونج : ٥١ ، ٦١  
 عكا : ٢١٩  
 علم الصحة عند الصينيين : ٢٥٤ ، ٢٥٥  
 علم ما وراء الطبيعة عند الصينيين : ١٦٠  
 العلوم الطبيعية عند الصينيين : ٢٥٠ -  
 ٢٥٥ ، ٣١٥

### (غ)

غبرقى ، لورنزو المثال الإيطالى ( ١٣٧٥ -  
 ١٤٥٥ ) : ١٧٣

### (ف)

فارس : ٣٨ ، ١١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ،  
 ٢٤٨  
 فرجسون ، المهندس الممارى الاسكتلندى  
 الإحصائى فى الهندسة التاريخية ( ١٨٠٨  
 ١٨٨٦ ) : ١٨٠  
 فردريك الثانى ، الأكبر ملك بروسيا  
 ( ١٧١٢ - ١٧٨٦ ) : ٩٤  
 الفرس : ٢١١  
 فرساي : ٢١٣  
 فرموزا : ٢٨٩ ، ٢٩٣  
 فرنسا : ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣١١  
 الفرنسيسكان : ٢٤٦

كرخان ، ليو ، السياسى الروسى ٣٠٢  
 الكرنك : ١٨٧  
 كروس ، بندقو : ١٩٧ \*  
 كليافو . ٢١٦  
 كل الناس لإحوة : ١٣٦  
 كلود لورين . ٢٠٦  
 كبلوك : ٢٥٠ ، ٢٢٢ ، انظر أيضاً بينج  
 كنشكا ملك الكوشان ( حوالى ١٢٠ ) :  
 ٢٦١  
 كنفوشيوس : ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ،  
 ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ،  
 ٣٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،  
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،  
 ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،  
 ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ،  
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ،  
 ٨٣ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،  
 ١٠١ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٤١ ،  
 ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،  
 ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٢ ،  
 ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،  
 ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ،  
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣١١ ،  
 ٣١٧ ، ٣١٥  
 الكنفوشية الجديدة : ٦٦  
 كهف ألف بوذا  
 كوبلاى خان ، إمبراطور الصين : ( ١٢٦٩  
 - ١٢٩٥ ) : ١٤٢ ، ١٨٣ ، ٢٢٠ ،  
 ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،  
 ٢٢٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٧ ،  
 كوريا : ١٠٤ ، ١١٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،  
 ٢٢٩ ، ٢٥٠  
 كولردج ، صمويل تيلر ، الشاعر والناقد  
 الإنجليزى ( ١٧٧٢ - ١٨٢٤ ) : ٢١٩  
 كوليس المستكشف الإيطالى ( ١٤٥١ -  
 ١٥٠٦ ) : ٢٨٩

قصص عجيبة : ١٣٦  
 القناة العظمى ( بين تيانسين وهنج تشاو ) :  
 ٢٢٥ ، ٢٤٧

### ( ك )

الكاتب فى الصين : ١٨٩ \*  
 كائى ، انظر الخصا  
 الكانوليك : ٢٦٤ \*  
 كارليل : ١٣٩  
 كاشغار أو قشغر : ٢١٩  
 كانت عمانويل الفيلسوف الألمانى : ( ١٧٢٤  
 ١٨٠٥ ) : ٥٨  
 كانتون : ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٥١ ، ٢٨٩ ،  
 ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ،  
 ٣٠٥  
 كانج شى الإمبراطور ( ١٦٢٢ - ١٧٢٢ )  
 ١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،  
 ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٦٤ \*  
 كانسو : ٢٠٨  
 كايا كويد العالم الصينى ( القرن الأول  
 الميلادى ) : ٥١  
 كتاب الاحتفالات : ٢٠ ، ٤١ ، ٢٧٥ ،  
 كتاب الأناشيد أو الأغاني أو الشى چنج  
 ١٩ ، ٢٤ ، ٤٩ ، ٦٠ ،  
 كتاب التاريخ أو الشوجنج : ١٦ ، ٥٠ ،  
 ١٣٧  
 كتاب التغيرات أو الإي چى : ٢٥ ، ٢٧ ،  
 ٢٨ ، ٤٩ ، ١٦١ ،  
 كتاب الحكم المسية : ١٥٥  
 كتاب الطريقة والفضيلة : ٣٠  
 كتاب الطقوس أو المراسم ، التى چى ،  
 ٤٩  
 كتاب اللياتزه أو الليه دزه : ٢٩ ، ٥٤ ،  
 كتاب ملشيش : ٥١ ، ٧٧  
 الكتابة عند الصينيين : ١٨٨ ، ٢٣٧ -  
 ٢٣٩ ، ٢١٦

لو ، ولاية : ٤٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧  
 ١٢٢ ، ٤٧  
 لو دزه الحكيم الصيني ( ٦٠٤ - ٦٥٧  
 ق.م ) : ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧  
 ٣٨ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ١٧٥ ،  
 ٢٦١ ، ٢٦٠  
 لو شي يو فو البطل الصيني ( المتوفى عام  
 ١٢٦٠ م ) : ٢٢٥  
 لويج من : ١٧٧  
 لون بو : ٥  
 لو هان : ١٩٩ ، ٢٦٢  
 لويانج : ٢٢ ، ٢٨ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ١٠٥ ،  
 ١٩١ ، ١٩٦  
 لويس الرابع عشر ملك فرنسا : ٢١٣ ،  
 ٢٢٩  
 لي اسم لو دزه الحقيقي : ٣٠ ، ١١٥ ،  
 ١١٦  
 لي المصورة الأسطورية : ١٨٩  
 ليانتنج ، جزيرة : ٢٩٢  
 ليانج كاي المصور الصيني ( حوالى ٧٥٠  
 ق.م ) : ٢٠١  
 لبيزج : ٩٥  
 ليينتز ، جتفرايد وطم بارون فن ، الفيلسوف  
 والعالم الرياضى الألماني ( ١٦٤٦ -  
 ١٧١٦ ) : ٩٣ ، ٩٤ ، ٢٣٩  
 لي يو : ٢٠٤  
 لي يو الشاعر الصيني ( ٧٠٤ - ٧٦٢ ) :  
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٤ ،  
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٤ ،  
 ١٣٥  
 لي شي أو كتاب المراسم : ١٤٩  
 لي وجي أى القانون والمادة : ١٦١  
 لي سوشون المصور الصيني ( ٦٥١ -  
 ٦١٧ ق.م ) : ١٩٥

كونج ، أسرة : ٤٠  
 كونج شي الحكيم الصيني ، تلميذ كنفوشيوس  
 ( حوالى ٤٧٠ ق.م ) : ٥٩  
 كونج درفو ، السياسي الصيني (حوالى ١٠٣١)  
 ١٤٢ ، ١٤٣  
 كونج شي ، انظر كنفوشيوس .  
 كونج فود زه ، انظر كنفوشيوس  
 كيتانز : ١٤٢ - ١٤٣  
 كيتس ، چون ، الشاعر الإنجليزي (١٧٩٥  
 - ١٨٢١) : ١٢٩  
 كيسر لنج ، كونت هيرمن : ٩  
 كى كانج تلميذ كنفوشيوس ( حوالى ٥٠٠  
 ق.م ) : ٩١  
 كى لو تلميذ كنفوشيوس (حوالى ٥٠٠ ق.م)  
 ٥٤  
 كيو لو : ١٩٦

### ( ل )

لا ثورت . ك. س : ٢٨٦  
 لاندر ، ولتر سديج ، الأديب الإنجليزي  
 ( ١٧٧٥ - ١٨٦٤ ) .  
 لبنان : ٢١٩  
 ليج ، جيمس ، المستشرق الإنجليزي (١٨١٥-  
 ١٨٩٧ ) : ٣٠ ، ٥١  
 اللجنة الطبية الصينية : ٣١٧  
 اللغة الصينية : ٢٣ ، ٢٣٥ - ٣٣٩  
 اللك وصناعته : ١٦٨ وما بعدها .  
 لن تزو شو : ٢٩٠  
 لنج جار السيدة الصينية البوذية المتصوفة  
 ٢٠١ . ( القرن الثامن )  
 لندن ١٠٩ ، ١٩٩  
 لو الإمبراطور ( ١٩٥ - ١٨٠ ق.م ) :  
 ٢٧١  
 لو والد شي هوانج دي ( حوالى : ٢٢٢  
 ق.م ) : ٩٧

مانجو ، خان المغول الأعظم ( ١٢٥٠ -  
 ١٢٥٩ ) : ٢٢٣  
 ماهايانا . ١٦٢ ، ١٧٧ ، ٢٥١  
 ماى لان فانج ، الممثل الصينى ( القرن  
 العشرون ) : ١٤٤٠  
 مايوآن ، المصور الصينى ( حوالى ١٢٠٠ )  
 ٢٠٠  
 المتحف الأهلئ بباريس : ١٧٩  
 المتحف البريطانى : \* ١٩٣ ، \* ١٩٦  
 متحف الفن الجميل فى بسطن : \* ١٩٨ ، \* ٢٠٠  
 المتحف الفنى بنيويورك : \* ١٧٧  
 متحف واشنطن : \* ١٩٣ ، \* ١٩٦  
 ( ١٤٤٧ - ١٤٩٢ ) : ٢١٠  
 المرأة أو النساء فى الصين : ٢٦٩ ، ٢٧٠  
 ٣١٤ ، ٣١٥  
 مردك ، جيمس : ١١٢  
 مسكو : ٩٤  
 المسيح : ١٣٨ ، ٣٧ ، ٣٥ ، ٢٠٩ ، \* ١٨٩  
 ٢٥٤ ، ٢٥٢ ، ٢٤٥ ، ٢٤٤  
 المسيحية : ٣٠ ، ٦٧ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ،  
 ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،  
 ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٢  
 مصر والمصريون : ١٣ ، ٩٨ ، ١٥٣ ،  
 ٢٠٩ ، \* ٢١٠  
 المطالب الواحدة والعشرون : ٣٠٤  
 المغول : ١٣٥ ، ١٤٣ ، ١٧٨ ، ٢١٢ ،  
 \* ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ،  
 ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٧ ، ٢٢٩  
 المقالات الصينية : ١٣٩ وما بعدها  
 مكار : ٢٨٩  
 المكتبة الأهلية بباريس : ٢٣٠  
 المكسيك : ١٧١  
 الملابس عند الصينيين ٣٣٤ وما بعدها ،  
 ٣١١  
 الملايو ، شبه جزيرة : ٢٢٧ ، ٢٨٩ ، ٢٤٨  
 ملتن ، جون ، الشاعر الإنجليزى ( ١٦٠٨ )  
 ( ١٦٨٤ ) : ١٢٦ ، ١٢٧

لى سيو السياسى الصينى ( حوالى ٢١٥  
 ق.م ) : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٣  
 لى شى ( انظر كتاب الاحتفالات )  
 لى لنيج ، أمير يونج ( حوالى ٧٥٦ ) : ١٢٣  
 ١٢٤  
 لى لونج من ، المصور الصينى ( ١٠٤٠ -  
 ١١٠٦ ) : ١٩٩  
 لين دزو شو ، السياسى الصينى ( ١٨٣٨ ) :  
 ٢٩٠  
 لينان أولين آن ( هانج تشاو ) : ١٥٢  
 ليه دزه : ٢٩ ، ١٩٦  
 لى هو جو ، الإمبراطور ( حوالى ٩٧٠ ) :  
 ٢٣٤  
 لى هونج جانج السياسى الصينى ( ١٨٢٣ -  
 ٢٩٩ ) : ١٥٨ ، ٢٩٩  
 ليو : ١٠٧  
 ليو بولد الأول إمبراطور الدولة الرومانية  
 المقدسة ( ١٦٥٨ - ١٧٠٥ ) : ١٧٠  
 ليو جى جى لى : ١٣٦  
 ليو لنيج : ١١٩  
 ليوناردو دافنشى : ٢٠١  
 لى يه لى المصور الصينى ( القرن الأول ) :  
 ١٩١  
 لى يو : ١١١

( م )

مافيو : ١٤  
 ماكارتي ، جورج إيرل ماكارتنى السياسى  
 البريطانى ( ١٧٣٧ - ١٨٠٦ ) :  
 ٢٣٠  
 ماكارتنى ، بعثة : ٢٣٠ ، ٢٣١  
 المالية فى الصين : ٢٤٩ ، ٢٥٠  
 مانج ، أسرة : ٧٧  
 مانج دزه ، مانج كو ، انظر منشيس  
 مانج هى السياسى الصينى ( حوالى ٥٠٠  
 ق.م ) : ٤٥

ميديشي ، أسرة ٢٠١ ، ٢٧١  
 ميديشي ، لورنزو سياسي فلورنس وشاعرها  
 م، فاي المصور الصيني (١٠٥١-١١٠٧)  
 ١٩٩  
 ميكال أنچو ، (لوفاترق) الفنان الإيطالي  
 ٢٠١ : (١٤٧٤ - ١٥٦٤)

( ن )

ناپليون الأول : ٩٨  
 نارة أو ناراً ، مدينة : ١٧٣ ، ٢١٢  
 نانج : ٢١٢  
 نانچنج أو نانكنج : ٤٠ ، ١٤٣ ، ١٨٦ ،  
 ١٨٧ ، ٢٢٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٣  
 نانكنج ، حكومة : ٣٠٣ ، ٣٠٥  
 نانكنج معاهدة : ٢٩٠ ، ٢٩١  
 نتشه ، فردريك ولهم الفيلسوف الألماني  
 ( ١٨٤١ - ١٩٠٠ ) : ٧٢ ، ٩٨ ،  
 ١٤٦ ، ٣١٤  
 النحت عند الصينيين : ١٧٥ ، ١٧٨  
 النسطورية والنساطرة : ١١٠ ، ٢٤٤ \* ،  
 ٢٦٤  
 النسيج عند الصينيين : ٢٤٤ ، ٢٤٥  
 النظام العشري في الأعداد : ٢٥٢  
 النقابات : ٢٤٦ ، ٣٠٨  
 النقد عند الصينيين : ٢٤٩ وما بعدها  
 النقش في المعادن عند الصينيين : ١٧١ ، ١٧٥  
 النقش المنخفض عند الصينيين : ١٧٥ ، ١٧٦  
 النقل عند الصينيين : ٢٤٧ ، ٢٤٨  
 ننجيو : ٢٩٠  
 ننج دزونج لإمبراطور الصين (حوالي ١٢١٢)  
 النهر الأصفر ( انظر هوانج هو ) : ١٢  
 نوما : ٢٣  
 نيويورك : ١١١

حلقا ، جزائر : ٢٨٩  
 المملكة أو الدولة الزاهرة الوسطى : ٢١٢  
 ملكة السماء أو المملكة السماوية : \*٢٨٠  
 ملكة الشعب الزاهرة الوسطى : ١٢  
 المملكة الوسطى : ٦٩  
 منت مارتر : ١٩٥  
 منتج ، أسرة : ٨٣ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ،  
 ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،  
 ٢٢٨ ، ٢٥٤  
 منتج ليانج : ١٣١  
 منتج هوانج ، إمبراطور الصين ( ٧١٣ -  
 ٧٥٦ ) : ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢١ ،  
 ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ،  
 ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٦٧  
 مندرين ( لهجة ) : ٣١٦  
 المشو ( أسرة ) : ٦٦ ، ١٧٠ ، ٢١٣ ،  
 ٢١٤ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،  
 ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٩١ ، ٣٠١  
 منشوريا : ١٠٤ ، ٢٢٩ ، \*٣٠٠ ،  
 ٣٠٤ ، ٣٠٤  
 منشوكو ( انظر أيضاً منشوريا ) : ٢٢٨ ،  
 \*٣٠٠ ، ٣٠٤  
 منثيس الفيلسوف الصيني ( ٣٧٢ -  
 ٢٨٩ ق.م ) : ٢١ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٧٠ ،  
 ٨٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،  
 ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٥ ،  
 ١٠٠  
 منغوليا : ١٣ ، ١٤ ، ٢٨١  
 مونشي ، المصور الصيني ( القرن العاشر  
 الميلادي ) : ٢٠١  
 مودى ، فيلسوف الحب العالمي ( حوالى  
 ٤٥٠ ق.م ) : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،  
 ٨٦ ، ١٥٢  
 مؤسسة ركفلر للبحوث الطبية : \*٣١٦  
 الموسيقى عند الصينيين ١٤٥ وما بعدها ،  
 ٣١١

٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٨٩

٢٩٢

الهدم الصينية : ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٢٩٣ .

الهندسة عند الصينيين . ٢٥٢ ، ٢٥٣

الهندسة النظرية عند الصينيين : ٢٥٢

هنولولو : ٢٩٨

هوادو الكاتب الصيني المتطرف ( القرن

الثالث ) : ٢٥٤

هوان دوق تشي ( ٦٨٥ - ٦٤٣ ق.م ) :

٢٠

هوانج إى الإمبراطور النانه ( ٧١٣ -

٧٥٦ ) : ١١٢

هوانج تونج : ١٤٠

هوانج دى الإمبراطور ( ٥٦٩٧ -

٢٥٩٧ ق.م ) : ١٥ ، ٤٠

هوانج هو ، نهر : ١٢ ، ١٧ ، ١٩٩ ، \*

٢٤٣

هو جوان : ٢٩٥

هو چى جانج السياسى الصينى ( حوالى

٧٢٥ ، ١١٥

هو دزه الفيلسوف الصينى ( القرن الثالث ) :

٧٠

هو دزونج ، الإمبراطور ( ١١٠١ -

١١٢١ ) . ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،

٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦

٢٧٦

هو شى الأديب المصلح ( ١٨٩١ ) . ٣١٦

٣١٧

الهولنديون : ٢٨٩

هوميروس أو هومر : ١٢٦

الطون : ٩٨

هون : ١٣٤

هوتان : ١٩ ، ١٠٣ ، \* ١٢٧ ، ٢٠٨ ،

٢٣٦ ، ٣٠٢

هونج چانج : ٢٩٤

( ٥ )

هارت ، سير ربرت ، السياسى الأيدلدى

فى الصين ( ١٨٣٥ - ١٩١١ ) \* ٢٨٧

هال جامعة : ٩٤

هان ، أسرة : ٦٦ ، ١٠٣ ، ١٠٧ ، ١٠٩

١٣٧ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٠٩ ، ٢٤٨

٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٨٤

هان ، أسرة هان الشرقية : ١٠٣ \*

هان ، أسرة هان الغربية : ١٠٣ \*

هان ، ولاية . ٩٧

هانج تشاو : ١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٥

٢٤٧ ، ٢٩٧

هانج هى : ٤٥

هان فى الناقد وكاتب المقالات الصينى ( توفى

٢٣٣ ق.م : ٣٠ ، \* ٧٢

هان كان الفنان الصينى ( حوالى ٧٣٠ م )

٢٠٤

هان يوكاتب المقالات الصينى ( ٧٦٨ -

٨٢٤ ) : ١٣٥ ، ١٣٩ ، ١٤١ ،

١٤٦ ، ١٩٤

هاواى : ٢٩٨

هاوشى چى أو الفنان الخزاف الصينى

( حوالى ١٦٠٠ م ) : ٢١١ ، ٢١٢

هيز ، الفيلسوف الإنجليزى ( ١٥٨٨ -

١٦٧٩ ) : ٨٤

هرموديوس الوطنى الأثينى ( حوالى ٥٢٥

ق.م ) : ٢١

هريوچى هيكل : ١٧٣

هكوجا : ٢٧٤ \*

هلال الكاهن اليهودى التلمودى ( حوالى

١١٠ ق.م ) : ٥٨

هنج كنج : ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣٠٠

الهند : ١٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١١٠ ، ١٧٠ ،

١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣

ون تیان شانج العالم الوطنى الصينى ( حوالى  
١٢٦٠م ) : ٢٢٤  
ون دى الإمبراطور ( ١٧٩ - ١٥٧ ق.م ) :  
١٠٣  
ونلارس : ٢٣٩  
ون وانج ، الإمبراطور ( حوالى ١٢٢٣  
ق.م ) : ٢٧  
وو دای شان : ١٨١  
وو دو دزه المصور الصينى ( ولد حوالى  
١٠٠٠م ) : ١٩٦ ، ١٩٧  
وو دى الإمبراطور ( ١٤٠ - ٥٧ ق.م ) :  
٢٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،  
٢٤٩

وو سونج : ٢٤٧  
وو شو العالم الصينى ( ٩٤٧ - ١٠٠٣م ) :  
١٥٩  
رولى : ١٧  
وو وای شان : ١٨١  
ويلى . آرثر : \* ١١٢ ، \* ١١٣ ، \* ١٣٠ .  
ويه دوق : ٨٧  
ويه ، نهر : ٢٩  
ويه ، ولاية : ٧٤ ، ٩٧

### ( ى )

اليابان : ٢١ ، ٦٦ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ،  
١٧٠ ، ١٧٣ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ،  
\* ٢١٢ ، \* ٢٨٢ ، \* ٢٩٣ ، \* ٢٩٤ ، \* ٢٩٥ ،  
٢٩٦ ، \* ٣٠٠ ، \* ٣٠٣ ، \* ٣٠٤ ، \* ٣٠٥ ،  
\* ٣٠٨ ، \* ٣١٧ ،  
اليابانى ، واليابانيون : ١١ ، ١٦٨  
يانج نجو ، الفيلسوف الصينى الايتيمورى  
( حوالى ٣٩٠ ق.م ) : ٧٣  
يالنج چوچنج : ١١٣ ، ١٢١  
يانج چوى فى ( المتوفاه حوالى ٧٥٥ ) :  
١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٤ ،  
١٣١

هونج دو ، الإمبراطور ( ١٣٨٦ -  
١٣٩٩ ) : ٨٣  
هونج سيوتشوان رعيم نابينج ( توفى عام  
١٨٦٤ ) : ٢٩١  
هوى دزونج الإمبراطور ( ١١٠١ -  
١١٢٤م ) : ١٥٢  
هيجل : ٣٤  
هيرودوت : ١٢٤  
هيكال بوذا النائم : ١٨٠  
هين يانج : ٩٩  
هيوم : ٢٠٥  
هيونج و ، انظر زيونج نو

### ( و )

وانج آن شى السياسى . الصينى الاشتراكى  
النزعة ( حوالى ١١٧٠ ) : ١٤٧ ، ١٤٨ ،  
١٥٠ ، ١٥١  
وانج چيه الطابع الصينى ( حوالى ٨٦٨ ) :  
١٥٥  
وانج شو - هو الكاتب الصينى فى الطب  
( حوالى ٣٠٠ ) : ٢٥٤  
وانج شى چسى ، الإمبراطور ( ٥ - ٢٥م )  
١٨٩  
وانج مانج الإمبراطور ١٠٦٠ ، ١٠٧٠ ،  
١٤٨  
وانج ويه أو وای المصور الصينى ( ٦٩٩ -  
٧٥٩ ) : ١٩٥ ، ١٩٦  
وانج يانج مينج للفيلسوف الصينى ( ١٤٧١ -  
١٥٢٨ ) : ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،  
١٦٤ ، ١٩٤  
وان لى ٢١١ انظر أيضاً شن دزونج  
واى شنج : ٢٦٨  
وردسورث ، ولیم الشاعر الإنجليزى  
( ١٧٧٠ - ١٨٥٠ ) : ٢٠٦  
ولتر سفدج لاندر الأديب الإنجليزى :  
( ١٧٧٥ - ١٨٦٤ ) : ٧٩



- يانج دزه (نهر) : ١٢ ، ٢٠٠  
يانج هو : ٧٥  
يان هوى تلميذ كنفوشيوس ( حوالى ٥٠٠ ق.م ) : ٤٢  
اليانج ولين : ٢٥ ، ٢٧ ، ١٦١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧  
اليسوعبون (الجزويت) : ٢٢٩ ، ٢٦٤  
ينج چو : ٧٥ ، ٧٦  
ين شى : ٣٠  
ين لى المصور ( القرن السابع الميلادى ) : ١٩٠  
اليهود ، بلاد : ١١ ، ٢٨  
يو الإمبراطورى (٢٣٥٦ - ٢٢٥٥ ق.م) :  
١٦ ، ١٧ ، ٤٤ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٨٨  
يو الإمبراطور (٢٢٠٥ - ٢١٩٧ ق.م) :  
١٧٢ ، ١٧٥
- يوآن ، أسرة ، انظر المغول ، أسرة ،  
٢١٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧  
يو آن چوانج ، الرحالة الصينى فى الهنا  
( القرن السابع ) : ١١٠  
يوان شى كاي ، رئيس الجمهورية الصينية  
( ١٨٤٥ - ١٩١٦ ) : ٣٠٤  
يو دزه الفيلسوف الصينى ( حوالى ١٢٥٠ ق.م ) : ٢٥  
يوم الحساب ، تصوير ميكلا أنجلو : ١٩٦  
اليونان ، بلاد : ١١ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ١٣٥  
يونج لو الإمبراطور : ٢٢٨  
يونج لو ، إمبراطور الصين ( ١٤٠٣ -  
١٤٢٥ ) : ١٥٩  
يون كان : ١٧٧  
يون من : ١٧٧